بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله : ﴿ الٓمٓ . ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ هذه السورة مدنية بإجماع. وحكى النقاش أن آسمها في التوراة طَيْبة، وقرأ الحسن وعمرو بن عُبَيْد وعاصم بن أبي النَّجُود وأبو جعفر الرُّؤاسِيّ[1] «الٓمٓ . أللهُ» بقطع ألف الوصل، على تقدير الوقف على « الٓمٓ » كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد في نحو واحد، إثنان ، ثلاثة، أربعة ، وهم واصلون . قال الأخفش سعيد : ويجوز « الٓمِ الله » بكسر الميم لٱلتقاء الساكنين . قال الزجاج : هذا خطأ، ولا تقوله العرب لثقله . قال النحاس : القراءة [الأولى][2] قراءة العامّة ، وقد تكلم فيها النحويون القدماء؛ فمذهب سيبويه أنّ الميم فتحت لٱلتقاء الساكنين، وٱختاروا لها الفتح لئلا يُجمع بين كسرة وياء وكسرة قبلها . وقال الكسائيّ : حروف التهجّي إذا لقيتها ألفُ وصل فحذفتَ ألف الوصل حرّكتها بحركة الألف فقلت : آلمَ الله، والمَ آذكر، والمِ ٱقتربت . وقال الفرّاء : الأصل «الٓمٓ أللهُ» كما قرأ الرؤاسيّ فألقيت حركة الهمزة على الميم . وقرأ عمر بن الخطاب «الحَىُّ القَيَّامُ» . وقال خارجة : في مصحف عبد الله «الحَىُّ القَيِّمُ» . وقد تقدّم ما للعلماء [من آراء][3] في الحروف التي في أوائل السور في أوّل « البقرة »[4] . ومن حيث جاء في هذه السورة « ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ » جملةً قائمة بنفسها فتتصوّر تلك الأقوال كلها .

---

(١) في القاموس وشرحه (مادة رأس) : «وبنو رؤاس (بالضم) : حي من عامر بن صعصعة . قال الأزهري : وكان أبو عمر الزاهد يقول في أبي جعفر الرؤاسي أحد القرّاء، والمحدّثين أنه الرواسي، بفتح الراء وبالواو من غير همز، منسوب إلى رواس قبيلة من سليم ، وكان ينكر أن يقول الرؤاسي بالهمزة كما يقوله المحدثون وغيرهم . قلت : ويعني بأبي جعفر هذا محمد بن سادة الرواسي، ذكر ثعلب أنه أوّل من وضع نحو الكوفيين، وله تصانيف » .

(٢) التكلة عن إعراب القرآن للنحاس . (٣) زيادة يقتضيها السياق . (٤) راجع جـ ١ ص ١٥٤

الثانيـــة — روى الكسائى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صلى العشاء فاستفتح «آل عمران» فقرأ «الٓمٓ. الله لا إله إلا هو الحى القيوم» فقرأ فى الركعة الأولى بمائة آية، وفى الثانية بالمائة الباقية. قال علماؤنا: ولا يقرأ سورة فى ركعتين، فإن فعل أجزأه. وقال مالك فى المجموعة: لا بأس به، وما هو بالشأن.

قلت: الصحيح جواز ذلك. وقد قرأ النبى صلى الله عليه وسلم بالأعراف فى المغرب فرقها فى ركعتين. خرجه النسائى أيضا، وصححه أبو محمد عبد الحق، وسيأتى.

الثالثـــة — هـذه السورة ورد فى فضلها آثار وأخبار؛ فمن ذلك ما جاء أنها أمانٌ من الحيات، وكنزٌ للصعلوك، وأنها تحاج عن قارئها فى الآخرة، ويكتب لمن قرأ آخرها فى ليلةٍ كقيام ليلة، إلى غير ذلك. ذكر الدارمى أبو محمد فى مسنده حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام قال حدثنى عبيد الله الأشجعى قال: حدثنى مسعر قال حدثنى جابر[1]، قبل أن يقع فيما وقع فيه، عن الشعبى قال قال عبد الله: نِعم كنز الصعلوك سورةُ «آل عمران» يقوم بها فى آخر الليل. حدثنا محمد بن سعيد حدثنا عبد السلام عن الجريرى[2] عن أبى السليل[3] قال: أصاب رجل دمًا قال: فأوى إلى وادى مَجَنَّة: وادٍ لا يمشى فيه أحدٌ إلا أصابته حيةٌ، وعلى شفير الوادى راهبان؛ فلما أمسى قال أحدهما لصاحبه: هلك والله الرجل! قال: فافتتح سورةَ «آل عمران» قالا: فقرأ سورة طيبة لعله سينجو. قال: فأصبح سليما. وأسند عن مكحول قال: من قرأ سورة «آل عمران» يوم الجمعة صلت عليه الملائكة إلى الليل. وأسند عن عثمان بن عفان قال: من قرأ آخر سورة «آل عمران» فى ليلةٍ كتب له قيام ليلة. فى طريقه ابنُ لهيعة. وخرج مسلم عن النواس بن سمعان الكلابى قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: "يؤتى

(١) هو جابر بن يزيد بن الحارث الجعفى. توفى سنة ١٢٨ هـ. قال ابن سعد: كان يدلس وكان ضعيفا جدا فى رأيه وروايته. وقال العجلى: كان ضعيفا يغلو فى التشيع. وقال أبو بدر: كان جابر يهيج به مرة فى السنة مرةً فيهذى ويخلط فى الكلام. فلعل ما حكى عنه كان فى ذلك الوقت. وقال الأشجعى مبينا ما وقع فيه بأنه ما كان من تغير عقله. (عن تهذيب التهذيب).

(٢) الجريرى: بضم الجيم وفتح الراء الأولى وكسر الثانية وسكون ياء بينهما، وهو سعيد بن إياس، ينسب إلى جرير بن عباد. (عن تهذيب التهذيب).

(٣) أبو السليل (بفتح المهملة وكسر اللام) هو ضريب (بالتصغير) بن نقير، ويقال نفير، ويقال نفيل. (عن تهذيب التهذيب).

بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدُمه سورة البقرة وآل عمران — وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثةَ أمثالٍ ما نسيتهنّ بعدُ ، قال : — كأنهما غمامتان أو ظُلّتان سَوْداوان بينهما شَرْقٌ (١) ، أو كأنهما حِزْقانِ (٢) من طير صَوَافّ تُحَاجّان عن صاحبهما .
وخرّج أيضا عن أبي أُمامة الباهليّ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه اقرءوا الزَّهْرَاوَين البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غَيَايَتان أو كأنهما فِرْقَانِ من طير صَوَافّ تُحاجّان عن أصحابهما اقرءوا سورة البقرة فإن أخذَها بركةٌ وتركها حسْرةٌ ولا يستطيعها البَطَلة " . قال معاوية (٣) : وبلغني أن البطلة السَّحَرَة .

الرابعـة — للعلماء في تسمية « البقرة وآل عمران » بالزّهْرَاوَيْن ثلاثة أقوال :

الأول — أنهما النيّرتان ، مأخوذ من الزَّهْر والزُّهْرة ؛ فإمّا لهدايتهما قارئهما بما يزهر له من أنوارهما ، أي من معانيهما .

وإمّا لما يترتب على قراءتهما من النور التامّ يوم القيامة ، وهو القول الثاني .

الثالث — سُمّيتا بذلك لأنهما ٱشتركتا فيما تضمنه ٱسم الله الأعظم ؛ كما ذكره أبو داود وغيره عن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن ٱسمَ الله الأعظم في هاتين الآيتين وإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٤) والتي في آل عمران اللهُ لا إله إلا هو الحيُّ القيُّومُ " أخرجه ٱبن ماجه أيضا . والغمام : السحاب الملتفّ ، وهو الغَيَايَة إذا كانت قريبا من الرأس ، وهي الظُّلّة أيضا . والمعنى : أن قارئهما في ظِلّ ثوابهما ؛ كما جاء " الرجل في ظِلّ صدقته (٥) " وقوله : " تُحاجّان " أي يخلق الله من يجادل عنه بثوابهما ، ملائكة كما جاء في بعض الحديث : " إن من قرأ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الآية خلق الله سبعين ملكا يستغفرون له إلى يوم القيامة " . وقوله : " بينهما شَرْقٌ " قُيّد بسكون الراء وفتحها ،

(١) الشرق : الضوء . وسكون الراء فيه أشهر من فتحها . (٢) في الأصول : « فرقان » بالفاء . والتصويب عن صحيح مسلم . والفرق : القطعة . والحزق والحزيقة : الجماعة من كل شيء .
(٣) هو معاوية بن سلام أحد رجال سند هذا الحديث . (٤) راجع جـ ٢ ص ١٩٠
(٥) كذا في نسخة : جـ وهو الصحيح ، وكشف الخفاء جـ ١ ص ٤٢٤ . وفي الأصول الأخرى : إن المؤمن .

وهو تنبيه على الضياء ؛ لأنه لما قال : "سَوْداوان" قد يُتَوَهَّم أنهما مُظْلمتان ، فنفى ذلك بقوله "بينهما شَرْق" . ويعنى بكونهما سوداوان أى من كثافتهما التى بسببها حالتا بين مَنْ تحتهما وبين حرارة الشمس وشدّة اللّهَب . والله أعلم .

الخامسة — صَدْرُ هذه السورة نزل بسبب وفد نجْران فيما ذكر محمد بن إسحاق عن محمد آبن جعفر بن الزبير ، وكانوا نصارى وَفَدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فى ستّين راكبا ، فيهم من أشرافهم أربعة عشر رجلا ، فى الأربعةَ عشر ثلاثة نفر إليهم يرجع أمرهم : العاقب(1) أميرُ القوم وذو آرائهم وآسمه عبد المسيح ، والسيِّد ثِمالُهم(2) وصاحب مُجْتَمَعِهم وآسمه الأيْهم ، وأبو حارثة بن عَلْقَمة أحد بكر بن وائل أُسْقُفُّهم وعالمهم ؛ فدخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر صلاة العصر ، عليهم ثياب الحِبَرات(3) جُبَب وأرْدية . فقال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم : ما رأينا وفدًا مثلهم جَمَالا وجلالة . وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا فى مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المَشْرِق . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "دَعُوهم" . ثم أقاموا بها أياما يُناظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عيسى و يزعمون أنه آبن الله ، إلى غير ذلك من أقوال شنيعة مضطربة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يردّ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يُبْصرون ، ونزل فيهم صَدْر هذه السورة إلى نَيِّف وثمانين آية ؛ إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المباهلة(4) ، حسب ما هو مذكور فى سيرة آبن إسحاق(5) وغيره .

قوله تعالى : نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾

---

(1) السيد والعاقب هما من رؤسائهم وأصحاب مراتبهم ، والعاقب يتلو السيد . (2) الثمال (بالكسر) : الملجأ والغياث والمطعم فى الشدّة . (3) الحبرات (بكسر الحاء وفتح الباء جمع حبرة) : ضرب من الثياب اليمانية .

(4) فى الأصول : الابتهال ، والصواب ما أثبت ؛ باهل القوم بعضهم بعضا وتباهلوا وتبهلوا : تلاعنوا . والمباهلة : أن يجتمع القوم إذا آختلفوا فى شىء فيقولوا : لعنة الله على الظالم منا .

(5) راجع سيرة آبن هشام ص ٤٠١ طبع أوربا .

قوله تعالى : ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعنى القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق،وقيل : بالحجة الغالبة . والقرآن نزل نجوما : شيئا بعد شيء؛ فلذلك قال « نَزَّلَ » والتنزيل مرّة بعد مرّة . والتوراة والإنجيل نزلا دفعة واحدة ؛ فلذلك قال «أَنْزَلَ» . والباء فى قوله « بِالْحَقِّ» فى موضع الحال من الكتاب، والباء متعلقة بمحذوف،التقدير آتيا بالحق. ولا تتعلق بـ« نَزَّلَ »، لأنه قد تعدّى إلى مفعولين أحدهما بحرف جر، ولا يتعدّى إلى ثالث . و «مُصَدِّقًا» حال مؤكّدة غير منتقلة؛ لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدِّق، أى غير موافق ؛ هذا قول الجمهور . وقدّر فيه بعضهم الانتقال، على معنى أنه مصدِّق لنفسه ومصدِّق لغيره .

قوله تعالى : ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ يعنى من الكتب المنزّلة، والتوراة معناها الضياء والنور؛ مشتقة من وَرَى الزَّنْد وورِىَ لغتان إذا خرجت ناره . وأصلُها تَوْرِيَةٌ على وزن تَفْعَلَة، التاء زائدة، وتحركت الياء وقبلها فتحة فقلبت ألفا . ويجوز أن تكون تَفْعِلة فتنقل الراء من الكسر إلى الفتح ؛ كما قالوا فى جارِيَة : جارَاة، وفى ناصِيَة ناصاة؛ كلاهما عن الفرّاء[(١)] . وقال الخليل: أصلُها فَوْعَلَة ؛ فالأصل وَوْرَيَةٌ، قُلبت الواو الأولى تاء كما قلبت فى تَوْلَج[(٢)]، والأصل وَوْلَج فَوْعَلٌ من وَلَجَت،وقلبت الياء ألفا لحركتها وانفتاح ما قبلها . وبناء فَوْعَلَة أكثر من تَفْعَلَة . وقيل: التوراة مأخوذة من التَّوْرِيَة،وهى التعريض بالشيء والكتمان لغيره؛ فكأن أكثر التوراة معاريضُ وتلويحات من غير تصريح و إيضاح؛ هذا قول المؤرِّج . والجمهور على القول الأوّل لقوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ[(٣)] » يعنى التوراة . والإنجيل إِفْعِيلٌ من النَّجْل وهو الأصل ، ويجمع على أَنَاجِيل ، وتوراة على تَوَارٍ ؛ فالإنجيل أصلٌ لعلوم وحِكَم . ويقال : لعن الله نَاجِلَيْه، يعنى والديه، إذ كانا أصلَه . وقيل : هو من نَجَلْتُ الشيء إذا استخرجته ؛ فالإنجيل مستخرج به علوم وحِكَم ؛ ومنه سُمّى الولدُ والنَّسْل نَجْلًا لخروجه ؛ كما قال :

إلى مَعْشَرٍ لم يُورِثِ اللؤمَ جَدُّهم * أصاغرَهم وكلُّ فَحْلٍ لهم نَجْلُ

(١) هى لهجة طائية، يقولون فى مثل جارية جاراة، وناصية ناصاة وكاسية كاساة .
(٢) التولج : كناس الظبى أو الوحش الذى يلج فيه .		(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٩٥

والنَّجْل المـاء الذى يخرج من النَّزِّ . وآستنجلت الأرضُ ، وبها نِجَالٌ إذا خرج منها المـاء، فسمى الإنجيل به ؛ لأن الله تعالى أخرج به دَارِسًا من الحق عافيًا . وقيل : هو من النَّجَل فى العين (بالتحريك) وهو سَعَتُها؛ وطعنة نجْلاء، أى واسعة؛ قال :

رُبَّمـا ضَرْبةٍ بسيفٍ صقيلٍ * بين بُصْرَى وطعنةٍ نجْلاء

فسمِّىَ الإنجيل بذلك؛ لأنه أصْل أخرجه لهم ووسَّعه عليهم ونُورًا وضياء . وقيل: التَّنَاجُل التنازُع، وسمِّى إنجيلًا لتنازُع الناس فيه . وحكى شَمِرٌ عن بعضهم: الإنجيلُ كلُّ كتاب مكتوب وافر السطور . وقيل : نَجَل عَمِل وصنَع ؛ قال :

* وأنجلُ فى ذاك الصنيع كما نَجَلْ *

أى أعمـل وأصنع . وقيل : التوراة والإنجيل من اللغة السُّريانية . وقيـل : الإنجيل بالسُّريانية إنْكليون[(١)] ، حكاه الثعلبي . قال الجوهرى : الإنجيل كتاب عيسى عليه السـلام يذكَّر ويؤنَّث ، فمن أنَّثَ أراد الصحيفة ، ومن ذكر أراد الكتاب . قال غيره : وقد يُسَمَّى القرآن إنجيلا أيضا ، كما روى فى قصة مناجاة موسى عليه السـلام أنه قال : " يارب أرى فى الألواح أقواما أناجِيلُهم فى صدورهم فآجعلهم أمتى". فقال الله تعالى له : "تلك أمة أحمد" صلى الله عليه وسلم، وإنما أراد بالأناجيل القرآن . وقرأ الحسن: «والأَنْجيل» بفتح الهمزة، والباقون بالكسر مثل الإكليل ، لغتان . ويحتمل [ان سمع][(٢)] أن يكون ممـا عرّبته العرب من الأسماء الأعجمية، ولا مثال له فى كلامها .

قوله تعالى : ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ قال آبن فورك[(٣)] : التقدير هدى للناس المتقين ؛ دليله فى البقرة « هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » فردّ هذا العام إلى ذلك الخاص . و «هدى» فى موضع نصب على الحال . و ﴿ الْفُرْقَانَ ﴾ القرآن . وقد تقدّم .

(١) فى بعض كتب اللغة : إنجيل لفظ يونانى . (٢) الزيادة من نسخة : ب .

(٣) آبن فورك (بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء) هو أبو بكر بن محمد بن الحسن بن فورك، المتكلم الأصولى الأديب النحوى الواعظ الأصبهانى، توفى سنة ست وأربعمائة . (عن ابن خلكان) .

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾

هذا خبر عن علمه تعالى بالأشياء على التفصيل؛ ومثله فى القرآن كثير . فهو العالم بما كان وما يكون وما لا يكون؛ فكيف يكون عيسى إلها أو ابن إله وهو تخفى عليه الأشياء ! .

قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ ﴾ أخبر تعالى عن تصويره للبشر فى أرحام الأمهات . وأصل الرحم من الرحمة، لأنها مما يتراحم به . واشتقاق الصُّورة من صاره إلى كذا إذا أماله ؛ فالصورة مائلة إلى شَبَهٍ وهيئة . وهذه الآية تعظيم لله تعالى ، وفى ضمنها الرد على نصارى نجران، وأن عيسى من المصوَّرين، وذلك مما لا ينكره عاقل . وأشار تعالى إلى شرح التصوير فى سورة « الحج [(1)] » و«المؤمنون» . وكذلك شرحه النبي صلى الله عليه وسلم فى حديث ابن مسعود، على ما يأتى هناك [بيانه] [(2)] إن شاء الله تعالى . وفيها الرد على الطبائعيين أيضا إذ يجعلونها فاعلة مستبدة. وقد مضى الرد عليهم فى آية التوحيد [(3)] وفى مسند ابن سنجر — واسمه محمد بن سَنْجر — حديث " إن الله تعالى يخلق عظام الجنين وغضاريفه [(4)] من مني الرجل وشحمه ولحمه من مني المرأة " . وفى هذا أدل دليل على أن الولد يكون من ماء الرجل والمرأة، وهو صريح [فى] [(5)] قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى [(6)] » . وفى صحيح مسلم من حديث ثوبان وفيه : أن اليهودي قال للنبي صلى الله عليه وسلم : وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان . قال : " ينفعك إن حدثتك " ؟ .

---

(١) راجع جـ ١٢ ص ٦ فما بعد وص ١٠٩ فما بعد .　　(٢) الزيادة من نسخة : ب .
(٣) راجع جـ ٢ ص ٢٠١　　(٤) الغضاريف : جمع غضروف (بضم الغين) وهو كل عظم رخص يؤكل ، وهو مارن الأنف ، ونغض الكتف (العظم الرقيق على طرفها) ، ورءوس الأضلاع ، ورهابة الصدر (عظيم فى الصدر مشرف على البطن) ، وداخل قوف الأذن .　　(٥) الزيادة فى : جـ .
(٦) راجع جـ ١٦ ص ٣٤٠ .

قال: أسمعُ بأُذُنيَّ، قال: جئتك أسألك عن الولد . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "ماء الرجل أبيضُ وماء المرأة أصفر فإذا ٱجتمعا فعَلا منيُّ الرجلِ منيَّ المرأةِ أذكَرا بإذْنِ الله تعالى و إذاعلا منيُّ المرأة منيَّ الرجلِ آنثا بإذن الله " الحديث(١). وسيأتى بيانه آخر «الشورى»(٢) إن شاء الله تعالى .

الثانيـــة ـــ قـــوله تعـالى : ﴿ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ يعنى من حُسْن وقُبْح وسَوَاد وبيَاض وطُول وقِصَر وسَـلامة وعاهة ، إلى غير ذلك من الشقاء والسـعادة . وذُكر عن إبراهيم بن أدهَم أنّ القـرّاء ٱجتمعوا إليـه ليسمعوا ما عنده من الأحاديث ، فقـال لهم : إنى مشغول عنكم بأربعة أشياء ، فلا أتفرّغ لرواية الحديث . فقيل له : وما ذاك الشغل ؟ قال : أحدها أنّى أتفكر فى يومِ المِيثاق حيث قال : " هؤلاء فى الجنة ولا أُبَالِى وهؤلاء فى النار ولا أُبَالى " . فلا أدرى من أىّ الفريقين كنتُ فى ذلك الوقت . والثانى حيث صُوِّرتُ فى الرِّحِم فقال الملك الذى هو موكَّل على الأرحام : " يارِبِّ شَـقِيٌّ هو أم سعيد " فلا أدرى كيف كان الجواب فى ذلك الوقت . والثالث حين يقبِضُ ملكُ الموت روحى فيقول : " يارِبِّ مع الكفر أم مع الإيمان " فلا أدرى كيف يخرج الجواب . والرابع حيث يقول : « وَٱمْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ »(٣) فلا أدرى فى أىّ الفريقين أكونُ . ثم قال تعالى : ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى لا خالِق ولا مصوّر [سواه](٤)؛ وذلك دليل على وحدانيته، فكيف يكون عيسى إلها مُصَوَّرا وهو مُصَوَّرٌ. ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ الذى لا يغالب. ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة أو المُحْكِم، وهذا أخصّ بما ذكر من التصوير.

قوله تعـالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٧﴾

(١) راجع الحديث فى صحيح مسلم ج ١ ص ٩٩ طبع بولاق . (٢) راجع ج ١٦ ص ٤٨ فما بعد .
(٣) راجع ج ١٥ ص ٤٦ (٤) زيادة لا بد منها .

فيه تسع مسائل :

الأولى — خرّج مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ» قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا رأيتم الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّاهم الله فآحذروهم " . وعن أبى غالب قال : كنت أمشى مع أبى أُمَامة وهو على حمار له ، حتى إذا آنتهى إلى دَرَج مسجد دمشق فإذا رءوس منصوبة ؛ فقال : ما هذه الرُّءوس ؟ قيل : هذه رءوس خوارج يجاء بهم من العراق . فقال أبو أمامة : كِلابُ النار كلابُ النار كلابُ النار ! شرُّ قتلى تحت ظل السماء ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه — يقولها ثلاثا — ثم بكى . فقلت : ما يبكيك يا أبا أُمَامة ؟ قال : رحمةً لهم ، إنهم كانوا من أهل الإسلام فخرجوا منه ؛ ثم قرأ « هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » إلى آخر الآيات . ثم قرأ «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ (١) » . فقلت : يا أبا أُمَامة، هُمْ هؤلاء؟ قال نعم . قلتُ : أشىء تقوله برأيك أم شىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : إنى إذًا لجَرِىءٌ إنى إذا لجرىء ! بل سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مرة ولا مرتين ولا ثلاث ولا أربع ولا خمس ولا ست ولا سبع ، ووضع أصبعيه فى أُذُنَيْه ، قال : و إلّا فصُمَّتا — قالها ثلاثا — ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "تفرّقت بنو إسرائيل على إحدى وسبعين فرقةً واحدةٌ فى الجنة وسائرهم فى النار ولَتَزيدنّ عليهم هذه الأمّة واحدةً واحدةٌ فى الجنة وسائرُهم فى النار " .

الثانيــة — آختلف العلماء فى المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة ؛ فقال جابر بن عبدالله ، وهو مقتضى قول الشعبيّ وسفيان الثورىّ وغيرهما : المحكمات من آى القرآن ما عُرِف تأويله وفهم معناه وتفسيره . والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما آستأثر الله تعالى بعلمه

(١) راجع هذا الجزء ص ١٦٦

دون خلقه . قال بعضهم : وذلك مِثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى، ونحو الحروف المقطعة فى أوائل السور .

قلت : هذا أحسنُ ما قيل فى المتشابه . وقد قدمنا فى أوائل سورة البقرة عن الربيع بن خيثم أنّ الله تعالى أنزل هذا القرآن فآستأثر منه بعلم ما شاء؛ الحديثَ . وقال أبو عثمان : المحكم فاتحة الكتاب التى لا تجزئ الصلاة إلا بها . وقال محمد بن الفضل : سورة الإخلاص ، لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط . و[قد] قيل : القرآن كله محكم : لقوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ »[(١)] . وقيل : كله متشابه ؛ لقوله : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا »[(٢)] .

قلت ؛ وليس هذا من معنى الآية فى شىء؛ فإن قوله تعالى : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آياته » أى فى النظم والرصْف وأنه حق من عند الله . ومعنى « كتابا مُتَشَابِهًا » ، أى يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا . وليس المراد بقوله «آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ» «وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ» هذا المعنى؛ وإنما المتشابه فى هذه الآية من باب الاحتمال والاشتباه، من قوله « إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا »[(٣)] أى آلتبس علينا ، أى يحتمل أنواعا كثيرة من البقر . والمراد بالمحكم ما فى مقابلة هذا ، وهو ما لا التباس فيه ولا يحتمل إلا وجها واحدا . وقيل : إنّ المتشابه ما يحتمل وجوها، ثم إذا رُدَّتْ الوجوه إلى وجه واحد وأبطل الباقى صار المتشابِه محكما. فالمحكم أبدا أصل تردّ إليه الفروع ؛ والمتشابه هو الفرع . وقال آبن عباس : المحكمات هو قوله فى سورة الأنعام « قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ »[(٤)] إلى ثلاث آيات، وقوله فى بنى إسرائيل : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا »[(٥)] . قال آبن عطية : وهذا عندى مثال أعطاه فى المحكمات . وقال آبن عباس أيضا : المحكمات ناسخه وحرامه وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به ، والمتشابهات المنسوخات ومقدّمه ومؤخّره وأمثالُه وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به . وقال آبن مسعود وغيره: المحكمات الناسخات، والمتشابهات المنسوخات؛ وقاله قتادة والربيع والضحاك . وقال محمد بن جعفر بن الزبير : المحكمات هى التى فيها حجة الرب

(١) راجع جـ ٩ ص ٢ (٢) راجع جـ ١٥ ص ١٤٨ (٣) راجع جـ ١ ص ٤٥١
(٤) راجع جـ ٧ ص ١٣٠ فما بعد . (٥) راجع جـ ١٠ ص ٢٤٨

وعصمة العباد ودفع الخُصُوم والباطل ، ليس لهـا تصريف ولا تحريف عما وضِعن عليه . والمتشابهات لهنّ تصريف وتحريف وتأويل، ٱبتلى الله فيهنّ العباد؛ وقاله مجاهد وٱبن إسحاق . قال ٱبن عطية : وهـذا أحسن الأقوال فى هـذه الآية . قال النحاس : أحسن ما قيـل فى المحكمات ، والمتشابهات أنّ المحكمات ما كان قائمـا بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره؛ نحو « لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ »[1] « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ »[2] . والمتشابهات نحـو « إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا »[3] يرجع فيـه إلى قـوله جل وعلا : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » و إلى قوله عز وجل : « إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ »[4] .

قلت : ما قاله النحاس يبين ما ٱختاره ٱبنُ عطية ، وهو الجارى على وَضْع اللسان؛ وذلك أن المُحكَمَ ٱسم مفعول من أُحْكِم ، والإحكام الإتقان ؛ ولا شـك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيـه ولا تردد ، إنمـا يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته و إتقان تركيبها ؛ ومتى ٱختَلّ أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . والله أعلم . وقال ٱبن خويزِمَنْـدَاد : للتشابه وجوهٌ، والذى يتعلق به الحكم ما ٱختلف فيـه العلماء أىّ الآيتين نسخت الأخرى؛ كقول علىّ وٱبن عباس فى الحامل المتوفى عنها زوجها تعتدّ أقْصَى الأجلين . فكان عمر وزيد بن ثابت وٱبن مسعود وغيرهم يقولون وضع الحمل ، و يقولون : سورة النساء القصرى[5] نسختْ أربعة أشهر وعَشْرا . وكان علىّ وٱبن عباس يقولان لم تنسخ . وكٱختلافهم فى الوصية للوارث هل نُسِخت أم لم تُنْسَخ . وكتعارض الآيتين أيهما أولى أن تقدّم إذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه؛ كقوله تعالى : «وأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكُمْ»[6] يقتضى الجمع بين الأقارب من مِلك اليمين، وقوله تعالى : « وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ »[6] يمنع ذلك . ومنه أيضا تعارض الأخبار عن النبىّ صلى الله عليه وسلم وتعارض الأقيِسَة ، فذلك المتشابه . وليس من المتشابه أن تقرأ الآية بقراءتين و يكون الأسم[7] محتملا أو مجملا يحتاج إلى تفسير ؛ لأن الواجب منـه قدر ما يتناوله الأسم أو جميعه . والقراءتان كالآيتين يجب العمل بموجبهما جميعا ؛ كما قرئ :

(١) راجع جـ ٢٠ ص ٢٤٦ (٢) راجع جـ ١١ ص ١٢٣ (٣) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٧
(٤) راجع جـ ٥ ص ٢٤٥ (٥) هى سورة الطلاق . ومراده منها « وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ » آية ٤ (٦) راجع جـ ٥ ص ١١٦ و ١٢٤ (٧) فى نسخة : ب، الأمر .

« وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ »[1] بالفتح والكسر، على ما يأتى بيانه « فى المـائدة » إن شاء الله تعـالى .

الثالثـــة — روى البخارى[2] عن سعيد بن جبير قال قال رجل[3] لابن عباس : إنى أجد فى القرآن أشياء تختلف علىّ . قال : ما هو ؟ قال : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ »[4] وقال : « وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ »[5] وقال : « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا »[6] وقال « وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »[7] فقد كتموا فى هذه الآية . وفى النازعات « أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ... إلى قوله : دَحَاهَا »[8] فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ، ثم قال « أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... إلى : طَائِعِينَ »[9] فذكر فى هـذا خلق الأرض قبل خلق السماء . وقال : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »[10] . « وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا »[11] . « وكان اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا »[12] فكأنه كان ثم مضى . فقال ابن عباس : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ » فى النفخة الأولى ، ثم ينفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ، فلا أنساب بينهم عنـد ذلك ولا يتسـاءلون؛ ثم فى النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون . وأمّا قوله : « مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » « وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا » فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم، وقال المشركون: تعالوا نقول : لم نكن مشركين؛ فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم؛ فعند ذلك عرف أن الله لا يكتم حديثا، وعنده يودّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين. وخلق الله الأرض فى يومين ، ثم استوى إلى السماء فسوّاهن سبع سماوات فى يومين ، ثم دحا الأرض أى بسـطها فأخرج منها المـاء والمرعى ، وخلق فيهـا الجبال والأشجـار والآكام وما بينهـا فى يومين آخرين؛ فذلك قوله : « وَالْأَرْضَ بَعْـدَ ذَلِكَ دَحَاهَا » . فخلقت الأرض وما فيهـا فى أربعـة أيام ، وخلقت السماء فى يومين . وقوله : « وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا »[13] يعنى نفســه

(١) راجع جـ ٦ ص ٨٠ (٢) الحديث فى البخارى فى كتاب التفسير (ســورة السجدة) . وبين ما فى البخارى وما فى الأصول اختلاف فى بعض الكلمات . (٣) هو نافع ابن الأزرق الذى صار بعد ذلك رأس الأزارقة من الخوارج (القسطلانى) . (٤) راجع جـ ١٢ ص ١٥١ (٥) راجع جـ ١٥ ص ٨١ (٦) راجع جـ ٥ ص ١٩٨ (٧) راجع جـ ٦ ص ٤٠١ (٨) راجع جـ ١٩ ص ٢٠١ فما بعد . (٩) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٢ (١٠ — ١١ — ١٢ — سورة النساء ١٣) عبارة البخارى (سمى نفسه) .

ذلك ، أى لم يزل ولا يزال كذلك ؛ فإن الله لم يرد شيئا إلا أصاب به الذى أراد . ويحك ! فلا يختلف عليك القرآن ؛ فإن كلا من عند الله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ لم تصرف « أُخَر » لأنها عدلت عن الألف واللام ؛ لأن أصلها أن تكون صفة بالألف واللام كالكبر والصغر ؛ فلما عدلت عن مجرى الألف واللام منعت الصرف . أبو عبيد : لم يصرفوها لأن واحدها لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة . وأنكر ذلك المبرد وقال : يجب على هذا ألا ينصرف غضاب وعطاش . الكسائى : لم تنصرف لأنها صفة . وأنكره المبرد أيضا وقال : إن لبدا وحطما صفتان وهما منصرفان . سيبويه : لا يجوز أن تكون أُخَر معدولة عن الألف واللام ؛ لأنها لو كانت معدولة عن الألف واللام لكان معرفة ، ألا ترى أن سحر(١) معرفة فى جميع الأقاويل لما كانت معدولة [عن السحر] ، وأمس فى قول من قال : ذهب أمس معدولا عن الأمس ؛ فلو كان أخر معدولا أيضا عن الألف واللام لكان معرفة ، وقد وصفه الله تعالى بالنكرة .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ الذين رفع بالابتداء ، والخبر « فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ » . والزيغ الميل ؛ ومنه زاغت الشمس ، و زاغت الأبصار . ويقال : زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد ؛ ومنه قوله تعالى : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ »(٢) . وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة ، و إن كانت الإشارة بها فى ذلك الوقت إلى نصارى نجران . وقال قتادة فى تفسير قوله تعالى : « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ » : إن لم يكونوا الحرورية(٣) وأنواع الخوارج فلا أدرى من هم .

قلت : قد مر هذا التفسير عن أبى أمامة مرفوعا ، وحسبك .

السادسة — قوله تعالى : ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ قال شيخنا أبو العباس رحمة الله عليه : متبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه و يجمعوه طلبا للتشكيك

---

(١) أى إذا أردت به سحر ليلتك . فإن نكرته صرفته .

(٢) راجع جـ ١٨ ص ٨٢		(٣) راجع الحاشية ٢ جـ ٢ ص ٢٥١

فى القرآن و إضلالِ العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامِطة[1] الطاعنون فى القرآن؛ أو طلبا لاعتقاد ظواهر المتشابه، كما فعلتــه المجسِّمة الذين جمعوا ما فى الكتاب والسنة ممـا ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم وصورة مصوّرة ذات وجه وعين و يد وجنب ورجل وأصبع، تعالى الله عن ذلك ! ؛ أو يتبعوه على جهة إبداء تأو يلاتها و إيضاح معانيها ؛ أو كما فعل صبِيغ[2] حين أكثر على عمر فيه السؤال . فهذه أربعة أقسام :

الأوّل — لا شك فى كفرهم ، وأن حكم الله فيهم القتل من غير استتابة .

الثـانى — [الصحيح[3]] القول بتكفيرهم، إذ لا فرق بينهم و بين عباد الأصنام والصور، و يستتابون فإن تابوا و إلا قتلوا كما يفعل بمن ارتدّ .

الثـالث — اختلفوا فى جواز ذلك بناء على الخلاف فى جواز تأويلها . وقد عرف أنّ مذهب السلف ترك التعرّض لتأو يلها مع قطعهــم باستحالة ظواهرها ، فيقــولون أمِرّوها كما جاءت . وذهب بعضهم إلى إبداء تأو يلاتها وحمِلها على ما يصح حمله فى اللسان عليها من غير قطع بتعيين مجمل منها .

الرابــع — الحكم فيــه الأدب البليغ ، كما فعله عمر بصبيغ . وقال أبو بكر الأنبارى : وقد كان الأئمــة من السلف يعاقبون من يسأل عن تفســير الحروف المشكلات فى القرآن ، لأن السائل إن كان يبغى بسؤاله تخليد البدعة و إثارة الفتنة فهو حقيق بالنكير وأعظم التعزير، و إن لم يكن ذلك مقصده فقد استحق العتب بما اجترم من الذنب، إذ أوجد للنافقين الملحدين فى ذلك الوقت سبيلا إلى أن يقصدوا ضَعَفَة المسلمين بالتشكيك والتضليل فى تحريف القرآن عن منـاهج التنزيل وحقائق التأويل . فمن ذلك ما حدّثنـا إسماعيل بن إسحاق القاضى أنبأنا سليمان بن حرب عن حماد بن زيد عن يزيد بن حازم عن سليمان بن يسار أن صبِيغ بن عِسل

(١) القرامطة : فرقة من الزنادقة الملاحدة أتباع الفلاسفة من الفرس الذين يعتقــدون نبوّة زرادشت ومزدك ومانى ، وكانوا يبيحون المحرمات . (راجع عقد الجمان للعينى فى حوادث سنة ٢٧٨) .

(٢) صــبيغ (وزان أمير) بن شريك بن المنــذر بن قطن بن قشع بن عسل (بكسر العين) بن عمرو بن يربوع التميمى ، وقد ينسب إلى جدّه الأعلى فيقال : صبيغ بن عسل . راجع القاموس وشرحه مادّة « صبغ وعسل » .

(٣) الزيادة من نسخ : ب ، ز ، د .

قدم المدينة بجعل يسأل عن متشابه القرآن وعن أشياء؛ فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فبعث إليه عمر فأحضره وقد أعدّ له عراجين من عراجين النخل . فلما حضر قال له عمر : من أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ . فقال عمر رضي الله عنه : وأنا عبد الله عمر؛ ثم قام إليه فضرب رأسه بعرجون فشجّه، ثم تابع ضربه حتى سال دمه على وجهه، فقال : حسبك يا أمير المؤمنين! فقد والله ذهب ما كنت أجدُ في رأسي . وقد آختلفت الروايات في أدبه، وسيأتي ذكرها في « الذاريات » . ثم إن الله تعالى ألهمه التوبة وقذفها في قلبه فتاب وحسنت توبته . ومعنى «ٱبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ» طلب الشبهات واللبس على المؤمنين حتى يفسدوا ذات بينهم، ويردّوا الناس إلى زيغهم . وقال أبو إسحاق الزجاج: معنى «آبتغاء تأويله» أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم، فأعلم الله جل وعز أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله تعالى: « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ — أي يوم يرون مايوعدون من البعث والنشور والعذاب — يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ — أي تركوه — قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ[(1)] » أي قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل . قال : فالوقف على قوله تعالى: « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » أي لا يعلم أحد متى البعث إلا الله .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ يقال : إن جماعة من اليهود منهم حيي بن أخطب دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: بلغنا أنه نزل عليك « الٓمٓ »، فإن كنت صادقا في مقالتك فإن ملك أمتك يكون إحدى وسبعين سنة؛ لأن الألف في حساب الجمل واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، فنزل « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . والتأويل يكون بمعنى التفسير، كقولك : تأويل هذه الكلمة على كذا . ويكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه . وآشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه، أي صار . وأوّلته تأويلا أي صيرته . وقد حدّه بعض الفقهاء فقالوا : هو إبداء آحتمال في اللفظ مقصود بدليل خارج عنه . فالتفسير بيان اللفظ؛ كقوله « لَارَيْبَ فِيهِ » أي لا شك . وأصله من الفسر وهو البيان؛ يقال : فسرت

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٧

الشيء (مخففا) أفسِره (بالكسر) فَسْرا . والتأويل بيــان المعنى؛ كقوله لا شك فيــه عند المؤمنين . أو لأنه حق فى نفسه فلا يقبل ذاته الشك و إنمــا الشك وصف الشاك . وكقول ٱبن عباس فى الجد أبا؛ لأنه تأوّل قول الله عز وجل : « يَا بَنِي آدَمَ » .

الثامنــــة — قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ٱختلف العلماء فى «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» هل هو ٱبتداء كلامٍ مقطوع مما قبله ، أو هو معطوف على ما قبله فتكون الواو للجمع. فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع مما قبله ، وأنّ الكلام تمّ عند قوله «إلّا اللهُ» هذا قول ٱبن عمر وٱبن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر بن عبد العزيز وغيرهم ، وهو مذهب الكِسائىّ والأخفش والفرّاء وأبى عبيد[وغيرهم][1]. قال أبو نَهِيك الأسدىّ : إنكم تصِلون هذه الآية و إنها مقطوعة. وما ٱنتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم « آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْـدِ رَبِّنَا » . وقال مثل هذا عمر بن عبد العزيز، وحكى الطبرىّ نحوه عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس . و « يقولون » على هذا خبر«الراسخون» . قال الخطابىّ : وقد جعل الله تعالى آيات كتابه الذى أمرنا بالإيمان به والتصديق بمــا فيه قسمين : محكما ومتشابها ؛ فقال عز من قائل : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ... إلى قوله : كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا» فاعْلَمْ أنّ المتشابه من الكتاب قد ٱستأثر الله بعلمه ، فلا يعــلم تأويله أحَدٌ غيره ، ثم أثنى الله عز وجل على الراسخين فى العلم بأنهم يقولون آمنا به . ولولا صحة الإيمان منهم لم يستحقوا الثناء عليه . ومذهب أكثر العلماء أن الوقف التامّ فى هذه الآية إنما هو عند قوله تعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » وأن ما بعده ٱستئناف كلامٍ آخر ، وهو قوله « وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِـلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ » . وروى ذلك عن ٱبن مسعود وأبىّ بن كعب وٱبن عباس وعائشة . و إنمــا روى عن مجاهد أنه نَسَق « الراسخون» على ما قبله وزعم أنهم يعلمونه . وٱحتج له بعض أهل اللغة فقال : معناه والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين آمنا ؛ وزعم أن موضع « يقولون » نصب على الحال . وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معا ، ولا تذكر حالا إلا مع ظهور الفعل؛ فإذا لم يظهر فعــل فلا يكون حال؛ ولو جاز ذلك لجاز

(١) الزيادة من نسخة : جـ .

أن يقال : عبد الله راكبا، بمعنى أقبل عبد الله راكبا ؛ وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : عبد الله يتكلم يصلح بين الناس ؛ فكان « يصلح » حالا له ؛ كقول الشاعر — أنشدنيه أبو عمر قال أنشدنا أبو العباس ثعلب — :

أرسلتُ فيها قَطِمًا لُكَالِكَا[1] * يَقْصُر يَمْشِي ويطول بَارِكَا

أي يقصر ماشيا ؛ فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده، وأيضا فإنه لا يجوز أن ينفي الله سبحانه شيئا عن الخلق ويثبته لنفسه ثم يكون له في ذلك شريك . ألا ترى قوله عز وجل: «قُل لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ»[2] وقوله : « لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ »[3] وقوله : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ »[4]، فكان هذا كله مما آستأثر الله سبحانه بعلمه لا يُشْرِكه فيه غيره . وكذلك قوله تبارك وتعالى : « وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ » . ولو كانت الواو في قوله : «وَالرَّاسِخُونَ»[5] للنسق لم يكن لقوله : « كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا » فائدة . والله أعلم .

قلت : ما حكاه الخطابي من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره فقد روى عن آبن عباس أن الراسخين معطوف على آسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه، وأنهم مع علمهم به يقولون آمنا به ؛ وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم . و «يقولون» على هذا التأويل نصب على الحال من الراسخين؛ كما قال :

الريحُ تَبْكِي شَجْوَها * والبرقُ يلمَعُ في الغَمَامَهْ

وهذا البيت يحتمل المعنيين ؛ فيجوز أن يكون «والبرق» مبتدأ، والخبر «يلمع» على التأويل الأوّل، فيكون مقطوعا مما قبله . ويجوز أن يكون معطوفا على الريح، و «يلمع» في موضع الحال على التأويل الثاني أي لامِعا . وآحتجّ قائلو هذه المقالة أيضا بأن الله سبحانه مدحهم

(١) في الأصول : « أرسلت فيها رجلا » والتصويب عن اللسان وشرح القاموس . والقطم : الغضبان ؛ وفحل قطم وقطِم وقطيم : صؤول . والقطم أيضا : المشتهي اللحم وغيره . واللكالك (بضم اللام الأولى وكسر الثانية) : الجمل الضخم المرمى باللحم . قال أبو علي الفارسي : « يقصر إذا مشى لانخفاض بطنه وضخمه وتقاربه من الأرض ، فإذا برك رأيته طويلا لارتفاع سنامه ؛ فهو باركا أطول منه قائما » . (اللسان مادة لكك) . (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٢٥
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٣٥ (٤) راجع جـ ١٣ ص ٣٢٢ (٥) في الأصول : «والراسخون معا للنسق» .

بالرسوخ فى العلم ؛ فكيف يمدحهم وهم جهّال ! وقد قال آبن عباس : أنا ممن يعلم تأويله .
وقرأ مجاهد هذه الآية وقال : أنا ممن يعلم تأويله ؛ حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالى .

قلت — وقد ردّ بعض العلماء هذا القول إلى القول الأوّل فقال : وتقدير تمـام الكلام «عند الله» أن معناه وما يعلم تأويله إلا الله يعنى تأويلَ المتشابهات ، والراسخون فى العلم يعلمون بعضه قائلين آمنّا به كلٌّ من عند ربنا بمـا نُصِب من الدلائل فى المُحْكَم ومكّن من ردّه إليه . فإذا علموا تأويل بعضه ولم يعلموا البعض قالوا آمنا بالجميع كلٌّ من عند ربنا ، وما لم يحط به علمنا من الخفايا مما فى شرعه الصّالح فعلمه عند ربّنا . فإن قال قائل : قد أشكل على الراسخين بعض تفسيره حتى قال آبن عباس : لا أدرى ما الأوّاهُ ولا ما غِسْلِين ، قيل له : هذا لا يلزم؛ لأن آبن عباس قد علم بعد ذلك ففسر ما وقف عليه . وجوابٌ أقطع من هذا وهو أنه سبحانه لم يقل وكل راسخ فيجب هذا ، فإذا لم يعلمه أحد علمه الآخر . ورجّح آبن فورك أنّ الراسخين يعلمون التأويل وأطنب فى ذلك، وفى قوله عليه السلام لآبن عباس : "اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل" ما يبين لك ذلك ، أى علمه معانى كتابك . والوقف على هذا يكون عند قوله « والرَّاسِخُونَ فى الْعِلْمِ » . قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر : وهو الصحيح؛ فإن تسميتهم راسخين يقتضى أنهم يعلمون أكثر من المُحْكَم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب . وفى أىّ شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع ! . لكن المتشابه يتنوّع ، فمنه ما لا يعلم البتّة كأمر الرُّوح والساعة ممـا آستأثر الله بغيبه ، وهـذا لا يتعاطى عِلمه أحد لا آبن عباس ولا غيره . فمن قال من العلماء الحُذّاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه فإنما أراد هذا النوع ، وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغـة ومَنَاحٍ فى كلام العرب فيُتأوّل ويُعلم تأويله المستقيم ، ويُزال ما فيه مما عسى أن يتعلق من تأويل غير مستقيم ؛ كقوله فى عيسى : «وَرُوحٌ مِنْهُ»[(1)] إلى غير ذلك . فلا يُسمّى أحدٌ راسخا إلا بأن يعلم من هـذا النوع كثيرا بحسب ما قُدّر له . وأمّا من يقول : إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخالُ الراسخين فى علم التأويل ؛ لكنّ تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح .

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١

والرسوخ : الثبوت في الشيء ، وكل ثابت راسخ . وأصله في الأجرام أن يرسخ الجبل والشجر في الأرض ؛ قال الشاعر :

لقد رَسَخَتْ في الصدر مِنّى مودّةٌ * لِلَيْلَى أبَتْ آياتُها أنْ تَغَيَّرَا

ورسخ الإيمان في قلب فلان يرسخ رسوخا . وحكى بعضهم : رسخ الغدير : نَضَب ماؤه ؛ حكاه ابن فارس فهو من الأضداد . ورسخ ورضخ ورصُن ورسَب كله ثبت فيه . وسئل النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الراسخين في العلم فقال: "هو مَنْ بَرَّتْ يمينُه وصدَق لسانُه واستقام قلبه". فإن قيل : كيف كان في القرآن متشابه والله يقول : «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ[(١)]» فكيف لم يجعله كله واضحا ؟ قيل له : الحكمة في ذلك — والله أعلم — أن يظهر فضل العلماء ؛ لأنه لو كان كله واضحا لم يظهر فضلُ بعضهم على بعض . وهكذا يفعل من يصنّف تصنيفا يجعل بعضه واضحا و بعضه مشكلا ، و يترك للجُثْوة[(٢)] موضعا ؛ لأن ما هان وجودُه قلّ بهاؤه . والله أعلم .

التاسعة — قوله تعالى: ﴿ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله تعالى مُحكمه ومُتشابهه؛ والتقدير: كله من عند ربنا . وحذف الضمير لدلالة « كلّ » عليه؛ إذ هي لفظة تقتضي الإضافة . ثم قال : ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يقول هذا ويُؤمنُ ويقفُ حيث وقَف ويَدع اتّباع المتشابه إلا ذو لُبّ، وهو العقل. ولُبّ كل شيء خالصه؛ فلذلك قيل للعقل لُبّ . و « أولو » جمع ذو .

قوله تعالى : رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ في الكلام حذف تقديره يقولون . وهذا حكاية عن الراسخين . و يجوز أن يكون المعنى قل يا محمد ، و يقال : إزاغة القلب فسادٌ

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ (٢) كذا وردت هذه الكلمة في أكثر الأصول، وفي بعضها وردت بهذا الرسم من غير إعجام، ومعناها : الجماعة .

ومَيْل عن الدِّين، أفكانوا يخافون وقد هُدُوا أن ينقلهم الله إلى الفساد؟ فالجواب أن يكونوا سألوا إذ هداهم الله ألّا يبتليهم بما يثقُل عليهم من الأعمال فيَعجزوا عنه؛ نحو «وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ»(١). قال ابن كيسان: سألوا ألا يَزِيغوا فيزِيغ الله قلوبهم؛ نحو «فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ»(٢) أى ثبِّتنا على هدايتك إذ هديتنا وألا نَزيغ فنستحق أن تُزيغ قلوبنا. وقيل: هو منقطع مما قبلُ؛ وذلك أنه تعالى لما ذكر أهل الزيغ عقب ذلك بأن علم عباده الدعاء إليه فى ألا يكونوا من الطائفة الذميمة التى ذُكِرت وهى أهل الزَّيْغ. وفى الموطأ عن أبى عبد الله الصنابِحِى أنه قال: قدِمتُ المدينة فى خلافة أبى بكر الصديق فصليتُ وراءه المغرب، فقرأ فى الركعتين الأُوليين بأم القرآن وسورة من قصار المُفَصَّل، ثم قام فى الثالثة، فدنوت منه حتى إن ثيابى لتكاد تمس ثيابه، فسمعته يقرأ بأم القرآن وهذه الآية «رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا» الآية. قال العلماء: قراءته بهذه الآية ضربٌ من القُنوت والدعاء لما كان فيه من أمر أهل الردّة. والقنوت جائز فى المغرب عند جماعة من أهل العلم، وفى كل صلاة أيضا إذا دهِم المسلمين أمرٌ عظيم يفزعهم ويخافون منه على أنفسهم. وروى الترمِذىّ من حديث شَهْر بن حَوْشَب قال قلت لأم سَلَمة: يا أم المؤمنين، ما كان أكثرُ دعاءِ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعائه "يا مُقَلِّب القلوب ثبِّتْ قلبى على دينك". فقلت: يا رسول الله، ما أكثر دعاءَك يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك! قال: "يا أم سلمة إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ". فتلا معاذ(٣) «رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا». قال: حديث حسن. وهذه الآية حجة على المعتزلة فى قولهم: إن الله لا يضل العباد(٤). ولو لم تكن الإزاغة من قِبله لما جاز أن يُدْعَى فى دفع ما لا يجوز عليه فعلُه. وقرأ أبو واقد الجرّاح «لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا» بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه رغبة إلى الله تعالى. ومعنى الآية على القراءتين ألا يكون منك خلق الزيغ فيها فتزيغ.

(١) راجع جـ ٥ ص ٢٧٠ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٨٢ (٣) هو أحد رجال سند هذا الحديث.

(٤) يعنى قولهم إن العباد هم الخالقون لأفعالهم.

الثانية — قوله تعالى : ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أى من عندك ومن قِبلك تفضلا لا عن سبب منا ولا عمل . وفى هذا آستسلام وتطارح . وفى «لَدُنْ» أربع لغات : لَدُن بفتح اللام وضم الدال وجزم النون، وهى أفصحها؛ وبفتح اللام وضم الدال وحذف النون؛ وبضم اللام وجزم الدال وفتح النون؛ وبفتح اللام وسكون الدال وفتح النون . ولعل جُهّال المتصوّفة وزنادقة الباطنية يتشبثون بهذه الآية وأمثالها فيقولون: العلم ما وهبه الله آبتداء من غير كسب، والنظرُ فى الكتب والأوراق حجابٌ . وهذا مردود على ما يأتى بيانه فى هذا الموضع . ومعنى الآية : هب لنا نعيما صادرا عن الرحمة؛لأن الرحمة راجعة إلى صفة الذات فلا يتصوّر فيها الهبة . يقال : وَهب يَهَب ؛ والأصل يُوهِب بكسر الهاء . ومن قال : الأصل يوهب بفتح الهاء فقد أخطأ؛ لأنه لو كان كما قال لم تحذف الواو ، كما لم تحذف فى يَوْجَل . وإنما حذفت الواو لوقوعها بين ياء وكسرة؛ ثم فتح بعد حذفها لأن فيه حرفا من حروف الحلق.

قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾

أى باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم ، وفى هذا إقرار بالبعث ليوم القيامة . قال الزجاج : هذا هو التأويل الذى عَلِمه الراسخون وأقروا به ، وخالف الذين آتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حتى أنكروه . والريبُ الشك ، وقد تقدّمت محامله فى البقرة[1]. والميعاد مِفْعَال من الوعد.

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝١٠﴾

معناه بَيِّن ، أى لن تدفع عنهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئا . وقرأ السُّلَمِيّ[2] «لَنْ يُغْنِيَ» بالياء لتقدّم الفعل ودخول الحائل بين الآسم والفعل . وقرأ الحسن «يُغْنِي» بالياء وسكون الياء الآخرة للتخفيف؛ كقول الشاعر :

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٩ (٢) السلمى (بضم السين) هو أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين الصوفى الأزدى . (عن تذكرة الحفاظ وأنساب السمعانى) .

كفَى باليَأْسِ من أسماء كافِي * وليس لِسُقْمِها إذ طال شافى

وكان حقّه أن يقول كافيا ، فأرسل الياء . وأنشد الفرّاء فى مثله :

كأنّ أيدِيهِنّ بالقـاعِ القرِقْ * أيدى جَوَارٍ يَتَعاطَيْنَ الوَرِق

القَرِقُ والقَرِقَة لغتان فى القاع (١) . و « من » فى قوله « مِن اللهِ » بمعنى عند ؛ قاله أبو عبيدة . ﴿أُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ والوَقُود آسم للحطب ، وقد تقدّم فى «البقرة» (٢) . وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مُصَرّف «وُقُود» بضم الواو على حذف مضاف تقديره حطب وقود النـار . ويجوز فى العربية إذا ضم الواو أن تقول أُقُود مثـل أُقِّتَتْ . والوُقود بضم الواو المصدر ؛ وُقِدَت النار تقِد إذا آشتعلت . وخرّج آبن المبارك من حديث العباس بن عبد المطلب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يظهر هذا الدين حتى يجاوز البحار وحتى تخاض البحار بالخيل فى سبيل الله تبـارك وتعالى ثم يأتى أقوام يقرءون القرآن فإذا قرءوه قالوا مَنْ أقرأُ منا من أعلمُ منا ؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال : هل ترون فى أولئكم من خير“ ؟ قالوا لا . قال : ” أولئك منكم وأولئك من هذه الأمّة وأولئك هم وقود النار“ .

قوله تعـالى : ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

الدأب العـادة والشأن . ودأب الرجل فى عمـله يدأب دأبا ودءوبا إذا جدّ وآجتهد ، وأدأبته أنا . وأدأب بعيره إذا جهده فى السير . والدائبان الليل والنهـار . قال أبو حاتم : وسمعت يعقوب يذكر « كدَأَب » بفتح الهمـزة ، وقال لى وأنا غُلَيِّم : على أىّ شىء يجـوز « كدَأَب » ؟ فقلت له : أظنه من دَئِبَ يدْأَب دَأَباً . فقبِل ذلك مِنى وتعجب من جودة تقديرى على صِغرى ؛ ولا أدرى أيقال أم لا . قال النحاس : « وهذا القول خطأ ، لا يقال

---

(١) كذا فى الأصول . والذى فى لسان العـرب وغيره من معجمات اللغة أنه القرق (بفتح القاف وكسر الراء) والقرق (بفتح القاف والراء) والقرق (بكسر القاف وسكون الراء) . والقاع القرق : الطيب الذى لا حجارة فيه .

(٢) راجع ج ١ ص ٢٣٥ .

البتة دَئِب، وإنما يقال: دَأَب يدأَب دُءُوبا [ودَأْبا](١)؛ هكذا حكى النحويون، منهم الفرّاء حكاه فى كتاب المصادر؛ كما قال آمرؤ القيس:

كدأبِك مِن أم الحُوَيْرِث قبلَها * وجارتِها أمِّ الرَّبابِ بمأْسَلِ(٢)

فأمّا الدَّأَب فإنه يجوز؛ كما يقال: شَعْر وشَعَر ونَهْر ونَهَر؛ لأن فيه حرفا من حروف الحلق». وآختلفوا فى الكاف؛ فقيل: هى فى موضع رفع تقديره دَأْبُهم كدَأْب آل فرعون، أى صنيع الكفّار معك كصنيع آل فرعون مع موسى. وزعم الفرّاء أن المعنى: كفرت العرب ككفر آل فرعون. قال النحاس: لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا، لأن كفروا داخلة فى الصِّلة. وقيل: هى متعلقة بـ«أَخَذَهُمُ اللهُ»، أى أخذهم أخذا كما أخذ آل فرعون. وقيل: هى متعلقة بقوله «لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ» أى لم تُغْنِ عنهم غَناء كما لم تُغن الأموال والأولاد عن آل فرعون. وهذا جواب لمن تخلّف عن الجهاد وقال: شغلتنا أموالنا وأهلونا. ويصح أن يعمل فيه فعلٌ مقدّر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه فى نفس الآحتراق. ويؤيد هذا المعنى « ... وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ. النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ»(٣). والقول الأوّل أرجح، وآختاره غير واحد من العلماء. قال آبن عرفة: «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ» أى كعادة آل فرعون. يقول: آعتاد هؤلاء الكفرة الإلحاد والإعنات للنبيّ صلى الله عليه وسلم كما آعتاد آل فرعون من إعنات الأنبياء؛ وقال معناه الأزهرىّ. فأمّا قوله فى سورة (الأنفال) «كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ»(٤) فالمعنى جُوزِى هؤلاء بالقتل والأسر كما جُوزِى آل فرعون بالغرق والهلاك.

قوله تعالى: ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوّة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدّلالة على الوحدانية. ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

---

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس. (٢) أم الحويرث: هى «هر» أم الحارث بن حصين آبن ضمضم الكلابى، وكان آمرؤ القيس يشبب بها فى أشعاره. وأم الرباب من كلب أيضا. ومأسل: موضع. يقول: لقيت من وقوفك على هذه الديار وتذكرك أهلها كما لقيت من أم الحويرث وجارتها. (عن شرح المعلقات).

(٣) راجع جـ ١٥ ص ٣١٨ (٤) راجع جـ ٨ ص ٢٩

قوله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾

يعنى اليهود . قال محمد بن إسحاق : لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا ببدر وقدم المدينة جمع اليهود فقال : " يا معشر اليهود آحذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم فقد عرفتم أنى نبى مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم "، فقالوا : يا محمد، لا يغرنك أنك قتلت أقواما أغمارا(١) لا علم لهم بالحرب فأصبت فيهم فرصة ! والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس . فأنزل الله تعالى « قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ » بالتاء يعنى اليهود : أى تهزمون « وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ » فى الآخرة . فهذه رواية عكرمة وسعيد بن جبير عن آبن عباس . وفى رواية أبى صالح عنه أن اليهود لما فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أُحُد نزلت . فالمعنى على هذا « سَيُغْلَبُونَ » بالياء، يعنى قريشا، « وَيُحْشَرُونَ » بالياء فيهما ، وهى قراءة نافع .

قوله تعالى : ﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ يعنى جهنم ؛ هذا ظاهر الآية . وقال مجاهد : المعنى بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكأن المعنى : بئس فعلهم الذى أدّاهم إلى جهنم .

قوله تعالى : قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ ﴾ أى علامة . وقال « كان » ولم يقل « كانت » لأن « آية » تأنيثها غير حقيقى . وقيل : ردّها إلى البيان، أى قد كان لكم بيان ؛ فذهب إلى المعنى وترك اللفظ ؛ كقول آمرئ القيس :

(١) الأغمار : جمع غمر (بضم) وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور .

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ * كَخُرْعُوبَةِ الْبَانَةِ الْمُنْفَطِرْ[1]

ولم يقل المنفطرة؛ لأنه ذهب إلى القضيب . وقال الفرّاء : ذكّره لأنه فرق بينهما بالصفة، فلما حالت الصفة بين الاسم والفعل ذكّر الفعل . وقد مضى هذا المعنى في البقرة في قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ[2] » .

﴿فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا﴾ يعني المسلمين والمشركين يوم بدر ﴿فِئَةٌ﴾ قرأ الجمهور «فئة» بالرفع، بمعنى إحداهما فئة . وقرأ الحسن ومجاهد « فِئَةٍ » بالخفض « وأُخْرَى كَافِرَةٍ » على البدل . وقرأ ابن أبي عبلة بالنصب فيهما . قال أحمد بن يحيى : ويجوز النصب على الحال، أي التقتا مختلفتين مؤمنة وكافرة . قال الزجاج : النصب بمعنى أعني . وسمّيت الجماعة من الناس فئة لأنها يُفَاء إليها، أي يرجع إليها في وقت الشدّة . وقال الزجاج : الفئة الفرقة، مأخوذة من فَأَوْتُ رأسه بالسيف — ويقال : فأيته — إذا فلقته[3] . ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفئتين هي إلى يوم بَدْر . واختلف من المخاطب بها؛ فقيل : يحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، ويحتمل أن يخاطب بها جميع الكفار، ويحتمل أن يخاطب بها يهود المدينة؛ وبكل احتمال منها قد قال قوم . وفائدة الخطاب للمؤمنين تثبيت النفوس وتشجيعها حتى يقدِموا على مثليهم وأمثالهم كما قد وقع .

قوله تعالى : ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ قال أبو عليّ : الرؤية في هذه الآية رؤية عين؛ ولذلك تعدّت إلى مفعول واحد . قال مكيّ والمهدويّ : يدل عليه «رَأْيَ الْعَيْنِ» . وقرأ نافع «تَرَوْنَهُمْ» بالتاء والباقون بالياء[4] . ﴿مِثْلَيْهِمْ﴾ نصب على الحال من الهاء والميم في « ترونهم » . والجمهور من الناس على أن الفاعل بترون هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار . وأنكر أبو عمرو أن يقرأ

(١) البرهرهة : الرقيقة الجلد، أو هي الملساء المترجرجة . والرؤدة والرودة : الشابة الحسنة السريعة الشباب مع حسن غذاء . والرخصة : اللينة الخلق . والخرعوبة : القضيب الغض اللدن . والبانة : واحد شجر البان . والمنفطر: المتشقق . يقال : قد انفطر العود إذا انشق وأخرج ورقه . (عن شرح الديوان) .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٢٥٧، وص ٢٦٨

(٣) الذي في نسخ : أ و ب وجـ : فلعته، والمثبت ما في المعاجم .

(٤) الذي في تفسير النيسابوري : « ترونهم بتاء الخطاب أبو جعفر ونافع وسهل ويعقوب الباقون بالياء » .

« ترونهم » بالتاء؛ قال : ولو كان كذلك لكان مثليكم . قال النحاس : وذا لا يلزم، ولكن يجوز أن يكون مِثلى أصحابكم . قال مكىّ : « تَرَوْنَهُم » بالتاء جرى على الخطاب فى « لَكُمْ » فيحسن أن يكون الخطاب للسلمين ، والهاء والميم للشركين . وقد كان يلزم من قرأ بالتاء أن يقرأ مثليكم بالكاف ، وذلك لا يجوز لمخالفة الخط ؛ ولكن جرى الكلام على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى : « حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم (١) »، وقوله تعالى : « وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ (٢) » فخاطب ثم قال : « فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ » فرجع إلى الغيبة . فالهاء والميم فى « مِثْلَيْهِم » يحتمل أن يكون للشركين، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلْى ما هم عليه من العدد؛ وهو بعيد فى المعنى؛ لأن الله تعالى لم يُكثِّر المشركين فى أعين المسلمين بل أعلمنا أنه قلّلهم فى أعين المؤمنين، فيكون المعنى ترون أيها المؤمنون المشركين مِثليكم فى العدد وقد كانوا ثلاثة أمثالهم، فقلّل الله المشركين فى أعين المسلمين فأراهم إياهم مِثلْى عِدّتهم لتقوى أنفسُهم ويقع التجاسُر ، وقد كانوا أُعلِموا أنّ المـائة منهم تغلب المـائتين من الكفار، وقلّل المسلمين فى أعين المشركين ليجْترئوا عليهم فينفُذ حكم الله فيهـم . ويحتمل أن يكون الضمير فى «مِثلَيْهِم» للسلمين،أى ترون أيها المسلمون المسلمين مِثلْى ما أنتم عليه من العدد، أى ترون أنفسكم مثلْى عددكم؛ فعل الله ذلك بهم لتقوى أنفسهم على لقاء المشركين . والتأويل الأوّل أولى؛ يدل عليه قوله تعالى : « إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا (٣) » وقوله : « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا» . وروى عن ٱبن مسعود أنه قال : قلت لرجل إلى جنبي : أتراهم سبعين؟ قال : أظنهم مائة . فلما أخذنا الأسارى أخبرونا أنهم كانوا ألفا . وحكى الطبرىّ عن قوم أنهم قالوا : بل كثّر الله عدد المؤمنين فى عيون الكافرين حتى كانوا عنـدهم ضِعفيهم . وضعّف الطبرى هذا القول . قال ٱبن عطية : وكذلك هو مردود من جهات . بل قلّل الله المشركين فى أعين المؤمنين كما تقدّم . وعلى هذا التأويل كان يكون « ترون » للكافرين، أى ترون أيها الكافرون المؤمنين مثليهم ، ويحتمل مثليكم ، على ما تقدّم . وزعم الفرّاء أنّ المعنى

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٥ (٣) راجع جـ ٨ ص ٢٢

ترونهم مثليهم ثلاثة أمثالهم . وهو بعيدٌ غير معروف فى اللغة. قال الزجاج : وهذا باب الغلط، فيه غلط فى جميع المقاييس؛ لأنا إنما نعقل مثل الشيء مساوياً له ، ونعقل مثليه ما يساويه مرتين . قال ابن كَيْسان : وقد بين الفرّاء قوله بأن قال : كما تقول وعندك عبدٌ : أحتاج إلى مثله ، فأنت محتاج إليه و إلى مثله . وتقول : أحتاج إلى مثليه، فأنت محتاج إلى ثلاثة . والمعنى على خلاف ما قال، واللغةُ . والذى أوقع الفرّاء فى هذا أن المشركين كانوا ثلاثة أمثال المؤمنين يوم بدر ؛ فتوهّم أنه لا يجوز أن يكونوا يرونهم إلا على عِدّتهم، وهذا بعيد وليس المعنى عليه. و إنما أراهم الله على غير عِدّتهم لجهتين : إحداهما أنه رأى الصلاح فى ذلك؛ لأن المؤمنين تقوى قلوبهم بذلك . والأخرى أنه آية للنبيّ صلى الله عليه وسلم . وسيأتى ذكر وقعة بدر (١) إن شاء الله تعالى . وأمّا قراءة الياء فقال ابن كيسان : الهاء والميم فى « يرونهم » عائدة على « وَأُخْرَى كَافِرَةٌ » والهاء والميم فى « مثليهم » عائدة على « فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ » وهذا من الإضمار الذى يدل عليه سياق الكلام ، وهو قوله : « يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ » . فدل ذلك على أن الكافرين كانوا مِثْلَى المسلمين فى رأى العين وثلاثة أمثالهم فى العدد . قال : والرؤية هنا لليهود . وقال مكىّ : الرؤية للفئة المقاتلة فى سبيل الله، والمرئية الفئة الكافرة؛ أى ترى الفئةُ المقاتلة فى سبيل الله الفئةَ الكافرة مِثْلَى الفئة المؤمنة ، وقد كانت الفئة الكافرة ثلاثة أمثال المؤمنة فقلّلهم الله فى أعينهم على ما تقدّم . والخطاب فى « لكم » لليهود . وقرأ ابن عباس وطلحة « تُرَوْنَهم » بضم التاء، والسلمىّ بالتاء مضمومة على ما لم يسم فاعله .

﴿ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ تقدّم معناه والحمد لله .

قوله تعالى : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾

(١) فى ص ١٩٠ فما بعد من هذا الجزء .

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ ﴾ زين من التزيين . وآختلف الناس مَن المزيِّن؛ فقالت فرقةٌ : الله زيَّن ذلك ؛ وهو ظاهر قول عمــر بن الخطاب رضى الله عنه ، ذكــره البخاريّ . وفى التنزيل : «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا» (١) ؛ ولمــا قال عمر : الآن يارِبّ حين زيّنتها لنا ! نزلت « قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ » وقالت فرقة : المزيِّن هو الشيطان؛ وهو ظاهر قول الحسن ، فإنه قال : مَنْ زيّنها؟ ما أحدٌ أشدّ لها ذمّاً من خالقها . فتزيين الله تعالى إنما هو بالإيجاد والتهيئة للآنتفاع وإنشاء الجِبِلّة على الميل إلى هذه الأشياء . وتزيين الشيطان إنما هو بالوَسْوَسة والخديعة وتحسين أخْذها من غير وجوهها . والآية على كلا الوجهين آبتداءُ وعظ لجميع الناس، وفى ضمن ذلك توبيخٌ لمعاصرى محمد صلى الله عليه وسلم من اليهود وغيرهم . وقرأ الجمهور « زُيِّنَ » على بناء الفعل للفعول، ورفع «حُبُّ» . وقرأ الضحاك ومجاهد «زَيَّنَ» على بناء الفعل للفاعل، ونصب « حُبَّ » . وحركت الهاء من « الشَّهَوَاتِ » فرقا بين الآسم والنعت . والشَّهوات جمع شَهْوة وهى معروفة . ورجل شهوانٌ للشئ (٢)، وشئ شهيّ أى مُشْتَهًى . وآتباع الشهوات مردٍ وطاعتها مهلكة . وفى صحيح مسلم : " حُفّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات" رواه أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لاتنال إلا بقطع مفاوز المكاره و بالصبر عليها . وأن النار لا يُنْجَى منها إلا بترك الشهوات وفِطام النفس عنها . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "طريق الجنة حَزْنٌ بِرَبْوة (٣) وطريق النار سهل بسَهْوَة"؛ وهو معنى قوله : " حفت الجنة بالمكاره وحفت النــار بالشهوات" . أى طريق الجنة صعبة المسلك فيه أعلى ما يكون من الرَّوابِى، وطريق النار سهل لا غِلظ فيه ولا وعورة، وهو معنى قوله " سهل بسهوة " وهو بالسين المهملة .

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣

(٢) هذه عبارة الصحاح الذى يعتمد عليه المؤلف كثيرا . وفى الأصول : « الشهوان للشىء » .

(٣) الحزن (بفتح فسكون) : المكان الغليظ الخشن . والربوة (بالضم والفتح) : ما آرتفع من الأرض . والسهوة : الأرض اللينة التربة .

الثانية — قوله تعالى: ﴿مِنَ النِّسَاءِ﴾ بدأ بهنّ لكثرة تشوّف النفوس إليهن؛ لأنهنّ حبائل الشيطان وفتنة الرجال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما تركت بعدى فتنةً أشدَّ على الرجال من النساء" أخرجه البخاريّ ومسلم . ففتنة النساء أشدّ من جميع الأشياء . ويقال : فى النساء فتنتان، وفى الأولاد فتنة واحدة . فأمّا اللتان فى النساء فإحداهما أن تؤدِّى إلى قطع الرحِم ؛ لأن المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمّهات والأخوات . والثانية يُبْتَلى بجمع المال من الحلال والحرام . وأمّا البنون فإن الفتنة فيهم واحدة، وهو ما ٱبتُلِي بجمع المال لأجلهم. وروى عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تُسْكِنوا نساءكم الغُرَف ولا تُعَلِّموهنّ الكِتاب"(١). حذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن فى إسكانهن الغرف تطلّعا إلى الرجال، وليس فى ذلك تحصينٌ لهن ولا سِتْر؛ لأنهن قد يُشْرِفن على الرجال فتحدُث الفتنة والبلاء، ولأنهن قد خُلِقن من الرجل؛ فهِمّتها فى الرجل والرجلُ خُلِق فيه الشهوة وجُعِلَتْ سَكَنا له ؛ فغير مأمونٍ كل واحد منهما على صاحبه . وفى تعلمهن الكتاب هذا المعنى من الفتنة وأشد . وفى كتاب الشِّهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أعْرُوا النساء يَلْزَمْن الحِجَال" . فعلى الإنسان إذا لم يصبر فى هذه الأزمان أن يبحث عن ذات الدِّين ليسلَمَ له الدِّين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "عَلَيْكَ بذاتِ الدين تَرِبَتْ(٢) يداك" أخرجه مسلم عن أبى هريرة . وفى سنن ٱبن ماجه عن عبد الله بن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تَزَوَّجوا النساء لحسنِهن فعسى حسنُهن أن يُرْدِيهن ولا تزوجوهنّ لأموالهن فعسى أموالهن أن تُطْغيهن ولكن تَزوجوهن على الدِّين ولأَمَةٌ سَوْداء خَرْماءُ(٣) ذات دِين أفضلُ" .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَالْبَنِينَ﴾ عطف على ما قبله . وواحد من البنين ٱبن . قال الله تعالى مخبرا عن نوح : "إنّ ٱبنِي مِنْ أَهْلِي(٤)". وتقول فى التصغير «بُنَيّ» كما قال لقمان . وفى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأشعث بن قيس : "هل لك من ٱبنة حمزة من

(١) الزيادة فى د . (٢) ترب الرجل : ٱفتقر، أى لصق بالتراب؛ وأترب إذا ٱستغنى . وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب ، لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ، وإنما يريدون الحث والتحريض .
(٣) خرماء : مقطوعة بعض الأنف ومثقوبة الأذن . (٤) راجع جـ ٩ ص ٤٥

ولد"؟ قال؟ نعم، لى منها غلام ولوددتُ أنّ لى به جَفنَةً من طعام أطعمها مَن بقِى من بَنِى جَبَلة. فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لئن قلت ذلك إنهم لثمرة القلوب وقرّة الأعين و إنهم مع ذلك لمَجبَنة مَبخَلة مَحزَنة"[1].

الرابعــة — قوله تعالى: ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ ﴾ القناطير جمع قنطار، كما قال تعالى: «وآتيتم إحداهنّ قِنطارًا»[2] وهو العُقدة الكبيرة من المـال، وقيـل: هو آسم للمِعْيار الذى يُوزَن به؛ كما هو الرطل والربع. و يقال لِمـا بلَغ ذلك الوزنَ: هذا قنطار، أى يعدل القنطار. والعرب تقول: قَنْطَر الرجلُ إذا بلغ ماله [أن] يوزن بالقنطار. وقال الزجاج: القِنطار مأخوذ من عقد الشئ و إحكامه؛ تقول العرب: قنطرتَ الشيء إذا أحكمته؛ ومنه سميت القنطرة لإحكامها. قال طرفة:

كَقَنْطَرَةِ الرُّومىِّ أقسم ربُّهـا * لتُكْتَنَفَنْ حتى تُشَادُ بقَرْمَدِ[3]

والقنطرة المعقودة؛ فكأنّ القنطار عَقْدُ مالٍ. وآختلف العلماء فى تحرير حَدِّه كم هو على أقوال عديدة؛ فروى أُبَىُّ بن كعب عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "القنطار ألف أُوقيَّة ومائتا أوقية"؛ وقال بذلك معاذ بن جبل وعبد الله بن عمر وأبو هريرة و جماعة من العلماء. قال آبن عطية: «وهو أصح الأقوال، لكن القنطار على هذا يختلف بآختلاف البلاد فى قدر الأوقية». وقيل: آثنا عشر ألف أوقية؛ أسنده البستىّ فى مسنده الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "القنطار آثنا عشر ألف أوْقية الأوقية خير مما بين السماء والأرض". وقال بهـذا القول أبو هريرة أيضا. وفى مسـند أبى محمد الدارمىّ عن أبى سعيد الخدرىّ قال: «من قرأ فى ليلة عشر آيات كُتِب من الذاكرين، ومن قرأ بمائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ بخمسمائة آية إلى الألف أصبح وله قنطار من الأجر» قيل:

(١) أى أن الأبناء يجعلون آباءهم يجبنون خوفا من الموت فيصيب أبناءهم اليتم والآلام، و يجعلونهم يبخلون فلا ينفقون فيما ينبغى أن ينفق فيه إيثارا لهم بالمال، و يجعلونهم يحزنون عليهم إن أصابهم مرض ونحوه.

(٢) راجع جـ ٥ ص ٩٩ (٣) القرمد الآجر والحجارة.

وما القنطار ؟ قال : «ملء مَسْك ثَوْرٍ ذهبًا» . موقوف؛ وقال به أبو نَضْرَة العَبْدِيّ . وذكر ٱبن سِيدَه أنه هكذا بالسريانية . وقال النقاش عن ٱبن الكلبي أنه هكذا بلغــة الروم . وقال ٱبن عبــاس والضحاك والحسن : ألف ومائتــا مِثقالٍ من الفضــة ؛ ورفعه الحسن . وعن ٱبن عباس : ٱثنا عشر ألف درهم من الفضة ، ومن الذهب ألف دينار دِية الرجل المسلم؛ وروى عن الحسن والضحاك . وقال سعِيد بن المسيِّب : ثمانون ألفا . قتادة : مائة رطل من الذهب أو ثمــانون ألف درهم من الفضة . وقال أبو حمزة الثُّمَــالِيّ(١) : القنطار بإفرِيقية والأندلس ثمانية آلاف مثقال من ذهب أو فضة . السدي : أربعة آلاف مثقال . مجاهد : سبعون ألف مثقال ؛ وروى عن ٱبن عمر . وحكى مكيّ قولا أن القنطار أربعون أوقية من ذهب أوفضة؛ وقاله ٱبن سِيدَه فى المحكم، وقال : القنطار بلغة بَرْبَرْ ألف مثقال. وقال الربيع ابن أنس: القنطار المــال الكثير بعضه على بعض؛ وهذا هو المعروف عند العرب، ومنه قوله : « وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا » أى مالا كثيرا . ومنــه الحديث : " إنّ صفوان بن أميــة قَنْطر فى الجاهلية وقَنْطَر أبوه " أى صار له قنطار من المــال . وعن الحكم : القنطار هو ما بين السماء والأرض . وٱختلفوا فى معنى «المُقَنْطَرَة» فقال الطبري وغيره: معناه المُضَعَّفَة، وكأن القناطير ثلاثةٌ والمقنطرة تسعٌ . وروى عن الفرّاء أنه قال: القناطير جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع، فيكون تسع قناطير . الســدي : المقنطرة المضروبة حتى صارت دنانير أو دراهم . مكيّ : المقنطرة المُكَمَّلة ؛ وحكاه الهروى ؛ كما يقال : بِدَرٌ مُبَدَّرَة ، وآلافٌ مؤلَّفة . وقال بعضهم . ولهذا سمى البنــاء القنطرة لتكاثف البناء بعضــه على بعض . ٱبن كيسان والفرّاء : لا تكون المقنطرة أقل من تسع قناطير . وقيــل : المقَنْطَرة إشارة إلى حضور المــال وكونه عتيــدا . وفى صحيح البستيّ عن عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطِرين " .

---

(١) الثمالى (بضم المثلثة وتخفيف الميم ولام) : نسبة إلى ثمالة بطن من الأزد .

الخامســـة — قوله تعـالى : ﴿ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّـةِ ﴾ الذهب مؤنثة[(١)] ؛ يقال : هى الذهب الحسنةُ ، جمعها ذهاب وذُهُوب[(٢)] . ويجوز أن يكون جمع ذَهْبَة ، ويجمع على الأَذْهَاب . وذهب فلان مذهبا حسنا . والذهب : مكيالٌ لأهل اليمن . ورجل ذَهِبٌ إذا رأى معــدن الذَّهَب فدَهِش . والفضّة معروفة ، وجمعها فِضَضٌ . فالذهب مأخوذة من الذَّهَاب ، والفضة مأخوذة من ٱنفضّ الشيء تفرّق ؛ ومنه فَضَضْتُ القوم فٱنفضوا ، أى فرّقتهم فتفرّقوا . وهــذا الاشتقاق يُشعر بزوالها وعدم ثُبوتهما كما هو مشاهد فى الوجود . ومن أحسن ما قيل فى هذا المعنى قول بعضهم :

النّـار آخرُ دِينـارٍ نطقتَ به * والهمُّ آخِرُ هذا الدِّرْهِمِ الجارى
والمرءُ بينهما إن كان ذا وَرَعٍ * مُعذَّبَ القلبِ بَيْنَ الهَمِّ والنار

السادســة — قوله تعالى : ﴿ والخَيْلِ ﴾ الخيل مؤنثة . قال ٱبن كيسان : حُدِّثت عن أبى عبيدة أنه قال : واحد الخيل خائل ، مثل طائر وطير ، وضائن وضَيْن ؛ وسُمِّى الفرس بذلك لأنه يختال فى مشيه . وقال غيره : هو ٱسم جمع لا واحد له من لفظه ، واحده فرس ، كالقوم والرهْط والنساء والإبل ونحــوها . وفى الخبر من حديث علىّ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : "إن الله خلق الفرس من الريح ولذلك جعلها تطير بلا جناح" . وَهْبُ بن مُنَبِّه : خلقها من رِيح الجَنُوب . قال وهب : فليس تسبيحة ولا تكبيرة ولا تهليلة يكبرها صاحبها إلا وهو يسمعها فيجيبه بمثلها . وسيأتى لذكر الخَيْل ووصفها فى ســورة « الأنفال »[(٣)] مافيه كفايةٌ إن شاء الله تعالى . وفى الخبر : " إن الله عرض على آدم جميع الدواب ، فقيــل له : ٱختر منها واحدا فٱختار الفرس ؛ فقيل له : ٱخترت عِزّك ؛ فصار ٱسمه الخير من هذا الوجه . وسمّيت خيلًا لأنها مَوْسُومَة بالعِزّ فمن ركبــه ٱعتز بنحْلة الله له ويختال به على أعداء الله تعالى . وسمى فرسا

---

(١) هذا رأى المؤلف ، وقد ذكره شارح القاموس (فى مادة ذهب) . والمشهور أن الذهب يذكر ويؤنث كما فى معجمات اللغة . (٢) فى الأصول : والذى فى معجمات اللغة أن الذهب يجمع على أذهاب وذهوب وذهبان (بكسر أوله) كبرق و برقان وذهبان (بضم أوله) كحمل وحملان . فلعل ما فى الأصول محرّف عن « ذهبان » .

(٣) راجع جـ ٨ ص ٣٥

لأنه يفترس مسافات الجو آفتراس الأسد وثبانا ، ويقطعها كالألتهام بيديه على شيء خبطا وتناولا ، وسمى عربيا لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاء عن رفع قواعد البيت ، و إسماعيل عربي ، فصار له نحلة من الله تعالى فسمى عربيا . وفى الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا يدخل الشيطان دارا فيها فرس عتيق " . و إنما سمى عتيقا لأنه قد تخلص من الهجانة[1] . وقد قال صلى الله عليه وسلم : " خير الخيل الأدهم الأقرح الأرثم[2] [ثم الأقرح المحجل[3]] طلق اليمين فإن لم يكن أدهم فكميت على هذه الشية " . أخرجه الترمذيّ عن أبى قتادة . وفى مسند الداريّ عنه أن رجلا قال : يا رسول الله ، إنى أريد أن أشترى فرسا [فأيها أشترى[4]] ؟ قال : " اشتر أدهم أرثم محجلا[5] طلق اليمين أو من الكميت على هذه الشية تغنم وتسلم " . وروى النسائي عن أنس قال : لم يكن أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النساء من الخيل . وروى الأئمة عن أبى هريرة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " الخيل ثلاثة لرجل أجر ولرجل ستر ولرجل وزر " الحديث بطوله ، شهرته أغنت عن ذكره . وسيأتى ذكر أحكام الخيل فى « الأنفال[6] » و « النحل » بما فيه كفاية إن شاء الله تعالى .

السابعة — قوله تعالى : ﴿ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ يعنى الراعية فى المروج والمسارح ؛ قاله سعيد ابن جبير . يقال : سامت الدابة والشاة إذا سرحت تسوم سوما فهى سائمة . وأسمتها أنا إذا تركتها لذلك فهى مسامة . وسوّمتها تسويما فهى مُسوّمة . وفى سنن آبن ماجه عن عليّ قال : نهى

---

(١) الهجين الذى ولدته برذونة من حصان عربى .

(٢) الأقرح : ما فى جبهته قرحة ، وهى بياض يسير فى وجه الفرس دون الغرّة . والأرثم : أبيض الأنف والشفة العليا . والمحجل : أن تكون قوائمه الأربع بيضا يبلغ منها ثلث الوظيف (مستدق الذراع والساق أو ما فوق الرسغ إلى الساق) أو نصفه أو ثلثيه بعد أن يتجاوز الأرساغ ولا يبلغ الركبتين والعرقوبين . وطلق اليمين : لاتحجيل فيها . والكميت : ما لونه بين السواد والحمرة . والشية : كل لون يخالف معظم لون الفرس وغيره .

(٣) زيادة عن سنن الترمذيّ . (٤) زيادة عن مسند الدارمى .

(٥) فى مسند الدارمى والأصول : « محجل » . (٦) راجع جـ ٨ ص ٣٦ و جـ ١٠ ص ٧٣

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السَّوْم(١) قبل طلوع الشمس، وعن ذبح ذوات الدَّر. السوم هنا في معنى الرعي. وقال الله عز وجل: «فِيهِ تُسِيمُونَ»(٢). قال الأخطل:

مثل ٱبنِ بزعة(٣) أو كآخر مثـلِه * أَولى لك(٤) ٱبنَ مسيمةِ الأجمالِ

أراد ٱبن راعيـة الإبل. والسوام: كل بهيمة ترعى، وقيـل: المعدّة للجهـاد؛ قاله ٱبن زيد. مجاهد: المُسَوَّمَة المطَهَّمَة الحسان. وقال عِكرمة: سـوّمها الحسن؛ وٱختاره النحاس، مِن قولهم: رجل وسِـيم. وروى عن ٱبن عباس أنه قال: المسومة المعلمة بشيات الخيل في وجوهها، من السيما وهي العلامة. وهذا مذهب الكِسائِيّ وأبي عبيدة.

قلت: كل ما ذكر يحتمله اللفظ، فتكون راعية مُعَدَّة حسانا مُعْلَمَة لِتُعرَفَ من غيرها. قال أبو زيد: أصل ذلك أن تجعل عليها صوفة أو علامة تخالف سائر جسدها لتبين من غيرها في المرعى. وحكى ٱبن فارس اللغوي في مجمله: المُسَوَّمَة المرْسَلَة وعليها ركبانها. وقال المؤرِّج(٥): المسوّمة المكْوِية. المبرّد: المعروفة في البلدان. ٱبن كيسان: البُلْقُ. وكلها متقارب من السيما. قال النابغة:

وضُمْرٍ كالقِـدَاح مُسَوَّمَاتٍ * عليهـا مَعْشَرٌ أشْبَاهُ جِنِّ

الثامنـــة — قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ قال ٱبن كيسان: إذا قلت نَعَمٌ لم تكن إلا للإبل، فإذا قلت أنعامٌ وقعت للإبل وكل ما يرعى. قال الفرّاء: هو مُذَكَّرٌ ولا يؤنّث؛ يقولون:

---

(١) في حاشية السندي على سنن ٱبن ماجه واللسان (مادة سوم) عند الكلام عن هـذا الحديث: «السوم: أن يساوم بسلعته، ونهى عن ذلك في ذلك الوقت لأنه وقت يذكر الله فيه فلا يشتغل بغيره. ويحتمل أن المراد بالسوم الرعي؛ لأنها إذا رعت الرعي قبل شروق الشمس وهو عليه ند أصابها منه داء قتلها؛ وذلك معروف عند أهل المال من العرب». (٢) راجع جـ ١٠ ص ٨٢

(٣) كذا في ديوانه. ورواية الأغاني (جـ ٨ ص ٣١٩ طبع دار الكتب المصرية): «كابن البزيعة ...». والذي في الأصـول: «ضل ٱبن زرعة ...». ويعني بٱبن بزعة: شداد بن المنـذر أخا حصين الذهلي. وقوله «كآخر مثـله» يعني حوشب بن رؤيم. (٤) أولى لك: ويل لك؛ فهي كلمة تقال في مقام التهـديد والوعيد. وقال الأصمعي: معناه قاربه ما يهلكه، أي نزل به.

(٥) المؤرج (كمحدث): أبو فيد عمرو بن الحارث السدوسي النحوي البصري، أحد أئمة اللغة والأدب.

هـذا نَعَمٌ واردٌ ، ويجمع أنعاما . قال الهَرَوِىّ : والنَّعَم يذكّر و يؤنّث، والأنعام المَواشى من الإبل والبقر والغنم ؛ و إذا قيل : النَّعَم فهو الإبل خاصّة . وقال حسان :

وكانت لا يزال بها أنِيس * خِلَالَ مُروجِها نَعَمٌ وشاءُ

وفى سنن ٱبن ماجه عن عروة البارِقِىّ يرفعه قال : " الإبلُ عِزٌّ لأهلها والغنم بركةٌ والخيرُ معقودٌ فى نواصى الخيل إلى يوم القيامة " . وفيه عن ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " الشاة من دوابّ الجنة " . وفيه عن أبى هريرة قال : أمر رسـول الله صلى الله عليه وسلم الأغنياء بٱتخاذ الغنم ، والفقراء بٱتخاذ الدَّجَاج . وقال : عند ٱتخاذ الأغنياءِ الدجاج يأذن الله تعالى بهلاك القرى . وفيه عن أُمّ هانِئ أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال لها : " ٱتخِذى غَنَما فإنّ فيها بركة " . أخرجه عن أبى بكر بن أبى شَيْبة عن وكيع عن هِشام بن عُرْوة عن أبيه عن أمّ هانِئ ، إسناد صحيح .

التاسـعة ـــ قوله تعالى : ﴿ والحَرْثِ ﴾ الحرث هنا ٱسم لكل ما يُحْرَث، وهو مصدر سمِّى به ؛ تقول : حَرَث الرجل حَرْثا إذا أثار الأرض لمعنى الفِلاحَة ؛ فيقع ٱسم الحِراثَة على زرع الحبوب وعلى الجنّات وعلى غير ذلك من نوع الفِلاحة . وفى الحديث : " ٱحرث لدنياك كأنك تعيش أبدا " . يقال حرثت وٱحترثت . وفى حديث عبـد الله " ٱحْرُثوا هذا القرآن " أى فَتِّشُوه . قال ٱبن الأعرابىّ : الحرث التَّفتِيشُ ؛ وفى الحديث : " أصدقُ الأسماء الحارِثُ " لأن الحـارث هو الكاسب ، وٱحتراث المـال كسبه ، والمِحْراث مُسْعر النار والحَرَاثُ مَجْـرى الوَتَر فى القوس، والجمع أَحْرِثة، وأحرث الرجل ناقتَه أهْزَلها . وفى حديث معاوية : ما فعلتْ نَواضِحُكم[(١)] ؟ قالوا : حَرَثْناها يومَ بَدْر . قال أبو عبيد : يعنون هزلناها ؛ يقـال : حرثت الدابة وأحرثتها، لغتان . وفى صحيح البخارىّ عن أبى أُمامة الباهِلِىّ قال وقد رأى سِكّة[(٢)]

(١) النواضح من الإبل التى يستقى عليها ؛ واحدها ناضح . والخطاب للأنصار : وقد قعدوا عن تلقيه لما حج ؛ وأراد معاوية بذكر نواضحهم تقريعا لهم وتعريضا ، لأنهم كانوا أهل زرع وحرث وسق ؛ فأجابوه بما أسكته ، فهم يريدون بقولهم « هزلناها يوم بدر » التعريض بقتل أشياخه يوم بدر . (النهاية) .

(٢) السكّة (بكسر السين وتشديد الكاف المفتوحة) : الحديدة التى تحرث بها الأرض .

وشيئا من آلة الحرث فقال سمعت رســول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " لا يدخلُ هــذا بيت قومٍ إلا دخله الذُّلّ". قيل : إنّ الذلّ هنا ما يلزَم أهل الشغلَ بالحرث من حقوق الأرض التى يطالبهم بها الأئمة والسلاطين. وقال المهلب : معنى قوله فى هذا الحديث والله أعلم الحَضّ على مَعالى الأحــوال وطلب الرزق من أشرف الصناعات ؛ وذلك لِمـا خشى النبىّ صلى الله عليه وسلم على أمّته من الاشتغال بالحرث و تضييع ركوب الخيل والجهاد فى سبيل الله ؛ لأنهم إن اشتغلوا بالحرث غلبتهم الأمم الراكبة للخيل المتعيشة من مكاسبها ؛ فحضهم على التعيُّش من الجهاد لا من الخــلود(١) إلى عمارة الأرض ولزوم المِهْنَة . ألا ترى أنّ عمر قال : تمعْدَدوا(٢) واخْشَوشِنوا واقطعوا الرُّكُبَ(٣) وثِبوا على الخيل وَثْبًا لا تغلبنّكم عليهــا رعاة الإبل . فأمرهم بملازمة الخيل، ورياضة أبدانهم بالوثوب عليها . وفى الصحيحين عن أنس بن مالك قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " ما مِن مسلم غَرَسَ غَرْسًا أو زَرَع زرعًا فيأكل منــه طيرٌ أو إنسانٌ أو بهيمةٌ إلا كان له به صدقة " .

قال العلماء : ذكر الله تعــالى أربعة أصناف من المــال ، كل نوع من المــال يتموّل به صنف من الناس ؛ أمّا الذهب والفضة فيتموّل بها التجار ، وأمّا الخيل المسوّمة فيتموّل بها الملوك ، وأمّا الأنعام فيتموّل بهــا أهل البوادِى ، وأمّا الحرث فيتموّل بها أهل الرساتيق(٤) . فتكون فتنة كل صنف فى النوع الذى يتموّل ، فأمّا النساء والبنون ففتنة للجميع .

العاشرة ــ قوله تعالى: ﴿ذٰلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى مايُتَمَتّع به فيها ثم يذهب ولايبقى . وهذا منه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة . روى ابن ماجه وغيره عن عبد الله بن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنمــا الدنيا متاع وليس من متاع الدنيا شىء أفضل من المرأة الصالحة " . وفى الحديث : " ازهد فى الدنيــا يحبك الله " أى فى متاعها من الجــاه والمــال الزائد على الضرورىّ . قال صلى الله عليه وسلم: "ليس لابن آدم حق فى سوى هذه

---

(١) اللغة الفصحى « من الإخلاد » . (٢) يقال : تمعدد الغلام إذا شب وغلظ . وقيل : أراد تشبهوا بعيش معدّ بن عدنان وكانوا أهل غلظ وقشف ؛ أى كونوا مثلهم ودعوا التنعم وزى العجم . (٣) فى مسند الإمام أحمد بن حنبل : «وألقوا الركب» جمع ركاب : هى الرواحل من الإبل ، أو جمع ركوب وهى كل ما يركب من دابة.
(٤) الرساتيق : السواد والقرى واحدها رستاق ، وفى ز : البساتين .

الخصالِ بيتٌ يسكنه وثوبٌ يُوارِى عورتَه وجِلْف الخبز والماء[١]" أخرجه الترمذى من حديث المِقدام بن معدِ يكرب . وسئل سهل بن عبد الله : بِمَ يسهل على العبد ترك الدنيا وكل الشهوات ؟ قال : بتشاغله بما أمِر به .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿ واللهُ عِندَهُ حُسْنُ المَآبِ ﴾ ابتداءٌ وخبر . والمآب المرجع ؛ آب يؤوب إيابا إذا رجع ؛ قال امرؤ القيس .

وقد طوفت فى الآفاق حتى * رضِيتُ من الغَنِيمَةِ بالإيَابِ

وقال آخر :

وكلّ ذى غَيْبَــةٍ يؤُوبُ * وغائِبُ المَوْتِ لا يؤوبُ

وأصل مآب مأوب، قلبت حركة الواو إلى الهمزة وأبدل من الواو ألف، مثل مقال. ومعنى الآية تقليل الدنيا وتحقيرها والترغيب فى حسن المرجع إلى الله تعالى فى الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ (١٥)

منتهى الاستفهام عند قوله « مِن ذَٰلِكُمْ » ، « لِلَّذِينَ اتَّقَوْا » خبر مقدم، و « جنات » رفع بالابتداء . وقيل : منتهاه « عِندَ رَبِّهِمْ »، و « جنات » على هذا رفع بابتداء مضمر تقديره ذلك جنات . ويجوز على هذا التأويل « جَنَّاتٍ » بالخفض بدلًا من « خَيْرٍ » ولا يجوز ذلك على الأوّل . قال ابن عطية : وهذه الآية والتى قبلها نظير قوله عليه السلام : " تُنكح المرأة لأربع لمالها وحسبها و جمالها ودينها فاظفر بذات الدِّين تَرِبَتْ يَداك[٢] " خرّجه مسلم وغيره . فقوله " فاظْفَرْ بذات الدين " مثال لهذه الآية . وما قبلُ مثالٌ للأولى . فذكر تعالى هذه تسليةً عن الدنيا وتقويةً لنفوس تاركيها . وقد تقدّم فى البقرة معانى ألفاظ هذه الآية[٣] .

(١) الجلف (بكسر فسكون) : الخبز وحده لا أُدم معه ، وقيل : هو الخبز الغليظ اليابس .
(٢) راجع هامشة ١ ص ٢٩ من هذا الجزء . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ فما بعد .

والرضوان مصدر من الرضا، وهو أنه إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى لهم "تريدون شيئا أزيدكم" ؟ فيقولون : ياربنا وأى شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : "رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدا" خرجه مسلم . وفى قوله تعالى : « وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » وعدٌ ووعيدٌ .

قوله تعالى : ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

﴿الَّذِينَ﴾ بدل من قوله «لِلَّذِينَ اتَّقَوْا» وإن شئت كان رفعا أى هم الذين، أونصبا على المدح . ﴿ رَبَّنَا ﴾ أى يا ربنا . ﴿ إِنَّنَا آمَنَّا ﴾ أى صدّقنا . ﴿ فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ دعاء بالمغفرة . ﴿ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ تقدّم فى البقرة[(١)] . ﴿ الصَّابِرِينَ ﴾ يعنى عن المعاصى والشهوات ، وقيل : على الطاعات . ﴿ والصَّادِقِينَ ﴾ أى فى الأفعال والأقوال ﴿والْقَانِتِينَ﴾ الطائعين . ﴿ والْمُنْفِقِينَ ﴾ يعنى فى سبيل الله . وقد تقدّم فى البقرة[(٢)] هذه المعانى على الكمال . ففسر تعالى فى هذه الآية أحوال المتقين الموعودين بالجنات .

واختلف فى معنى قوله تعالى : ﴿ والْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ فقال أنس بن مالك : هم السائلون المغفرة . قتادة : المصلّون .

قلت : ولا تناقض، فإنهم يصلون ويستغفرون . وخص السَّحَر بالذكر لأنه مظانّ القبول ووقت إجابة الدعاء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير قوله تعالى مخبرا عن يعقوب عليه السلام لبنيه : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى»[(٣)] : "إنه أخر ذلك إلى السحر" خرجه الترمذىّ وسيأتى . وسأل النبىّ صلى الله عليه وسلم جبريل "أىّ الليل أسمع" ؟ فقال : "لا أدرى غير أنّ العرش يهتزّ عند السحر" . يقال سحر وسحر، بفتح الحاء وسكونها ، وقال الزجاج : السحر من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر الثانى، وقال ابن زيد : السحر هو سدس الليل الآخر.

---

(١) راجع المسألة الثانية جـ ٢ ص ٤٣٢ وراجع المسألة الخامسة جـ ٣ ص ٢١٣

(٢) راجع جـ ١ ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٣٣ ، ٣٧١ ، ج٢

(٣) راجع جـ ٩ ص ٢٦٢

قلت : أصح من هذا ما روى الأئمة عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضى ثلث الليل الأوّل فيقول أنا الملِك أنا الملِك من ذا الذى يدعونى فأستجيب له من ذا الذى يسألنى فأعطيه من ذا الذى يستغفرنى فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر " فى رواية « حتى ينفجر الصبح » لفظ مسلم . وقد آختُلف فى تأويله ؛ وأولى ما قيل فيه ما جاء فى كتاب النّسائىّ مفسّرا عن أبى هريرة وأبى سعيد رضى الله عنهما قالا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله عز وجل يمهل حتى يمضى شطرُ الليل الأوّل ثم يأمر مناديا فيقول هل من داعٍ يُستجاب له هل من مستغفِر يغفر له هل من سائل يُعطى " . صححه أبو محمد عبد الحق ، وهو يرفع الإشكال ويوضح كل آحتمال ، وأنّ الأوّل من باب حذف المضاف ، أى ينزل ملَكُ ربنا فيقول . وقد روى «يُنزَل» بضم الياء ، وهو يبيّن ما ذكرنا ، وبالله توفيقنا . وقد أتينا على ذكره فى «الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى» .

مسألة — الآستغفار مندوبٌ إليه ، وقد أثنى الله تعالى على المستغفرين فى هذه الآية وغيرها فقال : «وبِالأسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ»[1] . وقال أنس بن مالك : أُمِرنا أن نستغفر بالسحر سبعين آستغفارة . وقال سفيان الثورىّ : بلغنى أنه إذا كان أوّل الليل نادى منادٍ ليقم القانتون[2] فيقومون كذلك يُصلّون إلى السحر ، فإذا كان عند السحر نادى منادٍ : أين المستغفرون فيستغفر أولئك ، ويقوم آخرون فيصلون فيلحقون بهم . فإذا طلع الفجر نادى منادٍ : ألا ليقم الغافلون فيقومون من فرشهم كالموتى نُشِروا من قبورهم . وروى عن أنس سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله يقول إنى لأهمّ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى عُمّار بيوتى وإلى المتحابّين فىّ وإلى المتهجدين والمستغفرين بالأسحار صرفت عنهم العذاب بهم " . قال مكحول : إذا كان فى أمة خمسة عشر رجلا يستغفرون الله كل يوم خمسا وعشرين مرة لم يؤاخذ الله تلك الأمة بعذاب العامّة . ذكره أبو نعيم فى كتاب الحلية له . وقال نافع : كان آبن عمر يحيى[3] الليل ثم

(١) راجع جـ ١٧ ص ٣٧ (٢) فى نسخ الأصول : المستغفرين ، عدا : ح . فمنها التصويب .
(٣) فى ا : يقوم .

يقول : يا نافع أسحرنا ؟ فأقول لا . فيعاود الصـلاة ثم يسأل ، فإذا قلت نعم قعد يستغفر . وروى إبراهيم بن حاطب عن أبيـه قال : سمعت رجلا فى السحر فى ناحيـة المسجد يقول : يا ربّ ، أمرتنى فأطعتك ، وهـذا سحرٌ فٱغفر لى . فنظرت فإذا [هو](١) ٱبن مسعود .

قلت : فهذا كله يدل على أنه ٱستغفار باللسان مع حضور القلب ، لا ما قال ٱبن زيد أن المراد بالمستغفرين الذين يصلون صلاة الصبح فى جماعة . والله أعلم . وقال لقمان لٱبنه : "يابنيّ لا يكن الدِّيك أكيسَ منك، ينادِى بالأسحار وأنت نائم" . والمختار من لفظ الٱستغفار ما رواه البخارى عن شدّاد بن أوس، وليس له فى الجامع غيره، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " سيد الٱستغفار أن تقول اللهم أنت ربّى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما ٱستطعت أعـوذ بك من شر ما صنعتُ أَبُوء لك بنعمتك علىّ وأبوء بذنبى فٱغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت — قال — ومَنْ قالها من النهار مُوقِنا بها فمات من يومه قبل أن يمسى فهو من أهل الجنة ومن قالها من الليل وهو مُوقن بها فمات من ليله قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة" . وروى أبو محمد عبد الغنىّ بن سعيد من حديث ٱبن لَهِيعَةَ عن أبى صخر عن أبى معاوية عن سعيد بن جُبَيْر عن أبى الصَّهْباء البكرىّ عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بيد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنـه ثم قال : " الا أُعَلِّمك كلماتٍ تقولهنّ لو كانت ذنوبك كَمَدَبِّ النمل — أو كَمَدَبِّ الذّرّ — لغفرها الله لك على أنه مغفور لك : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك عملتُ سوءا وظلمتُ نفسى فٱغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت " .

قوله تعـالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ١٨

فيه أربع مسائل :

الأولى — قال سعيد بن جبير : كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنما، فلما نزلت هذه الآية خَرَرْنَ سُجدا . وقال الكلبىّ : لمـا ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه

(١) فى نسخة : ز .

حبران من أحبار أهل الشام؛ فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه : ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبيّ الذى يخرج فى آخر الزمان ! . فلما دخلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له : أنت محمد ؟ قال "نعم". قالا : وأنت أحمد ؟ قال : "نعم". قالا : نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك وصدّقناك . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سَلَانى" . فقالا : أخبرنا عن أعظم (١) شهادة فى كتاب الله . فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ » فأسلم الرجلان وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد قيل : إن المراد بأولِى العلم الأنبياء عليهم السلام . وقال ابن كيسان : المهاجرون والأنصار . مقاتِل : مؤمنوا أهل الكتاب . السدى والكلبيّ : المؤمنون كلهم؛ وهو الأظهر لأنه عام .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم؛ فإنه لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء . وقال فى شرف العلم لنبيه صلى الله عليه وسلم : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً (٢) » . فلو كان شىء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منـه كما أمر أن يستزيده من العـلم . وقال صلى الله عليه وسلم : "إنّ العلماء ورثة الأنبياء" . وقال : "العلماء أُمَنَاء الله على خلقه" . وهذا شرف للعلماء عظيم، ومحلٌّ لهم فى الدِّين خطير . وخرّج أبو محمد عبد الغنيّ الحافظ من حديث بَرَكة ابن نَشِيط — وهو عَنكَل بن حكارك وتفسيره بركة بن نشيط — وكان حافظا، حدّثنـا عمر ابن المؤمل حدّثنا محمد بن أبى الخصيب حدّثنا عنكل حدّثنا محمد بن إسحاق حدّثنا شريك عن أبى إسحاق عن البراء قال قال رسـول الله صلى الله عليـه وسلم : "العلماء ورثة الأنبياء يحبهم أهل السماء ويستغفر لهم الحيتان فى البحر إذا ماتوا إلى يوم القيامة" . وفى هذا الباب [حديث] عن أبى الدرداء خرّجه أبو داود .

الثالثـــة — روى غالب القطان قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبا من الأعمش فكنت أختلف إليـه . فلما كان ليـلة أردت أن أنحدر إلى البصرة قام فتهجد من الليل فقرأ بهـذه الآية « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هو

(١) فى أ : الأعظم . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٥

ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ . إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَامُ » ، قال الأعمش : وأنا أشهد بمـا شهد الله به ، وأستودع الله هــذه الشهادة ، وهى لى [عند الله](١) وديعة ، وأن الدين عند الله الإسلام — قالهـا مرارا — فغدوت إليه وودّعته ثم قلت : إنى سمعتك تقرأ هذه الآية فـا بلغك فيها ؟ أنا عندك منذ سنة لم تحدّثنى به . قال : والله لاحدّثتك به سنة . قال : فأقمت وكتبت على بابه ذلك اليوم ، فلما مضت السنة قلت : يا أبا محمد قد مضت السنة . قال : حدّثنى أبو وائل ، عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يُجَاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله تعـالى عبدى عهِد إلىّ وأنا أحقّ من وَفَّى أَدْخِلوا عبدى الجنة " . قال أبو الفرج الجوزىّ : غالب القطّان هو غالب بن خَطّاف القطّان(٢) ، يروى عن الأعمش حديث " شهد الله " وهو حديث مُعْضَـل(٣) . قال آبن عدِىّ الضعف على حديثه بَيِّن . وقال أحمــد بن حنبل : غالب بن خطّاف القَطّان ثِقةٌ ثقة . وقال آبن معِين : ثِقة . وقال أبو حاتم : صدوق صالح .

قلت : يكفيك من عدالته وثقته أن خرّج له البخارىّ ومسلم فى كتابيهما ، وحسبك . وروى من حديث أنس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من قرأ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُولُوا ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ عند منامه خلق الله له سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة " . ويقال من أقرّ بهــذه الشهادة عن عقْد من قلبه فقــد قام بالعدل . وروى عن سعيد بن جبير أنه قال : كان حول الكعبة ثلاثمـائة وستون صنما لكل حَىّ من أحْيَـاء(٤) العرب صنمٌ أو صنمان . فلما نزلت هــذه الآية أصبحت الأصنام قد خرت ساجدة لله .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ ﴾ أى بيّن وأعلم ، كما يقال : شهِد فلان عند القاضى إذا بيّن وأعلم لمن الحقّ ، أو على مَنْ هو . قال الزجاج : الشاهد هو الذى يعلم الشىء ويبيّنه ، فقد دلّنا الله تعالى على وحدانيته بمـا خَلَق وبيّن . وقال أبو عُبَيْدة : « شهِد الله » بمعنى قضى الله ، أى أعلم . وقال آبن عطية : وهذا مردود من جهات . وقرأ الكسائى بفتح « أنّ » فى قوله

(١) الزيادة فى نسخ ب ، ز ، ح . (٢) بضم الخاء ، وقيل بفتحها .
(٣) المعضل : ماسقط من إسناده اثنان فصاعدا . (٤) فى ا .

«أنّه لا إله إلّا هُو» وقولِه «أنّ الدِّينَ» . قال المبرد : التقدير : أن الدين عند الله الإسلام بأنه لا إله إلا هو ، ثم حذفت البـاء كما قال : أمرتُك الخيرَ . أى بالخير . قال الكِسائىّ : أنصبْهما جميعا ، بمعنى شهد الله أنه كذا ، وأنّ الدين عند الله . قال ٱبن كيسان : «أنّ» الثانية بدل من الأولى ؛ لأن الإسـلام تفسير المعنى الذى هو التوحيد . وقرأ ٱبن عباس فيما حكى الكِسائى «شَهِدَ اللهُ إنّهُ» بالكسر «أنّ الدِّين» بالفتح. والتقدير : شهد الله أن الدين الإسلام، ثم ٱبتدأ فقال : إنه لا إله إلا هو . وقرأ أبو المهلّب وكان قارئا — شُهَدَاءَ الله بالنصب على الحال، وعنـه « شُهَدَاءُ الله » . وروى شعبة عن عاصم عن زِرٍّ عن أُبَىٍّ عن النبىّ صـلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ[1] «أن الدين عندالله الحنيفية[2] لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية». قال أبو بكر الأنبارىّ : ولا يخفى على ذى تمييزٍ أن هذا الكلام من النبىّ صلى الله عليه وسلم على جهة التفسير، أدخله بعض من نقل الحديث فى القرآن . و ﴿ قَائِمًـا ﴾ نصب على الحال المؤكّدة من ٱسمه تعالى فى قوله «شَهِدَ اللهُ» أو من قوله «إلّا هُوَ» . وقال الفرّاء: هو نصب على القطع ، كان أصله القائم، فلما قَطعت الألف واللام نُصب كقوله : «وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا[3]» . وفى قراءة عبد الله « القَائِمُ بِالقِسْطِ » على النعت ، والقِسط العدل . ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ كرّر لأن الأولى حلّتْ محلّ الدعوى، والشهادة الثانيـة حلّت محل الحُكم . وقال جعفـر الصادق : الأولى وصفٌ وتوحيدٌ، والثانيـة رَسْمٌ وتعليمٌ ؛ يعنى قولوا لا إله إلا الله العزيز الحكيم .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ ﴾ الدِّين فى هذه الآية الطاعة والمِلّة، والإسلام بمعنى الإيمان والطاعات ؛ قاله أبو العالية، وعليه جمهور المتكلمين . والأصل فى مسمى الإيمان

(١) فى ح : يقول . (٢) فى ح : الحنيفية . (٣) راجع جـ ١٠ ص ١١٤

والإسلام التَّغَايُر؛ لحديث جبريل[1] . وقد يكون بمعنى المُرَادَفَة . فيسمى كل واحد منهما بآسم الآخر ؛ كما فى حديث وفد عبد القيس[2] وأنه أمرهم بالإيمان [بالله][3] وحده وقال: "هل تدرون ما الإيمان "؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : " شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وأن تؤدوا خمسا من المغنم " الحديث . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " الإيمان بِضع وسبعون بابا فأدناها إماطة الأذى وأرفعها قول لا إله إلا الله" أخرجه الترمذى . وزاد مسلم "والحياء شعبة من الإيمان " . ويكون أيضا بمعنى التداخل، وهو أن يطلق أحدهما ويراد به مسماه فى الأصل ومسمى الآخر، كما فى هذه الآية إذ قد دخل فيها التصديق والأعمال ؛ ومنه قوله عليه السلام :" الإيمان معرفة بالقلب وقول باللسان وعمل بالأركان" . أخرجه آبن ماجه ، وقد تقدّم . والحقيقة هو الأوّل وضعا وشرعا، وما عداه من باب التوسع . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ الآية . أخبر تعالى عن آختلاف أهل الكتاب أنه كان على علمٍ منهم بالحقائق،وأنه كان بغيا وطلبا للدنيا . قاله آبن عمر وغيره . وفى الكلام تقديم وتأخير، والمعنى : وما آختلف الذين أوتوا الكتاب بغيا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم؛ قاله الأخفش . قال محمد بن جعفر بن الزبير : المراد بهذه الآية النصارى ، وهى توبيخ لنصارى نَجْرَانَ. وقال الربيع بن أنس: المراد بها اليهود. ولفظ الذين أوتوا الكتاب يعمّ اليهود والنصارى ؛ أى « وما آختلف الذين أوتوا الكتاب » يعنى فى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم « إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ » يعنى بيان صفته ونبوّته فى كتبهم . وقيل : أى وما آختلف الذين أوتوا الإنجيل[4] فى أمر عيسى وفرّقوا فيه القول إلا من بعد ماجاءهم العلم بأن الله إله واحد، وأن عيسى عبد الله ورسوله . و « بَغْيًا » نصب على المفعول من أجله ، أو على الحال من " الذين " . والله تعالى أعلم .

(١) راجع هذا الحديث فى صحيحى البخارى ومسلم فى كتاب الإيمان الجزء الأوّل .

(٢) هو عبد القيس بن أفصى بن دعمى ، أبو قبيلة ، كانوا ينزلون البحرين وكان قدومهم عام الفتح وعلى رأسهم عبد الله بن عوف الأشج . (راجع كتاب الطبقات الكبير جـ ا قسم ثان ص ٥٤ طبع أوربا ، وشرح القسطلانى جـ١ ص ١٩٣ طبع بولاق) .

(٣) فى ب، وز، وا، ود .

(٤) فى ا، ود : الكتاب .

قوله تعالى : فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

قوله تعالى : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ أى جادلوك بالأقاويل المزوّرة والمغالطات ، فأسنِدْ أمرك إلى ما كُلِّفت من الإيمان والتبليغ وعلى الله نصرك . وقوله « وَجْهِيَ » بمعنى ذاتى ؛ ومنه الحديث " سجد وجهى للذى خلقه وصوّره " . وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد ؛ كما تقول : خرج فلان فى وجه كذا . وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة مستوفى (١) ؛ والأوّل أولى . وعبر بالوجه عن سائر الذات إذ هو أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس . وقال :

أسلمتُ وجهى لمن أسلمتْ * له المُـــزْنُ تحمل عذْباً زُلالا

وقد قال حذاق المتكلمين فى قوله تعالى : « وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ » (٢) : إنها عبارة عن الذات ، وقيل : العمل الذى يقصد به وجهه . وقوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِ » « من » فى محل رفع عطفا على التاء فى قوله « أَسْلَمْتُ » أى ومن اتبعن أسلم أيضا ، وجاز العطف على الضمير المرفوع من غير تأكيد للفصل بينهما . وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب ياء « اتبعنِ » على الأصل ، وحذف الآخرون اتباعا للصحف إذ وقعت فيه بغير ياء . وقال الشاعر :

ليس تُخفى يَسارتى قدرَ يوم * ولقد تُخْفِ شيمتى إعسارى

قوله تعالى : ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعنى اليهود والنصارى « والأميين » الذين لا كتاب لهم وهم مشركو العرب . « أَأَسْلَمْتُمْ » استفهام معناه التقرير وفى ضمنه الأمر ، أى أسلموا ؛ كذا قال الطبرى وغيره . وقال الزجاج : « أأسلمتم » تهديد . وهذا حسن ، لأن المعنى أأسلمتم أم لا . وجاءت العبارة فى قوله « فَقَدِ اهْتَدَوا » بالماضى مبالغة فى الإخبار بوقوع الهدى لهم

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٥	(٢) راجع جـ ١٧ ص ١٦٥

وتحصيله . و« البلاغ » مصدر بلغ بتخفيف عين الفعل، أى إنمـا عليك أن تُبلِّغ . وقيل: إنه ممـا نسخ بالجهاد . وقال آبن عطية : وهـذا يحتاج إلى معرفة تاريخ نزولها ؛ وأمّا على ظاهر نزول هذه الآيات فى وَفْد نجران فإنمـا المعنى فإنمـا عليك أن تبلغ ما أُنزِل إليك بما فيه من قتال وغيره .

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّين ﴾ قال أبو العباس المبرد : كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم(١) بالإسلام فقتلوهم؛ ففيهم نزلت هذه الآية. وكذلك قال معقل بن أبى مسكين : كانت الأنبياء صلوات الله عليهم تجىء إلى بنى إسرائيـل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن آتبعهم فيأمرون بالقِسط ، أى بالعدل، فيُقْتَلون. وقد روى عن آبن مسعود قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "بئس القوم قوم يقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، بئس القوم قوم لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، بئس القوم قوم يمشى المؤمن بينهم بالتَّقِيَّة" وروى أبو عبيدة بن الجرّاح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيـا من أوّل النهار فى ساعة واحدة فقام مائة رجل وآثنا عشر رجلا من عُبّاد بنى إسرائيل فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر فقتلوا جميعا فى آخر النهار من ذلك اليوم وهم الذين ذكرهم الله فى هذه الآية" . ذكره المهدوىّ وغيره . وروى شعبة عن أبى إسحاق عن أبى عبيدة عن عبد الله قال : كانت بنو إسرائيل تقتل فى اليوم سبعين نبيا ثم تقوم سُوقُ بَقْلِهم من آخر

(١) فى ز : يأمرونهم .

النهار . فإن قال قائل : الذين وُعِظوا بهذا لم يقتلوا نبيا . فالجواب عن هذا أنهم رضوا فعل من قتل فكانوا بمنزلته ؛ وأيضا فإنهم قاتلوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهموا بقتلهم ؛ قال الله عز وجل : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ (١) » .

الثانيـــة — دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كان واجبا فى الأمم المتقــدمة ، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوّة . قال الحسن قال النبيّ صلى الله عليــه وسلم : "من أمر بالمعروف أو نهى عن المنكر فهو خليفة الله فى أرضه وخليفة رسوله وخليفة كتابه" . وعن درّة بنت أبى لهب قالت : جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : مَن خيرُ الناس يارسول الله؟ قال : "آمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأتقاهم لله وأوصلهم لرحمه". وفى التنزيل: «الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ» ثم قال : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ (٢) » . فجعل تعـالى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرقا بين المؤمنين والمنافقين ؛ فدل على أن أخص أوصاف المؤمن الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر، ورأسها الدعاء إلى الإسلام والقتال عليــه . ثم إن الأمر بالمعروف لا يليق بكل أحد ، و إنمـا يقوم به السلطان إذْ كانت إقامة الحدود إليه ، والتعْزير إلى رأيه ، والحبس والإطلاق له ، والنفى والتغريب ؛ فينصب فى كل بلدة رجلا صالحا قويا عالمـا أمينا و يأمره بذلك ، و يمضى الحدود على وجهها من غير زيادة . قال الله تعالى : « الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ (٣) » .

الثالثـــة — وليس من شرط النّاهى أن يكون عدلا عند أهـل السنة ، خلافا للمبتدعة حيث تقول : لا يغيره إلا عدْل . وهذا ساقط ؛ فإن العدالة محصورة فى القليل من الخلق ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عام فى جميع الناس . فإن تشبثوا بقوله تعالى : «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ (٤) » وقوله : « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٥) » ونحوه، قيل لهم : إنمـا وقع الذم ها هنا على ارتكاب ما نهى عنــه لا على نهيه عن المنكر . ولا شك

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٩٧ (٢) راجع جـ ٨ ص ١٩٩ وص ٢٠٢ (٣) راجع جـ ١٢ ص ٧٢
(٤) راجع جـ ١ ص ٣٦٤ (٥) راجع جـ ١٨ ص ٨١

فى أن النهى عنه ممن يأتيه أقبح ممن لا يأتيه ، ولذلك يدور فى جهنم كما يدور الحمار بالرحى ؛ كما بيناه فى البقرة عند قوله تعالى « أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ »[(١)] .

الرابعـــة — أجمع المسلمون فيما ذكر ٱبن عبـد البر أنّ المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه، وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذى لا يتعدّى إلى الأذى فإن ذلك لا يجب أن يمنعه من تغييره؛ فإن لم يقدر فبلسانه ، فإن لم يقدر فبقلبه ليس عليـه أكثر من ذلك . و إذا أنكر بقلبه فقد أدّى ما عليـه إذا لم يستطع سوى ذلك . قال : والأحاديث عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى تأكيد الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جدا ولكنها مقيدة بالاستطاعة . قال الحسن : إنمـا يُكلَّم مؤمن يُرجى أو جاهل يُعلَّم ؛ فأمّا من وضع سيفه أو سوطه فقال : ٱتّقِنِي ٱتّقِنِي فمـا لك وله . وقال ٱبن مسعود : بحسب المرء إذا رأى منكرا لا يستطيع تغييره أن يعـلم الله من قلبـه أنه له كاره . وروى ٱبن لَهِيعَة عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رســول الله صلى الله عليــه وسلم : "لا يحل لمؤمن أن يُذِلّ نفسه" . قالوا : يا رســول الله وما إذلاله نفسه ؟ قال : "يتعرّض من البلاء لمـا لا يقوم له" .

قلت : وخرّجه ٱبن ماجه عن علىّ بن زيد بن جدعان عن الحسن بن جندب عن حذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكلاهما قد تُكُلِّم فيــه . وروى عن بعض الصحابة أنه قال : إن الرجل إذا رأى منكرا لا يستطيع النكير عليه فليقل ثلاث مرات « اللهم إنّ هـذا منكر » فإذا قال ذلك فقد فعل ما عليــه . وزعم ٱبن العربىّ أن من رجا زواله وخاف على نفسه من تغييره الضربَ أو القتلَ جاز له عند أكثر العلماء الاقتحامُ عند هذا الغرر[(٢)] ، و إن لم يرجُ زواله فأىّ فائدة عنده . قال : والذى عندى أن النية إذا خلصت فليقتحم كيف ما كان ولا يبالى .

قلت : هذا خلاف ما ذكره أبو عمر من الإجماع . وهـذه الآية تدل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع خوف القتل . وقال تعالى : « وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ »[(٣)] . وهذا إشارة إلى الإذاية .

(١) راجع جـ ١ ص ٣٦٥ (٢) الغرر : الخطر . المصباح . (٣) راجع جـ ١٤ ص ٦٨

الخامسة — روى الأئمة عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " . قال العلماء : الأمر بالمعروف باليد على الأمراء ، و باللسان على العلماء ، و بالقلب على الضعفاء ، يعني عوام الناس . فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للناهي فليفعله ، وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو بالقتل فليفعل ، فإن زال بدون القتل لم يجز القتل ؛ وهذا تُلُقِّيَ من قول الله تعالى : «فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» (١) . وعليه بنى العلماء أنه إذا دفع الصائل (٢) على النفس أو على المال عن نفسه أو عن ماله أو نفس غيره فله ذلك ولا شيء عليه . ولو رأى زيد عمرا وقد قصد مال بكر فيجب عليه أن يدفعه عنه إذا لم يكن صاحب المال قادرا عليه ولا راضيا به ؛ حتى لقد قال العلماء : لو فرضنا [قودا] (٣) . وقيل : كل بلدة يكون فيها أربعةٌ فأهلها معصومون من البلاء : إمامٌ عادلٌ لا يظلم ، وعالِمٌ على سبيل الهُدى ، ومشايخ يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يُحرّضون على طلب العلم والقرآن ، ونساؤهم مستورات لا يتبرّجن تبرّج الجاهلية الأولى .

السادسة — روى أنس بن مالك قال قيل : يا رسول الله ، متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال : " إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم " . قلنا : يا رسول الله وما ظهر في الأمم قبلنا ؟ قال : " الملك في صِغاركم والفاحشة في كِبَاركم والعلم في رُذَالتكم " . قال زيد : تفسير معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم " والعلم في رذالتكم " إذا كان العلم في الفساق . خرجه ابن ماجه . وسيأتي لهذا الباب مزيد بيان في « المائدة » (٤) وغيرها إن شاء الله تعالى . وتقدّم معنى « فَبَشِّرْهُم » « وَحَبِطَتْ » (٥) في البقرة فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

(١) راجع جـ ١٦ ص ٣١٩ (٢) في د : القاتل . (٣) بياض في أكثر الأصول . الزيادة من د و ب : يعني : لو فرضنا أن دفع الجاني أدى إلى موته فأخذ فيه بالقود فلا عليه لأنه ناج عند الله . والله أعلم .
(٤) راجع جـ ٦ ص ٢٥٣ (٥) راجع جـ ١ ص ٢٣٨ و جـ ٣ ص ٤٨

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قال ٱبن عباس : هذه الآية نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل بيت المِدْرَاس على جماعة من يهود فدعاهم إلى الله . فقال له نُعَيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "إنى على مِلة إبراهيم" . فقالا : فإن إبراهيم كان يهوديا . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "فهلموا إلى التوراة فهى بيننا وبينكم" . فأبيا عليه فنزلت الآية . وذكر النقاش أنها نزلت لأن جماعة من اليهود أنكروا نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : "هلموا إلى التوراة ففيها صفتى" فأبوا . وقرأ الجمهور «لِيَحْكُمَ» وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع «لِيُحكم» بضم الياء . والقراءة الأولى أحسن ؛ لقوله تعالى : « هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ » .

الثانيـــة — فى هـــذه الآية دليـــل على وجوب ٱرتفاع المدعو إلى الحـــاكم لأنه دعى إلى كتاب الله ؛ فإن لم يفعل كان مخالفا يتعين عليه الزجر بالأدب على قدر المخالِف والمخالَف . وهذا الحكم جار عندنا بالأندلس و بلاد المغرب وليس بالديار المصرية . وهـــذا الحكم الذى ذكرناه مبيّن فى التنزيل فى ســـورة « النور » فى قوله تعـــالى : « وإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ — إلى قوله — بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١) » . وأسند الزهرىّ عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من دعاه خصمه إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم ولا حق له" . قال ٱبن العربىّ : وهذا حديث باطل . أمّا قوله « فهو ظالم » فكلام صحيح . وأمّا قوله «فلا حق له» فلا يصح ، ويحتمل أن يريد أنه على غير الحق . قال ٱبن خُوَيْزِمَنْدَاد المالكىّ : واجب على كل من دُعى إلى مجلس الحـــاكم أن يجيب ما لم يُعلم أنّ الحاكم فاسق، أو يُعلم عداوة (٢) من المدعى والمدعى عليه .

الثالثـــة — وفيهـــا دليل على أن شرائع من قبلنا شريعة لنا إلا ما علِمنا نسخه ، وأنه يجب علينا الحكم بشرائع الأنبياء قبلنا ، على ما يأتى بيانه . و إنمـــا لا نقرأ التوراة ولا نعمـــل

(١) راجع جـ ١٢ ص ٢٩٣ فما بعد .
(٢) فى الأصول : عداوة بين المدعى والمدعى عليه ؛ والتصويب من ز .

بمـا فيها لأن من هى فى يده غير أمين عليها وقد غيرها و بدلها ، ولو علمنا أن شيئا منها لم يتغير ولم يتبدّل جاز لنا قراءته . ونحو ذلك روى عن عمر حيث قال لكعب : إن كنت تعلم أنها التـوراة التى أنزلها الله على موسى بن عمران فآقرأها . وكان عليه السلام عالمـا بما لم يغيّر منها فلذلك دعاهم إليها و إلى الحكم بهـا . وسيأتى بيان هـذا فى « المـائدة (١) » والأخبار الواردة فى ذلك إن شاء الله تعالى . وقد قيل : إن هذه الآية نزلت فى ذلك . والله أعلم .

قوله تعـالى : ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

إشارة إلى التـولّى والإعراض ، وآغترار منهم فى قولهم : « نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ (٢) » إلى غير ذلك من أقوالهم . وقد مضى الكلام فى معنى قولهم: « لن تمسنا النار» فى البقرة (٣) .

قوله تعـالى : فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم وأمّته على جهة التوقيف والتعجّب ، أى فكيف يكون حالهم أو كيف يصنعون إذا حشروا يوم القيامة وآضمحلت عنهم تلك الزخارف التى آدّعوها فى الدنيا ، وجوزوا بما آكتسبوه من كفرهم وآجترائهم (٤) وقبيح أعمالهم . واللام فى قوله «ليوم» بمعنى «فى» ؛ قاله الكسائى . وقال البصريون : المعنى لحساب يوم . الطبرىّ : لمـا يحدث فى يوم .

قوله تعـالى : قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١٢ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٢٠ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٠ (٤) فى د : أجترامهم .

قال علىّ رضى الله عنه قال النبيّ صلّى الله عليــه وسلم : " لمــا أراد الله تعالى أن ينزل فاتحــة الكتاب وآية الكرسى وشهد الله وقل اللهمّ مالك الملك إلى قوله بغير حســاب تعلقن بالعرش وليس بينهن و بين الله حجاب وقلن يا رب تهبط بنــا دار الذنوب و إلى من يعصيك فقال الله تعالى وعزتى وجلالى لا يقرأكنّ عبد عقِب كل صلاة مكتوبة إلا أسكنته حظيرة القدس على ما كان منه، و إلا نظرت إليه بعينى المكنونة فى كل يوم سبعين نظرة، و إلا قضيت له فى كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة، و إلا أعذته من كل عدوّ ونصرته عليه ولا يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت " . وقال معاذ بن جبل : آحتبست عن النبيّ صلى الله عليه وسلم يوما فلم أصلّ معه الجمعة فقال : "يا معاذ ما منعك من صلاة الجمعة" ؟ قلت : يا رسول الله، كان ليوحنا بن بارِيا اليهودىّ علىّ أوقيّة من تِبْر وكان على بابى يرصدنى فاشفقت أن يحبسنى دونك . قال : " أتحب يا معاذ أن يقضى الله دينــك " ؟ قلت نعم . قال : " قل كل يوم قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ — إلى قوله — بِغَيْرِ حِسَابٍ رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما تعطى منهما من تشاء وتمنع منهما من تشاء آقض عنى دينى فلو كان عليك ملء الأرض ذهبا لأداه الله عنك". خرّجه أبو نعيم الحافظ، أيضا عن عطاء الخراسانىّ أن معاذ بن جبل قال : علمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم آياتٍ من القرآن — أو كلماتٍ — ما فى الأرض مسلم يدعو بهنّ وهو مكروب أو غارم أو ذو دينْ إلا قضى الله عنه وفرّج همه ، آحتبست عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فذكره . غريب من حديث عطاء أرســله عن معاذ . وقال آبن عبــاس وأنس بن مالك : لمــا آفتتح رسول الله صلى الله عليه وســلم مكة و وعد أمّته ملك فارس والروم قال المنافقون واليهود : هيهات هيهات ! من أين لمحمد ملك فارس والروم ! هم أعز وأمنع من ذلك، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى طمِع فى ملك فارس والروم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية . وقيل : نزلت دامغة لباطل نصارى أهل نجران فى قولهم : إن عيسى هو الله؛ وذلك أن هذه الأوصاف تبيِّن لكل صحيح الفطرة أن عيسى ليس فى شىء منها . قال آبن إسحاق : أعلم الله عز وجل فى هذه الآية بعنادهم وكفرهم ، وأن عيسى صلى الله عليه وسلم و إن كان الله تعالى

أعطاه آياتٍ تدل على نبوّته من إحياء الموتى وغير ذلك فإن الله عز وجل هو المنفرد بهذه الأشياء؛ من قوله : « تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ » . وقوله : « تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » فلو كان عيسى إلٰها كان هذا إليه؛ فكان في ذلك آعتبار وآية بينة[1] .

قوله تعالى : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ﴾ آختلف النحويون في تركيب لفظة «اللهم» بعد إجماعهم أنها مضمومة الهاء مشدّدة الميم المفتوحة، وأنها منادى؛ وقد جاءت مخففة الميم في قول الأعشى :

كدعوة من أبي رَبَاح * يسمعها اللّهُمَ[2] الكُبَار

قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم يا ألله ، فلما آستعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو « يا » جعلوا بدله هذه الميم المشدّدة فجاءوا بحرفين وهما الميمان عوضا من حرفين وهما الياء والألف ، والضمة في الهاء هي ضمة الأسم المنادى المفرد . وذهب الفراء والكوفيون إلى أن الأصل في اللهم يا ألله أُمَّنا بخير؛ فحذف وخلط الكلمتين ، وأنّ الضمة التي في الهاء هي الضمة التي كانت في أُمَّنا لما حذفت الهمزة آنتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطإ العظيم ، والقول في هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الزجاج : محال أن يترك الضم الذى هو دليل على النداء المفرد ، وأن يجعل في آسم الله ضمة أُمّ ، هذا إلحاد في آسم الله تعالى . قال آبن عطية : وهذا غلو من الزجاج ، وزعم أنه ما سمع قط يا أللهُ أُمّ ، ولا تقول العرب يا اللّهمّ . وقال الكوفيون : إنه قد يدخل حرف النداء على « اللهم » وأنشدوا على ذلك قول الراجز :

* غفرتَ أو عذّبت يا اللّهما *

آخر :

وما عليكِ أن تقولي كلّما * سبّحْتِ أو هلّلتِ يا اللهُمَّ ما[3]

اردُدْ علينا شيخَنا مسلّما * فإننا من خيره لن نُعْدَما

(١) في ب و د : آعتبارا به بينة . (٢) هكذا نسخ الأصل ومعاني القرآن للفراء، وفي اللسان : لاهم الكبار، بتخفيف الميم .

(٣) في اللسان : يا أللهما ، وما في الأصول ومعاني القرآن جـ ١ ص ٢٠٣ والخزانة جـ ١ ص ٣٥٨ هو ما أثبتناه .

آخـــر :

إنى إذا مـا حَـدَثٌ أَلَمَّا * أقـول يا اللَّهُـمَّ يا اللَّهُمَّـا

قالوا : فلو كان الميم عوضا من حرف النداء لما آجتمعا . قال الزجاج : وهـذا شاذٌّ ولا يعرف قائله ، ولا يترك له ما كان فى كتاب الله وفى جميع دِيْوان العرب ؛ وقد ورد مثله فى قوله(١) :

همـا نفثا فِى فِىَّ من فَمَوَيْهِمـا * على النّابِح العَاوِى أشَـدَّ رِجَامِ

قال الكوفيون : وإنما تزاد الميم مخفّفة فى فَم وآبْنُمٍ ، وأما ميم مشدّدة فلا تزاد . وقال بعض النحويين : ما قاله الكوفيون خطأ ؛ لأنه لو كان كما قالوا كان يجب أن يقال : «اللهم» ويُقتصر عليه لأنه معه دعاء . وأيضا فقد تقول : أنت اللهم الرزّاق . فلو كان كما آدّعوا لكنت قد فصلت بجملتين بين الابتداء والخبر . قال النَّضْر بن شُمَيْل : من قال اللهم فقد دعا الله تعالى بجميع أسمائه كلها . وقال الحسن : اللهم تجمع الدعاء .

قوله تعـالى : ﴿ مَالِكَ الْمُلْكِ ﴾ قال قتادة : بلغنى أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم سأل الله عز وجل أن يعطى أمته ملك فارس فأنزل الله هذه الآية . وقال مقاتل : سأل النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله له ملك فارس والروم فى أمّته ؛ فعلّمه الله تعالى بأن يدعو بهذا الدعاء. وقد تقدّم معناه . و « مالك » منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ؛ ومثله قوله تعالى : « قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ »(٢) ولا يجوز عنده أن يوصف اللّهمّ ؛ لأنه قد ضمت إليه الميم . وخالفه محمد بن يزيد وإبراهيم بن السرىّ(٣) الزجاج فقالا : « مالك » فى الإعراب صفة لآسم الله تعـالى ، وكذلك «فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ والْأَرْضِ » . قال أبو علىّ ؛ هو مذهب

(١) القائل هو الفرزدق . وصف شاعرين من قومه نزع فى الشعر إليهما . وأراد بالنابح العاوى من هجاه ، وجعل الهجاء كالمراجمة لجعله المهاجى كالكلب النابح ؛ والرجام المراجمة . كذا عن شرح الشواهد . والرجام الحجارة .

(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٦٥

(٣) فى الأصول ؛ والزجاج بالواو وليس بشىء . لأن الزجاج هو إبراهيم بن السرى بن سهل أبو إسحاق الزجاج .

أبى العباس المبرد، وما قاله سيبويه أصوب وأبين، وذلك أنه ليس فى الأسماء الموصوفة شيء على حدّ « اللهم » لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت ، والأصوات لا توصف ؛ نحو غاق وما أشبهه . وكان حكم الاسم المفرد ألا يوصف وإن كانوا قد وصفوه فى مواضع . فلما ضُمّ هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمنزلة صوت ضم إلى صوت ؛ نحو حيّهل فلم يوصف . و ﴿ الْمُلْكِ ﴾ هنا النبوّة ؛ عن مجاهد . وقيل، الغلبة . وقيل : المال والعبيد . الزجاج : المعنى مالك العباد وما ملكوا . وقيل : المعنى مالك الدنيا والآخرة . ومعنى ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ ﴾ أى الإيمان والإسلام[1] . ﴿ مَنْ تَشَاءُ ﴾ أى من تشاء أن تؤتيه إياه، وكذلك ما بعده ، ولابدّ فيه من تقدير الحذف ، أى وتنزع الملك ممن تشاء أن تنزعه منه ، ثم حذف هذا، وأنشد سيبويه :

ألا هل لهذا الدهر من متعلّل * على الناس مهما شاء بالناس يفعل[2]

قال الزجاج : مهما شاء أن يفعل بالناس يفعل . وقوله : ﴿ تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ يقال : عز إذا علا وقهر وغلب ؛ ومنه ، « وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ »[3] . ﴿ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ﴾ ذل يذل ذُلّا [إذا غلب وعلا وقهر][4] . قال طرفة :

بطيء عن الجُلّى سريع إلى الخنا * ذليل بأجماع الرجال مُلَهَّد[5]

﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ أى بيدك الخير والشر فحذف، كما قال : « سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ »[6] . وقيل : خص الخير لأنه موضع دعاء ورغبة فى فضله . قال النقاش : بيدك الخير ، أى النصر والغنيمة . وقال أهل الإشارات . كان أبو جهل يملك المال الكثير، ووقع فى الرس[7] يوم بدر، والفقراء صُهَيب وبلال وخبّاب لم يكن لهم مال، وكان ملكهم الإيمان « قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ » تقيم الرسولَ يتيمَ أبى طالب على رأس الرسّ حتى يُنادِى أبدانا قد انقلبت

(١) فى ز : توتى الإيمان . (٢) البيت للأسود بن يعفر النهشلى . يقول : إن هذا الدهر يذهب ببهجة الإنسان وشبابه ، ويتطل فى فعله ذلك تعلل المتجنى على غيره (عن شرح الشواهد) . (٣) راجع جـ ١٥ ص ١٧٤ (٤) من ب و د .
(٥) الجلى : الأمر العظيم الذى يدعى له ذوو الرأى . والخنا : الفساد والفحش فى المنطق . والذليل : المقهور، وهو ضدّ العزيز . وأجماع : جمع جُمع ، وهو ظهر الكف إذا جمعت أصابعك وضممتها . والملهد : المضروب ، وهو المدفع . (عن شرح المعلقات) . (٦) راجع جـ ١٠ ص ١٦٠ (٧) الرس : البئر المطوية بالحجارة .

إلى القلِيب : ياعُتْبَة ، ياشَيْبَة تعِز من تشاء وتُذِلّ من تشاء . أى صُهَيْب ، أى بِلال[1] ، لاتعتقدوا أنا منعناكم من الدنيا[2] ببغضكم . بيــدك الخير؛ا مَنْعُكم مِن عَجْز « إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » إنعامُ الحق عامٌّ يتولى من يشاء .

قوله تعـالى : تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

قال ٱبن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدى فى معنى قوله « تُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ » الآية ، أى تدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر ، حتى يصير النهـار خمس عشرة ساعة وهو أطولُ ما يكون ، والليل تسع ساعات وهو أقصرُ مايكون ، وكذا ﴿تُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ﴾ وهو قول الكلبي ، وروى عن ٱبن مسعود . وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار ، كأن زوال أحدهما ولوج فى الآخر . وٱختلف المفسرون فى معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ فقال الحسن : معناه تُخرج المؤمنَ من الكافر والكافر من المؤمن ، وروى نحوه عن سَلْمَان الفارسي . وروى مَعْمَر عن الزهرى أن النبي صلى الله عليه وسـلم دخل على نسائه فإذا بٱمرأة حسنة الهيئة قال : " من هذه " ؟ قلن إحدى خالاتك . قال : " ومن هى " ؟ قلن : هى خالدة بنت الأســود بن عبد يغوث . فقال النبي صلى الله عليــه وسلم : "سبحان الذى يخرج الحىّ من الميت" . وكانت ٱمرأة صالحة وكان أبوها كافرا . فالمراد على هذا القول موت قلب الكافر وحياة قلب المؤمن ؛ فالموت والحياة مستعاران[3] . وذهب كثير من العلماء إلى أن الحياة والموت فى الآية حقيقتان ؛ فقال عِكرمة : هى إخراج الدّجاجة وهى حية من البيضة وهى ميتة ، و إخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية . وقال ٱبن مسعود : هى النطفة تخرج من الرجل وهى ميتة وهو حى ، و يخرج الرجل منها حيا وهى ميتة . وقال عِكرمة والسّدى : هى الحبة تخرج من السنبلة والسنبلة تخرج من الحبة ، والنواة من النخلة والنخلة

(١) فى ز : صهيبا وبلالا . (٢) فى ز : منعنا كم الدنيا ، وفى د : إنما منعنا كم . (٣) فى د ، ب : يستعاران .

تخرج من النواة ؛ والحياة فى النخلة والسنبلة تشبيه . ثم قال : ﴿ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ أى بغير تضييق ولا تقتير ؛ كما تقول : فلان يعطى بغير حساب ؛ كأنه لا يحسب ما يعطى .

قوله تعالى : ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ﴿٢٨﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قال ابن عباس : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار فيتخذوهم أولياء ؛ ومثله « لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ »[1] وهناك يأتى بيان هذا المعنى . ومعنى ﴿ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴾ أى فليس من حزب الله ولا من أوليائه فى شىء ؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »[2] . وحكى سيبويه « هو مِنى فرسخين » أى من أصحابى ومعى . ثم استثنى وهى :

الثانيــة — فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ﴾ قال معاذ بن جبل ومجاهد : كانت التقية فى جِدّة الإسلام قبل قوة المسلمين ؛ فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام أن يتقوا من عدوهم . قال ابن عباس : هو أن يتكلم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمــان ، ولا يُقتل ولا يأتى مأثمــا . وقال الحسن : التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة ، ولا تقية فى القتل . وقرأ جابر بن زيد ومجاهد والضحاك ، « إلا أن تتقوا منهم تَقِيّة » وقيل : إن المؤمن إذا كان قائمــا بين الكفار فله أن يداريهم[3] باللسان إذا كان خائفا على نفسه وقلبُه مطمئن بالإيمان . والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل أو القطع أو الإيذاء العظيم . ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلّب ولا يجيب[4] إلى التلفظ بكلمة الكفر ؛ بل يجوز له ذلك على ما يأتى بيانه فى « النحل »[5] إن شاء الله تعالى . وأمالَ حمزة والكسائى « تقاة » ، وفخم الباقون ؛ وأصل « تقاة » وُقَيَة على وزن فُعَلَة ؛ مثال

(١) راجع ص ١٧٨ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٨ ص ٢٤٦ (٣) فى ز : أن يداهنهم .
(٤) فى ب و ز : ولا يجب التلفظ . (٥) راجع جـ ١٠ ص ١٨٠

تُؤَدَة وتُهَمة، قلبت الواو تاء والياء ألفا . وروى الضحاك عن آبن عباس أن هذه الآية نزلت في عبادة بن الصامت الأنصارى وكان بدريا تقيا وكان له حِلف من اليهود؛ فلما خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب قال عبادة : يا نبيّ الله ، إن معى خمسمائة رجل من اليهود ، وقد رأيت أن يخرجوا معى فأستظهر بهم على العدو . فأنزل الله تعالى : « لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ » الآية . وقيل : إنها نزلت في عمار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون ، على ما يأتى بيانه في « النحل » .

قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ قال الزجاج : أى ويحذركم الله إياه . ثم آستغنوا عن ذلك بذا وصار المستعمل ؛ قال تعالى : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ »(١) فمعناه تعلم ما عندى وما في حقيقتى ولا أعلم ما عندك ولا ما في حقيقتك . وقال غيره : المعنى ويحذركم الله عقابه ؛ مثل « وآسألِ القرية » . وقال : « تعلم ما في نفسى » أى مغيَّبى ، فجعلت النفس في موضع الإضمار لأنه فيها يكون . ﴿ وإلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى وإلى جزاء الله المصير . وفيه إقرار بالبعث .

قوله تعالى : قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

فهو العالم بخفيات الصدور وما آشتملت عليه، وبما في السموات والأرض وما آحتوت عليه ، علام الغيوب لا يعزب عنه مثقال ذرّة ولا يغيب عنه شيء ، سبحانه لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة .

قوله تعالى : يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٧٦

«يوم» منصوب متصل بقوله : « ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ . يَوْمَ تَجِدُ» . وقيل : هو متصل بقوله : « وَ إِلَى اللهِ الْمَصِيرُ . يَوْمَ تَجِدُ » . وقيل : هو متصل بقوله : « واللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يَوْمَ تَجِدُ » ويجوز أن يكون منقطعا على إضمار آذكر ؛ ومثله قوله : « إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو آنْتِقَامٍ . يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ (١) » . و « مُحْضَرًا » حال من الضمير المحذوف من صلة « ما » تقديره يوم تجد كل نفس ما عملته من خير محضرا . هذا على أن يكون « تجد » من وجدان الضالة . و « ما » من قوله « وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ » عطف على « ما » الأولى . و « تودّ » فى موضع الحال من « ما » الثانية . وإن جعلت « تَجِدُ » بمعنى تعلم كان « مُحْضَرًا » المفعول الثانى ، وكذلك تكون « تَوَدّ » فى موضع المفعول الثانى ؛ تقديره يوم تجد كل نفس جزاء ما عملت محضرا . ويجوز أن تكون « ما » الثانية رفعا بالآبتداء ، و « تَوَدّ » فى موضع رفع على أنه خبر الآبتداء ، ولا يصح أن تكون « ما » بمعنى الجزاء ؛ لأن « تَوَدّ » مرفوع ، ولو كان ماضيا لجاز أن يكون جزاء ، وكان يكون معنى الكلام : وما عملت من سوء ودّت لو أنّ (٢) بينها وبينه أمدا بعيدا ؛ أى كما بين المشرق والمغرب . ولا يكون المستقبل إذا جعلت « ما » للشرط إلا مجزوما ؛ إلا أن تحمله على تقدير حذف الفاء ، على تقدير : وما عملت من سوء فهى تودّ . أبو علىّ : هو قياس قول الفرّاء عندى ؛ لأنه قال فى قوله تعالى : « وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (٣) » : إنه على حذف الفاء . والأمد : الغاية ، وجمعه آماد . ويقال : آستولى على الأمد ، أى غلب سابقا . قال النابغة :

إلّا لمثلك أو من أنت سابقه　*　سبْقَ الجواد إذا آستولى على الأمَدِ

والأَمَدُ : الغضب . يقال : أمِد أمدًا ، إذا غضب [غضبا] (٤) .

قوله تعالى : قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)

الحُبّ : المحبة ، وكذلك الحِبّ بالكسر . والحِب أيضا الحبيب ؛ مِثْل الخِدْن والخَدِين ؛ يقال أحبّه فهو مُحِبّ ، وحبّه يَحِبّه (بالكسر) فهو مَحْبُوب . قال الجوهرىّ : وهذا شاذّ ؛ لأنه

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٨٢　(٢) فى د : لو كان .　(٣) راجع جـ ٧ ص ٧٧
(٤) الزيادة من د وفى ب : أى غضب .

لا يأتى فى المضاعف يفعِل بالكسر . قال أبو الفتح : والأصل فيه حَبُب كظَرُف ، فأسكنت الباء وأدغمت فى الثانية . قال ٱبن الدّهان سعيد : فى حَبّ لغتان : حَبّ وأَحَبّ ، وأصل « حب » فى هذا البناء حَبُب كظَرُف ؛ يدل على ذلك قولهم : حَبُبْت ، وأكثر ما ورد فعِيل من فَعُل . قال أبو الفتح : والدلالة على أَحَبّ قوله تعالى : « يُحِبُّهُم ويُحِبُّونَه » بضم الياء . و « ٱتبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ » و « حَبّ » يرد على فَعُل لقولهم حَبِيب . وعلى فعِل كقولهم محبوب : ولم يرد ٱسم الفاعل من حَبّ المتعـدى ، فلا يقال : أنا حَابّ . ولم يرد ٱسم المفعول من أفعل إلا قليلا ؛ كقوله :

* مِنِّى بمـنزلة المُحَبّ المُكْرَمِ (1) *

وحكى أبو زيد : حَبَبْتُه أُحِبّه . وأنشد :

فوالله لولا تَمْـــرُهُ ما حَبَبْتُـــهُ * ولا كان أدْنَى من عُوَيفٍ وهاشِم

وأنشـــد :

لعَمْرُكَ إنّنِى وطِلابَ مِصْرٍ * لَكَالْمُزْدادِ ممّـا حَبّ بُعْـدَا

وحكى الأصمعىّ فتح حرف المضارعة مع البـاء وحدها . والحُبّ الخابية ، فارسىّ معرّب ، والجمع حِبَاب وحِبَبَةٌ ؛ حكاه الجوهرىّ . والآية نزلت فى وفد نَجران إذ زعموا أن ما ٱدّعوه فى عيسى حُبٌّ لله عز وجل ؛ قاله محمد بن جعفر بن الزبير . وقال الحسن وٱبن جُريج : نزلت فى قوم من أهل الكتاب قالوا : نحن الذين نُحِبّ ربنـا . وروى أن المسلمين قالوا : يا رسول الله ، والله إنا لنُحب ربنا ؛ فأنزل الله عز وجل : « قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَٱتّبِعُونى » . قال ٱبن عرفة : المحبّة عند العرب إرادةُ (2) الشىء على قصد له . وقال الأزهرى : محبة العبد لله ورسوله طاعته لهما وٱتباعه أمرهما ؛ قال الله تعالى : « قُلْ إنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَٱتّبِعُونِى » . ومحبة الله للعباد إنعامه عليهم بالغفران ؛ قال الله تعالى : « إنّ الله لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ » أى لا يغفر لهم . وقال سهل بن عبـد الله : علامة حُبِّ الله حب القرآن ، وعلامة حب

(1) هذا عجز بيت لعنترة فى معلقته وصدره : * ولقد نزلت فلا تظنى غيره *

(2) فى ب و د : إرادتها .

القرآن حب النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة، وعلامة حب الله وحب القرآن وحب النبي وحب السنة حب الآخرة ، وعلامة حب الآخرة أن يحب نفسه ، وعلامة حب نفسه أن يبغض الدنيا ، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا الزاد والبُلْغة . وروى أبو الدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ قال : " على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس " خرّجه أبو عبد الله الترمذي . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " من أراد أن يحبه الله فعليه بصدق الحديث وأداء الأمانة وألّا يؤذى جاره " . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال إنى أحب فلانا فأحبه قال فيحبه جبريل ثم ينادى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء — قال — ثم يوضع له القبول فى الأرض ، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول إنى أبغض فلانا فأبغضه قال فيبغضه جبريل ثم ينادى فى أهل السماء إن الله يُبغض فلانا فأبغضوه — قال — فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الأرض " . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى آخر سورة « مريم »(1) إن شاء الله تعالى . وقرأ أبو رجاء العُطاردى " فاتّبَعونى "(2) بفتح الباء، ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ عطف على « يُحْبِبْكُم » . وروى محبوب عن أبى عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من « يغفر » فى اللام من « لكم » . قال النحاس : لا يجيز الخليل وسيبويه إدغام الراء فى اللام، وأبو عمرو أجلّ من أن يغلط فى مثل هذا، ولعله كان يُخفى الحركة كما يفعل فى أشياء كثيرة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ (٣٢)

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ﴾ يأتى بيانه فى « النساء »(3) .

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ شرط ، إلا أنه ماض لا يعرب . والتقدير فإن تولوا على كفرهم وأعرضوا عن طاعة الله ورسوله ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم كما تقدّم .

(1) راجع جـ ١١ ص ١٦٠ (2) كذا فى الأصول ، راجع البحر جـ ٣ ص ٤٣١ ، فى الشواذ ص ٢٠ : يحبيكم بفتح الياء . (3) راجع جـ ٥ ص ٢٥٨

وقال « فإن الله » ولم يقـل « فإنه » لأن العرب إذا عظمت الشئ أعادت ذكره، وأنشد سيبويه :

لا أرى الموتَ يسبِقُ الموتَ شئٌ * نغَّصَ المـوتُ ذَا الغِنَى والفقِـيرا [١]

قوله تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحًا ﴾ اصطفى اختار ، وقد تقدم فى البقرة [٢] . وتقدّم فيها اشتقاق آدم [٣] وكنيته ، والتقدير إن الله اصطفى دينهم وهو دين الإسلام ؛ فحذف المضاف . وقال الزجاج : اختارهم للنبوّة على عالمى زمانهم . « ونوحا » قيل إنه مشتق من ناح ينوح ، وهو اسم أعجمىّ إلا أنه انصرف لأنه على ثلاثة أحرف، وهو شيخ المرسلين، وأول رسـول بعثه الله إلى أهل الأرض بعد آدم عليه السلام بتحريم البنات والأخوات والعمات والخالات وسائر القرابات، ومن قال : إن إدريس كان قبله من المؤرخين فقد وهِم على ما يأتى بيانه فى « الأعراف [٤] » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وآلَ إِبْرَاهِيمَ وآلَ عِمْرَانَ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ تقدّم فى البقرة معنى الآل وعلى مايطلق مستوفى [٥] . وفى البخارىّ عن ابن عباس قال : آل إبراهيم وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد ؛ يقول الله تعالى : « إن أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وهَذَا النَّبِىّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ وَلِىُّ الْمُؤْمِنِينَ » وقيل : آل إبراهيم إسمعيل و إسحق و يعقوب والأسباط ، وأن محمدا صلى الله عليه وسلم من آل إبراهيم . وقيل : آل إبراهيم نفسه ، وكذا آل عمران؛ ومنه قوله تعالى : « وبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وآلُ هَارُونَ [٦] » . وفى الحديث : " لقد أُعْطِى مِزمارًا مِن مزامير آل داود " ؛ وقال الشاعر :

---

(١) البيت لسوادة بن عدىّ . وقيل : لأمية بن أبى الصلت . (عن شرح الشواهد) .

(٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٣ (٣) راجع جـ ١ ص ٢٧٩ (٤) راجع جـ ٧ ص ٢٣٢

(٥) راجع جـ ١ ص ٣٨١ (٦) راجع جـ ٣ ص ٢٤٧

ولا تَبْكِ مَيْتا بعد مَيْتٍ أَحَبّه (١) * عليٌّ وعبّاس وآلُ أبي بكر

وقال آخر :

يُلاقِي من تذكُّرِ آلِ لَيْلَى * كما يَلقَى السَّلِيمُ من العِدَادِ (٢)

أراد من تذكر ليلى نفسها . وقيل : آل عمران آل إبراهيم ؛ كما قال : « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » . وقيل : المراد عيسى ؛ لأن أمه ابنة عمران . وقيل : نفسه كما ذكرنا . قال مقاتل : هو عمـران أبو موسى وهارون ، وهو عمـران بن يَصْهُر بن قاهات بن لاوى بن يعقوب . وقال الكلبي : هو عمران أبو مريم ، وهو من ولد سليمان عليه السلام . وحكى السهيلي : عمران ابن ماتان ، وامرأته حَنَّة (بالنون) . وخص هؤلاء بالذكر من بين الأنبياء لأن الأنبياء والرسل بقَضِّهم وقَضِيضهم من نسلهم . ولم ينصرف عِمران لأن في آخره ألفـا ونونا زائدتين . ومعنى قوله : « عَلَى الْعَالَمِينَ » أي على عالَمي زمانهم ، في قول أهل التفسير . وقال الترمذيّ الحكيم أبو عبد الله محمد بن عليّ : جميع الخلق كلهم . وقيل « عَلَى الْعَالَمِينَ » : على جميع الخلق كلهم إلى يوم الصور ، وذلك أن هؤلاء رُسُلٌ وأنبياء فهم صفوة الخلق ؛ فأما محمد صلى الله عليه وسلم فقد جازت (٣) مرتبته الاصطفاء لأنه حبيب ورحمة . قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (٤) » فالرسل خلقوا للرحمة ، ومحمد صلى الله عليه وسلم خُلق بنفسه رحمـةً ، فلذلك صار أمانا للخلق ، لمّـا بعثه الله أَمِنَ الخلقُ العذاب إلى نفخة الصور . وسائر الأنبياء لم يحلّوا هـذا المحل ؛ ولذلك قال عليه السلام : " أنا رحمة مهداة " يخبر أنه بنفسه رحمـة للخلق من الله . وقوله "مهداة" أي هدية من الله للخلق . ويقال : اختار آدم بخمسة أشياء : أولهـا أنه خلقه بيده في أحسن صورة بقدرته ، والثـاني أنه علّمه الأسمـاء كلها ، والثـالث أمر الملائكة بأن يسجدوا له ، والرابع أسكنه الجنـة ، والخامس جعله أبا البشر . واختار نوحا بخمسـة

(١) في الأصول : « ولا تنس » والتصويب من تفسير ابن عطية ، والبيت لأراكة بن عبد الله الثقفي في رثاء النبي صلى الله عليه وسلم . أي أحبه علي وعباس وأبو بكر ، ويريد جميع المؤمنين (ابن عطية) والذي يروى : أجنه : أي ستره في التراب . (٢) العداد : اهتياج وجع اللديغ ، وذلك إذا تمت له سنة مذ يوم لدغ هاج به الألم . وقيل : عداد السليم أن تعد له سبعة أيام فإن مضت رجوا له البرء ، وما لم تمض قيل : هو في عداده .
(٣) في ب و د : حازت . (٤) راجع جـ ١١ ص ٣٥٠

أشياء : أوّلها أنه جعله أبا البشر ؛ لأن الناس كلهم غرقوا وصار ذريته هم الباقين ، والثانى أنه أطال عمــره ؛ ويقال : طوبى لمن طال عمره وحسن عمله ، والثالث أنه آستجاب دعاءه على الكافرين والمؤمنين ، والرابع أنه حمله على السـفينة ، والخامس أنه كان أوّل من نسخ الشرائع ؛ وكان قبل ذلك لم يحرم ترويج الخالات والعمات . وآختار إبراهيم بخمســة أشياء : أوّلها أنه جعله أبا الأنبياء ؛ لأنه روى أنه خرج من صلبه ألف(١) نبيّ من زمانه إلى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، والثـانى أنه آتخذه خليـلا ، والثالث إنه أنجاه من النـار ، والرابع أنه جعله إماما للنـاس ، والخامس أنه آبتـلاه بالكلمات فوفّقـه حتى أتمهن . ثم قال : « وَآلَ عِمْرَانَ » فإن كان عمران أبا موسى وهارون فإنما آختارهما على العالمين حيث بعث على قومه المَنّ والسلْوَى وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء فى العالم . وإن كان أبا مريم فإنه آصطفى له مريم بولادة عيسى بغير أب ولم يكن ذلك لأحد فى العالم . والله أعلم .

قوله تعـالى : ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

تقـدّم فى البقـرة معنى الذرية وآشتقاقها(٢) . وهى نصب على الحـال ؛ قاله الأخفش . أى فى حال كون بعضهم من بعض ، أى ذرية بعضها من ولد بعض . الكوفيون : على القطع . الزجاج : بدل ، أى آصطفى ذرّية بعضها من بعض، ومعنى بعضها من بعض، يعنى فى التناصر فى الدين؛ كما قال : «الْمُنَافِقُونَ والْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِن بَعْضٍ(٣)» يعنى فى الضلالة؛ قاله الحسن وقتادة . وقيل : فى الآجتباء والآصطفاء والنبوّة . وقيل : المراد به التناسل، وهذا أضعفها .

قوله تعـالى : إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾

(١) فى هذا نظر لأن الأنبياء مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا كما ورد فى الخبر، أكثرهم من ذريته عليه السلام .
(٢) راجع جـ ٢ ص ١٠٧ (٣) راجع جـ ٨ ص ١٩٩

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ عِمْرَانَ ﴾ قال أبو عبيدة : « إذ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : التقدير آذكر إذ . وقال الزجاج : المعنى وآصطفى آل عمران إذ قالت آمرأة عمران . وهي حَنّة (بالحاء المهملة والنون) بنت فاقود بن قنبل أم مريم جدّة عيسى عليه السلام، وليس بآسم عربيّ ولا يعرف في العربية حَنّة آسم آمرأة . وفي العربية أبو حَنّة البدريّ، ويقال فيه : أبو حبّة (بالباء بواحدة) وهو أصح، وآسمه عامر ، ودير حَنّة بالشأم، ودير آخر أيضا يقال له كذلك [(١)] ؛ قال أبو نُوَاس :

يا دَيْرَ حَنّةَ مِن ذات الأُكَيْرَاحِ [(٢)] * مَن يَصْحُ عنك فإنّي لستُ بالصّاحِي

وحَبّة في العرب كثير، منهم أبو حَبّة الأنصاريّ، وأبو السّنابل بن بَعْكَك المذكورُ في حديث سُبَيعة [(٣)] حَبّة ، ولا يعرف خنّة بالخاء المعجمة [(٤)] إلا بنت يحيي بن أكثم القاضي ، وهي أم محمد بن نصر [(٥)]، ولا يعرف جنة (بالجيم) إلا أبو جنة ، وهو خال ذي الرُّمّة الشاعر . كل هذا من كتاب آبن مَاكُولاَ .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا ﴾ تقدّم معنى النذر [(٦)]، وأنه لا يلزم العبد إلا بأن يلزمه نفسه . ويقال : إنها لما حملت قالت : لئن نجاني الله ووضعت

---

(١) هو « دير حنة » بالحيرة من بناء نوح (راجع مسالك الأبصار جـ ١ ص ٣١٢ طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) الأكيراح (بالضم ثم الفتح وياء ساكنة وراء وألف وحاء) : مواضع تخرج إليها النصارى في أعيادهم . (عن القاموس) . وفي مسالك الأبصار : (أنها قباب صغار يسكنها رهبان يقال للواحد منها الكرح) .

(٣) هي سبيعة بنت الحارث الأسلمية ، كانت زوجة لسعد بن خولة فمات عنها بمكة فقال لها أبو السنابل حبة : إن أجلك أربعة أشهر وعشر، وقد كانت وضعت بعد وفاة زوجها بليال ؛ قيل خمس وعشرون ليلة ، وقيل أقل من ذلك ، فلما قال لها أبو السنابل ذلك أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال لها : " قد حللت فآنكحي من شئت " . روى عنها فقهاء أهل المدينة وفقهاء أهل الكوفة من التابعين حديثها هذا . وذكر آبن سعد أن أبا السنابل بن بعكك قد كان فيمن خطبها . وذكر آبن البرقي أنه تزوجها وأولدها آبنه سنابل . (راجع الاستيعاب وتهذيب التهذيب وآبن سعد) . (٤) وفي المشتبه للذهبي : بالخاء المعجمة ونون . (٥) الذي في المشتبه : « زوجة محمد » .

(٦) راجع جـ ٣ ص ٣٣٠

ما فى بطنى لجعلته مُحَرَّرا . ومعنى «لك» أى لعبادتك . «محررا» نصب على الحال ، وقيل : نعت لمفعول محذوف، أى إنى نذرت لك ما فى بطنى غلاما محررا ، والأول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإعراب : أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجـوز فى مواضع، ويجوز على المجاز فى أخرى ، وأما التفسير فقيل إن سبب قول آمرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لاتَلِد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان، وأنها كانت تحت شجرة فبَصُرت بطائر يَزُقّ فَرْخًا فتحركت نفسُها لذلك ، ودعت ربها أن يَهَب لها ولدا ، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها مُحَرَّرا[(١)] : أى عتيقا خالصا لله تعالى، خادما للكنيسة حَبِيسا عليها، مُفَرَّغا لعبادة الله تعالى . وكان ذلك جائزا فى شريعتهم ، وكان على أولادهم أن يطيعوهم . فلما وضعت مريم قالت : « رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَا أُنثَى» يعنى أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة . قيل لما يصيبها من الحَيْض والأذى . وقيـل : لا تصلح لمخالطـة الرجال . وكانت ترجـو أن يكون ذَكَرا[(٢)] فلذلك حرّرت .

الثالثـــة ــ قال آبن العربى : « لا خلاف أن آمرأة عِمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرّة، فلو كانت آمرأته أَمَة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر فى ولده وكيفما تصرفت حاله ؛ فإنه إن كان الناذر عبدا فلم يتقرر له قول فى ذلك ؛ و إن كان حرًّا فلايصح أن يكون مملوكا له ، وكذلك المرأة مثله ؛ فأىّ وجه للنذر فيه؟ و إنما معناه ــ والله أعلم ــ أن المرء إنما يريد ولده للأُنس به والاستنصار والتسلّى ، فطلبت هـذه المرأةُ الولدَ أُنْسًا به وسُكونًا إليه ؛ فلما منّ الله تعالى عليها به نذرت أن حَظّها من الأُنْس به متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف ، وهذا نذر الأحرار من الأبرار . وأرادت به مُحَرَّرًا من جهتى ، محررًا من رِقّ الدنيا وأشغالها ؛ وقـد قال رجل من الصُّوفيّة لأمّه : يا أُمّهْ : ذَرِينى لله أتعبّـد له وأتعلم العلم ، فقالت نعم . فسار حتى تبصّر ثم عاد إليها فدقّ الباب، فقالت مَنْ ؟ فقال لها : آبنُكِ فلان، قالت : قد تركناك لله ولا نعود فيك .

الرابعـــة ــ قوله تعالى :﴿ مُحَرَّرًا ﴾ مأخوذ من الحُرِّية التى هى ضد العُبودِيّة؛ من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد . وروى خُصَيف عن عِكرمة ومجاهد :

(١) فى ب : ما ولدته . (٢) فى ب و د : غلاما .

أن المحرَّر الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا . وهذا معروف في اللغة أن يقال لكل ماخلَص : حُرّ ، ومحرَّر بمعناه؛ قال ذو الرُّمَّة :

والقُرط في حُرّة الذِّفْرَى مُعلَّقُـهُ * تباعـد الحبلُ منه فهو يَضطرِب (١)

وطِين حُرّ لا رمل فيه ، وباتت فلانة بليلةٍ حُرّة إذا لم يصل إليها زوجها أوّل ليلة ؛ فإن تمكّن منها فهى بليلة شَيْباء .

الخامسـة — قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ قال ابن عباس : إنما قالت هذا لأنه لم يكن يُقبل في النَّذْر إلا الذكور، فقبِل الله مريم . « وأنثى » حال ، وإن شئت بدلٌ . فقيل : إنها ربّتها حتى ترعرعت وحينئذ أرسلتها؛ رواه أشهب عن مالك : وقيل : لفتها في خِرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوفّت بنذرها وتبرّأت منها . ولعل الحجاب لم يكن عندهم كما كان في صدر الإسلام ؛ ففي البخاريّ ومسلم أن امرأة سوداء كانت تَقُمّ المسجد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فماتت . الحديث .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هو على قراءة من قرأ « وضعتُ » بضم التاء من جملة كلامها ؛ فالكلام متّصل . وهى قراءة أبي بكر وابن عامر، وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له [أن يخفى عليه شيء] (٢) ، ولم تقله على طريق الإخبار لأن علم الله في كل شيء قد تقرر في نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله تعالى . وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل قُدِّم، وتقديره أن يكون مؤخّرا بعد «وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » والله أعلم بما وضعت ؛ قاله المَهْدِويّ . وقال مكيّ : هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت فقال : والله أعلم بما وضعت أمّ مريم قالته أو لم تقله . ويقوّى ذلك أنه لو كان من كلام أمّ مريم لكان وجه الكلام : وأنت أعلم بما وضعتُ ؛ لأنها نادته في أول الكلام في قولها : رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى . ورُوى عن ابن عباس « بما وضعتِ » بكسر التاء ، أي قيل لها هذا .

(١) الذفريان : ما بين يمين العنق ويساره ، وتباعد الحبل منه ، أي تباعد حبل العنق من القرط لأنها طويلة العنق ليست بوقصاء ، ومعلقه ، أي مكان تعليقه . (٢) الزيادة من ب و د .

السابعــة — قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ﴾ آستدل به بعض الشافعية على أن المطاوعة فى نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه فى وجوب الكفارة عليها ، آبنُ العربى : وهذه منه غفلة ، فإن هـذا خبر عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به ، وهـذه الصالحة إنما قصدت بكلامها ما تشهد له به بيّنة حالها ومَقْطع كلامها ، فإنها نذرت خدمة المسجد فى ولدها ، فلما رأته أنثى لا تصلح وأنها عورة آعتذرت إلى ربّها من وجودها لها(١) على خلاف ما قصدته فيها . ولم ينصرف «مريم» لأنه مؤنث معرفة ، وهو أيضا أعجمى ؛ قاله النحاس . والله تعالى أعلم .

الثامنــة — قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ يعنى خادم الربّ فى لغتهم . ﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ يعنى مريم . ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ يعنى عيسى . وهذا يدلّ على أن الذرّية قد تقع على الولد خاصّة . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من مولود يولد إلا نَخَسه الشيطان فيستهلّ صارخا من نخسة [الشيطان](٢) إلا آبنَ مريم وأمّه " ثم قال أبو هريرة : آقرءوا إن شئتم «وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» . قال علماؤنا : فأفاد هـذا الحديثُ أن الله تعالى آستجاب دعاء أمّ مريم ، فإن الشيطان يَنخَس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وآبنها . قال قتادة : كل مولود يطعن الشيطان فى جنبه حين يولد غير عيسى وأمّه جُعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب ولم ينفذ لهما منه شيء ، قال علماؤنا : وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما ، ولا يلزم من هـذا أن نخس الشيطان يلزم منه إضلال الممسوس وإغواؤه فإن ذلك ظنّ فاسد ؛ فكم تعرّض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك فعصمهم الله مما يَرُومه(٣) الشيطان ، كما قال تعالى : «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ(٤)» . هذا مع أن كل واحد من بنى آدم قد وُكل به قَرِينه من الشياطين ؛ كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فمَرْيَمُ وآبْنُها وإن عُصِما من نخسه فلم يُعْصَما من ملازمته لهما ومقارنته . والله أعلم .

---

(١) فى ب : له ، وفى ز : من وجود مالها . (٢) زيادة من صحيح مسلم .
(٣) كذا فى ب و د بالفاء . (٤) راجع ج ١٠ ص ٢٨

قوله تعالى : فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ المعنى : سلك بها طريق السعداء ؛ عن ابن عباس . وقال قوم : معنى التقبّل التكفّل فى التربية والقيامُ بشأنها . وقال الحسن : معنى التقبل أنه ما عذّبها ساعةً قطُّ من ليل ولا نهار . ﴿ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يعنى سوّى خلقها من غير زيادة ولا نقصان ، فكانت تنبت فى اليوم ما ينبت المولود فى عام واحد . والقبول والنبات مصدران على غير المصدر ، والأصل تقبُّلًا و إنباتا . قال الشاعر :

أكُفرًا بعد ردّ الموت عنّى * وبعدَ عطائكَ المائةَ الرِّتاعا

أراد بعد إعطائك ، لكن لما قال « أنبتها » دل على نَبَت ؛ كما قال آمرؤ القيس :

فصِرْنا إلى الحسنى ورقّ كلامُنا * ورُضْتُ فذلّت صعبةٌ أىّ إذلالِ

وإنما مصدر ذَلّتْ ذُلٌّ ، ولكنه ردّه على معنى أذْلَلْتُ ؛ وكذلك كل ما يَرِد عليك فى هذا الباب . فمعنى تقبّل وقَبِل واحد ، فالمعنى فقَبِلها ربُّها بقبول حَسَن . ونظيره قولُ رُؤْبَة :

* وقد تَطَوّيْتُ آنطواءَ الحِضْبِ (١) *

[الأفعى] (٢) لأن معنى تَطَوّيتُ وآنطويت واحد ؛ ومثله قول القَطامىّ :

وخيرُ الأمر ما آستقبلت منه * وليس بأن تَتَبّعه آتباعا

لأن تَتَبعت وآتّبعت واحد . وفى قراءة آبن مسعود « وأَنْزَلَ الملائكةَ تَنْزِيلًا (٣) » لأن معنى نَزّل وأنزل واحد . وقال المُفَضّل : معناه وأنبتها فنبتتْ نَبَاتًا حَسَنًا . ومراعاة المعنى أولى

---

(١) الحضب (بفتح الحاء وكسرها وسكون الضاد) .	(٢) الزيادة فى نسخ : ج ، ب ، د .
(٣) راجع جـ ١٣ ص ٢٤

كما ذكرنا . والأصل فى القبول الضم ؛ لأنه مصـدر مثل الدخول والخـروج ، والفتح جاء فى حروف قليـلة ؛ مثل الوَلوع والوَزوع ؛ هـذه الثلاثة لا غيرُ ؛ قاله أبو عمرو والكسائى والأئمة . وأجاز الزجاج « بقُبُول » بضم القاف على الأصل .

قوله تعـالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أى ضَمها إليه . أبو عبيدة : ضَمِن القيام بهـا . وقرأ الكوفيون « وكفّلها » بالتشديد ، فهو يتعدّى إلى مفعولين ؛ والتقدير وكفّلها ربُّها زكريا ، أى ألزمه كفالتها وقـدّر ذلك عليـه ويَسّره له . وفى مصحف أُبَىّ « وأكفلها » والهمزة كالتشديد فى التعدّى ؛ وأيضا فإن قَبْله « فتقبلها ، وأنبتها » فأخبر تعالى عن نفسه بمـا فعل بها؛ فجاء « كفّلها » بالتشديد على ذلك . وخففه الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا . فأخبر الله تعالى أنه هو الذى تولّى كفالتها والقيامَ بها ؛ بدلالة قوله : « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » . قال مَكّىّ : وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف ،لأن الله تعالى إذا كفّلها زكريا كفَلها بأمر الله ، ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته ؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان . وروى عمرو بن موسى عن عبـد الله بن كَثِير وأبى عبد الله المُزَنِى « وكَفِلها » بكسر الفاء . قال الأخفش : يقال كَفَل يَكْفُلُ وكَفِلَ يَكْفَلُ ولم أسمع كَفُلَ ، وقد ذُكِرت . وقرأ مجاهد « فتقبّلْها » بإسكان اللام على المسألة والطلب . « رَبّها » بالنصب نداء مضاف . « وأنبتْها » بإسكان التاء « وكفلْها» بإسكان اللام « زكرياء » بالمدّ والنصب . وقرأ حفص وحمزة والكسـائى «زكريا» بغير مد ولا همز، ومدّه الباقون وهَمَزُوه . وقال الفَرّاء: أهل الحجاز يمدّون « زكرياء » ويُقْصرونه ، وأهل نَجْد يحذفون منـه الألف ويصرفونه فيقولون : زكرىٌّ . قال الأخفش : فيه أربع لغات : المـد والقصر، وزكرِىٌّ بتشديد الياء والصرف ، وزكَرٍ ورأيت زكرِيا . قال أبو حاتم : زكرى بلا صرف لأنه أعجمىّ وهذا غلط ؛ لأن ما كان فيه « يا » مثل هـذا آنصرف مثل كرسىّ ويحيى ، ولم ينصرف زكرياء فى المد والقصر لأن فيه ألف تأنيث والعجمة والتعريف .

قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

فيه أربع مسائل :

الأولى ـــ قوله تعـالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ ﴾ المحراب فى اللغة أكرم موضع فى المجلس . وسيأتى له مزيد بيان فى سورة « مريم »(١) . وجاء فى الخـبر : إنها كانت فى غرفة كان زكريا يصعَد إليها بسُلَّم . قال وَضّاح اليَمَن(٢) :

رَبَّـــةُ مِحـــرابٍ إذا جئتُهـا * لم أَلْقها حتى أرتَـــقِىَ سُلَّمـا

أى رَبّة غرفة . روى أبو صالح عن ابن عباس قال : حملت امرأة عِمران بعـد ما أسنّت فنذرت ما فى بطنها محررا فقال لهـا عمران : ويحكِ ! ما صنعت ؟ أرأيت إن كانت أنثى ؟ فاغتما لذلك جميعا . فهلك عِمران وحَنّـة حامل فولدت أنثى فتقبلها الله بقبول حَسَن ، وكان لا يُحرّر إلا الغلمان فتساهم عليهـا الأحبار بالأقلام التى يكتبون بهـا الوَحى ، على ما يأتى . فكفلها زكريا وأخذ لها موضعا فلما أسنّت جعل لها مِحرابا لا يرتقى إليه إلا بسلم، واستأجر لها ظِئْرا وكان يُغلِق عليها بابا، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبِرت ، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عنـد خالتهـا وكانت خالتهـا امرأة زكريا فى قـول الكَلْبِى . قال مُقاتِل : كانت أختها امرأة زكريا ، وكانت إذا طهرت من حيضتها واغتسلت ردّها إلى المحـراب . وقال بعضهم : كانت لا تحيض وكانت مطهَّرة من الحيض . وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء فى القَيْظ وفاكهة القيظ فى الشتاء فقال: يا مريم أنّى لك هذا ؟ فقالت : هو من عند الله . فعند ذلك طمِع زكريا فى الولد وقال : إن الذى يأتيها بهذا قادر أن يرزقنى ولدا . ومعنى « أنّى » من أين ؛ قاله أبو عبيدة . قال النحاس : وهذا

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٤ (٢) فى الأصول : « قال عدى بن زيد » والتصويب عن الأغانى ولسان العرب وشرح القاموس . وهذا البيت من قصيدة لوضاح اليمن أولها :

يابنة الواحد جودى فما * إن تصرمينى فبما أو لما

وفى د : لم أدن . راجع ترجمته فى الأغانى جـ٦ ص ٢٠٩ — ٢٤٠ طبع دار الكتب المصرية .

فيه تساهل؛ لأن « أين » سـؤال عن المواضع و « أنّى » سؤال عن المذاهب والجهات. والمعنى من أى المذاهب ومن أىّ الجهات لكِ هذا . وقد فرّق الكُمَيت بينهما فقال :

أنّى ومن أينَ آبــك الطّرب * من حيث لا صَبْوة ولا رِيَب

و « كلما » منصوب بـ «وَجَدَ» ،أى كلّ دَخْلة . ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ قيل: هو من قول مريم، ويجوز أن يكون مستأنفا؛ فكان ذلك سبب دعاء زكريا وسؤاله الولد.

الثانيـــة — قوله تعـالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ هنالك فى موضـع نصب؛ لأنه ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصـله للكان . وقال المُفَضَّل بن سَلَمَة : « هنالك » فى الزمان و « هنـاك » فى المكان ، وقد يجعل هـذا مكان هذا . و ﴿هَبْ لِي﴾ أعطنى. ﴿مِنْ لَدُنْكَ﴾ مِن عِندك . ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أى نَسلا صالحا. والذُّرِّية تكون واحدة وتكون جمعا ذكرا وأنثى، وهو هنـا واحد . يدل عليـه قوله « فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا »(١) ولم يقل أولياء، وإنما أنّث « طَيِّبَة » لتأنيث لفظ الذرية؛ كقوله :

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنّث ولدته لتأنيث لفظ الخليفة . ورُوِى من حديث أنس قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : " أىّ رجل مات وترك ذُرِّيةً طيبة أجرى الله له مثـل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئا " . وقد مضى فى « البقرة » اشتقاق الذرية(٢) . و﴿طَيِّبَةً﴾ أى صالحة مباركة . ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أى قابله؛ ومنه(٣) : سمِع الله لمن حمِده .

الثالثـــة — دلّت هذه الآية على طلب الولد، وهى سُنّة المرسلين والصدّيقين، قال الله تعالى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً »(٤) . وفى صحيح مسـلم عن سعد بن أبى وَقّاص قال : أراد عثمان أن يتبتّل فنهاه رسول الله صلى الله عليه وسلم،ولو أجاز له ذلك لاختصينا . وخرّج ابن ماجه عن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " النكاح من سُنّتى فمن لم يعمل بسُنّتى فليس منّى وتزوّجوا فإنى مكاثرٌ بكم الأمم ومن كان

(١) راجع جـ ١١ ص ٧٧ (٢) راجع المسئلة التاسعة عشرة جـ ٢ ص ١٠٧
(٣) فى ب : ومنه قوله . (٤) راجع جـ ٩ ص ٣٢٧

ذا طَول فَلْيَنْكِح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وِجاء[1]". وفى هذا ردٌّ على بعض جُهّال المتصوفة حيث قال: الذى يطلب الولدَ أحمق، وما عَرَف أنه [هو][2] الغبيُّ الأخرق؛ قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل: «وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ[3]» وقال: «وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ[3]». وقد ترجم البخارى على هذا «باب طلب الولد». وقال صلى الله عليه وسلم لأبى طَلْحة حين مات ٱبنه: "أَعْرَسْتم الليلة"؟ قال نعم. قال: "بارك الله لكما فى غابر ليلتكما". قال فحملت. فى البخارىّ: قال سفيان فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولادٍ كلهم قد قرءوا القرآن. وترجم أيضا «باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة» وساق حديث أنس بن مالك قال قالت أمّ سُلَيم: يارسول الله، خادمك أنس أدع الله له. فقال: "اللّهمّ أكثر ماله وولده و بارك له فيما أعطيته". وقال صلى الله عليه وسلم: "اللّهمّ ٱغفر لأبى سَلَمة وٱرفع درجته فى المهديّين وٱخلفه فى عَقِبه فى الغابرين". خرّجه البخارىّ ومسلم. وقال صلى الله عليه وسلم: "تزوّجوا الوَلُود الوَدود فإنى مكاثر بكم الأمم". أخرجه أبو داود. والأخبار فى هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندب إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه فى حياته و بعد موته. قال صلى الله عليه وسلم: "إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث" فذكر "أو ولد صالح يدعو له". ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

الرابعــة — فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرّع إلى خالقه فى هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهما والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا مُعينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما فى أُولاه وأخراه؛ ألا ترى قول زكريا «وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا[4]» وقال: «ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً». وقال: «هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ». ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنس فقال: "اللّهمّ أكثر ماله وولده و بارك له فيه". خرّجه البخارىّ ومسلم، وحسبُك.

---

(١) الوجاء: أن ترض عروق أنثيا الفحل رضا يذهب شهوة النكاح وهو شبيه بالخصاء. أراد أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الوجاء. (٢) كذا فى ب، و د. (٣) راجع جـ ١٣ ص ١١٢ وص ٨٢
(٤) راجع جـ ١١ ص ٨١

قوله تعالى : فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ قرأ حمزة والكسائى « فناداه » بالألف على التذكير ، ويُميلانها لأن أصلها الياء، ولأنها رابعة . وبالألف قراءة ابن عباس وابن مسعود ، وهو اختيار أبى عبيد . وروى عن جرير عن مُغيرة عن إبراهيم قال : كان عبد الله يذكّر الملائكة فى [كلّ[1]] القرآن . قال أبو عبيد : نراه اختار ذلك خلافا على المشركين لأنهم قالوا : الملائكة بنات الله . قال النحاس : هذا احتجاج لا يُحصَّل منه شيء ؛ لأن العرب تقول : قالت الرجال ، وقال الرجال، وكذا النساء ، وكيف يحتجّ عليهم بالقرآن ، ولو جاز أن يحتج عليهم بالقرآن بهذا لجاز أن يحتجّوا بقوله تعالى : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » ولكن الحجة عليهم فى قوله عز وجل : « أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ[2] » أى فلم يشاهدوا، فكيف يقولون إنهم إناث فقد عُلم أن هذا ظنّ وهوًى . وأما « فناداه » فهو جائز على تذكير الجمع ، « ونادته » على تأنيث الجماعة . قال مكّى : والملائكة ممن يعقل فى التكسير يجرى فى التأنيث مجرى ما لا يعقل ، تقول : هى الرجال، وهى الجذوع ، وهى الجمال، وقالت الأعراب . ويقوّى ذلك قوله : « وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ » وقد ذكر فى موضع آخر فقال : « وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ[3] » وهذا إجماع . وقال تعالى : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ[4] » فتأنيث هذا الجمع وتذكيره حسنان . وقال السُّدّى : ناداه جبريل وحده ؛ وكذا فى قراءة ابن مسعود . وفى التنزيل « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ[5] » يعنى جبريل ، والروح الوحى . وجائز فى العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع . وجاء فى التنزيل « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ[6] » يعنى نُعيم بن مسعود ؛ على ما يأتى . وقيل : ناداه جميع الملائكة، وهو الأظهر . أى جاء النداء من قِبلَهم .

---

(١) زيادة عن إعراب القرآن للنحاس . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٧٣ (٣) راجع جـ ٧ ص ٣٩
(٤) راجع جـ ٩ ص ٣١٢ (٥) راجع جـ ١٠ ص ٦٧ (٦) راجع ص ٢٧٩ من هذا الجزء .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ ﴾ « وهو قائم » ابتداء وخبر « يصلّى » فى موضع رفع ، و إن شئت كان نصبا على الحال من المضمر . « أنّ الله » أى بأن الله . وقرأ حمزة والكسائى(١) « إنّ » أى قالت إن الله ، فالنداء بمعنى القول . « يبشرك » بالتشديد قراءة أهل المدينة . وقرأ حمزة « يَبْشُرُك » مخففا ، وكذلك حُميد بن القيس المكىّ إلا أنه كسر الشين وضم الياء وخفف الباء . قال الأخفش : هى ثلاث لغات بمعنًى واحد .

دليـل الأولى هى قراءة الجمـاعة أن ما فى القرآن من هـذا من فعل ماض أو أمر فهو بالتثقيل ، كقوله تعالى : «فَبَشِّرْ عِبَادِي»(٢) «فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ» «فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ»(٣) «قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ»(٤) . وأما الثانية وهى قراءة عبد الله بن مسعود فهى من بَشَر(٥) يَبْشُر وهى لغة تهـامة ، ومنه قول الشاعر :

بَشَرتُ عيالِى إذْ رأيتُ صحيفةً * أتتك من الحجّـاج يُتلى كتابُهـا

وقال آخر(٦) :

و إذا رأيت الباهشين(٧) إلى النّدى * غُبْرًا أكُفُّهُم بقـاعٍ مُمْحِلِ

فأعِنْهُـمُ وٱبْشَرْ بمـا بَشِروا به * و إذا هُمُ نَزَلُوا بضَنْـكٍ فٱنزِلِ

وأما الثالثة فهى من أبشر يُبشر إبشارا قال :

يا أمّ عَمْـرو أبشرى بالبُشْرَى * موتٌ ذريـعٌ وجَـرادٌ عَظْلَى(٨)

قوله تعالى : ﴿ يَحْيَى ﴾ كان ٱسمه فى الكتاب الأوّل حيا ، وكان ٱسم سارّة زوجة إبراهيم عليه السلام يسارة ، وتفسيره بالعربية لا تلد ، فلما بُشِّرت بإسحاق قيل لهـا : سارة ، سمّاها

---

(١) كذا فى الأصـل و إعراب القرآن للنحاس ، والذى فى البحر وغرائب القـرآن للنيسابورى وابن عطية : وقرأ ابن عامر وحمزة « إن الله » بكسر الهمزة ، وقرأ الباقون بفتح الهمزة . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٤٣ وص ١١ وص ١١٢ . وفى أكثر الأصول : « عبادى » بالياء وهو رسم ورش فى مصاحف المغرب .

(٣) راجع جـ ٩ ص ٦٩ (٤) راجع جـ ١٠ ص ٣٥ (٥) كذا فى الأصول والبغوى . والذى فى البحر وابن عطية : « وفى قراءة عبد الله بن مسعود يبشرك بضم الياء وتخفيف الشين المكسورة من أبشر ، وهكذا قرأ فى كل القرآن » . (٦) هو عطية بن زيد ، وقال ابن برّى هو لعبد القيس بن خفاف البرجمى . (عن اللسان) .

(٧) قال أبو عبيد : يقال للإنسان إذا نظر إلى شىء فأعجبه وٱشتهاه فتناوله وأسرع نحـوه وفرح به : بهش إليه .

(٨) جراد عاظلة وعظلى : لا تبرح . فى اللسـان : « أراد أن يقول : يا أم عامر فلم يستقم له البيت فقال يا أم عمرو ، وأم عامر كنية الضبع . ومن كلامهم للضبع : أبشرى بجراد عظلى ، وكم رجال قتلى » .

بذلك جبريل عليه السلام . فقالت : يا إبراهيم لِمَ نقص من آسمى حرف؟ فقال إبراهيم ذلك لجبريل عليهما السـلام .. فقال : " إن ذلك الحرف زيد فى آسم آبنٍ لها من أفضل الأنبياء آسمه حيٌ وسمى يحيى" . ذكره النقاش . وقال قَتَادة : سمى يحيي لأن الله تعالى أحياه بالإيمان والنبوّة . وقال بعضهم : سُمِّىَ بذلك لأن الله تعالى أحيا به الناس بالهُدَى . وقال مُقاتِل : آشتق آسمه من آسم الله تعالى حىّ فسمّى يحيي . وقيل : لأنه أحيا به رحم أمّه .

﴿ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ يعنى عيسى فى قول أكثر المفسرين . وسمِّى عيسى كلمة لأنه كان بكلمة الله تعالى التى هى « كن » فكان من غير أب . وقرأ أبو السمّال العَدَوىّ « بكِلْمة » مكسورة الكاف ساكنة اللام فى جميع القرآن، وهى لغة فصيحة مثل كِتْف وفِخْذ . وقيل: سمِّى كلمة لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله تعالى . وقال أبو عبيد : معنى « بكلمة من الله » بكتاب من الله . قال : والعرب تقول أنشدنى كلمة أى قصيدة ؛ كما رُوى أن الحُوَيْدِرة[1] ذُكِر لحسّان فقال : لعنَ الله كلمته ، يعنى قصيدته . وقيل غير هذا من الأقوال. والقول الأوّل أشهر وعليه من العلماء الأكثر . و «يحيى» أوّل من آمن بعيسى عليهما السلام وصَدّقه، وكان يحيى أكبرَ من عيسى بثلاث سنين . ويقال بستة أشهر . وكانا آبنى خالة، فلما سمع زكريا شهادته قام إلى عيسى فضمّه إليه وهو فى خِرَقه . وذكر الطبرىّ أن مريم لما حملت بعيسى حملت أيضا أختها بيحيى ؛ فجاءت أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعَرت أنى حملت ؟ فقالت لها مريم : أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : وإنى لأجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك . وذلك أنه رُوى أنها أحست جنينها يخر برأسه إلى ناحية بَطْن مريم. قال السدىّ : فذلك قوله « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ » . « ومصدّقا » نصب على الحال . ﴿وَسَيِّدًا﴾ السيد : الذى يسود قومه ويُنْتَهَى إلى قوله، وأصله سَيْوِد يقال : فلان أسْوَد من

(١) الحويدرة تصغير الحادرة وهو لقب غلب عليه ، وآسمه قطبة بن محصن بن جرول . ويعنى حسان بن ثابت رضى الله عنه قصيدته التى مطلعها :

بكرت سمية غدوة فتمتعى * وغدت غدوّ مفارق لم يربع

(راجع المفضليات ص ٤٨ طبع أوروبا وكتاب الأغانى ج ٣ ص ٢٧٠ طبع دار الكتب المصرية) .

فلان، أفعل من السيادة؛ ففيه دلالة على جواز تسمية الإنسان سيّدا كما يجوز أن يسمى عزيزا أو كريما . وكذلك رُوى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لبني قُريظة : " قوموا إلى سيدكم " . وفى البخارىّ ومسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فى الحسن : " إن آبنى هذا سيدٌ ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين " وكذلك كان ، فإنه لما قُتل علىّ رضى الله عنه بايعه أكثر من أربعين ألفا وكثير ممن تخلّف عن أبيه وممن نَكث بيعته ، فبقى نحو سبعة أشهر خليفة بالعراق وما وراءها من خُراسان، ثم سار إلى معاويةَ فى أهل الحجاز والعراق وسار إليه معاويةُ فى أهل الشام؛ فلما تراءى الجمعان بموضع يقال له «مَسْكِن» من أرض السّواد بناحية الأنبار كرِه الحسَنُ القتالَ لعلمه أنّ إحدى الطائفتين لا تغلِب حتى تهلِك أكثر الأخرى فيهلك المسلمون ؛ فسلّم الأمر إلى معاوية على شروط شرطها عليه ، منها أن يكون الأمر له من بعد معاوية ؛ فآلتزم كل ذلك معاويةُ فصدّق قوله عليه السلام : " إن آبنى هذا سيّد " ولا أَسْود ممن سوّده الله تعالى ورسوله . قال قَتادة فى قوله تعالى « وَسَيِّدًا » قال : فى العلم والعبادة . آبن جبير والضحاك : فى العلم والتُّقى . مجاهد : السيّد الكريم . آبن زيد : الذى لا يغلبه الغضب . وقال الزجاج : السيّد الذى يفوق أقرانه فى كل شىء من الخير . وهذا جامع . وقال الكِسائىّ : السيد من المَعَز المسِنّ . وفى الحديث " ثَنِىٌّ من الضأن خير من السيِّد المعز " . قال :

سواءٌ عليه شاةُ عامٍ دَنَتْ له * ليذبحها للضّيف أم شاةُ سيِّد

﴿ وحَصُورا ﴾ أصله من الحصر وهو الحبس . حَصَرنى الشىء وأحصرنى إذا حبسنى . قال آبن ميّادة :

وما هجرُ ليلَى أن تكون تباعدت * عليكَ ولا أن أحْصَرتك شُغولُ

وناقة حصور : ضيّقة الإحليل . والحَصُور الذى لا يأتى النساء كأنه مُحجِم عنهن ؛ كما يقال : رجل حصور وحصير إذا حبَس رِفده ولم يخرج مايخرجه النّدامَى . يقال : شرب القوم فحصِر عليهم فلان، أى بخِل ؛ عن أبى عمرو . قال الأخطل :

وشارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأس نادمني * لا بالحَصُور ولا فيهـا بِسـوّارِ (١)

وفى التنزيل « وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٢) » أى محبِسا. والحَصِير الملِك لأنه محجوب. وقال لبِيد :

وقُماقِمٍ غُلْبِ الرِّقابِ كأنهـم * جِنٌّ لدى باب الحَصِيرِ قِيام (٣)

فيحيى عليه السلام حصور، فعول بمعنى مفعول لا يأتى النساء؛ كأنه ممنوع مما يكون فى الرجال؛ عن آبن مسعود وغيره . وفعول بمعنى مفعول كثير فى اللغة، من ذلك حلوب بمعنى محلوبة ؛ قال الشاعر :

فيها آثنتان وأربعون حَلُوبةً * سُودًا كخـافية الغراب الأسْحَمِ (٤)

وقال آبن مسعود أيضا وآبن عباس وآبن جُبير وقَتادة وعطاء وأبو الشعْثاء والحسنُ والسُّدِّى وآبن زيد : هو الذى يكُفّ عن النساء ولا يقربهن مع القدرة. وهذا أصح [الأقوال (٥) لو]جهين: أحدهما أنه مَدْحٌ وثناءٌ عليه، والثناء إنما يكون عن الفعل المكتسَب دون الجِبِلّة فى الغالب . الثانى أن فعولا فى اللغة من صيغ الفاعلين؛ كما قال (٦) :

ضَروبٌ بنصل السّيف سُوقَ سِمانِها * إذا عَـدِموا زادا فإنك عاقِــرُ

فالمعنى أنه يحصر نفسه عن الشهوات . ولعلّ هذا كان شرعَه؛ فأما شرعُنا فالنكاح، كما تقدّم. وقيل : الحصور العِنِّين الذى لا ذَكَر له يتأتّى له به النكاح ولا يُنزِل ؛ عن آبن عباس أيضا وسعيد آبن المسيب والضحاك . وروى أبو صالح عن أبى هريرة قال : سمعت رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كلّ آبن آدم يلقى الله بذنب قد أذنبه يعذّبه عليه إن شاء أو يرحمه إلا يحيى

(١) سوار : معربد وثاب . وقد روى «سآر» بوزن سعار ، أى أنه لا يسئر فى الإناء ســؤرا بل يشتفه كله .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٤

(٣) القماقم من الرجال : السيد الكثير الخير الواسع الفضل . والقماقم العدد الكثير .

(٤) البيت لعنترة العبسى فى معلقته . والخوافى : أواخر ريش الجناح مما يلى الظهر .

(٥) كذا فى د . قلت : هذا هو اللائق بالعصمة النبوية .

(٦) البيت لأبى طالب بن عبد المطلب . مدح رجلا بالكرم فيقول : يضرب بسيفه سوق السمان من الإبل للأضياف إذا عدموا الزاد ولم يظفروا بجواد لشدة الزمان وكَلَبه ، وكانوا إذا أرادوا نحر الناقة ضربوا ساقها بالسيف فخرت ثم نحروها . (عن شرح الشواهد) .

آبن زكريا فإنه كان سيدا وحصورا ونبيا من الصالحين " — ثم أهوى النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده إلى قَذاة(١) من الأرض فأخذها وقال : "كان ذَكَره [هكذا](٢) مثل هذه القذاة". وقيل : معناه الحابس نفسَه عن معاصى الله عز وجل . «ونبياً من الصالحين» قال الزجاج : الصالح الذى يؤدّى لله ما آفترض عليه ، و إلى الناس حقوقَهم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ ﴿٤٠﴾

قيل: الرب هنا جبريل، أى قال لجبريل : ربِّ — أى يا سيدى — أنّى يكون لى غلام؟ يعنى ولدا؛ وهذا قول الكلبيّ . وقال بعضهم : قوله « رب » يعنى اللهَ تعالى . «أنّى» بمعنى كيف، وهو فى موضع نصب على الظرف . وفى معنى هذا الآستفهام وجهان : أحدهما أنه سأل هل يكون له الولد وهو وآمرأته على حاليهما أو يُردّان إلى حال مَن يَلِد ؟ . الثانى سأل هل يُرزق الولد من آمرأته العاقر أو من غيرها . وقيل : المعنى بأىّ منزلة آستوجب هذا وأنا وآمرأتى على هذه الحال ؛ على وجه التواضع . و يروى أنه كان بين دعائه والوقت الذى بُشّر فيه أربعون سنة ، وكان يوم بشر آبن تسعين سنة وآمرأته قريبة السنّ منه . وقال آبن عباس والضحاك : كان يوم بُشّر آبن عشرين ومائة سنة وكانت آمرأته بنت ثمان وتسعين سنة ؛ فذلك قوله « وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ » أى عَقيم لا تلد . يقال : رجل عاقر وآمرأة عاقر بيّنة العقْر . وقد عَقُرت وعَقُر (بضم القاف فيهما) تعقُر عُقْرا صارت عاقرا، مثل حسنت تحسن حسنا ؛ عن أبى زيد . وعُقارة أيضا . وأسماء الفاعلين من فعُل فعيلة ، يقال : عظمت فهى عظيمة ، وظرفت فهى ظريفة . و إنما قيل عاقر لأنه يراد به ذات عُقْر على النسب ، ولو كان على الفعل لقال : عقرت فهى عقيرة كأنّ بها عقرا، أى كبرا من السنّ يمنعها من الولد . والعاقر: العظيم من الرمل لا ينبت شيئا . والعُقْر أيضا مهر المرأة إذا وُطئت على شُبهة . و بيضة العقْر: زعموا هى بيضة الديك ؛ لأنه يبيض فى عمره بيضة واحدة إلى الطّول . وعُقْر النار أيضا .

---

(١) القذاة : ما يقع فى العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك . (٢) من د .

وسطها ومعظمها . وعُقر الحوض: مؤخّره حيث تقف الإبل إذا وردت؛ يقال: عُقْر وعُقر مثل عُسْر وعُسُر، والجمع الأعقار فهو لفظ مشترك . والكاف فى قوله « كذلك » فى موضع نصب، أى يفعل الله ما يشاء مثل ذلك. والغلام مشتق من الغُلْمة وهو شدّة طلب النكاح. وآغتلم الفحل غُلْمة هاج من شهوة الضِّراب . وقالت لَيْلَى الأخْيَلِيّة :

شفاها من الداء العُضال الذى بها * غلامٌ إذا هَزّ القناة ســـقاها

والغــلام الطارّ الشارب . وهو بيّن الغُلُومة والغُلومِيّة، والجمع الغِلْمة والغِلمان . و يقال: إن الغَيْلم الشابّ والجارية أيضا . والغَيْلم : ذكر السُّلَحْفاة . والغيلم موضع . وآغتــلم البحر هاج وتلاطمت أمواجه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَلْ لِى آيَةً ﴾ «جعل» هنا بمعنى صيّر لتعديه إلى مفعولين . و « لى» فى موضع المفعول الثانى . ولمـا بُشِّر بالولد ولم يَبْعُد عنده هذا فى قدرة الله تعالى طلب آية — أى علامة — يعرف بها صحة هذا الأمر وكونَه من عنـد الله تعالى؛ فعاقبه الله تعالى بأن أصابه السكوت عن كلام الناس لسؤاله الآيةَ بعد مُشافهة الملائكة إياه؛ قاله أكثر المفسرين. قالوا : وكذلك إن لم يكن من مرض خرَس أو نحوه ففيه على كل حال عقاب مّا . قال آبن زيد: إن زكريا عليه السلام لمـا حملت زوجه منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحدا، وهو مع ذلك يقرأ التوراة و يذكر الله تعالى؛ فإذا أراد مقاولة أحد لم يطقه .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ الرمز فى اللغة الإيماء بالشفتين ، وقد يستعمل فى الإيماء بالحاجبين والعينين واليدين؛ وأصله الحركة . وقيل: طلبَ تلك الآية زيادة طمأنينة. المعنى: تمّم النعمة بأن تجعل لى آية، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة؛ فقيل له : « آيتك

ألا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ » أى تمنع من الكلام ثلاث ليال؛ دليل هذا القول قوله تعالى بعد بشرى الملائكة له . « وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (١) » أى أوجدتك بقدرتى فكذلك أوجد لك الولد . وآختار هـذا القول النحاس وقال : قول قتادة إن زكريا عوقب بترك الكلام قول مرغوب عنه ؛ لأن الله عز وجل لم يخبرنا أنه أذنب ولا أنه نهاه عن هـذا ؛ والقول فيه أن المعنى آجعل لى علامة تدل على كون الولد ، إذ كان ذلك مخفيا عنى . و « رَمْزًا » نصب على الآستثناء المنقطع ؛ قاله الأخفش . وقال الكسائى : رمز يرمز ويرمِز . وقرئ « إلا رمزا» بفتح الميم و « رمزا » بضمها وضم الراء، الواحدة رمزة .

الثالثــة — فى هذه الآية دليل على أن الإشارة تنزل منزلة الكلام وذلك موجود فى كثير من السنة ، وآكد الإشارات ما حكم به النبيّ صلى الله عليـه وسلم من أمر السوداء حين قال لها : "أين الله" ؟ فأشارت برأسها إلى السماء فقال : "أعتقها فإنها مؤمنة" . فأجاز الإسلام بالإشارة الذى هو أصل الديانة الذى يحرز الدم والمـال وتستحق به الجنة وينجى به من النار ، وحكم بإيمـانها كما يحكم بنطق من يقول ذلك ؛ فيجب أن تكون الإشارة عاملة فى سائر الديانة ، وهو قول عامة الفقهاء . وروى آبن القاسم عن مالك أن الأخرس إذا أشار بالطلاق إنه يلزمه . وقال الشافعيّ فى الرجل يمرض فيختل لسانه فهو كالأخرس فى الرجعـة والطلاق . وقال أبو حنيفة : ذلك جائز إذا كانت إشارته تعرف، وإن شك فيها فهى باطل، وليس ذلك بقياس وإنما هو آستحسان . والقياس فى هذا كله أنه باطل؛ لأنه لا يتكلم ولا تعقل إشارته . قال أبو الحسن بن بطّال : وإنما حمل أبا حنيفة على قوله هذا أنه لم يعلم السنن التى جاءت بجواز الإشارات فى أحكام مختلفة فى (٢) الديانة . ولعـل البخارى حاول بترجمته « باب الإشارة فى الطلاق والأمور » الردَّ عليه . وقال عطاء : أراد بقوله « أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ » صوم ثلاثة أيام . وكانوا إذا صاموا لا يتكلمون إلا رمزا . وهذا فيه بُعْدٌ . والله أعلم .

الرابعــة — قال بعض من يجيز نسخ القرآن بالسّنّة: إن زكريا عليه السلام مُنع الكلامَ وهو قادر عليه ، وإنه منسوخ بقوله عليه السـلام : "لا صَمتَ يوما إلى الليل" (٣) . وأكثر

(١) راجع جـ ١١ ص ٨٤ . (٢) فى د : من الديانة . (٣) وفى البحر وآبن عطية « لا صمت يوم » . ورواية أبى داود « ولا صمات يوم إلى الليل » راجع الحديث فى اللسان مادة صمت .

العلماء على أنه ليس بمنسوخ، وأن زكريا إنما منع الكلام بآفة[١] دخلت عليه منعته إياه، وتلك الآفة[١] عدم القدرة على الكلام مع الصحة؛ كذلك قال المفسرون . وذهب كثير من العلمـاء إلى أنه " لا صمت يوما إلى الليل " إنمـا معناه عن ذكر الله ، وأما عن الهـذر وما لا فائدة فيه، فالصمت عن ذلك حسن .

قوله تعـالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَارِ ﴾ أمره بألا يترك الذكر فى نفسه مع ٱعتقال لسانه ؛ على القول الأوّل . وقد مضى فى البقرة[٢] معنى الذكر . وقال محمد ٱبن كعب القـرظى : لو رخص لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا بقـول الله عز وجل « أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزاً وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً » ولرخص للرجل يكون فى الحرب بقول الله عز وجل : « إِذَا لَقِيتُمْ فِئَـةً فَٱثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَثِيراً[٣] » . وذكره الطبرى . «وَسَبِّحْ» أى صلّ؛ سميت الصلاة سُبْحَة لمـا فيها من تنزيه الله تعالى عن السوء. و«العشىّ» جمع عشِية . وقيـل : هو واحد . وذلك من حين تزول الشمس إلى أن تغيب ؛ عن مجاهد . وفى الموطأ عن القاسم بن محمد قال : ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر بعشىّ . « والإبكار » من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

قوله تعـالى : وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَاكِ ﴾ أى ٱختارك، وقد تقـدّم[٤] . ﴿ وطَهَّرَكِ ﴾ أى من الكفر؛ عن مجاهد والحسن . الزجاج : من سائر الأدناس من الحيض والنفاس وغيرهما ، وٱصطفاك لولادة عيسى ﴿ عَلَى نِسَاءِ ٱلْعَـالَمِينَ ﴾ يعنى عالمِى زمانها ؛ عن الحسـن وٱبن جُريج وغيرهما . وقيل : « على نساء العالمين » أجمع إلى يوم الصور، وهو الصحيح على ما نبينه ، وهو قول الزجاج وغيره . وكرر الٱصطفاء لأن معنى الأوّل الٱصطفاء لعبادته، ومعنى الثانى لولادة عيسى . وروى مسلم عن أبى موسى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : " كمل

(١) فى د : بآية، وتلك الآية . (٢) راجع جـ١ ص ٣٣١ (٣) راجع جـ٨ ص ٢٢ (٤) راجع جـ٢ ص ١٣٢

من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنتِ عمران وآسية آمرأةِ فرعون و إنّ فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام ". قال علماؤنا رحمة الله عليهم : الكمال هو التناهي والتمام؛ و يقال في ماضيه «كمل» بفتح الميم وضمها، و يكمل في مضارعه بالضم، وكمال كل شيء بحسبه. والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة. ولاشك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصدّيقين والشهداء والصالحين. وإذا تقرر هذا فقد قيل: إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوّة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيّتين، وقد قيل بذلك. والصحيح أن مريم نبيّة؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدّم و يأتي بيانه أيضا في «مريم»[1]. وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوّتها دلالة واضحة بل على صدّيقيتها وفضلها، على ما يأتي بيانه في «التحريم»[2].

وروى من طرق صحيحة أنه عليه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة: " خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم آمرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ". ومن حديث آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: " أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم آمرأة فرعون ". وفي طريق آخر عنه: " سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة ". فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حوّاء إلى آخر آمرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء؛ فهي إذًا نبيّة والنبيّ أفضل من الوليّ فهي أفضل من كل النساء: الأوّلين والآخرين مطلقا. ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية. وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كُرَيب عن آبن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية ". وهذا حديث حسن يرفع الإشكال. وقد خصّ الله مريم بما لم يؤته أحدا من النساء؛ وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة؛ فليس هذا لأحد من النساء. وصدّقت بكلمات

(١) راجع جـ ١١ ص ٩ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٣

ربها ولم تسأل آية عنـدما بُشِّرت كما سأل زكريا صلى الله عليه وسلم من الآية ؛ ولذلك سماها الله فى تنزيله صِدّيقة فقال : « وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ »(١) . وقال : « وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ »(٢) فشهد لهـا بالصدّيقية وشهد لها بالتصـديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقُنُوت . و إنمـا بشر زكريا بغـلام فلحظ إلى كبر سـنه وعقامة رحم آمرأته فقال : أنى يكون لى غلام وآمرأتى عاقر ؛ فسـأل آية ؛ وبشرت مريم بالغـلام فلحظت أنهـا بِكْرٌ ولم يمسسها بشر فقيل لها : « كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ »(٣) فآقتصرت على ذلك ، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كُنْه هـذا الأمر ، ومن لأمرأة فى جميع نساء العالمين من بنـات آدم ما لها من هـذه المناقب ! . ولذلك روى أنها سبقت السابقين مع الرسـل إلى الجنة ؛ جاء فى الخبر عنه صلى الله عليه وسلم : "لو أقسمتُ لبرَرْتُ لا يدخل الجنة قبل سابق أمتى إلا بضعة عشر رجلا منهـم إبراهيم و إسمعيل و إسحق و يعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم آبنـة عمران" . وقد كان يحق على من آنتحل علم الظاهر وآستدل بالأشـياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسـلم : "أنا سيد ولد آدم ولا فخـر" وقوله حيث يقول : "لِواء الحمد يوم القيامة بيدى ومفاتيح الكرم بيـدى وأنا أول خطيب وأول شفيع وأول مُبشِّر وأول وأول" . فلم ينل هـذا السّؤدد فى الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم فى الباطن . وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله فى التنزيل بالصدّيقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية . ومن قال لم تكن نبية قال : إن رؤيتها للملك كما رؤى جبريل عليـه السـلام فى صفة دِحية الكلبى حين سـؤاله عن الإسلام والإيمـان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء والأول أظهر وعليه الأكثر . والله أعلم .

قوله تعـالى : يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

أى أطيلى القيام فى الصـلاة ؛ عن مجاهد . قتادة : أديمى الطاعة . وقد تقدّم القول فى القنوت . قال الأوزاعىّ(٤) : لمـا قالت لها الملائكة ذلك قامت فى الصـلاة حتى وَرِمت

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٥٠ (٢) راجع جـ ١٨ ص ٢٠٣ (٣) راجع جـ ١١ ص ٩١
(٤) راجع جـ ٢ ص ٨٦ و جـ ٢ ص ٢١٣

قدماها وسالت دما وقيحا عليها السلام . ﴿ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي ﴾ قدّم السجود ها هنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب ؛ وقد تقدّم الخلاف فى هذا فى البقرة عند قوله تعالى : « إِنَّ الصَّفَا والمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ » [1] . فإذا قلت : قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد ، فعلى هذا يكون المعنى وآركعى وآسجدى . وقيل : كان شرعهم السجود قبل الركوع . ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ قيل : معناه آفعلى كفعلهم و إن لم تصلى معهم . وقيل : المراد به صلاة الجماعة . وقد تقدّم فى البقرة [2] .

قوله تعالى : ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴾ أى الذى ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب . ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فيه دلالة على نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب ؛ وأخبر عن ذلك وصدّقه أهل الكتاب بذلك ؛ فذلك قوله تعالى : « نُوحِيهِ إِلَيْكَ » فردّ الكناية إلى « ذلك » فلذلك ذُكِّرَ . والإيحاء هنا الإرسال إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم . والوحى يكون إلهاما و إيماء وغير ذلك . وأصله فى اللغة إعلام فى خفاء ؛ ولذلك صار الإلهام يسمى وحيا ؛ ومنه « وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ [3] » وقوله : « وأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ [4] » وقيل : معنى « أوحيت إلى الحواريين » أمرتهم ؛ يقال : وحى وأوحى ، ورمى وأرمى بمعناه . قال العجاج :

* أوحى لها القرار فآستقرّت *

أى أمر الأرض بالقرار . وفى الحديث : " الوحى الوحى " وهو السرعة ؛ والفعل منه توحيت توحيا . قال آبن فارس : الوحى الإشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك

---

(١) راجع ج ٢ ص ٣٤٤ (٢) راجع المسألة الخامسة وما بعدها ج ١ ص ٣٤٤

(٣) راجع ج ٦ ص ٣٦٣ (٤) راجع ج ١٠ ص ١٣٣

حتى يعلمه وحى كيف كان . والوحِىّ السريع . والوَحَى الصَّوْت؛ ويقال : آستوحيناهم أى آستصرخناهم . قال :

* أوحيت ميمونا لها(١) والأزراق *

الثانيـــة ــ قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أى وما كنت يا محمد لديهم ، أى بحضرتهم وعندهم . ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ جمع قَلَم ؛ من قَلَمه إذا قطعه . قيل : قداحهم وسهامهم . وقيل : أقلامهم التى كانوا يكتبون بها التوراة ، وهو أجود ؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال «ذَلِكُمْ فِسْقٌ»(٢) . إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التى كانت عليها الجاهلية تفعلها . ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أى يحضنها ، فقال زكريا : أنا أحق بهـا ، خالتها عنـدى . وكانت عنده أشيع بنت فاقود أخت حَنّة بنت فاقود أمّ مريم . وقال بنو إسرائيل : نحن أحق بها ، بنت عالِمنا . فآقترعوا عليها وجاء كل واحد بقلمه ، وآتفقوا أن يجعلوا الأقلام فى المـاء الجارى فمن وقف قلمه ولم يجره المـاء فهو حاضنها . قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "جرت الأقلام وعال قلم زكريا" . وكانت آية له ؛ لأنه نبىّ تجرى الآيات على يديه . وقيل غير هذا . و « أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ » آبتداء وخبر فى موضع نصب بالفعل المضمر الذى دل عليه الكلام ؛ التقدير : ينظرون أيهم يكفل مريم . ولا يعمل الفعل فى لفظ « أى » لأنها آستفهام .

الثالثـــة ــ آستدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القُرْعة ، وهى أصل فى شرعنا لكل من أراد العدل فى القسمة ، وهى سنة عند جمهور الفقهاء فى المستويين فى الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظِّنّة عمن يتولى قسمتهم ، ولا يفضـل أحد منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد آتباعا للكتاب والسنّة . وردّ العملَ بالقُرْعة أبو حنيفة وأصحابه ، وردّوا الأحاديث الواردة فيها ، وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التى نهى الله عنها . وحكى آبن المنذر عن أبى حنيفة أنه جوّزها وقال : القرعة فى القياس لا تستقيم ، ولكنا تركنا القياس فى ذلك وأخذنا بالآثار والسنّة . قال أبو عبيد : وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء : يونس وزكريا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال آبن المنذر . وآستعمال القرعة

(١) فى نسخة : د ، لهم .   (٢) راجع جـ ٦ ص ٦٠

كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردّها . وقد ترجم البخارىّ فى آخر كتاب الشهادات (باب القُرْعة فى المشكلات وقول الله عز وجل « إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ») وساق حديث النعمان بن بشير : "مثل القائم على حدود الله والمُدْهِن[1] فيها مثل قوم آستهموا على سفينة ..." الحديثَ . وسيأتى فى «الأنفال»[2] إن شاء الله تعالى، وفى سورة «الزخرف»[3] أيضا بحول الله سبحانه، وحديث أمّ العلاء، وأن عثمان بن مَظْعُون طار لهم سَهْمُه فى السُّكْنى حين آقترعت الأنصار سُكْنَى المهاجرين، الحديث، وحديث عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهنّ خرج سهمها خرج بها؛ وذكر الحديث .

وقد آختلفت الرواية عن مالك فى ذلك؛ فقال مرّةً : يقرع للحديث . وقال مرّة : يسافر بأوفقهنّ له فى السفر . وحديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو يعلم الناس ما فى النِّداءِ والصّفّ الأوّل ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لآستهموا" . والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة . وكيفية القُرْعة مذكورة فى كتب الفقه والخلاف . وآحتج أبو حنيفة بأن قال : إن القرعة فى شأن زكريا وأزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز . قال آبن العربىّ : « وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفى عند التشاحّ[4] ؛ فأما ما يخرجه التراضى [فيه[5]] فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجرى مع موضع التراضى، فإنها لا تكون أبدا مع التراضى» وإنما تكون فيما يَتَشَاحّ الناس فيه ويُضَنّ به . وصفة القرعة عند الشافعىّ ومن قال بها : أن تُقطع رِقاع صغار مستوية فيكتب فى كل رقعة آسم ذى السهم ثم تجعل فى بنادق طين مستوية لا تفاوت فيها ثم تجفف قليلا ثم تلقى فى ثوب رجل لم يحضر ذلك ويغطى عليها ثوبه ثم يدخل يده ويخرج، فإذا أخرج آسم رجل أُعطى الجزء الذى أُقرع عليه .

---

(١) كذا فى نسخ الأصل ، وهو لفظ البخارى عن النعمان فى « كتاب المظالم » . وروايته . فى « كتاب الشهادات » : « ... مثل المدهن فى حدود الله والواقع فيها مثل ... » . والمدهن الذى يرائى .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٣٩٢ (٣) راجع جـ ١٦ ص ٨٦ (٤) تشاح الخصمان : أراد كل أن يكون هو الغالب . (٥) زيادة عن أحكام القرآن لآبن العربى .

الرابعــة — ودلت الآية أيضا على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدّة، وقد قضى النبيّ صلى الله عليه وسلم فى ٱبنة حمزة — وٱسمها أمة الله — لجعفر وكانت عنده خالتها، وقال : "إنمـا الخالة بمنزلة الأم" وقد تقدّمت فى البقرة هذه المسألة (١) . وخرّج أبو داود عن علىّ قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدِم بٱبنة حمزة فقال جعفر: أنا آخذها أنا أحق بها ٱبنة عمى وخالتها عندى، وإنمـا الخالة أم . فقال علىّ : أنا أحق بهـا ٱبنة عمى وعنـدى ٱبنة رسـول الله صلى الله عليه وسلم فهى أحق بها . وقال زيد : أنا أحق بها، أنا خرجت إليها وسافرت وقدِمت بهـا ؛ فخرج النبيّ صلى الله عليه وسـلم فذكر حديثـا قال : " وأما الجارية فأقضى بها لجعفر تكون مع خالتها وإنمـا الخالة أمٌّ " . وذكر ٱبن أبى خيثمة أن زيد بن حارثة كان وصِىّ حمزة، فتكون الخالة على هذا أحقّ من الوصِىّ ويكون ٱبن العمّ إذا كان زوجا غير قاطع بالخالة فى الحضانة وإن لم يكن مَحْرَمًا لها .

قوله تعـالى : ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

دليل على نبوّتها كما تقدّم . و«إذ» متعلقة بـ«يختصمون» . ويجوز أن تكون متعلقة بقوله : «وما كُنتَ لَدَيْهِمْ» . ﴿بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ وقرأ أبو السّمال «بِكِلْمَةٍ منه» ، وقد تقدّم . ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾ ولم يقل ٱسمها لأن معنى كلمة معنى ولد . والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصدّيق ؛ قاله إبراهيم النخعىّ . وهو فيما يقال معرّب وأصله الشين وهو مشترك . وقال ٱبن فارس : والمسِيح العرق، والمَسِيح الصّدّيق، والمَسِيح الدرهم الأطلس (٢) لا نقش فيه . والمَسْح الجماع (٣) ؛ يقال مسحها . والأَمْسح : المكان الأملس . والمسحاء المرأة الرّسْحاء التى لا ٱسْتَ لها . وبفلان مَسْحة من جمال . والمسائح قِسِىٌّ جِياد، واحدتها مَسِيحة . قال :

---

(١) راجع جـ ٣ ص ١٦٤ (٢) كذا فى بعض النسخ والمصباح، وفى اللسان : الطلس : المحو، والطلس كتاب قد محى ولم ينعم محوه، ثم قال : والأطلس الثوب الخلق . وفى ز : الدرهم الأملس لا نقش عليه .
(٣) الظاهر أن هنا سقطا كان الأصل : يقال مسحها إذا جامعها .

لها مَسائحُ زُورٌ في مراكضها * لِينٌ وليس بها وَهْن ولا رَقَق[(١)]

وآختلِف في المسيح آبن مريم مما ذا أخذ، فقيل : لأنه مسح الأرض، أي ذهب فيها فلم يستكِنّ بِكنّ . وروِى عن آبن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برِئ ؛ فكأنه سمى مسيحا لذلك ، فهو على هذا فعيلٌ بمعنى فاعل . وقيل : لأنه ممسوح بدهن البركة، كانت الأنبياء تُمسح به ، طيِّب الرائحة ؛ فإذا مُسح به عُلم أنه نبيّ . وقيل : لأنه كان ممسوح الأخمصيْن . وقيل : لأن الجمال مسحه، أي أصابه وظهر عليه . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه مسح بالطُّهر[(٢)] من الذنوب . وقال أبو الهيثم : المسيح ضِد المسيخ؛ يقال : مسحه الله أي خلقه خلقا حسنا مباركا ، ومسخه أي خلقه خلقا ملعونا قبيحا . وقال آبن الأعرابي : المسيح الصِّدِّيق ، والمسيخ الأعور ، وبه سمى الدّجال . وقال أبو عبيد : المسيح أصله بالعبرانية مِشيحا بالشين فعرّب كما عرب موشى بموسى . وأما الدّجال فسمى مسيحا[(٣)] لأنه ممسوح إحدى العينين . وقد قيل في الدجال مِسِّيح بكسر الميم وشد السين . وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة . وبعضهم يقول مسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف؛ والأول أشهر وعليه الأكثر. سمى به لأنه يسيح في الأرض أي يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس؛ فهو فعيل بمعنى فاعل، فالدجال يمسح الأرض مِحْنَةً ، وآبن مريم يمسحها مِنْحَةً . وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول . وقال الشاعر :

* إنّ المسيح يقتل المسيخا *

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس من بلد إلا سيطؤه الدّجال إلا مكّةَ والمدينةَ " الحديث . ووقع في حديث عبد الله بن عمرو "إلا الكعبة وبيت المقدس" ذكره أبوجعفر الطبرى . وزاد أبو جعفر الطحاوي "ومسجد الطور"؛ رواه من حديث جُنَادَة بن أبي أمية عن بعض أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وفي حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن سمرة بن جُنْدُب عن النبيّ

(١) زور : جمع زوراء، وهي المائلة . والوهن الضعف ، والرقق : ضعف العظام .　(٢) في ز : التطهر في ب ود : التطهير .　(٣) في ز، د : مسيخا — بالمعجمة — وأنه ممسوخ إحدى العينين .

صلى الله عليه وسلم " وأنه سيظهر على الأرض كلهـا إلا الحرم و بيت المقـدس وأنه يحصر المؤمنين فى بيت المقدس" وذكر الحديث. وفى صحيح مسلم : " فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ٱبن مريم فينزل عند المنارة البيضاءِ شرقىّ دِمَشق بين مَهْرُودتين (١) واضعا كفّيه على أجنحة ملكين إذا طاطأ رأسه قَطَر و إذا رفعه تحدّر منه جُمان (٢) كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طَرْفه فيطلبه حتى يدركَه بباب لُدّ (٣) فيقتله (٤) "الحديث بطوله.

وقد قيـل : إن المسيح ٱسم لعيسى غير مشتق سمّـاه الله به . فعلى هذا يكون عيسى بدلا من المسيح من البدل الذى هو هو . وعيسى ٱسم أعجمى فلذلك لم ينصرف و إن جعلتـه عربيّا لم ينصرف فى معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف تأنيث . و يكون مشتقًّا من عاسـه يَعُوسه إذا ساسه وقام عليه . ﴿وَجِيهًا﴾ أى شريفا ذا جاهٍ وقَدر، وٱنتصب على الحال؛ قاله الأخفش. ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عند الله تعالى وهو معطوف على « وجيها » أى ومُقَرّبا؛ قاله الأخفش . وجمع وجيه وُجهاء ووِجهاء . ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ عطف على «وجيها»؛ قاله الأخفش أيضا . و ﴿ ٱلْمَهْـدِ ﴾ مضجع الصبىّ فى رضاعه . ومهـدت الأمر هيأته ووطّأته . وفى التـنزيل « فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَـدُونَ (٥) » . وٱمتهد الشىء ٱرتفع كما يمتهد سـنام البعير . ﴿ وَكَهْلًا ﴾ الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة . وٱمرأة كهلة . وٱكتهلت الروضة إذا عمها النَّوْر. يقول: يكلم الناس فى المهد آية، و يكلمهم كهلا بالوحى والرسالة . وقال أبو العباس : كلمهم فى المهد حين برّأ أمّه فقال: «إِنِّى عَبْدُ اللهِ (٦)» الآية . وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله تعالى [من السماء] (٧) أنزله على صورة ٱبن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم: «إنى عبدالله» كما قال فى المهد. فهاتان آيتان وحجتان . قال المهدوى : وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السـلام يكلمهم فى المهد و يعيش إلى أن يكلمهم كهلا، إذ كانت العادة أن من تكلم فى المهد لم يعش .

(١) قوله : مهرودتين، أى فى شقتين أو حلتين . وقيل : الثوب المهرود الذى يصبغ بالورس ثم بالزعفران .
(٢) الجمان (بضم الجيم وتخفيف الميم) : حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار .
(٣) لد (بضم اللام وتشديد الدال) : قرية فى فلسطين قريبة من بيت المقدس .
(٤) راجع صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٧٦ طبع بولاق . (٥) راجع القرطبى ج ١٤ ص ٤٤
(٦) راجع ج ١١ ص ١٠٢ (٧) الزيادة عن البحر لأبى حيان .

قال الزجاج : « وكهلا » بمعنى ويكلم الناس كهلا . وقال الفرّاء والأخفش : هو معطوف على « وجيها » . وقيل : المعنى ويكلم النـاس صغيرا وكهلا . وروى ٱبن جُريج عن مجاهد قال : الكهل الحليم . قال النحاس : هذا لا يُعرف فى اللغة ، وإنمـا الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين . وقال بعضهم : يقال له حَدَث إلى ستّ عشرة سـنة . ثم شابّ إلى ٱثنتين وثلاثين . ثم يَكْتهل فى ثلاثٍ وثلاثين ؛ قاله الأخفش . ﴿ومن الصالِحين﴾ عطف على « وجيها » أى وهو من العِباد الصالحين . ذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا عبـد الله بن إدريس عن حُصين عن هلال بن يِسَاف . قال : لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة : عيسى وصاحب يوسف وصاحب جريج ، كذا قال : « وصاحب يوسف » . وهو فى صحيح مسـلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " لم يتكلم فى المهـد إلا ثلاثة عيسى ٱبن مريم وصاحب جُريج وصاحب الجبار وبَيْنا صبىّ يرضع من أمه " وذكر الحديث بطوله [(١)] . وقـد جاء من حديث صُهيب فى قصة الأُخدود " أن ٱمرأة جِىء بها لتُلقى فى النار على إيمـانها ومعها صبىّ " . فى غير كتاب مسلم " يرضع فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أمَّه ٱصبرى فإنك على الحق " . وقال الضحاك : تكلم فى المهد ستة : شاهد يوسف وصبىّ ماشِطة ٱمرأة فرعون وعيسى ويحيى وصاحب جُريج وصاحب الجبّار . ولم يذكر الأخدود ، فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة . ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام : " لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة " بالحصر فإنه أخبر بمـا كان فى علمه ممـا أوحى إليـه فى تلك الحال ، ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بمـا شاء من ذلك فأخبر به .

قلت : أما صاحب يوسف فيأتى الكلام فيه ، وأما صاحب جُريج وصاحب الجَبّـار وصاحب الأخدودِ ففى صحيح مسلم . وستأتى قصة الأخدود فى سورة « البروج » [(٢)] إن شاء ٱلله تعالى . وأما صبىّ ماشطةِ [ٱمرأةِ] فرعون ، فذكر البيهقىّ عن ٱبن عبـاس قال قال النبىّ صلى ٱلله عليه وسلم : " لمـا أُسرى بى سِرْت فى رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة قالوا ماشطة

(١) راجع صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢٧٦ طبع بولاق راجع جـ ١٩		(٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٨٤

آبنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت : بسم آلله فقالت آبنة فرعون : أبى ؟ قالت : ربى وربُّكِ وربُّ أبيك قالت أوَلكِ ربٌّ غير أبى ؟ قالت : نعم ربى وربُّكِ وربُّ أبيكِ اللهُ — قال — فدعاها فرعون فقال : ألكِ ربٌّ غيرى ؟ قالت : نعم ربى وربكَ الله — قال — فأمر بنُقرة من نُحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها قالت : إن لى إليك حاجةً قال : ما هى ؟ قالت : تجمع عظامى وعظامَ ولدى فى موضع واحد قال : ذاك لكِ لما لكِ علينا من الحق . فأمر بهم فألقوا واحدًا بعد واحد حتى بلغ رضيعا فيهم فقال قَعِى يا أمّه ولا تقاعسِى فإنا على الحق — قال — وتكلم أربعة وهم صغار : هذا وشاهد يوسف وصاحب جُريج وعيسى آبن مريم .

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قَالَتْ رَبِّ﴾ أى ياسيّدى . تخاطب جبريل عليه السلام ؛ لأنه لما تمثّل لها قال لها : إنما أنا رسولُ رَبِّكِ ليَهب لكِ غلاما زكيا . فلما سمعت ذلك من قوله آستفهمت عن طريق الولد فقالت : أنّى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر؟ أى بنكاح . [فى سورتها](٢) «ولَمْ أَكُ بغيًّا»(٣) ذكرت هذا تأكيدا ؛ لأن قولها «لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ» يشمل الحرام والحلال . تقول : العادة الجارية التى أجراها الله فى خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سِفاح . وقيل : ما آستبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ، ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد : أمِن قِبل زوج فى المستقبل أم يخلقه الله آبتداء ؟ فروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها «كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ» «قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ» . نفخ فى جَيب دِرعها وكُمّها ؛ قاله آبن جُريج . قال آبن عباس : أخذ جبريل رُدْنَ(٤) قميصها بأصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . وقيل غير ذلك على ما يأتى بيانه فى سورتها إن شاء الله تعالى . وقال بعضهم : وقع نفخ جبريل فى رحمها فعلقت

(١) يبدو هنا سقط فى كل الأصول ، فقوله : واحدا بعد واحد من قصة أصحاب الأخدود ولا صلة له بما قبله . راجع جـ ١٩ ص ٢٨٦
(٢) الزيادة فى نخ : ب . و د . أى فى سورة مريم «ولم أك بغيا» . (٣) راجع جـ ١١ ص ٩١ (٤) الردن (بالضم) أصل الكم .

بذلك . وقال بعضهم : لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذُرِّيته فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضه في أرحام الأمهات فإذا ٱجتمع الماءان صارا ولدا ، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعا في مريم بعضه في رحمها وبعضه في صُلبها، فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها، لأن المرأة ما لم تَهِج شهوتها لا تحبل ، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذى كان فى صُلبها فى رَحِمها فٱختلط الماءان فعلِقت بذلك، فذلك قوله تعالى « إِذَا قَضَى أَمْرًا » يعنى إذا أراد أن يخلق خلقا « فإنما يقول له كن فيكون » . وقد تقدّم فى « البقرة » القول فيه مستوفًى[1] .

قوله تعالى : وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴾ قال ٱبن جُرَيج : الكتاب الكتابة والخط . وقيل : هو كتاب غير التوراة والإنجيل علّمه الله عيسى عليه السلام . ﴿ وَرَسُولًا ﴾ أى ونجعله رسولا . أو يكلمهم رسُولا . وقيل : هو معطوف على قوله « وجيها » . وقال الأخفش : وإن شئت جعلت الواو فى قوله « ورسولا » مُقْحَمة والرسول حالا للهاء، تقديره ويعلمه الكتاب رسولا . وفى حديث أبى ذَرّ الطويل "وأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليه السلام" . ﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ ﴾ أى أصوّر وأقدّر لكم ﴿ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر « كهيّة » بالتشديد . الباقون بالهمز .

(١) راجع جـ ١ ص ٨٧

والطير يذكر ويؤنث . ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أى فى الواحد منه أو منها أو فى الطين فيكون طائرا . وطائر وطَيْر مثل تاجر وتَجْر . قال وَهْب : كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى . وقيل: لم يخلق غيرَ الخُفّاش لأنه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ فى القدرة ، لأن لهـا ثَدْيًا وأسنانا وأذنا ، وهى تحيض وتطهر وتلد . ويقال : إنما طلبوا خَلْق خُفّاش لأنه أعجب من سائر الخلق؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضرّع يخرج منه اللبن، ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل،وإنما يرى فى ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يُسفر جدا ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويحيض كما تحيض المرأة . ويقال : إن ســؤالهم كان له على وجه التعنّت فقالوا : أخلق لنا خُفّاشا وآجعل فيــه روحا إن كنت صادقا فى مقالتك ؛ فأخذ طينا وجعل منــه خفاشا ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض؛ وكان تسويةُ الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله .

وقوله تعالى : ﴿وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الأكمه : الذى يولد أعمى؛ عن آبن عباس . وكذا قال أبو عبيدة قال : هو الذى يولد أعمى ؛ وأنشــد لرؤبة :

* فآرتدّ آرتِداد الأكمه *

وقال آبن فارس : الكَمَه العَمَى يولد به الإنسان وقد يعرِض . قال سُويد :

* كَمِهت عيناه حتى آبيضّتا *

مجاهد : هو الذى يُبصر بالنهار ولا يُبصر بالليل . عكرمة : هو الأعمش ، ولكنه فى اللغــة العمى؛ يقال كَمِه يَكْمَه كَمَها وكَمّهتها أنا إذا أعميتها . والبرص معروف وهو بياض يعترى الجلد، والأبرص القمر، وسامٌّ أبْرَص معروف ، ويجمع على الأبارص . وخُصّ هذان بالذكر لأنهما عياءان . وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطبّ فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قيل : أحيا أربعة أنفس : العاذر وكان صديقا له ، وآبن العجوز

وآبنة العاشر وسام بن نوح؛ فالله أعلم ، فأما العاذر فإنه كان قد توفى قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله وودكه يقطر فعـاش وولد له ، وأما آبن العجوز فإنه مرّ به يُحمـل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله ، وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك وولد لها؛ فلما رأوا ذلك قالوا : إنك تحيي من كان موته قريبا فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتةٌ فأحى لنـا سام بن نوح . فقـال لهم : دلّونى على قبره فخرج وخرج القوم معـه حتى آنتهى إلى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه . فقال له عيسى : كيف شاب رأسك ولم يكن فى زمانكم شيْبٌ ؟ فقال : يا روح الله ، إنك دعوتنى فسمعت صوتا يقول : أجب روح الله ، فظننت أن القيامة قد قامت ، فمن هول ذلك شاب رأسى . فسـأله عن النزع فقال : يا روح الله ، إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتى؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم : صدّقوه فإنه نبىّ ؛ فآمن به بعضهم وكذّبه بعضهم وقالوا : هـذا سحر . وروى من حديث إسمعيل آبن عياش قال : حدّثنى محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى آبن مريم كان إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين يقرأ فى الأولى « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ المُلْكُ » . وفى الثانية «تنزيل السجدة» فإذا فرغ حمِد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديمُ يا خفىّ يادائمُ يا فردُ يا وترُ يا أحد يا صمد ؛ ذكره البيهقى وقال : ليس إسناده بالقوىّ[(1)] .

قوله تعالى : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وما تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أى بالذى تأكلونه وماتدخرون . وذلك أنهم لمـا أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا : أخبرنا بمـا نأكل فى بيوتنا وما نذخر للغد ؛ فأخبرهم فقال : يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وآدخرت كذا وكذا؛ فذلك قوله «وأنبئكم» الآية . وقرأ مجاهد والزهرىّ والسختيانِىّ « وما تذخرون » بالذال المعجمة مخففا . وقال سعيد بن جبير وغيره : كان يخبر الصبيان فى الكُتّاب بما يدخرون حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه . قتادة : أخبرهم بما أكلوه من المـائدة وما آدخروه منها خِفية .

(١) هذا الحـديث لا يصح لأن السورتين من القرآن ولا يجوز أن يكون شىء من القرآن من الكتب السابقة .

قوله تعالى : ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على قوله : « ورسولا » . وقيل : المعنى وجئتكم مصدقا . ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ﴾ لما قبلى . ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ﴾ فيه حذف ، أى ولأحل لكم جئتكم . ﴿بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعنى من الأطعمة . قيل : إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حُرِّم عليهم بذنوبهم ولم يكن فى التوراة ، نحو أكل الشحوم وكل ذى ظفر . وقيل : إنما أحل لهم أشياء حرمتها عليهم الأحبار ولم تكن فى التوراة محرمة عليهم . قال أبو عبيدة : يجوز أن يكون « بعض » بمعنى كل ؛ وأنشد لبيد :

تَرَّاكُ أمكنــةٍ إذا لم أرضهــا * أو يَرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل فى هذا الموضع، لأن عيسى صلى الله عليه وسلم إنما أحل لهم أشياء مما حرّمها عليهم موسى[(١)] من أكل الشحوم وغيرها ولم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشة . والدليل على هذا أنه روى عن قتادة أنه قال : جاءهم عيسى بألْيَنَ مما جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا ؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياءَ من الشحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها. وقرأ النَّخَعِيّ « بَعْضَ الَّذِي حَرُمَ عَلَيْكُمْ » مثل كرم ، أى صار حراما . وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت إليه قرينة تدل عليه ؛ كما قال الشاعر[(٢)] :

أبا مُنْــذِرٍ أفنيتَ فاستبقِ بعضَــنا * حَنَانَيْك بعضُ الشر أهْوَنُ من بعض

يريد بعض الشر أهون من كله . ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إنما وحد وهى آيات[(٣)] لأنها جنس واحد فى الدلالة على رسالته .

---

(١) فى د : ماروى . (٢) هو طرفة بن العبد ؛ خاطب به عمرو بن هند الملك ، وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله . (٣) فى د : آياته .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى من بنى إسرائيل . وأحسّ معناه علِم ووجد؛ قاله الزجاج. وقال أبو عبيدة: معنى «أحس» عرف ، وأصل ذلك وجود الشىء بالحاسة . والإحساس : العلم بالشىء؛ قال الله تعالى : «هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ»(١) والحس القتل؛ قال الله تعالى : « إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ »(٢) . ومنه الحديث فى الجراد "إذا حَسَّهُ الْبَرْدُ". ﴿ مِنْهُمُ الْكُفْرَ ﴾ أى الكفر بالله . وقيل: سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفرّاء: أرادوا قتله . ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ ﴾ آستنصر عليهم . قال السدى والثورى وغيرهما : المعنى مع الله ، فإلى بمعنى مع ؛ كقوله تعالى : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ »(٣) أى مع . والله أعلم . وقال الحسن : المعنى من أنصارى فى السبيل إلى الله؛ لأنه دعاهم إلى الله عز وجل. وقيل: المعنى من يضم نصرته إلى نصرة الله عز وجل. فإلى على هذين القولين على بابها، وهو الجَيِّد. وطلب النصرة ليحتمى بها من قومه و يظهر الدعوة ؛ عن الحسن ومجاهد . وهذه سنة الله فى أنبيائه وأوليائه . وقد قال لوط : «لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ»(٤) أى عشيرة وأصحاب ينصرونني . ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ ﴾ أى أنصار نبيه ودينه . والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام ، وكانوا آثنى عشر رجلا؛ قاله الكلبي وأبو رَوْق .

وآختلف فى تسميتهم بذلك ؛ فقال آبن عباس : سموا بذلك لبياض ثيابهم ، وكانوا صيادين . آبن أبى نَجيح وآبن أرْطَاة : كانوا قصّارين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب . قال عطاء : أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى، وآخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصبّاغين ، فأراد معلّم عيسى السفر ، فقال لعيسى : عندى ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فآصبغها . فطبخ عيسى حُبًّا(٥) واحدا وأدخله جميع الثياب وقال : كونى بإذن الله على ما أريد منك . فقدم الحوارى والثياب كلها فى الحُبّ فلما رآها قال : قد أفسدتها ؛

(١) راجع ج ١١ ص ١٦٢   (٢) راجع ج ٤ ص ٢٣٥   (٣) راجع ج ٥ ص ١٠
(٤) راجع ج ٩ ص ٧٨   (٥) الحب بالضم : الخابية .

فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان على كل ثوب مكتوب عليه صبغه ؛ فعجب الحوارىّ ، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به ؛ فهم الحواريون . قتادة والضحاك : سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء . يريدان لنقاء(١) قلوبهم . وقيـل : كانوا ملوكا ، وذلك أن الملك صنع طعاما فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لاتنقص ، فقال الملك له : من أنت ؟ قال : عيسى ٱبن مريم . قال : إنى أترك ملكى هذا وأتبعك . فٱنطلق بمن ٱتبعه معه ، فهم الحواريون ؛ قاله ٱبن عون . وأصل الحَوَر فى اللغة البياض ، وحـوّرت الثياب بيضتها ، والحُوّارَى من الطعـام ما حُوّر، أى بيض ، وٱحْوَرّ ٱبيض ، والجَفْنَة المحوّرة : المبيضة بالسنام ، والحوارِىّ أيضا الناصر ؛ قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : " لكل نبىّ حوارىّ وحوارِيّى الزبير " . والحَوارِيّاتُ : النساء لبياضهن ؛ وقال :

فقُلْ للحواريات يَبْكِينَ غيرنَا * ولا تَبْكِنا إلّاالكلابُ النّوابِحُ

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله تعـالى : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ أى يقولون ربنا آمنا . ﴿ بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ يعنى فى كتابك وما أظهرته من حكمك . ﴿وَٱتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعنى عيسى . ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ عن ٱبن عباس . والمعنى أثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا من جملتهم . وقيل : المعنى فٱكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ يعنى كفار بنى إسرائيل الذين أحس منهم الكفر، أى قتله(٢) . وذلك أن عيسى عليه السلام لمـا أخرجه قومه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطئوا على الفتك به ، فذلك مكرهم . ومكر الله : ٱستدراجه لعباده من حيث لا يعلمون؛ عن الفرّاء وغيره . قال ٱبن عباس : كلما أحدثوا خطيئة جدّدنا لهم نعمة . وقال الزجاج : مكر الله مجازاتهم على مكرهم؛ فسمى الجزاء بٱسم الابتداء؛ كقوله :

(١) فى ز : لصفاء . (٢) فى ز : بقتله .

«اللهُ يَسْتَهزِئُ بِهِمْ»[1]، «وَهُوَ خَادِعُهُمْ»[2]. وقد تقدّم في البقرة. وأصل المكر في اللغة الاحتيال والخداع. والمكر: خَدَالَة الساق[3]. وامرأة ممكورة الساقين. والمكر: ضرب من الثياب. ويقال: بل هو المَغَرَة؛ حكاه ابن فارس. وقيل: «مكر الله» إلقاء شَبَه عيسى على غيره ورَفْع عيسى إليه، وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرفعه جبريل من الكوّة إلى السماء، فقال ملكهم لرجل منهم خبيث يقال له يهودا: ادخل عليه فاقتله، فدخل الخَوْخَة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى، فلما خرج رأوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه. ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضا؛ فذلك قوله تعالى: «وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ». وقيل غير هذا على ما يأتي.

﴿واللهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ اسم فاعل من مَكَرَ يَمْكُرُ مَكْرًا. وقد عدّه بعض العلماء في أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به: يا خير الماكرين أمكر لي. وكان عليه السلام يقول في دعائه: "اللهم أمكر لي ولا تمكر عليّ". وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. والله أعلم.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ العامل في «إذْ» مكروا، أو فعل مضمر. وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى: «إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ورَافِعُكَ إِلَيَّ» على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة. والمعنى: إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء؛ كقوله: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى»[4]؛ والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما. قال الشاعر:

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٠١		(٢) راجع جـ ٥ ص ٤٢١
(٣) في اللسان: حسن خدالة الساقين أي امتلاؤها واستدارتها.		(٤) راجع جـ ١١ ص ٢٦٠

أَلَا يا نخلة من ذات عِرْق * عليكِ ورحمةُ الله الســلامُ

أى عليك السلام ورحمة الله . وقال الحسن وٱبن جريج : معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت ؛ مثل توفيت مالى من فلان أى قبضته . وقال وهب بن منبه : توفى الله عيسى عليه الســلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء . وهذا فيه بعد ؛ فإنه صح فى الأخبـار عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نزولُه وقتلُه الدجّال على ما بيناه فى كتاب التذكرة، وفى هــذا الكتاب حسب ما تقدم، و يأتى . وقال ٱبن زيد : متوفيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد ولم يمت بعدُ . وروى ٱبن طلحة عن ٱبن عباس معنى متوفّيك مميتُك . الربيع ٱبن أنس : وهى وفاة نوم ؛ قال الله تعالى : « وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ بِٱللَّيْلِ »(١) أى يُنيمكم لأن النوم أخو الموت ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم لمـا سئل : أفى الجنة نوم؟ قال : "لا، النوم أخو الموت، والجنة لا موت فيها" . أخرجه الدارقطنيّ . والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وٱبن زيد، وهو ٱختيار الطبرى، وهو الصحيح عن ٱبن عباس، وقاله الضحاك . قال الضحاك : كانت القصّة لمـا أرادوا قتــل عيسى ٱجتمع الحواريون فى غرفة وهم ٱثنـا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مِشكاة الغــرفة، فأخبر إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة . فقال المسيح للحواريين : أيّكم يخرج ويُقتل ويكون معى فى الجنة ؟ فقال رجل : أنا يانبى الله ؛ فألق إليه مِدْرعة(٢) من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شَبَه عيسى، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه . وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة . وذكر أبو بكر بن أبى شيبة حدّثنا أبو معاوية حدّثنا الأعمش عن المِنهال عن سعيد بن جبير عن ٱبن عباس قال : لمـا أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحـابه وهم ٱثنا عشر رجلا من عين فى البيت ورأسه يقطر ماء فقال لهم : أما إنّ منكم من سيكفر بى ٱثنتى عشرة مرة بعــد أن آمن بى، ثم قال : أيكم يُلقَى عليه شَبَهى فيقتل مكانى و يكون معى

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٥ (٢) المدرعة (بالكسر) : الدراعة وهى ثوب من كتان .

فى درجتى؟ فقام شاب من أحدثهم فقال أنا . فقال عيسى : ٱجلس ، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال عيسى : ٱجلس . ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا . فقال نعم أنت ذاك . فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام . قال : ورفع الله تعالى عيسى من رَوْزَنة (١) كانت فى البيت إلى السماء . قال : وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه ، وكفر به بعضهم ٱثنتى عشرة مرة بعد أن آمن به ؛ فتفرّقوا ثلاث فرق : قالت فرقة : كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء ، وهؤلاء اليَعْقُوبية . وقالت فرقة : كان فينا ٱبن الله ماشاء الله ثم رفعه الله إليه ، وهؤلاء النَّسْطُورِيّة . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه ، وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامسا حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فقتلوا؛ فأنزل الله تعالى « فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا (٢) » أى آمن آباؤهم فى زمن عيسى «عَلَى عَدُوِّهِمْ» بإظهار دينهم على دين الكفار « فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ » . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والله لينزلنّ ٱبن مريم حكما عادلا فليكسرنّ الصليب وليقتلنّ الخنزير وليضعن الجزية ولَتُتْرَكُنّ القِلَاصُ (٣) فلا يسعى عليها ولَتذهبَن الشحناء والتباغض والتحاسد وليدعونّ إلى المال فلا يقبله أحد". وعنه أيضا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "والذى نفسى بيده ليُهلّنّ ٱبن مريم بفَجّ الرَّوْحاء (٤) حاجا أو معتمرا أو ليَثنينّهما" ولا ينزل بشرع مبتدإ فينسخ به شريعتنا بل ينزل مجدِّدا لما دَرَس منها متبعها. كما فى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كيف أنتم إذا نزل ٱبن مريم فيكم و إمامكم منكم" . وفى رواية : "فأمّكم منكم" . قال ٱبن أبى ذِئب : تدرى ما أمّكم منكم ؟ . قلت : تخبرنى . قال : فأَمّكم بكتاب ربكم تبارك وتعالى وسنةِ نبيكم صلى الله عليه وسلم . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التذكرة) والحمد لله . و « مُتَوَفِّيكَ » أصله متوفِّيُك حذفت الضمة ٱستثقالا ،

(١) الروزنة : الكوة .		(٢) راجع جـ ١٨ ص ٩٠

(٣) القلاص (بالكسر) : جمع قلوص وهى الناقة الشابة .		(٤) فج الروحاء : طريق بين مكة والمدينة ، كان طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر و إلى مكة عام الفتح وعام الحج . (عن معجم ياقوت) .

وهو خبر إنّ . « ورَافِعُكَ » عطف عليه ، وكذا « مُطَهِّرُكَ » وكذا « وجَاعِلُ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ » . ويجوز « وجاعلٌ الذين »[1] وهو الأصل . وقيل : إن الوقف التـام عند قوله : « ومُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا » . قال النحاس : وهو قول حسن . « وَجَاعِلُ الَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ » يا محمد « فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا » أي بالحجة و إقامة البرهان . وقيل بالعز والغلبة . وقال الضحاك ومحمد آبن أبان : المراد الحواريون . والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

قوله تعـالى : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ يعني بالقتل والصلب والسبي والجـزية ، وفي الآخرة بالنـار . ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾ « ذلك » في موضع رفع بالابتداء وخبره « نتلوه » . ويجوز : الأمر ذلك ، على إضمار المبتدإ .

قوله تعـالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ دليل على صحة القياس . والتشبيه واقع على أن عيسى خُلِقَ من غير أبٍ كآدم ، لا على أنه خلق من تراب . والشيء قد يشبه بالشيء و إن كان بينهما فرق كبير بعـد أن يجتمعا في وصف واحد ؛ فإن آدم خُلِقَ من تراب ولم يُخلق عيسى من تراب فكان بينهما فرق من هذه الجهة ، ولكن شبه ما بينهما أنهما خلقهما من غير أبٍ ؛ ولأن أصل خِلقتهما كان من تراب لأن آدم لم يخلق من نفس التراب ،

(١) كذا في بعض الأصول وكتاب إعراب القرآن للنحاس . وفي ز : و جعل .

ولكنه جعل التراب طينا ثم جعله صلصالا ثم خلقه منه ، فكذلك عيسى حوّله من حال إلى حال، ثم جعله بشرا من غير أب . ونزلت هذه الآية بسبب وفد نجران حين أنكروا على النبيّ صلى الله عليه وسلم قوله : " إن عيسى عبد الله وكلمته " فقالوا : أرنا عبدا خلق من غير أب ؛ فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم : " آدم من كان أبوه أعجبتم من عيسى ليس له أب؟ فآدم عليه السلام ليس له أب ولا أم " . فذلك قوله تعالى : « وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ » أى فى عيسى « إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ » فى آدم « وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا »(١) . وروى أنه عليه السلام لما دعاهم إلى الإسلام قالوا : قد كنا مسلمين قبلك . فقال : " كذبتم يمنعكم من الإسلام ثلاث : قولكم اتخذ الله ولدا، وأكلكم الخنزير، وسجودكم للصليب " . فقالوا : من أبو عيسى ؟ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » إلى قوله : « فَنَجْعَل لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ » . فدعاهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم لبعض: إن فعلتم اضطرم الوادى عليكم نارا . فقالوا : أما تَعرِض علينا سوى هذا ؟ فقال : "الإسلام أو الجزية أو الحرب" فأقروا بالجزية على ما يأتى . وتمّ الكلام عند قوله « آدَمَ » . ثم قال : « خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » أى فكان . والمستقبل يكون فى موضع الماضى إذا عرف المعنى . قال الفرّاء : ﴿ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ مرفوع بإضمار هو . أبو عبيدة : هو استئناف كلام وخبره فى قوله « مِنْ رَبِّكَ » . وقيل هو فاعل ، أى جاءك الحق . ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد أمّته ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن شاكا فى أمر عيسى عليه السلام .

قوله تعالى : فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾

---

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٨

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ ﴾ أى جادلك وخاصمك يا محمد «فيه»، أى فى عيسى ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ بأنه عبد الله ورسوله . ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا ﴾ أى أقبلوا . وضع لمن له جلالة ورفعة ثم صار فى الاستعمال لكل داع إلى الإقبال، وسيأتى له مزيد بيان فى « الأنعام » (١) . ﴿ نَدْعُ ﴾ فى موضع جزم . ﴿ أَبْنَاءَنَا ﴾ دليل على أن أبناء البنات يسمّون أبناء ؛ وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء بالحسن والحسين وفاطمة تمشى خلفه وعلىّ خلفها وهو يقول لهم: "إن أنا دعوت فأمّنوا" وهو معنى قوله ﴿ ثم نبتهل ﴾ أى نتضرع فى الدعاء ؛ عن ابن عباس . أبو عبيدة والكسائى : نلتعن . وأصل الابتهال الاجتهاد فى الدعاء باللعن وغيره . قال لبيد :

فى كهولٍ سادةٍ من قومه * نظر الدهرُ إليهم فابتهل

أى اجتهد فى إهلاكهم . يقال : بهله الله أى لعنه . والبهل اللعن . والبهل الماء القليل . وأبهلته إذا خليته و إرادته . وبهلته أيضا . وحكى أبو عبيدة : بهله الله يبهله بهلة أى لعنه . قال ابن عباس : هم أهل نجران : السيد والعاقب وابن الحارث رؤساؤهم . ﴿ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ .

الثانيـــة — هذه الآية من أعلام نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم؛ لأنه دعاهم إلى المباهلة فأبوا منها ورضوا بالجزية بعد أن أعلمهم كبيرهم العاقب أنهم إن باهلوه اضطرم عليهم الوادى نارا فإن محمدا نبيّ مرسل، ولقد تعلمون أنه جاءكم بالفصل فى أمر عيسى ؛ فتركوا المباهلة وانصرفوا إلى بلادهم على أن يؤدّوا فى كل عام ألف حُلّة فى صَفَر وألف حلة فى رَجَب فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك بدلا من الإسلام .

الثالثـــة — قال كثير من العلماء : إن قوله عليه السلام فى الحسن والحسين لما باهل « نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ » وقوله فى الحسن : "إن ابنى هذا سيد" مخصوص بالحسن والحسين أن يسمّيا ابنىْ النبيّ صلى الله عليه وسلم دون غيرهما ؛ لقوله عليه السلام : "كل سبب ونسب

(١) راجع ٧ ص ١٣٠

ينقطع يوم القيامة إلا نسبي وسببي " ولهذا قال بعض أصحاب الشافعي فيمن أوصى لولد فلان ولم يكن له ولد لصلبه وله ولد ابن وولد ابنة : إن الوصية لولد الابن دون ولد الابنة؛ وهو قول الشافعي . وسيأتي لهذا مزيد بيان في « الأنعام[1] والزخرف » إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ ﴾ الإشارة في قوله « إن هذا » إلى القرآن وما فيه من الأقاصيص، سميت قصصا لأن المعاني تتتابع فيها؛ فهو من قولهم : فلان يقص أثر فلان ، أي يتبعه . ﴿ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ ﴾ « من » زائدة للتوكيد ، والمعنى وما إله إلا الله ﴿ الْعَزِيزُ ﴾ أي الذي لا يغلب . ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ ذو الحكمة . وقد تقدّم مثله والحمد لله .

قوله تعالى : قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ الخطاب في قول الحسن وابن زيد والسدي لأهل نجران . وفي قول قتادة وابن جريج وغيرهما ليهود المدينة، خوطبوا بذلك لأنهم جعلوا أحبارهم في الطاعة لهم كالأرباب . وقيل : هو لليهود والنصارى جميعا . وفي كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل « بسم الله الرحمن الرحيم — من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى [أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام[2]] أسلم تسلم

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٣٢ و جـ ١٦ ص ٧٧ فما بعد . (٢) زيادة عن صحيح مسلم .

[وأسلِم[١]] يؤتِك الله أجرك مرتين وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين[٢] ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سـواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله — إلى قوله : « فقولوا آشهدوا بأنا مسلمون » . لفظ مسلم . والسواء العدل والنصفة ؛ قاله قتادة . وقال زهير :

أرونى خُطّة لا ضَيمْ فيها * يُسَوِّى بيننـا فيها السَّواء

الفـرّاء : ويقال فى معنى العـدل سِوًى وسُوًى ، فإذا فتحت السـين مددت وإذا كسرت أو ضممت قصرت؛ كقوله تعالى : « مَكَانًا سُوًى » . قال : وفى قراءة عبد الله « إلى كلمة عدل بيننا وبينكم » وقرأ قَعْنَب[٣] « كِلْمَـة » بإسكان اللام ، ألقى حركة اللام على الكاف ؛ كما يقال كِبْد . فالمعنى أجيبوا إلى ما دعيتم إليه ، وهو الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها ميل عن الحق ؛ وقد فسرها بقوله تعـالى : « أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ » فموضع « أن » خفض على البدل من « كلمة » ، أو رفع على إضمار مبتدإ ، التقدير هى أن لا نعبد إلا الله . أو تكون مفسرة لا موضع لها ، ويجوز مع ذلك فى « نعبد » وما عطف عليه الرفع والجزم : فالجزم على أن تكون « أن » مفسرة بمعنى أى ؛ كما قال عز وجل : « أَنِ آمْشُوا » وتكون « لا » جازمة . هذا مذهب سيبويه . ويجوز على هـذا أن ترفع « نعبد » وما بعده يكون خبرا . ويجوز الرفع بمعنى أنه لا نعبد ؛ ومثله « أَنْ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا[٤] » . وقال الكسائى والفـرّاء : « وَلَا نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذْ » بالجزم على التوهم أنه ليس فى أول الكلام أن .

الثانيـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أى لا نتبعه فى تحليل شىء أو تحريمه إلا فيما حلله الله تعالى . وهو نظير قوله تعـالى : « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ[٥] » معناه أنهم أنزلوهم منزلة ربهم فى قبول تحريمهم وتحليلهم لمـا لم يحرمه الله ولم يحله الله . وهذا يدل على بطلان القول بالاستحسان المجرّد الذى لا يستند إلى دليل شرعىّ ؛ قال الكيا الطبرىّ : مثل آستحسانات أبى حنيفة فى التقديرات التى قدّرها دون مستندات بينة . وفيه ردّ على الروافض الذين يقولون : يجب قبول [قول] الإمام دون إبانة

(١) زيادة عن صحيح مسلم . (٢) الأريسيين : الأكارون والفلاحون والخدم والخول ، كل ذلك وارد فى معنى هذه الكلمة . (٣) هو أبو السمال العدوىّ . (٤) راجع جـ ١١ ص ٢٣٦ (٥) راجع جـ ٨ ص ١١٩

مستند شرعي، وأنه يحل ما حرّمه الله من غير أن يبين مستندا من الشريعة. وأرباب جمع رب. و « دون » هنا بمعنى غير.

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى أعرضوا عما دعوا إليه. ﴿ فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ أى متصفون بدين الإسلام منقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا فى ذلك من المنن والإنعام، غير متخذين أحدا ربّا لا عيسى ولا عُزَيرا ولا الملائكة؛ لأنهم بشر مثلنا محدَث كحدوثنا، ولا نقبل من الرهبان شيئا بتحريمهم علينا ما لم يحرّمه الله علينا، فنكون قد اتخذناهم أربابا. وقال عكرمة: معنى « يَتَّخِذَ » يسجد. وقد تقدّم أن السجود كان إلى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم مُعاذا لما أراد أن يسجد؛ كما مضى فى البقرة[1] بيانه. وروى أنس بن مالك قال: قلنا يا رسول الله، أينحني بعضنا لبعض؟ قال "لا" قلنا: أيعانق بعضنا بعضا؟ قال "لا ولكن تصافحوا" أخرجه ابن ماجه فى سننه. وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان فى سورة « يوسف »[2] [إن[3] شاء الله]، وفى « الواقعة »[4] مس القرآن أو بعضه على غير طهارة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿ يَأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ الأصل « لما » فحذفت الألف فرقا بين الاستفهام والخبر. وهذه الآية نزلت بسبب دعوى كل فريق من اليهود والنصارى أن إبراهيم كان على دينه، فأكذبهم الله تعالى بأن اليهودية والنصرانية إنما كانتا من بعده؛ فذلك قوله: « وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ ». قال الزجاج: هذه الآية أبينُ حجة على اليهود والنصارى؛ إذ التوراة والإنجيل أنزلا من بعده وليس فيهما[5] اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام فى كل كتاب. ويقال: كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة، وبين موسى وعيسى أيضا ألف سنة. ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ دحوض حجتكم وبطلان قولكم. والله أعلم.

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩٣ (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٦٥ (٣) الزيادة من نسخ: ز، ب.
(٤) إيراد هذه الجملة هنا غير واضح المناسبة. (٥) فى الأصول: فيها والمثبت فى: د.

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ ﴾ يعنى فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنهم كانوا يعلمونه فيما يجدون من نعته فى كتابهم فحاجّوا فيه بالباطل . ﴿ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ﴾ يعنى دعواهم فى إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا. والأصل فى « هاأنتم » أأنتم فأبدل من الهمزة الأولى هاء لأنها أختها؛ عن أبى عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قُنْبُل عن ابن كثير « هاتم » مثـل هعنتم . والأحسن منه أن يكون الهـاء بدلا من همزة فيكون أصـله أأنتم . ويجوز أن تكون ها للتنبيه دخلت على « أنتم » وحذفت الألف لكثرة الاستعمال . وفى « هؤلاء » لغتان المدّ والقصر ومن العرب من يقصرها . وأنشد أبو حاتم :

لعمـرك إنا والأحاليف هاؤلا * لفى محنـة أظفـارها لم تُقَـلَّم

وهؤلاء هاهنا فى موضع النداء يعنى يا هؤلاء. ويجوز هؤلاء خبر أنتم، على أن يكون أولاء بمعنى الذين وما بعده صلة له . ويجوز أن يكون خبر « أنتم » حاججتم . وقد تقدّم هذا فى « البقرة »[1] والحمد لله .

الثانيـــة — فى الآية دليل على المنع من الجدال لمن لا علم له ، والحظرِ على من لا تحقيق عنده فقال عز وجل: « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ » . وقد ورد الأمر بالجدال لمن علِم وأيقن فقال تعالى : « وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[2] . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتاه رجل أنكر ولده فقال : يا رسول الله، إن امرأتى ولدت غلاما أسود . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هل لك من إبل" ؟ قال نعم . قال :

---

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٤ ، جـ ٢ ص ٢٠ (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٠٠

" ما ألوانها " ؟ قال : حُمْر : قال . " هل فيها من أَوْرَق[1] " ؟ قال نعم . قال : " فمن أين ذلك " ؟ قال : لعل عِرْقا نَزَعه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وهذا الغلام لعل عِرقا نزعه " . وهذا حقيقة الجدال ونهايةٌ فى تبيين الاستدلال من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

نزهه تعالى من دعاويهم الكاذبة، وبين أنه كان على الحنيفية الإسلامية ولم يكن مشركا. والحنيف : الذى يوحد ويحج ويضحى ويختتن ويستقبل القبلة . وقد مضى فى « البقرة » اشتقاقه[2] . والمسلم فى اللغة : المتذلل لأمر الله تعالى المنطاع له . وقد تقدم فى «البقرة» معنى الإسلام[3] مستوفى والحمد لله .

قوله تعالى : إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

وقال ابن عباس : قال رؤساء اليهود : والله يا محمد لقد علمت أنا أولى الناس بدين إبراهيم منك ومن غيرك ، فإنه كان يهوديا وما بك إلا الحسد، فأنزل الله تعالى هذه الاية . ﴿ أَوْلَى ﴾ معناه أحق، قيل : بالمعونة والنصرة . وقيل بالحجة . ﴿ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ على ملته وسنته . ﴿ وَهَٰذَا النَّبِيُّ ﴾ أفرد ذكره تعظيما له ؛ كما قال « فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ[4] » وقد تقدم فى « البقرة » هذا المعنى مستوفى . و « هذا » فى موضع رفع عطف على الذين، و « النبيُّ » نعت لهذا أو عطف بيان، ولو نصب لكان جائزا فى الكلام عطفا على الهاء فى « اتبعوه » . ﴿ والله وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى ناصرهم . وعن ابن مسعود أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) الأورق : الذى لونه بين السواد والغبرة .   (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٩
(٣) راجع جـ ٢ ص ١٣٤   (٤) راجع جـ ١٧ ص ١٨٥

"إن لكل نبيّ ولاة من النبيين وإن وليِي منهم أبى وخليل ربى — ثم قرأ — إنّ أولى الناس بإبراهيم للذين آتبعوه وهذا النبيّ" .

قوله تعـالى : وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

نزلت فى معاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود من بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع إلى دينهم . وهذه الآية نظير قوله تعالى : « وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا[1]» . و «مِنْ» على هذا القول للتبعيض . وقيل : جميع أهل الكتاب، فتكون « مِنْ » لبيان الجنس . ومعنى « لَوْ يُضِلُّونَكُم» أى يكسبونكم المعصية بالرجوع عن دين الإسلام والمخالفة له . وقال آبن جُرَيج : «يُضِلُّونكم» أى يهلكونكم ؛ ومنه قول الأخطل :

كُنْتَ الْقَذَى فى مَوْجِ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ * قَـذَفَ الأَتِيُّ[2] به فضـلّ ضلالا

أى هلك هلاكا . ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُم﴾ نفى وإيجاب . ﴿وَمَا يَشْعُرُون﴾ أى يفطنون[3] أنهم لا يصلون إلى إضلال المؤمنين . وقيل : «وما يشعرون» أى لا يعلمون بصحة الإسلام وواجب عليهم أن يعلموا؛ لأن البراهين ظاهرة والحجج باهرة، والله أعلم .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

أى بصحة الآيات التى عندكم فى كتبكم ؛ عن قتادة والسّدى . وقيل : المعنى وأنتم تشهدون بمثلها من آيات[4] الأنبياء التى أنتم مقرّون بها .

قوله تعـالى : يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

(١) راجع جـ ٢ ص ٧٠ (٢) الأتىّ : كل سيل يأتى من حيث لا تعلم .
(٣) فى جـ : يفطنون . (٤) فى ز : من الآيات البينات التى الخ .

اللبس الخلط، وقد تقدّم فى البقرة.[1] ومعنى هذه الآية والتى قبلها معنى ذلك.[2] ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ ويجوز «تكتموا» على جواب الاستفهام. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جملة فى موضع الحال.

قوله تعالى : وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَـٰبِ ءَامِنُواْ بِالَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

نزلت فى كعب بن الأشرف ومالك بن الصيّف وغيرهما، قالوا للسفلة من قومهم : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار، يعنى أوّله. وسمى وجها لأنه أحسنه، وأوّل مايُوَاجه منه أوّلُه. قال الشاعر :

وتُضِيءُ فى وجه النهارِ منيرةً * كجُمّانة البحرِيّ سُلّ نِظامُها[3]

وقال آخر :

من كان مسرورا بمقتل مالكٍ * فليأتِ نسوتنا بوجه نهارِ

وهو منصوب على الظرف، وكذلك «آخِرَه». ومذهب قتادة أنهم فعلوا ذلك ليشككوا المسلمين. والطائفة الجماعة، من طاف يطوف، وقد يستعمل للواحد على معنى نفس طائفة. ومعنى الآية أن اليهود قال بعضهم لبعض : أظهروا الإيمان بمحمد فى أوّل النهار ثم آكفروا به آخِرَه؛ فإنكم إذا فعلتم ذلك ظهر لمن يتبعه آرتياب فى دينه فيرجعون عن دينه إلى دينكم، ويقولون إن أهل الكتاب أعلم به منا. وقيل : المعنى آمنوا بصلاته فى أوّل النهار إلى بيت المقدس فإنه الحق، وآكفروا بصلاته آخر النهار إلى الكعبة لعلهم يرجعون إلى قِبلتكم؛ عن آبن عباس وغيره. وقال مقاتل : معناه أنهم جاءوا محمدا صلى الله عليه وسلم أوّل النهار ورجعوا من عنده فقالوا للسّفلة : هو حق فآتبعوه، ثم قالوا : حتى ننظر فى التوراة ثم رجعوا فى آخر النهار فقالوا : قد نظرنا فى التوراة فليس هو به. يقولون إنه ليس بحق، و إنما أرادوا أن يُلبسوا على السّفلة وأن يُشكّكوا فيه.

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٤٠ (٢) فى جـ : معنى تلك.

(٣) البيت للبيد. والجمانة : حبة تعمل من الفضة كالدرة، والذى فى اللسان والتاج : وتضى فى وجه الظلام.

قوله تعالى : وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ هذا نهى، وهو من كلام اليهود بعضهم لبعض، أى قال ذلك الرؤساء للسّفلة. وقال السدى : من قول يهودِ خيبر ليهود المدينة. وهذه الآية أشكل ما فى السورة. فروى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم فإنكم أصح منهم دِينا. و«أن» و«يحاجوكم» فى موضع خفض، أى بأن يحاجوكم أى بآحتجاجهم، أى لا تصدّقوهم فى ذلك فإنهم لا حجة لهم. ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾ من التوراة والمنّ والسلوى وفرق البحر وغيرها من الآيات والفضائل . فيكون «أن يؤتى» مؤخرا بعد « أو يُحَاجّوكم » ، وقوله «إنّ الْهُدَى هُدَى اللهِ» آعتراض بين كلامين . وقال الأخفش : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ولا تصدّقوا أن يحاجوكم ؛ يذهب إلى أنه معطوف . وقيل : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالمَدّ على الآستفهام أيضا تأكيد للإنكار الذى قالوه إنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتوه ؛ لأن علماء اليهود قالت لهم : لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مِثل ما أوتيتم ؛ أى لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ؛ فالكلام على نسقه . و«أن» فى موضع رفع على قول من رفع فى قولك أزيد ضربته ، والخبر محذوف تقديره أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم تصدّقون أو تقرون ، أى إيتاء موجود مصدَّقٌ أو مُقَرّ به ، أى لا تصدّقون بذلك . ويجوز أن تكون « أن » فى موضع نصب على إضمار فعل ؛ كما جاز فى قولك أزيدا ضربته ، وهذا أقوى فى العربية لأن الآستفهام بالفعل أولى ، والتقدير أتقرون أن يؤتى ، أو أتشيعون ذلك ، أو أتذكرون ذلك ونحوه . و بالمد قرأ آبن كثير وآبن محيصن وحميد. وقال أبو حاتم : «آن» معناه «أَلأَنْ» ، فحذفت لام الجر آستخفافا وأبدلت مدّة ؛ كقراءة من

قرأ « آنْ كَانَ ذَا مَالٍ »(١) أى ألأن . وقوله « أو يُحَاجُّوكُم » على هذه القراءة رجوع إلى خطاب المؤمنين؛ أو تكون « أو » بمعنى « أنْ » لأنهما حرفا شكّ وجزاء يوضع أحدهما موضع الآخر(٢) . وتقدير الآية : وأن يحاجوكم عند ربكم يا معشر المؤمنين، فقل : يا محمد إن الهدى هدى الله ونحن عليه . ومن قرأ بترك المدّ قال : إن النفى الأوّل دلّ على إنكارهم فى قولهم ولا تؤمنوا . فالمعنى أن علماء اليهود قالت لهم : لا تصدّقوا بأن يُؤتَى أحد مثل ما أوتيتم، أى لا إيمان لهم ولا حجة؛ فعطف على المعنى من العلم والحكمة والكتاب والحجة والمنّ والسلْوَى وفَلق البحر وغيرها من الفضائل والكرامات، أى إنها لا تكون إلا فيكم فلا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم . فالكلام فيه تقديم وتأخير على هذه القراءة واللام زائدة . ومن آستثنى ليس من الأوّل، وإلا لم يجز الكلام . ودخلت « أَحَدٌ » لأن أوّل الكلام نفى، فدخلت فى صلة «أن» لأنه مفعول الفعل المنفى؛ فأن فى موضع نصب لعدم الخافض . وقال الخليل : (أنْ) فى موضع خفض بالخافض المحذوف . وقيل : إن اللام ليست بزائدة، و « تُؤمِنُوا » محمول على تُقِرّوا . وقال آبن جريج : المعنى ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم . وقيل : المعنى لا تخبروا بما فى كتابكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم إلا لمن تبع دينكم لئلا يكون طريقا إلى عبَدَة الأوثان إلى تصديقه . وقال الفرّاء : يجوز أن يكون قد آنقطع كلام اليهود عند قوله عز وجل « إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُم » ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم « قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ » . أى إن البيان الحق هو بيان الله عز وجل « أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ » بيّن ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، و « لا » مقدرة بعد «أن» أى لئلا يؤتى؛ كقوله « يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا »(٣) أى لئلا تضلوا، فلذلك صلح دخول « أحد » فى الكلام . و « أو » بمعنى « حتى » و « إلا أن » ؛ كما قال آمرؤ القيس :

فقلتُ له لا تَبْكِ عَيْنُك إنّما * نحاول مُلكًا أو نموتَ فنُعذَرا

وقال آخر(٤) :

وكنتُ إذا غَمَزْتُ قَنَاةَ قوم * كسرتُ كُعُوبَها أو تستقيما

(١) راجع ج ١٨ ص ٢٣٦ (٢) فى الأصول : إحداهما موضع الأخرى .
(٣) راجع ج ٦ ص ٢٨ (٤) هو زياد الأعجم .

ومثله قولهم : لا نلتقي أو تقوم الساعة، بمعنى «حتى» أو «إلى أن»؛ وكذلك مذهب الكسائي.
وهي عند الأخفش عاطفة على «وَلَا تُؤْمِنُوا» وقد تقدّم . أي لا إيمان لهم ولا حجة ؛ فعطف على المعنى . ويحتمل أن تكون الآية كلها خطابا للؤمنين من الله تعالى على جهة التثبيت لقلوبهم والتشحيذ لبصائرهم؛ لئلا يشكّوا عند تلبيس اليهود وتزويرهم في دينهم . والمعنى لا تصدّقوا يا معشر المؤمنين إلا من تبع دينكم، ولا تصدّقوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من الفضل والدِّين ، ولا تصدّقوا أن يحاجّكم في دينكم عند ربّكم مَن خالفكم أو يقدر على ذلك ، فإن الهُدَى هدى الله وإن الفضل بيد الله . قال الضحاك : إن اليهود قالوا إنا نحاجّ عند ربنا مَن خالفنا في ديننا ؛ فبيّن الله تعالى أنهم هم المُدْحَضُون المعذَّبون وأن المؤمنين هم الغالبون . ومحاجّتهم خصومتهم يوم القيامة . ففي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن اليهود والنصارى يحاجُّونا عند ربّنا فيقولون أعطيتنا أجْرًا واحدا وأعطيتهم أجرين فيقول هل ظلمتكم من حقوقكم شيئا قالوا[(1)] لا قال فإن ذلك فضلي أُوتيه من أشاء" . قال علماؤنا : فلو علموا أن ذلك من فضل الله لم يحاجونا عند ربنا؛ فأعلم الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أنهم يحاجونكم يوم القيامة عند ربكم، ثم قال : قل لهم [الآن][(2)] « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » . وقرأ ابن كثير « آنْ يؤتى » بالمدّ على الاستفهام ؛ كما قال الأعشى :

أأنْ رأتْ رَجُلًا أعشَى أضَرَّ بِهِ * رَيْبُ المَنُونِ ودهرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ[(3)]

وقرأ الباقون بغير مدّ على الخبر . وقرأ سعيد بن جبير «إن يؤتى» بكسر الهمزة، على معنى النفي؛ ويكون من كلام الله تعالى كما قال الفرّاء . والمعنى : قل يا محمد « إن الهُدَى هدى الله إن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم » يعني اليهود — بالباطل فيقولون نحن أفضل منكم . ونصب « أو يحاجوكم » يعني بإضمار « أن » و « أو » تضمر بعدها « أن » إذا كانت بمعنى « حتى » و « إلا أن » . وقرأ الحسن «أن يُؤتِيَ» بكسر التاء وياء مفتوحة ، على معنى أن يُؤتِيَ أحدٌ أحدًا مثل ما أوتيتم ، فحذف المفعول .

---

(١) في د : فيقولون . (٢) من ب ، د . (٣) متبل : مسقم ، وخبل : ملتو على أهله لا يرون فيه سرورا .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الهُدَى إلى الخير والدّلالة إلى الله عز وجل بيد الله جل ثناؤه يؤتيه أنبياءه، فلا تنكروا[1] أن يؤتى أحد سواكم مثل ما أوتيتم، فإن أنكروا ذلك فقل لهم « إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » . والقول الآخر : قل إن الهدى هدى الله الذى آتاه المؤمنين من التصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لا غيره . وقال بعض أهل الإشارات فى هذه الآية : لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم فإن من لا يوافقكم لا يرافقكم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

أى بنبوّته وهدايته؛ عن الحسن ومجاهد وغيرهما . ابن جُرَيج : بالإسلام والقرآن « من يشاء » . قال أبو عثمان : أجمل القول ليبقى معه رجاء الراجى وخوف الخائف ، ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ مثل عبد الله بن سَلَام . ﴿ ومِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ﴾ وهو فنحاص بن عازوراء اليهودىّ، أودعه رجل دينارا فخانه . وقيل : كعب بن الأشرف وأصحابه . وقرأ ابن وثّاب والأشهب العقيلى « مَنْ إِنْ تِيمَنْه » على لغة من قرأ « نِستعين » وهى لغة بكر وتميم . وفى حرف عبد الله « مالك لَا تِيمَنَّا على يوسف » . والباقون بالألف . وقرأ نافع والكِسائى « يؤدِّهِى » بياء فى الإدراج قال أبو عبيد : واتفق أبو عمرو والأعمش وعاصم وحمزة فى رواية أبى بكر

(١) هذا نهى ، وفى جـ ، و د : فلا تنكرون . على الخبر .

على وقف الهـاء، فقرءوا «يؤدّهْ إليك» . قال النحاس: بإسكان الهـاء لا يجوز إلا فى الشعر عنـد بعض النحويين ، وبعضهم لا يجيزه ألبتّةَ ويرى أنه غلط ممن قـرأ به ، وأنه توهّم أن الجزم يقع على الهـاء ، وأبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه مثل هذا . والصحيح عنه أنه كان يكسر الهـاء ؛ وهى قراءة يزيد بن القَعْقاع . وقال الفـرّاء : مذهب بعض العرب يجزمون الهـاء إذا تحرك ما قبلها ، يقولون : ضربتهْ ضربا شديدا؛ كما يسكنون ميم أنتم وقمتم وأصلها الرفع ؛ كما قال الشاعر :

لمـا رأى ألّا دعَهْ ولا شِـبَعْ * مال إلى أرْطَاة حِقْفٍ[١] فاضطَجعْ

وقيل : إنمـا جاز إسكان الهـاء فى هذا الموضع لأنهـا وقعت فى موضع الجزم وهى اليـاء الذاهبة . وقرأ أبو المُنْذر سلّام والزُّهرىّ « يؤدّهُ » بضم الهـاء بغير واو . وقرأ قَتادة وحُميد ومجاهد « يؤدِّهُو » بواو فى الإدراج ، اختير لهـا الواو لأن الواو من الشّـفة والهـاء بعيدة المخرج . قال سيبويه : الواو فى المذكّر بمنزلة الألف فى المؤنّث ويبدل منها ياء لأن الياء أخف إذا كان قبلها كسرة أو ياء، وتحذف اليـاء وتبقى الكسرة لأن الياء قد كانت تحذف والفعل مرفوع فأثبتت بحالهـا .

الثانيـــة — أخبر تعالى أن فى أهل الكتاب الخائنَ والأمينَ ، والمؤمنون لا يميزون ذلك، فينبغى اجتناب جميعهم . وخصّ أهل الكتاب بالذّكر وإن كان المؤمنون كذلك؛ لأنّ الخيانة فيهم أكثر، فخرج الكلام على الغالب . والله أعلم . وقد مضى تفسير القنطار . وأما الدينار فأربعة وعشرون قيراطا والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعير، فمجموعه اثنتان وسبعون حبة، وهو مُجْمَع عليه . ومن حفظ الكثير وأدّاه فالقليل أوْلى ، ومن خان فى اليسير أو منعه فذلك فى الكثير أكثر . وهذا أدلّ دليل على القول بمفهوم الخطاب.وفيه بين العلماء خلاف [كثير][٢] مذكور فى أصول الفقه . وذكر تعالى قسمين : من يؤدّى ومن لا يؤدّى إلا بالملازمة عليه ؛ وقد يكون من الناس من لا يؤدّى وإن دُمت عليه قائما . فذكر تعالى القسمين لأنه الغالب

(١) الأرطاة: واحدة الأرطى، وهو شجر من شجر الرمل . والحقف (بالكسر): ما أعوج من الرمل . (٢) من د.

والمعتاد والثالث نادر؛ فخرج الكلام على الغالب . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف وأبو عبد الرحمن السُّلمى وغيرهما «دِمت» بكسر الدال وهما لغتان، والكسر لغةُ أزْد السَّراة؛ من «دِمْت تدام» مثل خفت تخاف . وحكى الأخفش دِمت تدوم ، شاذًّا .

الثالثة — آستدلّ أبو حنيفة على مذهبه فى ملازمة الغَريم بقوله تعالى : «إلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا» وأباه سائر العلماء، وقد تقدّم فى البقرة(١). وقد آستدل بعض البَغْداديّين [من علمائنا](٢) على حبس المِديان بقوله تعالى : «وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا» فإذا كان له ملازمته ومنعه من التصرف، جاز حبسه . وقيل : إن معنى «إلا مادمت عليه قائما» أى بوجهك فيهَابُك و يستحى منك، فإن الحياء فى العينين؛ ألا ترى إلى قول آبن عباس رضى الله عنه : لا تطلبوا من الأعمى حاجة فإن الحياء فى العينين . و إذا طلبت من أخيك حاجة فآنظر إليه بوجهك حتى يستحى فيقضيها . و يقال : «قائما» أى ملازما له ؛ فإن أنظرته أنكرك . وقيل : أراد بالقيام إدامة المطالبة لا عين القيام . والدِّينار أصله دِنّار فعوّضت من إحدى النونين ياء طلبا للتخفيف لكثرة آستعماله . يدل عليه أنه يجمع دنانير و يصغر دُنَيْنِير .

الرابعة — الأمانة عظيمة القَدْر فى الدِّين، ومن عِظم قدرها أنها تقوم هى والرَّحِم على جَنَبَتِي(٣) الصراط؛ كما فى صحيح مسلم . فلا يُمَكَّن من الجواز إلا من حفظهما . وروى مسلم عن حذيفة قال حدّثنا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، قال : "ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه" الحديث . وقد تقدم بكماله أوّل البقرة(٤) . وروى آبن ماجه حدّثنا محمد آبن المُصَفَّى حدّثنا محمد بن حرب عن سعيد بن سِنان عن أبى الزاهِريّة عن أبى شجرة كثير آبن مُرة عن آبن عمر أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء فإذا نزع منه الحياء لم تَلقه إلا مَقِيتاً مُمَقَّتاً فإذا لم تلقه إلا مَقِيتاً مُمَقَّتاً نُزِعت منه الأمانة فإذا نزعت منه الأمانة لم تَلقه إلا خائنا مُخَوَّنًا فإذا لم تلقه إلا خائنا مخوّنا نُزعت منه

(١) راجع جـ ٣ ص ٣٧١ (٢) زيادة عن نسخة ب (٣) جنبة الوادى (بفتح النون) : جانبه وناحيته . والجنبة (بسكون النون) : الناحية ؛ يقال : نزل فلان جنبة أى ناحية .
(٤) راجع جـ ١ ص ١٨٨، وصحيح مسلم جـ ١ ص ٥١ طبع بولاق .

الرحمة فإذا نُزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعنا فإذا لم تلقه إلا رجيما مُلعنًا نزعت منه رِبْقة الإسلام" . وقد مضى فى البقرة معنى قولِه عليه السلام : " أدِّ الأمانة إلى من آئتمنك ولا تخن من خانك " . والله أعلم .

الخامســـة ــ ليس فى هذه الآية تعديل لأهل الكتاب ولا لبعضهم خلافا لمن ذهب إلى ذلك ؛ لأن فُسّاق المسلمين يوجد فيهم من يؤدّى الأمانة ويؤمن على المال الكثير ولا يكونون بذلك عدولا . فطريق العدالة والشهادة ليس يجزئ فيــه أداء الأمانة فى المال من جهة المعاملة والوديعة ؛ ألا ترى قولهم : «لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ» فكيف يعدل من يعتقد آستباحة أموالنا وحَريمنا بغير حرج عليــه ؛ ولو كان ذلك كافيا فى تعديلهــم لسُمعت شهادتهم على المسلمين .

السادســـة ــ قوله تعــالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا ﴾ يعنى اليهود ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ قيل : إن اليهود كانوا إذا بايعوا المسلمين يقولون : ليس علينا فِى الأُمِّيِّينَ سبيل ــ أى حرج فى ظلمهم ــ لمخالفتهم إيّانا . وآدّعوا أن ذلك فى كتابهم ؛ فأكذبهم الله عز وجل وردّ عليهم فقال : « بلى » أى بَلَىَ عليهم سبيل العــذاب بكذبهم وآستحلالهم أموال العرب . قال أبو إسحاق الزجاج : وتمّ الكلام . ثم قال « مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْــدِهِ وَاتَّقَىٰ » . ويقال : إن اليهود كانوا قد آستدانوا من الأعراب أموالا فلما أســلم أرباب الحقوق قالت اليهود : ليس لكم علينا شىء ، لأنكم تركتم دِينكم فسقط عنا دَينكم . وآدّعوا أنه حكم التوراة فقال الله تعــالى : « بلى » ردّا لقولهم « لَيْسَ عَلَيْنَــا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ » . أى ليس كما تقولون ، ثم آســتأنف فقال : « مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْــدِهِ وَاتَّقَىٰ » الشركَ فليس من الكاذبين بل يحبه الله ورسوله .

السابعـــة ــ قال رجل لآبن عباس : إنّا نُصيب فى العَمْــد من أموال أهــل الذمة الدّجاجة والشــاة ونقول : ليس علينا فى ذلك بأس . فقال له : هــذا كما قال أهل الكتاب « ليس علينا فى الأمّيين سبيل » إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا عن طِيب

أنفسهم ، ذكره عبد الرازق عن معمر عن أبي إسحاق الهمْدانيّ عن صَعْصعة أن رجلا قال لابن عباس ؛ فذكره .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ يدل على أن الكافر لا يُجعل أهلا لقبول شهادته ؛ لأن الله تعالى وصفه بأنه كذاب . وفيه ردّ على الكفرة الذين يحرِّمون ويحلّلون غير تحريم الله وتحليله ويجعلون ذلك من الشرع . قال ابن العربي . ومن هذا يخرج الردّ على من يحكم بالاستحسان من غير دليل ، ولست أعلم أحدا من أهل القبْلة قاله . وفي الخبر : لما نزلت هذه الآية قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " ما شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميّ إلا الأمانة فإنها مؤدّاة إلى البَرّ والفاجر " .

قوله تعالى : بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾

« من » رفع بالابتداء وهو شرط . و « أوفى » في موضع جزم . و « اتقى » معطوف عليه ، أي واتقى الله ولم يكْذِب ولم يستحل ماحُرِّم عليه . ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي يُحب أولئك . وقد تقدّم معنى حب الله لأوليائه . والهاء في قوله « بعهده » راجعة إلى الله عز وجل . وقد جرى ذكره في قوله « وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » ويجوز أن تعود على الموفّي ومتّقي الكفر والخيانة ونقض العهد . والعهد مصدر يضاف إلى الفاعل والمفعول .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

فيه مسألتان :

الأولى — روى الأئمة عن الأشعث بن قيس قال : كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدني فقدّمته إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل

لك بينة " ؟ قلت لا ، قال لليهودى : "أحلف" قلت : إذًا يحلف فيذهب بمـالى ؛ فأنزل الله تعالى « إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا » إلى آخر الآية . وروى الأئمة أيضا عن أبى أُمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من ٱقتطع حق ٱمرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرّم عليه الجنة" . فقال له رجل : و إن كان شيئا يسيرا يا رسول الله ؟ قال : " و إنْ كان قضيبا من أَرَاك [(١)] " . وقد مضى فى البقرة معنى « لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ [(٢)] » .

الثانيـــة ــ ودلّت هذه الآية والأحاديثُ أن حكم الحاكم لايُحِلّ المـال فى الباطن بقضاء الظاهر إذا علم المحكوم له بطلانَه ؛ وقد روى الأئمة عن أمّ سلمة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنكم تختصمون إلىّ و إنما أنا بشر ولعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض و إنمـا أقضى بينكم على نحوِ مما أسمع منكم فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنمـا أقطع له قطعة من النار يأتى بها يوم القيامة " . وهذا لا خلاف فيه بين الأئمة [(٣)] ، و إنما ناقض أبو حنيفة وغلا وقال : إن حكم الحاكم المبنىّ على الشهادة الباطلة يُحلّ الفرج لمن كان محرّما عليه ؛ كما تقدّم فى البقرة [(٤)] . وزعم أنه لو شهد شاهدا زورٍ على رجل بطلاق زوجته وحكم الحاكم بشهادتهما فإن فرجها يحل لمتزوّجها ممن يعلم أن القضية باطل . وقد شُنّع عليه بإعراضه عن هذا الحديث الصحيح الصريح ، و بأنه صان الأموال ولم يرَ ٱستباحتها بالأحكام الفاسدة ، ولم يصن الفروج عن ذلك ، والفروج أحقُّ أن يحتاط لهـا وتُصان . وسيأتى بطلان قوله فى آية اللعان [(٥)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعـالى : وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾

---

(١) الأراك شجر من الحمض يستاك بقضبانه ، الواحدة أراكة . (٢) جـ ٢ ص ٢٣٤

(٣) فى د : بين الأمة . (٤) راجع المسئلة الثالثة جـ ٢ ص ٣٣٨ (٥) راجع جـ ١٢ ص ١٨٢

يعني طائفة من اليهود . ﴿ يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ ﴾ وقرأ أبو جعفر وشيبة «يُلَوُّون» على التكثير . إذا أماله ؛ ومنه والمعنى يحرفون الكلم ويعدلون به عن القصد . وأصل اللَّيّ الميل . لَوى بيده، ولَوى برأسه قوله تعالى : «لَيًّا بألسنتهم»[1] أى عنادا عن الحق ومَيْلًا عنه إلى غيره . ومعنى «ولا تلوون على أحد»[1] أى لا تعرّجون عليه ؛ يقال لَوى عليه إذا عرّج وأقام . واللَّى المَطْل . لواه بدَينه يَلْوِيه لَيًّا ولَيَّانا مَطَله . قال :

قد كنت داينت بها حسّانا * مخافة الإفلاس واللّيّانا
* يحسن بيع الأصل والعيانا *

وقال ذو الرمّة :

تريدين[2] لَيَّانى وأنتِ مَلِيّةٌ * وأحسن يا ذات الوشاح التقاضيا

وفى الحديث "لَيُّ الواجدِ يُحِلّ عِرضَه وعقوبته" . وألسنة جمع لسان فى لغة من ذكّر، ومن أنّث قال ألسن .

قوله تعالى : مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ ما كان ﴾ معناه ما ينبغى ؛ كما قال : «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً» و «مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ»[3] . و «مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا»[4] يعنى ماينبغى . والبشر يقع للواحد والجمع لأنه بمنزلة المصدر ؛ والمراد به هنا عيسى فى قول الضحّاك والسُّدّى . والكتاب : القرآن . والحكم : العلم والفهم . وقيل أيضا : الأحكام . أى إن الله لا يصطفى لنبوّته الكَذَبة، ولو فعل ذلك بشر لسلبه الله آيات النبوّة وعلاماتها . ونصب «ثم يقولَ» على الاشتراك بين «أن يؤتيه» وبين «يقول» أى لا يجتمع لنبيّ إتيان النبوّة وقوله : «كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ» . ﴿ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ أى ولكن جائز أن يكون النبيّ يقول لهم

(١) جـ ٥ ص ٢٣٩ وص ٢٤٣ من هذا الجزء .
(٢) فى ديوانه : «تطيلين» .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٠٧
(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٩٧

كونوا ربّانيين . وهذه الآية قيل إنها نزلت فى نصارى نجران . وكذلك رُوى أن السورة كلها إلى قوله : « وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ » كان سبب نزولها نصارى نجران ولكن مُزِج معهم اليهود؛ لأنهم فعلوا من الجحد والعناد فعلهم .

والرّبانيّون واحدهم ربّانِىّ منسوب إلى الرّبّ . والربّانِىّ الذى يُرَبّى الناس بصغار العلم قبل كباره ؛ وكأنه يقتدى بالرب سبحانه فى تيسير الأمور[1]؛ رُوى معناه عن آبن عباس . قال بعضهم : كان فى الأصل رَبِّىّ فأدخلت الألف والنون للبالغة؛ كما يقال للعظيم اللحية : لِحيانِىّ ولعظيم الجُمّة جُمّانى ولغليظ الرّقبة رَقَبانىّ . وقال المبرّد : الربّانيون أرباب العلم، واحدهم ربّان، من قولهم : رَبّه يَرُبّه فهو رَبّان إذا دبّره وأصلحه ؛ فمعناه على هذا يدبّرون أمور الناس ويصلحونها . والألف والنون للبالغة كما قالوا ريّان وعطشان، ثم ضمت إليها ياء النسبة كما قيل : لحيانىّ ورقبانىّ وجمانىّ . قال الشاعر :

لو كنتُ مُرتَهنًا فى الجوّ[2] أنزلنى * منه الحديث وربّانىُّ أحبارى

فمعنى الربّانِىّ العالم بدين الربّ الذى يعمل بعلمه؛ لأنه إذا لم يعمل بعلمه فليس بعالم . وقد تقدم هذا المعنى فى البقرة : وقال أبو رزين : الربانىّ هو العالم الحكيم . وروى شعبة عن عاصم عن زِرّ عن عبد الله بن مسعود «ولكن كونوا ربّانيين» قال : حكماء علماء . آبن جُبير: حكماء أتقياء . وقال الضحاك : لا ينبغى لأحد أن يدع حفظ القرآن جُهدَه فإن الله تعالى يقول : « وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ » . وقال آبن زيد : الربانيُّون الولاة، والأحبار العلماء . وقال مجاهد : الربانيون فوق الأحبار . قال النحاس : وهو قول حسن؛ لأن الأحبار هم العلماء . والربانىّ الذى يجمع إلى العلم البصرَ بالسياسة ؛ مأخوذ من قول العرب : رَبّ أمرَ الناس يَرُبّه إذا أصلحه وقام به ، فهو رابٌّ وربّانِىّ على التكثير . قال أبو عبيدة : سمعت عالما يقول: الربانىّ العالمُ بالحلال والحرام والأمر والنهى، العارفُ بأنباء الأمّة وما كان وما يكون . وقال محمد بن الحنفيّة يوم مات آبنُ عباس : اليومَ مات ربانِىُّ هذه الأمّة . ورُوى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ما من مؤمن ذكر ولا أنثى حرّ ولا مملوك إلا ولله عز وجل

(١) فى د : جميع ، وفى ز : تفسير . (٢) فى : ز و ا : فى الحق .

عليه حق أن يتعلم من القرآن ويتفقه في دينه — ثم تلا هذه الآية —«وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ» الآية . رواه ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ قرأه أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف من العلم . واختار هذه القراءة أبو حاتم . قال أبو عمرو : وتصديقها « تَدْرُسُون » ولم يقل « تُدَرِّسون » بالتشديد من التدريس . وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة « تُعلِّمون » بالتشديد من التعليم ؛ واختارها أبو عبيد . قال : لأنها تجمع المعنيين « تَعلَمون ، وتدرسون » . قال مَكِّيّ : التشديد أبلغ ؛ لأن كل معلِّمٍ عالمٌ بمعنى يَعْلم وليس كل من عَلِم شيئا مُعَلِّمًا ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط ، فالتعليم أبلغ وأمدح وغيره أبلغ في الذم . احتج من رجح قراءة التخفيف بقول ابن مسعود « كونوا ربانيين » قال : حكماء علماء ؛ فيبعد أن يقال كونوا فقهاء حكماء علماء بتعليمكم . قال الحسن ؛ كونوا حكماء علماء بعلمكم . وقرأ أبو حَيْوَة « تُدرِسون » من أدرس يُدرس . وقرأ مجاهد « تَعَلَّمون » بفتح التاء وتشديد اللام ؛ أي تتعلمون .

قوله تعالى : وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالنصب عطفا على « أَنْ يُؤْتِيَهُ » . ويقويه أن اليهود قالت للنبيّ صلى الله عليه وسلم : أتريد أن نتخذك يا محمد رَبًّا ؟ فقال الله تعالى : « مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ — إلى قوله : ولا يأمركم » . وفيه ضمير البشر ، أي ولا يأمركم البشر يعني عيسى وعُزَيرا . وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول ، وفيه ضمير اسم الله عز وجل ، أي ولا يأمركم الله أن تتخذوا . ويقوِّي هذه القراءة أن في مصحف عبد الله « ولن يأمركم » فهذا يدل على الاستئناف ، والضمير أيضا لله عز وجل ؛ ذكره مكّي ، وقاله سيبويه والزجاج . وقال ابن جُريج وجماعة : ولا يأمركم محمد

عليه السلام . وهذه قراءة أبي عمرو والكسائي وأهل الحرمين . ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا﴾ أي بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا . وهذا موجود في النصارى يعظمون الأنبياء والملائكة حتى يجعلوهم لهم أربابا . ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ على طريق الإنكار والتعجب ؛ فحرّم الله تعالى على الأنبياء أن يتخذوا الناس عبادا يتألّهون لهم ولكن ألزم الخلق حرمتهم . وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا يقولنّ أحدكم عَبْدِى وأَمَتِى وليقل فَتَاىَ وفَتَاتِى ولا يقل أحدكم ربِّى وليقل سَيِّدِى" . وفي التنزيل « اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ »(١) . وهناك يأتي بيان هذا [المعنى](٢) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

قيل : أخذ الله تعالى ميثاق الأنبياء أن يصدّق بعضهم بعضا ويأمر بعضهم بالإيمان بعضا ؛ فذلك معنى النُّصرة بالتصديق . وهذا قول سعيد بن جُبير وقَتادة وطاوس والسُّدى والحسن ، وهو ظاهر الآية . قال طاوس : أخذ الله ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخِر . وقرأ ابن مسعود « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . قال الكسائي : يجوز أن يكون « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين » بمعنى وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين . وقال البصريون : إذا أخذ الله ميثاق النبيين فقد أخذ ميثاق الذين معهم ؛ لأنهم قد اتبعوهم وصدّقوهم . و « ما » في قوله « لَمَا » بمعنى الذي . قال سيبويه : سألت الخليل ابن أحمد عن قوله عز وجل : « وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » فقال : لما بمعنى الذي . قال النحاس : التقدير على قول الخليل للذي آتيتكموه ، ثم حذف

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٥ (٢) الزيادة من د ، ب .

الهاء لطول الاسم . و « الذى » رفع بالابتداء وخبره « من كتاب وحكمة » . و « مِن » لبيان الجنس . وهذا كقول القائل : لزيد أفضل منك؛ وهو قول الأخفش أنها لام الابتداء . قال المَهْدِوِىّ : وقوله « ثم جاءكم » وما بعده جملة معطوفة على الصلة، والعائد منها على الموصول محذوف؛ والتقدير ثم جاءكم رسول مصدّق به .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾ الرسول هنا محمد صلى الله عليه وسلم فى قول علىّ وابن عباس رضى الله عنهما . واللفظ وإن كان نكرة فالإشارة إلى معين؛ كقوله تعالى : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً — إلى قوله : وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ »[(١)] . فأخذ الله ميثاق النبيّين أجمعين أن يؤمنوا بمحمد عليه السلام وينصروه إن أدركوه ، وأمرهم أن يأخذوا بذلك الميثاق على أممهم . واللام من قوله « لتؤمنن به » جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق، إذ هو بمنزلة الاستحلاف . وهو كما تقول فى الكلام : أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا ، كأنك قلت استحلفك ، وفصل بين القسم وجوابه بحرف الجر الذى هو « لِما » فى قراءة ابن كثير على ما يأتى . ومن فتحها جعلها متلقيةً للقسم الذى هو أخذ الميثاق . واللام فى « لتؤمنن به » جواب قسم محذوف، أى والله لتؤمنن به . وقال المبرّد والكسائى والزجاج : «ما» شرط دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على إن، ومعناه [لمهما][(٢)] آتيتكم؛ فموضع «ما» نصب، وموضع «آتيتكم» جزم، و «ثم جاءكم» معطوف عليه، ﴿ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ ﴾ اللام فى قوله « لتؤمنن به » جواب الجزاء؛ كقوله تعالى : «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ»[(٣)] ونحوه . وقال الكسائىّ : لتؤمنن به مُعتمد القسم فهو متصل بالكلام الأول، وجواب الجزاء قوله « فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ » . ولا يحتاج على هذا الوجه إلى تقدير عائد . وقرأ أهل الكوفة « لِمَا آتيتكم » بكسر اللام، وهى أيضا بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ، أى أخذ الله ميثاقهم لأجل الذى آتاهم من كتاب وحكمة ثم إن جاءكم رسول مصدّق لما معكم لتؤمنن به من بعد الميثاق ؛ لأن أخذ الميثاق فى معنى الاستحلاف كما تقدّم . قال النحاس : ولأبى عبيدة فى هذا قول حَسَن . قال : المعنى وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٩٤

(٢) كذا فى ب، ود . وفى السمين : التقدير والله لأى شىء آتيتكم من كذا وكذا لتؤمنن به .

(٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٢٥

لتؤمننّ به لِمـا آتيتكم من ذكر التوراة . وقيل : فى الكلام حذف، والمعنى وَإِذْ أخذ الله ميثاق النبيين لَتُعَلِّمُنّ الناس لِمـا جاءكم من كتاب وحكمة، ولتأخذنّ على النـاس أن يؤمنوا . ودلّ على هذا الحذف « وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى » . وقيل : إن اللام فى قوله « لِمـا » فى قراءة من كسرها بمعنى بعد، يعنى بعد ما آتيتكم من كتاب وحكمة؛ كما قال النابغة :

توهّمتُ آياتٍ لهـا فعرفتُهـا * لستّةِ أعوام وذا العامُ سابع

أى بعد ستة أعوام . وقرأ سعيد بن جُبير « لمّـا » بالتشديد، ومعناه حين آتيتكم . وآحتمل أن يكون أصلها التخفيف فزيدت « مِن » على مذهب من يرى زيادتها فى الواجب فصارت لمن ما، وقلبت النون ميما للإدغام فآجتمعت ثلاث ميمات فحذفت الأولى منهن آستخفافا . وقرأ أهل المدينة « آتيناكم » على التعظيم . والباقون « آتيتكم » على لفظ الواحد . ثم كلّ الأنبياء لم يُؤتوا الكتاب وإنمـا أوتى البعض؛ ولكن الغلبة للذين أوتوا الكتاب . والمراد أخذ ميثاق جميع الأنبياء فمن لم يؤت الكتاب فهو فى حكم من أوتى الكتاب لأنه أوتى الحُكْمَ والنبوّة . وأيضا من لم يؤت الكتاب أمر بأن يأخذ بكتاب من قبله فدخل تحت صفة من أوتى الكتاب .

قوله تعالى : ﴿ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ « أقررتم » من الإقرار، والإِصْر والأُصْر لغتان، وهو العهـد . والإصر فى اللغة الثِّقَل؛ فَسُمِّى العهد إصرًا لأنه مَنْع وتشديد . ﴿ قَالَ فَٱشْهَدُوا ﴾ أى آعلموا؛ عن آبن عباس . الزجاج : بيّنوا لأن الشاهد هو الذى يصحّح دعوى المدّعِى . وقيل : المعنى آشهدوا أنتم على أنفسكم وعلى أتباعكم . ﴿ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عليكم وعليهم . وقال سعيد بن المسيّب : قال الله عزّ وجلّ للملائكة فآشهدوا عليهم، فتكون كناية عن غير مذكور .

قوله تعـالى : فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

«مَنْ» شرط . فمن تولّى من أمم الأنبياء عن الإيمان بعد أخذ الميثاق ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى الخارجون عن الإيمـان . والفاسق الخارج . وقد تقدّم[1] .

(١) راجع ١ ص ٢٤٤

قوله تعالى : أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ قال الكلبي : إن كعب بن الأشرف وأصحابه آختصموا مع النصارى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : أيُّنا أحق بدين إبراهيم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "كلا الفريقين بريءٌ من دينه" . فقالوا : ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك؛ فنزل « أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ » يعني يطلبون . ونصبت « غير » بيبغون، أي يبغون غير دين الله . وقرأ أبو عمرو وحده « يبغون » بالياء على الخبر « وإليه ترجعون » بالتاء على المخاطبة . قال : لأن الأول خاصٌّ والثاني عامٌّ ففرق بينهما لافتراقهما في المعنى . وقرأ حفص وغيره « يبغون، ويرجعون » بالياء فيهما؛ لقوله : « فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » . وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله «لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ أَسْلَمَ ﴾ أي آستسلم وآنقاد وخضع وذلّ ، وكل مخلوق فهو منقاد مستسلم؛ لأنه مجبول على ما لا يقدر أن يخرج عنه . قال قتادة : أسلم المؤمن طوعًا والكافر عند موته كرهًا ولا ينفعه ذلك؛ لقوله : « فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا[(1)] » . قال مجاهد : إسلام الكافر كرها بسجوده لغير الله وسجود ظِلّه لله، «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ[(2)]» . «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ[(3)] » . وقيل : المعنى أن الله خلق الخلق على ما أراد منهم؛ فمنهم الحسن والقبيح والطويل والقصير والصحيح والمريض وكلهم منقادون آضطرارًا ، فالصحيح منقاد طائع محبّ لذلك ، والمريض منقاد خاضع وإن كان كارها . والطوع الآنقياد

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٦ (٢) راجع جـ ١٠ ص ١١١ (٣) راجع جـ ٩ ص ٣٠١

والأتبـاع بسهولة . والكره ما كان بمشقة و إباء من النفس . و ﴿ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ مصدران في موضع الحال ، أي طائعين ومكرهين . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عز وجل : « وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » قال : " الملائكة أطاعوه في السماء والأنصارُ وعبـدُ القَيْس في الأرض " . وقال عليه السلام : " لا تَسُبُّوا أصحابي فإن أصحابي أسلموا من خوف الله وأسلم الناس من خوف السيف " . وقال عِكْرِمة : «طوعا» مَن أسلم من غير مُحاجّة « وكرها » مَن ٱضطرته الحجة إلى التوحيد . يدلّ عليه قوله عز وجل : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » [1] « ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّـرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » [2] . قال الحسن : هو عمـوم معناه الخصوص . وعنـه : « أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ » وتمّ الكلام . ثم قال : « وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » . قال : والكاره المنافق لا ينفعه عمـله . و « طوعا وكرها » مصدران في موضـع الحال . عن مجاهد عن ٱبن عباس قال : إذا ٱستصعبتْ دابّةُ أحدكم أو كانت شَمُوسًا [3] فليقرأ في أذنها هذه الآية : « أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا » إلى آخر الآية .

قوله تعـالى : وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَـلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

« غير » مفعول بيبتغ، « دينا » منصوب على التفسير ، و يجوز أن ينتصب دينا بيبتغ ، و ينتصب « غير » على أنه حال من الدّين . قال مجاهد والسُّدّى : نزلت هذه الآية في الحارث ٱبن سُويد أخو الجُلَاس بن سويد ، وكان من الأنصار، ٱرتدّ عن الإسلام هو وٱثنا عشر معه ولحقوا بمكة كفارا، فنزلت هذه الآية، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة . ورُوى ذلك عن ٱبن عباس وغيره . قال ٱبن عباس : وأسلم بعد نزول الآيات . ﴿ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

---

(١) راجع جـ ١٦ ص ١٢٣ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٣٦١

(٣) شمست الدابة : شردت وجمحت ومنعت ظهرها .

قال هشام : أى وهو خاسر فى الآخرة من الخاسرين، ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول. وقال المازنى : الألف واللام مثلها فى الرجل . وقد تقدّم هذا فى البقرة عند قوله (١) : « وإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ » .

قوله تعالى : كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾

قال ٱبن عباس : إن رجلا من الأنصار أسلم ثم ٱرتدّ ولحق بالشرك ثم ندم؛ فأرسل إلى قومه : سَلُوا لِى رسول الله صلى الله عليه وسلم هل لى مِنْ توبة ؟ فجاء قومُه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : هل له من توبة ؟ فنزلت « كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ » إلى قوله : « غَفُورٌ رَحِيمٌ » فأرسل إليه فأسلم . أخرجه النسائى . وفى رواية : أن رجلا من الأنصار ٱرتدّ فلحق بالمشركين، فأنزل الله « كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا » إلى قوله : « إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا » فبعث بها قومُه إليه، فلما قرئت عليه قال : والله ما كذبنى قومى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أكذبت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله، والله عز وجل أصدق الثلاثة؛ فرجع تائبا، فقبِل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه . وقال الحسن : نزلت فى اليهود لأنهم كانوا يبشّرون بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ويَسْتَفْتِحون على الذين كفروا؛ فلما بُعث عانَدُوا وكفروا، فأنزل الله عز وجل « أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والْمَلَائِكَةِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ » . ثم قيل : « كيف » لفظة ٱستفهام ومعناه الجَحْد، أى لا يهدى الله . ونظيره قوله : « كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وعِنْدَ رَسُولِه (٢) » أى لا يكون لهم عهد؛ وقال الشاعر :

كيف نومى على الفِراش ولَمَّا * يشمل القومَ غارةٌ شَعْواءُ

أى لا نوم لى . ﴿ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ يقال : ظاهر الآية أنَّ مَن كفر بعد إسلامه لايهديه الله ومن كان ظالما، لا يهديه الله ؛ وقد رأينا كثيرا من المرتدّين قد أسلموا

(١) راجع جـ ٢ ص ١٣٣		(٢) راجع جـ ٨ ص ٧٧

وهــداهم الله ، وكثيرا من الظالمين تابوا عن الظلم . قيــل له : معناه لا يهديهم الله ما داموا مقيمين على كفرهم وظلمهم ولا يُقبِلون على الإســلام ؛ فأما إذا أسلموا وتابوا فقــد وفقهم الله لذلك . والله تعالى أعلم .

قوله تعـالى : أُولَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾

أى إن داموا على كفرهم . وقد تقدّم معنى لعنة الله والناس فى «البقرة»(١) فلا معنى لإعادته . ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أى لا يؤخرون ولا يؤجّلون ، ثم آستثنى التائبين فقال : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ هو الحارث بن سُوَيْد كما تقدّم . ويدخل فى الآية بالمعنى كلُّ من راجع الإسلام وأخلص .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾

قال قتادة وعطاء الخراسانى والحسن : نزلت فى اليهود كفروا بعيسى والإنجيل، ثم آزدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن . وقال أبو العالية : نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته ، «ثم آزدادوا كفرا» بإقامتهم على كفرهم . وقيل: «آزدادوا كفرا» بالذنوب التى آكتسبوها . وهذا آختيار الطبرى ، وهى عنده فى اليهود . ﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ مشكل لقوله : «وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ ٱلسَّيِّئَاتِ»(٢) فقيــل : المعنى لن تقبل توبتهم عنــد الموت . قال النحاس : وهــذا قول حسن؛ كما قال عز وجل: «وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔانَ»(٣) . وروى عن الحسن وقتادة وعطاء . وقد قال صلى الله عليه وســلم : " إن الله

(١) راجع جـ ٢ ص ١٨٨ (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٥ (٣) راجع جـ ٥ ص ٩٠

يقبل توبة العبد مالم يغرغر"(١). وسيأتى فى «النساء» بيان هذا المعنى. وقيل: «لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ» التى كانوا عليها قبل أن يكفروا؛ لأن الكفر قد أحبطها . وقيل: « لن تقبل توبتهم » إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر؛ وإنما تقبل توبتهم إذا تابوا إلى الإسلام . وقال قطرب . هذه الآية نزلت فى قوم من أهل مكة قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون، فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا. فأنزل الله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » أى لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر؛ فسماها توبة غير مقبولة؛ لأنه لم يصح من القوم عزم، والله عز وجل يقبل التوبة كلها إذا صح العزم .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

المِلء (بالكسر) مقدار ما يملأ الشيء، والملء (بالفتح) مصدر ملأت الشيء؛ ويقال: أعطنى مِلأه ومِلأيه وثلاثة أملائه . والواو فى « وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ » قيل : هى مقحمة زائدة؛ المعنى : فلن يقبل من أحدهم مِلء الأرض ذهبا لو افتدى به . وقال أهل النظر من النحويين : لا يجوز أن تكون الواو مقحمة لأنها تدل على معنى . ومعنى الآية : فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا تبرُّعًا ولو افتدى به. و«ذهبا» نصب على التفسير فى قول الفرّاء. قال المفضّل : شرط التفسير أن يكون الكلام تامًّا وهو مُبْهَمٌ؛ كقولك عندى عشرون؛ فالعدد معلوم والمعدود مبهم؛ فإذا قلت درهما فسرّت. وإنما نصب التميز لأنه ليس له مايخفضه ولا ما يرفعه، وكان النصب أخف الحركات فجُعِل لكل ما لا عامل فيه . وقال الكسائى : نصب على إضمار مِن، أى من ذهب؛ كقوله : « أو عدل ذلك صِياما »(٢) أى من صيام . وفى البخارى ومسلم عن قتادة عن أنس بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "يجاء بالكافر

(١) أى ما لم تبلغ روحه حلقومه؛ فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به المريض، راجع جـ ٥ ص ٩٢
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣١٦

يوم القيامة فيقال له أرأيت لو كان لك مـلء الأرض ذهبـا أكنت تفتدى به فيقـول نعم فيقال له قد كنت سـئلت ما هو أيسر من ذلك" . لفظ البخارى . وقال مسلم بدل " قـد كنت ، كذبتَ ، قد سُئلتَ " .

قوله تعـالى : لَن تَنَالُوا ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

فيه مسألتان :

الأولى ـــ روى الأئمة واللفظ للنسائى عن أنس قال: لمـا نزلت هذه الآية «لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ» قال أبو طلحة : إن ربنا ليسألنا من أموالنا فاشهدك يارسول الله أنى جعلت أرضى لله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آجعلها فى قرابتك فى حسان آبن ثابت وأبىّ بن كعب". وفى الموطأ «وكانت أحب أمواله إليه بِئْرُ حَاء(١)، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسـلم يدخلها و يشرب من ماء فيها طيب» . وذكر الحديث. ففى هذه الآية دليل على آستعمال ظاهر الخطاب وعمومه؛ فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك. ألا ترى أبا طلحة حين سمع « لن تنالوا البر حتى تنفقوا » الآية، لم يحتج أن يقف حتى يرد البيان الذى يريد اللهُ أن ينفق منـه عبادُه بآية أخرى أو سنة مبيِّنة لذلك فإنهم يحبون أشياء كثيرة . وكذلك فعل زيد آبن حارثة، عَمَد مما يحب إلى فرس يقال له "سَبَل" وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لى مال أحب إلىّ من فرسى هذه؛ فجاء بها [إلى](٢) النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هذا فى سبيل الله. فقال لأسامة بن زيد "آقبضه". فكأن زيدا وجد من ذلك فى نفسه. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد قبلها منك" . ذكره أسد بن موسى . وأعتق آبن عمر نافعا مولاه، وكان أعطاه فيـه عبد الله بن جعفر ألف دينار . قالت صـفية بنت أبى عبيد : أظنه تأوّل قول الله عز وجل : «لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممـا تحبون» . وروى شِبل عن (٣) أبى نَجِيح

(١) بئرحاء : مال وموضع كان لأبى طلحة بالمدينة . (٢) من د، و ز . (٣) فى د : آبن أبى نجيح .

عن مجاهــد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشــعرى أن يبتاع له جارية من سَبْي جَلُولاء(١) يوم فتح مدائن كِسْرَى ؛ فقال(٢) سـعد بن أبي وقاص : فدعا بهـا عمر فأعجبته ، فقال إن الله عز وجل يقول: «لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون» فأعتقها عمر رضي الله عنه. وروى عن الثورى أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خُثَيْم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لى: يا فلانة أعطى السائل سكرا، فإن الربيع يحب السكر . قال سفيان : يتأول قوله جل وعز : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا ممـا تحبون » . وروى عن عمر بن عبـد العزيز أنه كان يشــترى أعدالا من سكر و يتصدّق بها . فقيل له : هلا تصدّقت بقيمتها؟ فقال: لأن السكر أحب إلىّ فأردت أن أنفق ممـا أحب . وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون، ولا تُدركوا(٣) ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانيــة ــ وآختلفوا فى تأويل « البر» فقيـل الجنة ؛ عن آبن مسعود وآبن عبـاس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون والسدى . والتقدير لن تنالوا ثواب البر حتى تنفقوا مما تحبون. والنَّوَال العطاءُ، من قولك نولته تنويلا أعطيته . ونالنى من فلان معروف ينالنى، أى وصل إلىّ . فالمعنى لن تصلوا إلى الجنـة وتعطوها حتى تنفقوا ممـا تحبون . وقيـل : البر العمل الصالح. وفى الحديث الصحيح: "عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر و إن البر يهدى إلى الجنة". وقد مضى فى البقرة(٤) . قال عطية العوفى: يعنى الطاعة . عطاء: لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاء أشحاء تأملون العيش وتخشون الفقر. وعن الحسن، «حتى تنفقوا» هى الزكاة المفروضـة . مجاهد والكلبي : هى منسوخة، نسختها آية الزكاة . وقيـل : المعنى حتى تنفقوا ممـا تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات، وهذا جامع. وروى النسائىّ عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذرٍّ قال: قلت حدّثنى قال: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من عبد مسـلم ينفق من كل ماله زوجين فى سبيل الله إلا آستقبلته حجبة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده " . قلت : وكيف ذلك؟ قال: إن كانت إبلا فبعيرين،

(١) جلولاء : قرية قرب خانقين ــ بالعراق ــ على سبعة فراسخ منها كانت للسلمين بها وقعة على الفرس .
(٢) فى ب : فى قتال سعد . (٣) فى : ا، و ب، و ز : تدركون . (٤) راجع جـ ٢ ص ٢٤٣

وإن كانت بقرا فبقرتين . وقال أبو بكر الوراق : دلّهم بهذه الآية على الفُتُوّة[1] . أى لن تنالوا بِرّى بكم إلا ببِرّكم بإخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم ؛ فإذا فعلتم ذلك نالكم بِرى وعطفى . قال مجاهد : وهو مثل قوله : «ويُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا[2] » . ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أى وإذا علم جازى عليه .

قوله تعالى : ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

فيــه أربع مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿حِلًّا﴾ أى حلالا ، ثم آستثنى فقال : ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِــهِ﴾ وهو يعقوب عليه الســلام . فى الترمذىّ عن آبن عباس أن اليهود قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : أخبرنا ، ماحرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : "كان يسكن البدو فآشتكى عِرق النَّسا[3] فلم يجد شيئا يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها فلذلك حرّمها" . قالوا : صــدقت . وذكر الحديث . ويقال : [إنه][4] نذر إن برأ[5] منه ليتركن أحب الطعام والشراب إليه ، وكان أحب الطعام والشراب إليه لحوم الإبل وألبانها . وقال آبن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : أقبل يعقوب عليه السلام من حرّان يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عِيصو ، وكان رجلا بطشا قويًّا ، فلقيه ملك فظنّ يعقوب أنه لص فعالجه أن يصرعه ، فغمز الملك فخذ يعقوب عليه السلام ، ثم صعد الملك إلى السماء و يعقوب ينظر إليه فهاج عليــه[6] عِرق النَّسا ، ولقِى من

---

(١) الفتوة : يعبر بها عن مكارم الأخلاق .   (٢) راجع جـ ١٩ ص ١٢٥ .

(٣) النسا (بالفتح مقصور) : عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ .

(٤) كذا فى ب ود .   (٥) برأ من المرض (بالفتح) لغة أهل الحجاز . وسائر العرب يقولون : برِئت (بالكسر) .

(٦) فى ب و د : به .

ذلك بلاء شديدا ، فكان لا ينام الليل من الوجع ويبيت وله زقاء[١] أى صياح، فحلف يعقوب عليه السلام إن شفاه الله جل وعز ألّا يأكل عِرْقا ، ولا يأكل طعاما فيه عِرق فحرّمها على نفسه؛ فجعل بنوه يتبعون بعد ذلك العروق فيخرجونها من اللحم. وكان سبب غمز الملك[٢] ليعقوب أنه كان نذر إن وهب الله له آثنى عشر ولدا وأتى بيت المقدس صحيحا أن يذبح آخرهم[٣]. فكان ذلك للمخرج من نذره؛ عن الضحاك .

الثانيــة ــ وآختلف هل كان التحريم من يعقوب بآجتهاد منه أو بإذن من الله تعالى؟ والصحيح الأوّل؛ لأن الله تعالى أضاف التحريم إليــه بقوله تعالى : « إلاّ مَا حَرَّمَ » وأن النبي إذا أدّاه آجتهاده إلى شيء كان دِينًا يلزمنا آتباعُه لتقرير الله سبحانه إياه على ذلك . وكما يوحى إليــه ويلزم آتباعه ، كذلك يؤذن له ويجتهد، ويتعين موجب آجتهاده إذا قدر عليه، ولولا تقدّم الإذن له فى تحريم ذلك ما تسوّر[٤] على التحليل والتحريم . وقد حرم نبينا صلى الله عليه وسلم العسل على الرواية الصحيحة ، أو خادمه مارية فلم يقرّ الله تحريمه ونزل « لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ » على ما يأتى بيانه فى «التحريم»[٥]. قال الكيا الطبرى : فيمكن أن يقال: مطلق قوله تعالى : « لِمَ تحرم ما أحل الله » يقتضى ألا يختص بمارية ؛ وقد رأى الشافعيّ أن وجوب الكفارة فى ذلك غير معقول المعنى ، فجعلها مخصوصا بموضع النص ، وأبو حنيفة رأى ذلك أصلا فى تحريم كل مباح وأجراه مجرى اليمين .

الثالثــة ــ قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قال آبن عباس : لما أصاب يعقوب عليه السلام عِرق النَّسا وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل فحرّمها على نفسه. فقالت اليهود: إنما نحرّم على أنفسنا لحوم الإبل؛ لأن يعقوب حرّمها وأنزل الله تحريمها فى التوراة ؛ فأنزل الله هذه الآية . قال الضحاك : فكذبهم الله وردّ عليهم فقال : يا محمد « قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » فلم يأتوا . فقال عز وجل : ﴿ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ قال الزجاج : فى هذه الآية

(١) فى ز و ا : رغاء، والتصحيح من ب، و د و حـ و هـ و جـ . (٢) فى ب و د، وفى الأصول الأخرى: غمز الملك لفخذه . (٣) فى د : أحدهم . (٤) تسوّر : هجم . (٥) راجع جـ ١٨ ص ١٧٧

أعظم دلالة لنبوّة محمد نبينا صلى الله عليه وسلم ، أخبرهم أنه ليس فى كتابهم ، وأمرهم أن يأتوا بالتوراة فأبوا؛ يعنى عرفوا أنه قال ذلك بالوحى . وقال عطية العوفى : إنما كان ذلك حراما عليهم بتحريم يعقوب ذلك عليهم . وذلك أن إسرائيل قال حين أصابه عِرق النسا : والله لئن عافانى الله منه لا يأ كله لى ولد؛ ولم يكن ذلك محرّما عليهم . وقال الكلبى : لم يحرمه الله عز وجل فى التوراة عليهم و إنما حرمه بعد التوراة بظلمهم وكفرهم ، وكانت بنو إسرائيل إذا أصابوا ذنبا عظيما حرم الله تعالى عليهم طعاما طيبا ، أو صب عليهم رجزا وهو الموت ؛ فذلك قوله تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ [(١)] » الآية . وقوله : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ » الآية — إلى قوله : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ [(٢)] » .

الرابعة — ترجم ابن ماجه فى سننه «دواء عِرق النسا» حدثنا هشام بن عمار وراشد ابن سعيد الرملى قالا حدّثنا الوليد بن مسلم حدّثنا هشام بن حسّان حدّثنا أنس بن سيرين أنه سمع أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " شفاء عِرق النسا ألية شاة [أعرابية] [(٣)] تذاب ثم تُجزّأ ثلاثة أجزاء ثم يشرب على الريق فى كل يوم جزء " . وأخرجه الثعلبى فى تفسيره أيضا من حديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عِرق النسا : " تؤخذ ألية كبش عربى لا صغير ولا كبير فتقطع صغارا فتخرج إهالته [(٤)] فتقسم ثلاثة أقسام فى كل يوم على ريق النفس ثلثا " قال أنس : فوصفته لأكثر من مائة فبرأ بإذن الله تعالى . شعبة : حدّثنى شيخ فى زمن الحجاج بن يوسف فى عِرق النّسا : أقسم لك بالله الأعلى لئن لم تنته لأكوينّك بنار أو لأحلقنّك بموسى . قال شعبة : قد جربته ، تقوله ، وتمسح على ذلك الموضع .

قوله تعالى : قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٢ (٢) راجع جـ ٧ ص ١٢٧ (٣) زيادة عن سنن ابن ماجه .
(٤) الإهالة (بالكسر) : الشحم المذاب ، أو كل ما اؤتدم به من الأدهان .

أى قل يا محمد صدق الله، إنه لم يكن ذلك فى التوراة محرما . ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ أمر باتباع دينه . ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ردّ عليهم فى دعواهم الباطل كما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مسلم عن أبى ذر قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أوّل مسجد وضع فى الأرض قال : " المسجد الحرام " . قلت : ثم أى ؟ قال : "المسجد الأقصى " . قلت : كم بينهما ؟ قال : " أربعون عاما ثم الأرض لك مسجد فحيثما أدركتك الصلاة فصل " . قال مجاهد وقتادة : لم يوضع قبله بيت . قال علىّ رضى الله عنه : كان قبل البيت بيوت كثيرة، والمعنى أنه أوّل بيت وضع للعبادة . وعن مجاهد قال : تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجَر(١) الأنبياء وفى الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل؛ فأنزل الله هذه الآية . وقد مضى فى البقرة(٢) بنيان البيت وأوّل من بناه . قال مجاهد : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا من الأرض بألفى سنة، وأن قواعده لفى الأرض السابعة السفلى . وأما المسجد الأقصى فبناه سليمان عليه السلام؛ كما خرجه النسائى بإسناد صحيح من حديث عبدالله بن عمرو . وعن النبى صلى الله عليه وسلم : " أن سليمان بن داود عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأل الله خلالا ثلاثة [سأل الله عز وجل](٣) حُكما يصادف حكمه فأوتيه، وسأل الله عز وجل مُلْكا

---

(١) المهاجر (بفتح الجيم) : موضع المهاجرة . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٢٠

(٣) زيادة عن سنن النسائى .

لا ينبغي لأحد من بعده فأوتيه، وسأل الله عز وجل حين فرغ من بناء المسجد ألّا يأتيه أحد لا يَنْهزه[(١)] إلا الصلاةُ فيـه أن يخرجه من خطيئته كيوم ولدته أمه فأوتيه " . فجاء إشكالٌ بين الحديثين؛ لأن بين إبراهيم وسليمان آمادا طويلة . قال أهل التواريخ : أكثر من ألف سنة . فقيل : إن إبراهيم وسليمان عليهما السلام إنما جدّدا ما كان أسّسه غيرهما . وقد روى أن أوّل من بنى البيت آدم عليـه السلام كما تقـدّم . فيجوز أن يكون غيره من ولده وضع بيت المقدس من بعده بأربعين عاما، ويجوز أن تكون الملائكة أيضا بنته بعد بنائها البيت بإذن الله؛ وكل محتمل . والله أعلم . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أمر الله تعالى الملائكة ببناء بيت في الأرض وأن يطوفوا به؛ وكان هذا قبـل خلق آدم، ثم إن آدم بنى منـه ما بنى وطاف به، ثم الأنبياء بعده، ثم آستتم بناءه إبراهيم عليه السلام .

الثانيـــة — قوله تعالى : ﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ خبر «إن» واللام توكيد . و « بكة » موضع البيت، ومكة سائر البلد؛ عن مالك بن أنس . وقال محمـد بن شهاب : بَكّة المسجد، ومكة الحرم كله، تدخل فيه البيوت . قال مجاهد: بكة هي مكة . فالميم على هذا مُبْدَلَة من البـاء؛ كما قالوا : طين لازِبٌ ولازم . وقاله الضحاك والمؤرّج . ثم قيـل : بكة مشتقة من البَكّ وهو الآزدحام. تباك القوم آزدحموا. وسميت بكة لآزدحام الناس في موضع طوافهم. والبك دَقّ العنق . وقيل : سميت بذلك لأنها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألْحَدوا فيها بظلم . قال عبد الله بن الزبير : لم يقصِدها جبار قَطّ بسـوء إلا وَقَصَه[(٢)] الله عز وجل . وأما مكة فقيل : إنها سميت بذلك [(٣)][لقلة مائها وقيل : سميت بذلك] لأنها تَمُكّ المخّ من العظم مما ينال قاصدها من المشقة؛ من قولهم: مَكَكْت العظم إذا أخرجت ما فيه . ومَكّ الفصِيلُ ضرع أمه وآمْتَكّه إذا آمْتَصّ كل ما فيه من اللبن وشربه ؛ قال الشاعر :

* مَكّتْ فلم تُبقِ في أجْوافها دِرَرا *

وقيـل : سميت بذلك لأنها تَمُكّ من ظَلَم فيها ، أي تهلكه وتنقصه . وقيل : سميت بذلك لأن الناس كانوا يَمُكّون ويضحكون فيها؛ من قوله : «وما كان صَلَاتُهُم عِندَ الْبيْتِ إِلا مُكَاءً

(١) النهز : الدفع . (٢) الوقص : الكسر والدق . (٣) الزيادة في د .

وتَصْدِيَةً»[1] أى تَصْفِيقا وتَصْفِيرا . وهذا لا يوجبه التصريف ؛ لأن «مكة» ثنائىّ مضاعف و « مُكَاءً » ثلاثىّ معتلّ .

الثالثـــة — قوله تعـالى : ﴿مُبَارَكًا﴾ جعله مباركا لتضاعف العمل فيه ؛ فالبركة كثرة الخير ، ونصب على الحال من المضمر فى «وُضِعَ» أو بالظرف من « بَكَّةَ » ، المعنى : الذى ٱستقر «ببَكَّةَ مُبَارَكًا» ويجوز فى غير القرآن «مبارك» ؛ على أن يكون خبرا ثانيا ، أو على البدل من الذى ، أو على إضمار مبتدأ . ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ عطف عليه ، و يكون بمعنى وهو هدى للعالمين . و يجوز فى غير القرآن «مباركٍ» بالخفض يكون نعتا للبيت .

الرابعـــة — قوله تعالى : ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ رفع بالٱبتداء أو بالصفة . وقرأ أهل مكة وٱبن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير «آية بينة» على التوحيد ، يعنى مقام إبراهيم وحده . قالوا : أثر قدميــه فى المقام آية بينة . وفسر مجاهد مقام إبراهيم بالحرم كله ؛ فذهب إلى أن من آياته الصفا والمروة والركن والمقام . والباقون بالجمع . أرادوا مقام إبراهيم والحجر الأسود والحطيم وزمزم والمشاعر كلها . قال : أبو جعفر النحاس : من قرأ «آيات بينات» فقراءته أبين ؛ لأن الصفا والمروة من الآيات ، ومنها أن الطائر لا يعلو البيت صحيحا ، ومنها أن الجارح[2] يطلب الصيد فإذا دخل الحرم تركه ، ومنها أن الغيث إذا كان ناحية الركن اليمانىّ كان الخِصب باليمن ، و إذا كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام ، و إذ عم البيت كان الخِصب فى جميع البلدان ، ومنها أن الجمار على ما يُزاد عليها تُرى[3] على قدر واحد . والمَقام من قولهم: قمت مَقاما ، وهو الموضع الذى يُقام فيه . والمُقام من قولك: أقمت مُقامًا . وقد مضى هذا فى البقرة[4] ، ومضى الخلاف أيضا فى المقام والصحيح منه . وٱرتفع المقام على الٱبتداء والخبر محذوف ؛ والتقدير منها مقام إبراهيم ؛ قاله الأخفش . وحكى عن محمد بن يزيد أنه قال : «مقام» بدل من «آيات» . وفيه قول ثالث بمعنى هى مقام إبراهيم . وقول الأخفش معروف فى كلام العرب . كما قال زهير :

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠
(٢) فى د : أن الحاج يتبع ، والصواب ما أثبتناه من ز ، و ب .
(٣) فى ز : على ما يراد منها ترى .
(٤) راجع جـ ٢ ص ١١٢

لهـا متاعٌ وأعوانٌ غَدَوْنَ به * قِتْبٌ(١) وغَرْبٌ إذا ما أُفْرِغ ٱنسحقا

أى مضى و بَعُدَ سيلانه. وقول أبى العباس : إن مقاما بمعنى مقامات؛ لأنه مصدر. قال الله تعالى : «خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ»(٢) . وقال الشاعر :

* إنّ العيُون التى فى طَرْفِها مَرَضٌ(٣) *

أى فى أطرافها . ويقوّى هذا الحديثُ المروىّ(٤) "الحج [كله] مقام إبراهيم" .

الخامســة — قوله تعالى : ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ قال قتادة : ذلك أيضا من آيات الحرم . قال النحاس : وهو قول حسن؛ لأن الناس كانوا يُتَخَطَّفون من حواليه ، ولا يصل إليه جبار، وقد وصــل إلى بيت المقدس وخرب ، ولم يوصل إلى الحرم . قال الله تعالى : «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ»(٥) . وقال بعض أهل المعانى: صورة الآية خبر ومعناها أمر، تقديرها ومن دخله فأمّنوه؛ كقوله : « فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ »(٦) أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا . ولهذا المعنى قال الإمام السابق النعمان بن ثابت: من ٱقترف ذنبا وٱستوجب به حدا ثم لجأ إلى الحرم عصمه، [لقوله تعالى:] « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا »؛ فأوجب الله سبحانه الأمْن لمن دخله . ورُوى ذلك عن جمــاعة من السلف منهم ٱبن عباس وغيره من الناس . قال ٱبن العربىّ : « وكل من قال هــذا فقد وهم من جهتين : إحداهما أنه لم يفهم من الآية أنها خبر عما مضى، ولم يقصد بها إثبات حكم مستقبل، الثانى أنه لم يعلم أنّ ذلك الأمن قد ذهب وأن القتل والقتال قد وقع بعد ذلك فيها ، وخبر الله لا يقع بخلاف مخبره؛فدل ذلك على أنه كان فى المــاضى هذا. وقد ناقض أبوحنيفة فقال، إذا لجأ إلى الحرَم لا يُطعَمَ ولا يُسْقى ولا يُعامَل ولا يُكلَّم حتى يخرج ، فٱضطراره(٧) إلى الخروج ليس يصح معــه أمْنٌ . وروى عنه أنه قال : يقع القصاص فى الأطراف فى الحرم ولا أمن أيضا مع هذا» .

(١) قوله : لها متاع ، أى لهذه الناقة التى يستق عليها . والقتب (بالكسر) : جميع أداة السانيــة من أعلاقها وحبالها . والسانية : ما يسق عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره . والغرب : الدلو العظيمة . (٢) راجع جـ ١ ص ١٨٥ (٣) البيت لجرير، والذى فى الديوان: فى طرفها حور . (٤) فى د و ز و هـ . هذا من قول سعيد ابن جبير كما فى تفسير ٱبن كثير وفيه توجيه جـ ٣ ص ١٩١ (٥) جـ ٢٠ ص ١٨٧ (٦) جـ ٢ ص ٤٠٧
(٧) فى د و ز : فٱضطرّه، وفى الأصول الأخرى : فٱضطروه، والتصحيح من ٱبن العربى .

والجمهور من العلماء على أن الحدود تُقام فى الحرم ، وقد أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتل ٱبن خَطَل (١) وهو متعلّق بأستار الكعبة .

قلت : وروى الثوريّ عن منصور عن مجاهد عن ٱبن عباس : من أصاب حدًّا (٢) [فى الحرم] أقيم عليه فيه ، وإن أصابه فى الحِلّ ولجأ إلى الحرم لم يُكلّم ولم يبايع حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ ، وهو قول الشَّعبيّ . فهذه حجة الكوفيين ، وقد فهم ٱبن عباس ذلك من معنى الآية ، وهو حَبْر الأمّة وعالِمُها . والصحيح أنه قصد بذلك تعديد النّعم على كل من كان بها جاهلا ولها منكرا من العرب ؛ كما قال تعالى : «أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ» (٣) ؛ فكانوا فى الجاهلية من دخله ولجأ إليه أَمِن من الغارة والقتل ؛ على ما يأتى بيانه فى «المائدة» (٤) إن شاء الله تعالى . قال قتادة : ومن دخله فى الجاهلية كان آمنا . وهذا حسن . وروى أن بعض المُلْحِدة قال لبعض العلماء : أليس فى القرآن « وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا » فقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا فلم يأمن من كان فيه ! قال له : ألست من العرب ! ما الذى يريد القائل من دخل دارى كان آمنا (٥) ؟ أليس أن يقول لمن أطاعه : كفّ عنه فقد أمّنته وكففت عنه ؟ قال بلى . قال : فكذلك قوله « ومن دخله كان آمِنا » . وقال يحيى بن جَعْدة : معنى « ومن دخله كان آمِنا » يعنى من النار .

قلت : وهذا ليس على عمومه ؛ لأن فى صحيح مسلم عن أبى سعيد الخدرِيّ حديث الشفاعة الطويل "فوالذى نفسى بيده ما منكم من أحد بأشدّ مناشَدةً لله فى آستقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار يقولون ربّنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحُجّون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم" الحديثَ . وإنما يكون آمنا من النار من دخله لقضاء النُّسُك معظّما له عارفا بحقه متقرّبا إلى الله تعالى . قال جعفر الصادق : من دخله على الصفاء

---

(١) ٱبن خطل (بالتحريك) هو عبد الله بن خطل . رجل من بنى تيم بن غالب ، وإنما أمر بقتله لأنه كان مسلما فبعثه صلى الله عليه وسلم مصدقا وبعث معه رجلا من الأنصار وكان معه مولى يخدمه مسلما فنزل منزلا وأمر المولى أن يذبح له تيسا فيصنع له طعاما فنام ؛ فٱستيقظ ولم يصنع له شيئا فعدا عليه فقتله ثم ٱرتدّ . راجع الطبرى وٱبن هشام .

(٢) من د و ز . (٣) راجع جـ ١٣ ص ٣٦٣ (٤) راجع جـ ٦ ص ٣٢٥

(٥) فى د : فهو آمن .

كما دخله الأنبياء والأوليـاء كان آمنا من عذابه . وهـذا معنى قوله عليه السلام : " من حجّ فلم يرفُثْ ولم يفسُق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه والحج المبرور ليس له جزاء إلّا الجنة " .

قال الحسن : الحج المبرور هو أن يرجع زاهدا فى الدنيا راغبا فى الآخرة . وأنشد :

يا كعبةَ الله دعوة اللّاجى * دعـوة مستشعرٍ ومحتاج
ودّع أحبابَه ومسكنه * فجاء مابين خائفٍ راجى(١)
إن يقبل الله سعيَه كرما * نجا ، وإلا فليس بالنّاجى
وأنت ممّن تُرجى شفاعتُه * فٱعطف على وافدِ بنِ حجّاج

وقيل : المعنى ومن دخله عام عمرة القضاء مع محمد صلى الله عليه وسلم كان آمنا . دليلهُ قوله تعالى : « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ(٢) » . وقد قيل : إن « مَنْ » هاهنا لمن لا يعقل ؛ والآية فى أمان الصيد ، وهو شاذّ ؛ وفى التنزيل : « فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ(٣) » الآية .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ فيه تسع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ﴾ اللام فى قوله «ولله» لام الإيجاب والإلزام، ثم أكده بقوله تعالى : ﴿ عَلَى ﴾ التى هى من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب ؛ فإذا قال العربى : لفلان علىّ كذا ؛ فقد وكّده وأوجبه . فذكر الله تعالى الحج [بأبلغ(٤)] ألفاظ الوجوب تأكيدا لحقّه وتعظيما لحُرْمته . ولا خلاف فى فريضته(٥) ، وهو أحد قواعد الإسلام ، وليس يجب إلا مرة فى العمر . وقال بعض الناس : يجب فى كل خمسة أعوام [مرّة(٦)] ؛ ورووا فى ذلك حديثا أسندوه إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والحديث باطل لا يصح ، والإجماع صادّ فى وجوههم .

قلت : وذكر عبد الرزاق قال : حدّثنا سفيان [الثورى(٧)] عن العلاء بن المسيّب عن أبيه عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "يقول الرب جل وعز إن عبدا أوسعت عليه فى الرزق فلم يعد إلىّ فى كل أربعة أعوام لمحروم" مشهور من حديث العلاء بن المسيب بن رافع الكاهلىّ الكوفىّ من أولاد المحدّثين ، روى عنه غير واحد ، منهم من قال : فى كل خمسة أعوام ،

---

(١) فى د : ما بين خائفه والراجى . (٢) راجع جـ ١٦ ص ٢٨٩ (٣) راجع جـ ١٢ ص ٢٩١
(٤) فى د و ب و ز و هـ . وفى ا : بأوكد . (٥) فى د و ب : فرضيته . (٦) فى ب و د . (٧) فى د .

ومنهم من قال: عن العلاء عن يونس بن خبّاب (١) عن أبى سعيد، فى غير ذلك من الاختلاف.
وأنكرت الملحدة الحجّ، فقالت: إن فيه تجريد الثياب وذلك يخالف الحياء، والسعى وهو يناقض الوقار، ورمى الجمار لغير مرمى وذلك يضادّ العقل؛ فصاروا إلى أن هذه الأفعال كلها باطلة؛ إذ لم يعرفوا لها حكمة ولا علة، وجهلوا أنه ليس من شرط المولى مع العبد، أن يفهم المقصود بجميع ما يأمره به، ولا أن يطلع على فائدة تكليفه، وإنما يتعين عليه الامتثال، ويلزمه الانقياد من غير طلب فائدة ولا سؤال عن مقصود. ولهذا المعنى كان عليه السلام يقول فى تلبيته: "لبيك حقا حقا تعبدا ورقا لبيك إله الحق". وروى الأئمة عن أبى هريرة قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أيها الناس قد فرض الله عليكم الحجّ فحجّوا". فقال رجل: كلّ عام يارسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لو قلت نعم لوجبتْ ولما استطعتم" ثم قال: "ذرونى ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شىء فدعوه" لفظ مسلم. فبيّن هذا الحديثُ أن الخطاب إذا توجه على المكلفين بفرض أنه يكفى منه فعل مرة ولا يقتضى التكرار؛ خلافا للأستاذ أبى إسحق الأسفراينى وغيره. وثبت أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال له أصحابه: يا رسول الله، أحجّنا لعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: "لا بل للأبد". وهذا نص فى الردّ على من قال: يجب فى كل خمس سنين مرة. وقد كان الحج معلوما عند العرب مشهورا لديهم، وكان مما يرغب فيه لأسواقها وتبرّرها (٢) وتحنّفها؛ فلما جاء الإسلام خوطبوا بما علموا وألزموا بما عرفوا. وقد حج النبىّ صلى الله عليه وسلم قبل حجّ الفرض، وقد وقف بعرفة ولم يغيّر من شرع إبراهيم ما غيروا؛ حين كانت قريش تقف بالمشعر الحرام ويقولون: نحن أهل الحرم فلا نخرج منه؛ ونحن الحُمْس (٣). حسب ماتقدّم بيانه فى «البقرة» (٤).

قلت: من أغرب ما رأيته أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حج قبل الهجرة مرتين وأن الفرض سقط عنه بذلك؛ لأنه قد أجاب نداء إبراهيم حين قيل له: «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ

---

(١) فى ا: ابن حيان، والتصويب من د و ز و ب.　(٢) التبرر: الطاعة، وفى ا: نجيعها: طلب الكلا. فى د: تحنفها.　(٣) الحمس جمع الأحمس، وهم قريش ومن ولدت قريش وكنانة وجديلة قيس؛ سموا حمسا لأنهم تحمسوا فى دينهم، أى تشددوا.　(٤) راجع جـ ٢ ص ٣٤٥

بالحج » (١) . قال الكيا الطبرى : وهذا بعيد؛ فإنه إذا ورد فى شرعه : «ولله عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» فلا بدّ من وجو به عليه بحكم الخطاب فى شرعه . ولئن قيل : إنما خاطب من لم يحج، كان تحكّما وتخصيصا لا دليل عليه، ويلزم عليه ألا يجب بهذا الخطاب على من حج على دِين إبراهيم، وهذا فى غاية البعد .

الثانيـــة ــ ودلّ الكتاب والسنة على أن الحج على التراخى لا على الفور؛ وهو تحصيل مذهب مالكٍ فيما ذكر ٱبن خُوَيزِ مَنْدَاد، وهو قول الشافعىّ ومحمد بن الحسن وأبى يوسف فى رواية عنه . وذهب بعض البغداديين من المتأخرين من المـالكيين إلى أنه على الفور، ولا يجوز تأخيره مع القدرة عليه؛ وهو قول داود . والصحيح الأوّل؛ لأن الله تعالى قال فى سور الحج : «وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا » وسورة الحج مكية (٢) . وقال تعالى : « ولله على الناس حج البيت » الآية . وهذه السورة نزلت عام أُحُد بالمدينة سنة ثلاث من الهجرة ولم يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سنة عشر . أما السُّنّة فحديث ضِمام بن ثعلبة السعدىّ من بنى سعد بن بكر قدِم على النبىّ صلى الله عليه وسـلم فسأله عن الإسلام فذكر الشهادة والصلاة والزكاة والصيام والحج . رواه ٱبن عباس وأبو هريرة وأنس، وفيها كلها ذِكر الحج، وأنه كان مفروضا، وحديث أنس أحسنُها سياقا وأتمّها . وٱختلف فى وقت قدومه؛ فقيل : سنة خمس . وقيل : سنة سبع . وقيل : سنة تسع ؛ ذكره ٱبن هشام عن أبى عبيدة الواقدى عام الخَنْدَق بعـد ٱنصراف الأحْزَاب . قال ٱبن عبد البر : ومن الدليل على أن الحج على التراخى إجماع العلماء على ترك تفسيق القادر على الحج إذا أخره العام والعامين ونحوهما، وأنه إذا حج من بعد أعوامٍ من حين ٱستطاعته فقد أدّى الحج الواجب عليـه فى وقته ، وليس هو عند الجميع كمن فاتته الصلاة حتى خرج وقتهـا فقضاها بعد خروج وقتها ، ولا كمن فاته صيام رمضان لمرض أو سـفر فقضاه ، ولا كمن أفسد حجه فقضاه ، فلمـا أجمعوا على أنه لا يقال لمن حج بعد أعوام من وقت ٱستطاعته : أنت قاضٍ لِمـا وجب عليك؛ علِمنا أن وقت الحج مُوسّع فيه وأنه على التراخى لا على الفور . قال أبو عمر : كل من قال بالتراخى لا يَحُدّ فى ذلك حدا؛ إلا ما روى عن سحنـون وقد سـئل عن الرجل

(١) راجع جـ ١٢ ص ٣٧

(٢) والصحيح أن سورة الحج مدنية بدليل آية الجهاد ، وسيأتى فى جـ ١٢ من هذا التفسير .

يجد ما يحج به فيؤخر ذلك إلى سنين كثيرة مع قدرته على ذلك هل يُفَسَّق بتأخيره الحج وتُرَد شهادتُه؟ قال: لا و إن مضى من عمره ستون سنة، فإذا زاد على الستين فُسِّق وردّت شهادته. وهذا توقيف وحَدّ، والحدود فى الشرع لا تؤخذ إلا عمن له أن يشَرِّع .

قلت : وحكاه آبن خو يزمنداد عن آبن القاسم . قال آبنُ القاسم وغيره : إن أخره ستين سنة لم يُحَرَّج(١)، و إن أخره بعد الستين حُرِّج؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعمار أمتى ما بين الستين إلى السبعين وقل من يتجاوزها" فكأنه فى هذا العشر قد يتضايق عليه الخطاب. قال أبو عمر : وقد آحتج بعض الناس [كسحنون(٢)] بقوله صلى الله عليه وسلم : " معترك أمّتى بين الستين إلى السبعين وقل من يجاوز ذلك " . ولا حجة فيه ؛ لأنه كلام خرج على الأغلب من أعمار أمّته لو صح الحديث . وفيه دليل على التوسعة إلى السبعين لأنه من الأغلب أيضا ، ولا ينبغى أن يقطع بتفسيق من صحت عدالته وأمانته بمثل هذا من التأويل الضعيف . و بالله التوفيق .

الثالثة — أجمع العلماء على أن الخطاب بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ عام فى جميعهم مسترسل على جملتهم . قال آبن العربى : « و إن كان الناس قد آختلفوا فى مطلق العمومات بَيْدَ أنهم آتفقوا على حمل هذه الآية على جميع الناس ذكرِهم وأنثاهم، خلا الصغيرِ فإنه خارج بالإجماع عن أصول التكليف، وكذلك العبد لم يدخل فيه؛ لأنه أخرجه عن مطلق العموم قوله تعالى [فى التمام(٢)]: «مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» والعبد غيرُ مستطيع؛ لأن السيِّد يمنعه لحقوقه عن هذه العبادة. وقد قدّم الله سبحانه حقَّ السيد على حقه رِفقًا بالعباد ومصلحةً لهم. ولا خلاف فيه بين الأمة ولا بين الأئمة، فلا نَهْرِف(٣) بما لا نعرف، ولا دليل عليه إلا الإجماعُ » . قال آبن المنذر: أجمع عامّة أهل العلم إلا من شَذّ منهم ممن لا يعدّ خلافا، على أن الصبى إذا حجّ فى حال صغره، والعبد إذا حج فى حال رِقّه، ثم بلغ الصبى وعَتَق العبد إنّ عليهما حجة الإسلام إذا وجدا إليها سبيلا . وقال أبو عمر : خالف داود جماعة فقهاء الأمصار وأئمة الأثر فى المملوك وأنه عنده مخاطب بالحج، وهو عند جمهور العلماء خارج من الخطاب العام فى قوله تعالى : «وَلِلَّهِ عَلَى

(١) حرج (من باب علم) : أثم . (٢) فى د و ب . (٣) الهرف : شبه الهذيان من الإعجاب بالشىء . فى د و ب : لا يهرف ، لا يعرف ، بالبناء للمجهول .

النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» بدليل عدم التصرف، وأنه ليس له أن يحج بغير إذن سيده؛ كما خرج من خطاب الجمعة وهو قوله تعالى: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ»(١) الآية ـ عند عامة العلماء إلا من شذّ. وكما خرج من خطاب إيجاب الشهادة، قال الله تعالى: «وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا»(٢) فلم يدخل فى ذلك العبدُ. وكما جاز خروج الصبيّ من قوله: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهو من الناس بدليل رفع القلم عنه. وخرجت المرأة من قوله: «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ» وهى ممّن شَمِله اسم الإيمان، وكذلك خروج العبد من الخطاب المذكور. وهو قول فقهاء الحجاز والعراق والشام والمغرب، ومثلهم لا يجوز عليهم تحريف تأويل الكتاب. فإن قيل: إذا كان حاضرَ المسجد الحرام وأذِن له سيدُه فلِمَ لا يلزمه الحج؟ قيل له: هذا سؤال على الإجماع وربما لا يُعَلّل ذلك، ولكن إذا ثبت هذا الحكم على الإجماع استدللنا به على أنه لا يُعتدّ بحجه فى حال الرِّقّ عن حِجة الإسلام؛ وقد روى عن ابن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أيّما صبيّ حجّ ثم أدرك فعليه أن يحج حجة أخرى وأيّما أعرابيّ حجّ ثم هاجر فعليه أن يحج حجة أخرى وأيما عبد حج ثم أعتق فعليه أن يحج حِجة أخرى". قال ابن العربيّ: «وقد تساهل بعض علمائنا فقال: إنما لم يثبت الحج على العبد وإن أذِن له السيد لأنه كان كافرا فى الأصل ولم يكن حَجُّ الكافر معتدّا به، فلما ضُرب عليه الرقّ ضربا مؤبّدا لم يخاطب بالحج؛ وهذا فاسد من ثلاثة أوجه فاعلموه: أحدها — أن الكفار عندنا مُخاطبون بفروع الشريعة، ولا خلاف فيه فى قول مالك. الثانى — أن سائر العبادات تلزمه من صلاة وصوم مع كونه رقيقا، ولو فعلها فى حال كفره لم يعتدّ بها، فوجب أن يكون الحج مثلها. الثالث — أن الكفر قد ارتفع بالإسلام فوجب ارتفاع حكمه. فتبين أن المعتمد ما ذكرناه من تقدّم حقوق السيد». والله الموفق.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «مَنْ» فى موضع خفض على بدل البعض من الكل؛ هذا قول أكثر النحويين. وأجاز الكسائى أن يكون «من» فى موضع رفع بحج، التقدير أن يحج البيت من. وقيل هى شرط. و «استطاع» فى موضع جزم، والجواب

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩٧ (٢) راجع جـ ٣ ص ٣٩٨

محذوف، أى من ٱستطاع إليه سبيلا فعليه الحج . روى الدارقطني عن ٱبن عباس قال : قيل يا رسول الله الحج كلّ عام؟ قال : "لا بل حجة"؟ قيل: فما السبيل، قال : "الزاد والراحلة". ورواه عن أنس وٱبن مسعود وٱبن عمر وجابر وعائشة وعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وعن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» قال فسئل عن ذلك فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أن تجد ظهر بَعِير" . وأخرج حديثَ ٱبن عمر أيضا ٱبنُ ماجه فى سُننه ، وأبو عيسى الترمذىّ فى جامعه وقال : «حديث حَسَن ، والعمل عليه عند أهل العلم أنّ الرجل إذا ملك زَادًا وراحلة وجب عليه الحج . وإبراهيم بن يزيد هو الخُوزىّ[1] المكىّ ، وقد تكلم فيه بعض أهل الحديث من قِبَل حِفظِه». وأخرجاه عن وَكيع والدَّارَقُطْنِيّ عن سفيان بن سعيد قالوا : حدّثنا إبراهيم بن يزيد عن محمد بن عبّاد عن ٱبن عمر قال: قام رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، مايوجب الحج؟ . قال: "الزاد والراحلة" قال: يارسول الله، فما الحاج؟ قال: "الشَّعِث[2] التَّفِل" . وقام آخر فقال : يا رسول الله وما الحج؟ قال : "العَجّ والثَّجّ". قال وكيع: يعنى بالعج العجيج بالتلبية والثّج نحر البُدْن؛ لفظ ٱبن ماجه . وممن قال إن الزاد والراحلة شرط فى وجوب الحج: عمر بن الخطاب وٱبنه عبد الله وعبد الله بن عباس والحسن البصرى وسعيد بن جُبير وعطاء ومجاهد. و إليه ذهب الشافعىّ والثورىّ وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد و إسحاق وعبد العزيز بن أبى سلمة وٱبن حبيب ، وذكر عبدوس[3] مثله عن سُحْنون. قال الشافعىّ: الٱستطاعة وجهان : أحدهما أن يكون مستطيعا ببدنه واجدا من ماله ما يبلّغه الحج . والثانى أن يكون معضُوبا[4] فى بدنه لايثبت على مَركَبه وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه بأجرة و بغير أجرة، على ما يأتى بيانه . أما المستطيع ببدنه فإنه يلزمه فرض الحج بالكتاب بقوله عز وجل : «مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا» . وأما المستطيع بالمال فقد لزمه فرض الحج بالسُّنة بحديث الخثعمية على ما يأتى . وأما المستطيع بنفسه وهو القوىّ الذى لا تلحقه مشقّة غير محتملة

(١) هو أحد رجال سند حديث ٱبن عمر. (٢) الشعث : متلبد الشعر. والتفل : الذى قد ترك ٱستعمال الطيب .
(٣) فى ب : « ابن عبدوس » . (٤) المعضوب : الزمن الذى لا حراك به .

يكون إنزال . وذهب الجمهور من العلماء والكافّة من الفقهاء إلى أن الوطء كاف فى ذلك، وهو آلتقاء الختانين الذى يوجب الحدّ والغسل ، و يفسد الصـوم والحجّ و يُحصن الزوجين و يوجب كمال الصداق . قال آبن العربى : ما مرت بى فى الفقه مسألة أعسر منها ، وذلك أن من أصول الفقه أن الحكم هل يتعلق بأوائل الأسماء أو بأواخرها ؟ فإن قلنا : إن الحكم يتعلق بأوائل الأسماء لزمنا أن نقول[1] بقول سعيد بن المسيب . و إن قلنا : إن الحكم يتعلق بأواخر الأسماء لزمنا أن نشترط الإنزال مع مغيب الحشفة فى الإحلال، لأنه آخر ذوق العُسَيْلة على ما قاله الحسن . قال آبن المنذر : ومعنى ذوق العسيلة هو الوطء؛ وعلى هذا جماعة العلماء إلا سعيد آبن المسيب فقال : أما الناس فيقولون : لا تحل للأوّل حتى يجامعها الثانى ؛ وأنا أقول : إذا تزوّجها تزوّجا صحيحا لا يريد بذلك إحلالها فلا بأس أن يتزوّجها الأوّل . وهـذا قول لا نعلم أحدا وافقه عليه إلا طائفة من الخوارج ؛ والسنة مستغنًى بها عما سواها .

قلت : وقـد قال بقول سعيد بن المسيب سـعيد بن جبير ؛ ذكره النحاس فى كتاب «معانى القرآن» له . قال : وأهل العلم على أن النكاح هاهنا الجماع ؛ لأنه قال : « زَوْجًا غَيْرَهُ » فقد تقدّمت الزوجية فصار النكاح الجماع ؛ إلا سعيد بن جبير فإنه قال : النكاح هاهنا التزوّج الصحيح إذا لم يرد إحلالها .

قلت : وأظنهما لم يبلغهما حديث العسيلة أو لم يصح عندهما فأخذا بظاهر القرآن، وهو قوله تعالى : «حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ» والله أعلم . روى الأئمة واللفظ الدارقطنِيّ عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” إذا طلق الرجل آمرأته ثلاثا لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره و يذوق كل واحد منهما عسيلة صاحبه“ . قال بعض علماء الحنفية : من عقد على مذهب سعيد بن المسيب فللقاضى أن يفسخه ، ولا يعتبر فيه خلافه لأنه خارج عن إجماع العلماء . قال علماؤنا : ويفهم من قوله عليه السلام : ” حتى يذوق كل واحد منهما عسيلة صاحبه “ آستواؤهما فى إدراك لذة الجماع ؛ وهو حجـة لأحد القولين عندنا فى أنه لو وطئها نائمة أو مغمى عليها لم تحل لمطلقها ؛ لأنها لم تذق العسيلة إذ لم تدركها .

(١) فى ب و ز : لزمنا مذهب سعيد .

على قدر طاقتهم ويُسرهم وجَلَدهم. قال أشهبُ لمـالكٍ: أهو الزاد والراحلة؟. قال: لا والله، ما ذاك إلا على قدر طاقة الناس، وقد يجد الزادَ والراحلة ولا يقدر على السير، وآخر يقدر أن يمشى على رجليه.

الخامســـة — إذا وُجدت الأستطاعة وتوجّه فرضُ الحج فقد يعرض مايمنع منه كالغريم يمنعه عن الخروج حتى يؤدّىَ الدَّين؛ ولا خلاف فى ذلك. أو يكون له عِيَال يجب عليه نفقتهم فلا يلزمه الحج حتى يكوِّن لهم نفقتهم مدّةَ غيبته لذهابه ورجوعه، لأن هـذا الإنفاق فرض على الفَوْر، والحجّ فرضٌ على التَّراخى، فكان تقديم العيال أَوْلى. وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "كَفَى بالمرء إثما أن يُضيِّع من يقوت". وكذلك الأَبَوان يخاف الضيعةَ عليهما وعَدَم العوِض فى التلطّف بهما، فلا سبيل له إلى الحج؛ فإن مَنَعاه لأجل الشّوق والوَحْشة فلا يُلتفت إليه. والمرأة يمنعها زوجها، وقيل لايمنعها. والصحيح المنع؛ لاسيما إذا قلنا إن الحج لايلزم على الفَوْر. والبحر لا يمنع الوجوب إذا كان غالبه السلامة — كما تقدّم بيانه فى البقرة[1] — ويَعلم من نفسه أنه لا يَمِيد[2]. فإن كان الغالب عليه العَطَب أو المَيْد حتى يعطل الصلاة فلَا. وإن كان لا يجد موضعا لسجوده لكثرة الراكب وضيق المكان فقد قال مالك: إذا لم يستطع الركوع والسجود إلا على ظهر أخيه فلا يركبه. ثم قال: أيركب حيث لا يُصلِّى! ويلٌ لمن ترك الصلاة!. ويسقط الحج إذا كان فى الطريق عدوّ يطلب الأنفس أو يطلب من الأموال ما لم يتحدّد بحدّ مخصوص أو يتحدّد بقدر مُجحِف. وفى سقوطه بغير المُجْحِف خلاف. وقال الشافعيّ: لا يعطى حبة ويسقط فرض الحج. ويجب على المتسوّل إذا كانت تلك عادته وغلب على ظنه أنه يجد من يعطيه. وقيل لا يجب، على ما تقدّم من مراعاة الأستطاعة.

السادســـة — إذا زالت الموانع ولم يكن عنده من النّاضّ[3] مايحجّ به وعنده عُروض فيلزمه أن يبيع من عُروضه للحج مايُباع عليه فى الدَّيْن. وسئل ٱبن القاسم عن الرجل تكون له القرْبة

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩٥	(٢) المائد: الذى يركب البحر فتغثى نفسه من نتن ماء البحر حتى يدار به ويكاد يغشى عليه.	(٣) الناض: الدراهم والدنانير.

مثل قول مالك ، والآخر مثل قول أبى حنيفة . ولم يختلف قوله فى كتابه الجديد المصرى أن النكاح صحيح إذا لم يشترط ، وهو قول داود .

قلت : وحكى المـاوردى عن الشافعى أنه إن شُرط التحليل قبل العقد صح النكاح وأحلها للأول ، و إن شرطاه فى العقد بطل النكاح ولم يحلها للأول ، قال : وهو قول الشافعى . وقال الحسن و إبراهيم : إذا همّ أحد الثـلاثة بالتحليل فسد النكاح ؛ وهـذا تشديد . وقال سالم والقـاسم : لا بأس أن يتزوجها ليحلها إذا لم يعـلم الزوجان وهو مأجور ؛ و به قال ربيعة ويحيى بن سعيد ، وقاله داود بن على إذا لم يظهر ذلك فى آشتراطه فى حين العقد .

الرابعـــة — مدار جواز نكاح التحليل عنـد علمائنا على الزوج النا كح ، وسـواء شرط ذلك أو نواه ؛ ومتى كان شىء من ذلك فسـد نكاحه ولم يقرّ عليـه ، ولم يحلِّل وطؤه المرأةَ لزوجها . وعِلْمُ الزوج المطلِّق وجهلُه فى ذلك سواء . وقد قيل : إنه ينبغى له إذا علم أن النا كح لها لذلك تزوّجها أنْ يتنزّه عن مراجعتها ، ولا يُحلها عند مالك إلا نكاح رغبةٍ لحاجته إليها ، ولا يقصـد به التحليل ، ويكون وطؤه لهـا وطأ مباحا : لا تكون صائمـة ولا مُحرِمة ولا فى حيضتها ، و يكون الزوج بالغا مسلما . وقال الشافعى : إذا أصابها بنكاح صحيح وغيب الحشفة فى فرجها فقد ذاقا العُسَيْلَة ؛ وسواء فى ذلك قوى النكاح وضعيفه ، وسـواء أدخله بيده أم بيدها ، وكان من صبى أو مراهق أو مجبوب بقى له ما يغيبه كما يغيب غير الخصى ؛ وسواء أصابها الزوج مُحرِمةً أو صائمة ؛ وهذا كله — على ما وصف الشافعى — قول أبى حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى والحسن بنِ صالح ، وقول بعض أصحاب مالك .

الخامســـة — قال آبن حبيب : و إن تزوّجها فإن أعجبته أمسكها ، و إلا كان قـد آحتسب فى تحليلها الأجر لم يجز ؛ لمـا خالط نكاحه من نية التحليل ، ولا تحلّ بذلك للأوّل .

السادســـة — وطء السيد لأمته التى قد بتّ زوجها طلاقها لا يحلها ؛ إذ ليس بزوج ؛ روى عن على بن أبى طالب ، وهو قول عبيدة ومسروق والشعبى و إبراهيم وجابر بن زيد وسليمان بن يَسَار وحمّاد بن أبى سليمان وأبى الزّناد ؛ وعليه جماعة فقهاء الأمصار . ويروى عن

ولا يجوز أن يُحَجّ عنه فى حال حياته بحال، بل إن أوْصى أن يُحجّ عنه بعد موته حُجّ عنه من الثلث، وكان تطوّعا ؛ وآحتج بقوله تعالى : «وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى»(١) فأخبر أنه ليس له إلا ما سعى . فمن قال : إنه له سَعى غيره فقد خالف ظاهر الآية . وبقوله تعالى: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ» وهذا غير مستطيع، لأن الحج هو قصد المكلّف البيتَ بنفسه، ولأنها عبادة لا تدخلها النيابة مع العجز عنها كالصلاة . وروى محمد بن المُنْكَدِر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل ليُدخل بالحجّة الواحدة ثلاثةً الجنةَ الميّتَ والحاجّ عنه والمنفِذَ ذلك". خرّجه الطبرانى أبو القاسم سليمان بن أحمد قال حدثنا عمرو بن(٢) حصين السّدوسى قال حدّثنا أبو معشر عن محمد بن المنكدر؛ فذكره .

قلت : أبو معشر آسمه نَجيح وهو ضعيف عندهم . وقال الشافعيّ : فى المريض الزّمِن والمعضوب والشيخ الكبير يكون قادرا على من يطيعه إذا أمره بالحج عنه فهو مستطيع آستطاعةً مّا . وهو على وجهين: أحدهما أن يكون قادرا على مال يستأجر به من يَحج عنه فإنه يلزمه فرض الحج، وهذا قول علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، رُوِى عنه أنه قال لشيخ كبير لم يَحجّ : جهّز رجلا يحجّ عنك . و إلى هذا ذهب الثّورى وأبو حنيفة وأصحابه وآبن المبارك وأحمد و إسحاق . والثانى أن يكون قادرا على من يبذل له الطاعة والنيابة فيحجّ عنه، فهذا أيضا يلزمه الحج [عنه](٣) عند الشافعيّ وأحمد وآبن راهوَيه، وقال أبو حنيفة : لا يلزم الحج ببذل الطاعة بحال. آستدل الشافعيّ بما رواه آبن عباس أن آمرأة من خَثْعم سألتِ النبيّ صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله، إن فريضة الله على عباده فى الحجّ أدركت أبى شيخاً كبيرا لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحجّ عنه؟ قال :"نعم". وذلك فى حجّة الوَدَاع . فى رواية : لا يستطيع أن يستوىَ على ظهر بعيره . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "فحُجّى عنه أرأيتِ لو كان على أبيك دَيْنٌ أكنتِ قاضِيَته" ؟ قالت نعم . قال : "فدَيْن الله أحقّ أن يقضى" . فأوجب النبيّ صلى الله عليه وسلم الحج بطاعة آبنته إياه و بذلها من نفسها له بأن تحجّ عنه؛ فإذا وجب ذلك

(١) راجع جـ ١٧ ص ١١٢ (٢) فى ب : عمر بن حفص . (٣) فى د .

بطاعة البنت له كان بأن يجب عليه بقدرته على المـال الذى يستأجر به أولى . فأما إن بذل له المـال دون الطاعة فالصحيح أنه لا يلزمه قبوله والحج به عن نفســه ولا يصير ببذل المـال له مستطيعا . وقال علماؤنا : حديث الخثعمية ليس مقصودهُ الإيجابَ و إنمـا مقصوده الحثّ على بِرّ الوالدين والنظر فى مصالحهما دُنيا ودِينًا وجلب المنفعة إليهما جِبِلّةً وشرعا؛ فلما رأى من المرأة آنفعالا وطواعية ظاهرة ورغبةً صادقة فى بِرها بأبيها وحرصًا على إيصال الخير والثواب إليــه، وتأسّفت أن تفوته بركة الحج أجابها إلى ذلك . كما قال للأخرى التى قالت : إن أمّى نذرت أن تحــجّ فلم تحجّ حتى ماتت أفأحجّ عنها ؟ قال : " حُجّى عنها أرأيتِ لو كان على أمّك دَين أكنتِ قاضيتَــه " ؟ قالت نعم . ففى هــذا ما يدل على أنه من باب التطوّعات و إيصــال البرّ والخيرات للأموات ؛ ألَا ترى أنه قد شــبّه فعلَ الحج بالدَّين . و بالإجمــاع لو مات ميّت وعليه دَين لم يجب على وَلِيّه قضــاؤه من ماله ، فإن تطوّع بذلك تأدّى الدَّين عنه . ومن الدليل على أن الحج فى هــذا الحديث ليس بفرض على أبيهــا ماصرّحت به هــذه المرأة بقولها «لا يستطيع» ومن لا يستطيع لا يجب عليه . وهذا تصريح بنفى الوجوب ومنع الفريضة ؛ فلا يجوز ما آنتفى فى أول الحديث قطعا أن يثبت فى آخره ظَنًّا ؛ يحقّقه قوله : " فدَين الله أحقّ أن يقضى " فإنه ليس على ظاهره إجماعا ؛ فإن دَين العبد أولى بالقضاء، و به يبدأ إجماعا لفقر الآدمىّ وآستغناء الله تعالى ؛ قاله آبن العربىّ . وذكر أبو عمر بن عبد البر أن حديث الخثعمية عند مالك وأصحابه مخصوصٌ بها . وقال آخرون : فيه آضطراب . وقال آبن وهب وأبو مصعب : هو فى حق الولد خاصّةً . وقال آبن حبيب : جاءت الرخصة فى الحج عن الكبير الذى لا مُنهض له ولم يحج وعمن مات ولم يحج، أن يحج عنه ولده و إن لم يُوصِ به و يجزئه إن شاء الله تعالى . فهذا الكلام على المعضوب وشبهه . وحديثُ الخثعمية أخرجه الأئمة، وهو يرد على الحسن قولَه : إنه لا يجوز حجّ المرأة عن الرجل .

الثامنـــة ـــ وأجمع العلماء على أنه إذا لم يكن للمكلَّف قوت يتزوّده فى الطريق لم يلزمه الحج . و إن وهب له أجنبى مالًا يحجّ به لم يلزمه قبوله إجماعا ؛ لمـا يلحقه من المِنّة فى ذلك . فلو كان رجل وهب لأبيه مالًا فقد قال الشافعىّ : يلزمه قبوله ؛ لأن آبن الرجل من كسبه ولا مِنّة عليه

فى ذلك . وقال مالك وأبو حنيفة : لا يلزمه قبوله ؛ لأن فيه سقوط حرمة الأبوة ؛ إذ يقال : قد جَزَاه وقد وفَّاه . والله أعلم .

التاســعة ــ قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ قال ابن عباس وغيره : المعنى ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبا . وقال الحسن البصرى وغيره : إن من ترك الحج وهو قادر عليــه فهو كافر . وروى الترمذى عن الحارث عن على قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ملك زادا وراحلة تُبلِّغه إلى بيت الله ولم يحجّ فلا عليــه أن يموت يهوديًّا أو نصرانيًّا وذلك أن الله يقول فى كتابه وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " . قال أبو عيسى : « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وفى إسناده مقال ، وهلال بن عبد الله مجهول ، والحارث يُضعَّف » . وروى نحوه عن أبى أمامة وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما . وعن عبد خير بن يزيد(١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته : " يأيها الناس إن الله فرض عليكم الحج على من استطاع إليه سبيلا ومن لم يفعل فليمت على أى حال شاء إن شاء يهوديًّا أو نصرانيا أو مجوسيًّا إلا أن يكون به عذر من مرض أو سلطان جائر ألا نصيب له فى شفاعتى ولا وُرودِ حَوْضِى " . وقال ابن عباس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من كان عنده مال يبلّغه الحج فلم يحج أو عنده مال تحلّ فيه الزكاة فلم يزكّه سأل عند الموت الرجعة " . فقيل يا ابن عباس إنا كنا نرى هــذا للكافرين . فقال : أنا أقرأ عليكم به قرآنا « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ(٢) » . قال الحسن بن صالح فى تفسيره : فأزكى وأحجّ . وعن النبى صلى الله عليــه وسلم أن رجلا سأله عن الآية فقال : " من حج لا يرجو ثوابا أو جلس لا يخاف عقابا فقد كفر به " . وروى قتادة عن الحسن قال قال عمر رضى الله عنه : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى الأمصار فينظرون إلى من كان له مال ولم يحجّ فيضربون عليه الجزية ؛ فذلك قوله تعالى : « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

(١) كذا فى ب وجـ و د . وهو الخيوانى الهمدانى ، وفى هـ و ا و ز ، عبـد الله بن جبير ، ولا يصح لأن عبد خير هو الذى يروى عن على كما فى ابن سعد جـ ٦ ص ١٥٤ (٢) راجع جـ ١٨ ص ١٢٩

قلت: هذا خرج مخرج التغليظ؛ ولهذا قال علماؤنا: تضمّنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجّه عليه، ولا يجزئ أن يحجّ عنه غيره؛ لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد. والله أعلم. وقال سعيد بن جُبير: لو مات جارٌ لى وله مَيْسرة ولم يحج لم أصلّ عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أى تصرفون عن دين الله ﴿مَنْ آمَنَ﴾. وقرأ الحسن «تُصِدون» بضم التاء وكسر الصاد وهما لغتان: صَدّ وأَصَدّ؛ مثل صَلّ اللحمُ وأَصَلّ إذا أنتن، وخَمّ وأَخَمّ أيضا إذا تغيّر. ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ تطلبون لها، فحذف اللام؛ مثل «وَإِذَا كَالُوهُمْ»[1]. يقال: بغيت له كذا أى طلبته. وأبغيته كذا أى أعنته. والعِوَج: المَيْل والزَّيغ (بكسر العين) فى الدِّين والقول والعمل وما خرج عن طريق الآستواء. و(بالفتح) فى الحائط والجدار وكل شخص قائم؛ عن أبى عبيدة وغيره. ومعنى قوله تعالى: «يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ»[2] أى لا يقدرون أن يَعُوجُوا[3] عن دعائه. وعاج بالمكان وعوّج أقام ووقف. والعائج الواقف؛ قال الشاعر:

هــل أنتم عائجــون بنــا لَعَنّا[4] * نرى العَرَصاتِ[5] أو أثَرَ الخيــام

والرجل الأعوج: السّيء الخلق، وهو بيّن العَوَج. والعُوج من الخيل التى فى أرجلها تحنيب[6]. والأعوجيّة من الخيل تُنسب إلى فرس كان فى الجاهلية سابقا. ويقال: فرس مُحَنّب إذا كان بعيد ما بين الرجلين بغير فَحَج، وهو مَدْحٌ. ويقال: الحَنَب آعوجاجٌ فى السّاقين. قال الخليل التَّحْنيب يوصف فى الشدّة، وليس ذلك بآعوجاج.

(١) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٨ (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٤٦ (٣) فى حـ و أ: لا يقدرون بألا يعوجوا عن مكانه. (٤) لعنا: لغة فى لعل. (٥) العرصة: كل بقعة بين الدور ليس فيها بناء. وعرصة الدار: وسطها. (٦) التحنيب: آحديداب فى وظيفى الفرس أيضا.

قوله تعـالى : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ ﴾ معنى « بَلَغْنَ » قارَبْنَ، بإجماع من العلماء؛ ولأن المعنى يضطرّ إلى ذلك ؛ لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك ، وهو في الآية التي بعدها بمعنى التناهي؛ لأن المعنى يقتضي ذلك، فهو حقيقة في الثانية مجاز في الأولى .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ الإمساك بالمعروف هو القيام بما يجب لها من حق على زوجها؛ ولذلك قال جماعة من العلماء : إن من الإمساك بالمعروف أن الزوج إذا لم يجد ما ينفق على الزوجة أن يطلقها ؛ فإن لم يفعل خرج عن حدّ المعروف، فيطلّق عليه الحاكم من أجل الضرر اللاحق لها من بقائها عند من لا يقدر على نفقتها، والجوع لا صبر عليه؛ وبهذا قال مالك والشافعيّ وأحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد ويحيى القطّان وعبد الرحمن آبن مهديّ ، وقاله من الصحابة عمر وعلى وأبو هريرة ، ومن التابعين سعيد بن المسيّب وقال : إن ذلك سُنّة . ورواه أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقالت طائفة[1] : لا يفرّق بينهما ، ويلزمها الصبر عليه ، وتتعلق النفقة بذمّته بحكم الحاكم ؛ وهذا قول عطاء والزهريّ، وإليه ذهب الكوفيون والثوريّ؛ وآحتجوا بقوله تعالى : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ[2]» وقال : «وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ[3]» الآية ؛ فندب تعالى إلى إنكاح الفقير، فلا يجوز أن يكون الفقر سببا للفرقة، وهو مندوب معه إلى النكاح . وأيضا فإن النكاح بين الزوجين قد آنعقد بإجماع فلا يفرّق بينهما إلا بإجماع مثله ،أو بسُنّة عن الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) في ب : فرقة . (٢) راجع ج ٣ ص ٣٧١ (٣) راجع ج ١٢ ص ٢٣٩

قاله تعالى على جهة التعجب[1] ، أى ﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ ﴾ يعنى القرآن . ﴿ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : كان بين الأوس والخزرج قتالٌ وشرٌّ فى الجاهلية ، فذكروا ما كان بينهم فثار بعضهم على بعض بالسيوف ؛ فأُتِىَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم فذُكر ذلك له فذهب إليهم ؛ فنزلت هذه الآية « وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ — إلى قوله تعالى : فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا » ويدخل فى هذه الآية مَن لم يَرَ النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأن ما فيهم من سُنّته يقوم مقام رؤيته . قال الزّجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد خاصةً ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيهم وهم يشاهدونه . ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ؛ لأن آثاره وعلاماته والقرآن الذى أوتِىَ فِينا مكانَ النبىّ صلى الله عليه وسلم فِينا وإن لم نشاهده . وقال قتادة : فى هذه الآية عَلَمان بيّنان : كتابُ الله ونبىّ الله ؛ فأما نبىّ الله فقد مضى ، وأما كتاب الله فقد أبقاه الله بين أظهرهم رحمةً منه ونعمةً ؛ فيه حلالُه وحرامُه ، وطاعته ومعصيته . ﴿وَكَيْفَ﴾ فى موضع نصب ، وفتحت الفاء عند الخليل وسيبويه لالتقاء الساكنين ، واختير لها الفتح لأن ما قبل الفاء ياء فثَقُل أن يجمعوا بين ياء وكسرة . قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ﴾ أى يمتنع ويتمسّك بدينه وطاعته . ﴿فَقَدْ هُدِيَ﴾ وُفّق وأرشد ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ . ابن جُريج « يعتصم بالله » يؤمن به . وقيل : المعنى ومن يعتصم بالله أى يتمسّك بحبل الله ، وهو القرآن . يقال : أعصم به واعتصم ، وتمسّك واستمسك إذا امتنع به من غيره . واعتصمت فلانا هيّأتُ له ما يَعتصِم به . وكل متمسّك بشىء مُعصِم ومُعتصِم . وكل مانع شيئا فهو عاصم ؛ قال الفرزدق :

أنا ابن العاصمينَ بَنِى تَميم * إذا ما أَعْظَمُ الحَدَثانِ نَابَا

قال النابغة :

يَظَلّ من خوفه المَلّاح معتصِمًا * بالخَيزُرانة بعد الأَيْن والنَّجَدِ[2]

---

(١) كذا فى ب و ز و ه . أى التعجيب والإنكار كما فى الكشاف .

(٢) الخيزرانة : السكان ، وهو ذنب السفينة . والأين : الفترة والأعياء ، والنجد (بالتحريك) : العرق من عمل أو كرب أو غيره .

ولعبا من طلق ٱلبتة ألزمناه ثلاثا لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره ". إسماعيل بن أمية هــذا كوفي ضعيف الحديث . وروى عن عائشة : أن الرجل كان يطلق ٱمرأته ثم يقــول : والله لا أورثِك ولا أدعكِ . قالت : وكيف ذاك ؟ قال : إذا كِدتِ تقضين عدّتك راجعتك ؛ فنزلت : « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا » . قال علمــاؤنا : والأقوال كلها داخلة في معنى الآية؛ لأنه يقال لمن سخر من آيات الله : ٱتخذها هزوا . ويقال ذلك لمن كفر بها، ويقال ذلك لمن طرحها ولم يأخذ بها وعمل بغيرها ؛ فعلى هذا تدخل هذه الأقوال في الآية . وآيات الله : دلائله وأمره ونهيه .

الخامســـة — ولا خلاف بين العلماء أن من طلق هازلا أن الطلاق يلزمه ، وٱختلفوا في غيره على ما يأتي بيانه في « براءة »(١) إن شاء الله تعــالى . وخرّج أبو داود عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليــه وسلم قال : " ثلاث جِدّهن جِدّ وهزلهن جِدّ النكاح والطلاق والرجعة " . وروى عن عليّ بن أبي طالب وٱبن مسعود وأبي الدرداء كلهم قالوا : ثلاث لا لعب فيهنّ واللاعب فيهنّ جادّ : النكاح والطلاق والعِتاق . وقيل : المعنى لا تتركوا أوامر الله فتكونوا مقصرين لاعبين . ويدخل في هذه الآية الٱستغفار من الذنب قولا مع الإصرار فعلا ؛ وكذا كل ما كان في هذا المعنى فٱعلمه .

السادســـة — قوله تعــالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي بالإسلام وبيان الأحكام . ﴿ والْحِكْمَةِ ﴾ : هي السنة المبيِّنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مرادَ الله فيما لم ينص عليه في الكتاب . ﴿ يَعِظُكُمْ بِهِ ﴾ أي يخوّفكم . ﴿ وَٱتَّقُوا اللهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تقدّم .

قوله تعــالى : وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

(١) راجع ج ٨ ص ١٩٧

جهاده، ولا تأخذكم فى الله لَوْمةُ لائم ، وتقـوموا بالقِسط ولو على أنفسكم وأبنـائكم[1] . قال النحاس : وكلما ذكر فى الآية واجبٌ على المسلمين أن يستعملوه ولا يقع فيه نسخ. وقد مضى فى البقرة معنى قوله تعالى :﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ[2] ﴾ .

قوله تعـالى : وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا ﴾ العِصمة المَنَعَة؛ ومنه يقال للبَذْرَقة : عِصْمةٌ . والبذرقة : الخَفَارَةُ للقافلة، وذلك بأن يرسل معها من يحميها ممن يؤذيها . قال ٱبن خالويه : البذرقة ليست بعربية وإنما هى كلمة فارسية عرّبتها العرب؛ يقال : بعث السلطان بذرقة مع القافلة .

والحَبْل لفظ مشترك، وأصـله فى اللغة السبَبُ الذى يوصـل به إلى البغية والحاجة . والحبل : حبل العاتق[3] . والحبل : مستطيل من الرمل؛ ومنه الحديث[4] : والله ماتركتُ من حبل إلا وقفتُ عليه ، فهل لى مِن حَجٍّ؛ والحبل الرسَنُ . والحبل العهد؛ قال الأعشى :

وإذا تُجَـوِّزُها حِبالُ قَبيلةٍ * أخذتْ من الأُخْرى إليك حِبالَها

يريد الأمان . والحبل الداهية؛ قال كُثَيِّر[5] :

فلا تعجَلِي يا عَزّ أن تتَفَهَّمِى * بنُصح أتى الواشُون أم بحُبُولِ

(١) فى د : قاله . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٣٤ (٣) حبل العاتق : وصل ما بين العاتق والمنكب .
(٤) حديث عروة بن مضرس : أتيتك من جبلى طيئ . (٥) فى الأصول : «لبيد» . والتصـويب عن اللسان وشرح القاموس مادة « حبل » .

والحَبالة[١] : حبالة الصّائد. وكلها ليس مرادا فى الآية إلا الذى بمعنى العهد؛ عن ٱبن عباس. وقال ٱبن مسعود : حبل الله القرآن . ورواه علىّ وأبو سعيد الخدرىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وعن مجاهد وقتادة مثل ذلك . وأبو معاوية عن الهجَرى[٢] عن أبى الأحوص عن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن هذا القرآن هو حبل الله " . وروى تَقِىّ بن مخلّد حدّثنا يحيى بن عبد الحميد حدّثنا هشيم عن العوّام بن حوشب عن الشعبيّ عن عبد الله بن مسعود « وٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا » قال : الجماعة ؛ روى عنه و[عن غيره][٣] من وجوه، والمعنى كله متقارب مُتَداخل[٤] ؛ فإن الله تعالى يأمر بالألفة و ينهى عن الفُرْقة فإن الفرقة هلكة والجماعة نجاة . ورحم الله ٱبن المبارك حيث قال :

إن الجماعة حَبْلُ الله فٱعتَصِموا * منه بعُرْوَته الوُثْقى لمن دَانا

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿ ولا تَفَرَّقُوا ﴾ [يعنى فى دينكم][٥] كما ٱفترقت اليهود والنصارى فى أديانهم ؛ عن ٱبن مسعود وغيره . و يجوز أن يكون معناه ولا تفرقوا متابعين للهوى والأغراض المختلفة ، وكونوا فى دين الله إخوانا ؛ فيكون ذلك منعا لهم عن التقاطع والتدابر ؛ ودل عليه مابعده وهو قوله تعالى : « وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » . وليس فيه دليل على تحريم الٱختلاف فى الفروع ؛ فإن ذلك ليس ٱختلافا إذ الٱختلاف مايتعذر معه الٱئتلاف والجمع ، وأما حكم مسائل الٱجتهاد فإن الٱختلاف فيها بسبب[٦] ٱستخراج الفرائض ودقائق معانى الشرع ؛ وما زالت الصحابة يختلفون فى أحكام الحوادث ، وهم مع ذلك متآلفون[٧] . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ٱختلاف أمتى رحمة" و إنما منع الله ٱختلافا هو سبب الفساد . روى الترمذىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فِرقة أو ٱثنتين وسبعين فِرقة والنصارى مثل ذلك وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة " . قال الترمذى : هـذا حديث صحيح . وأخرجه أيضا عن ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليأتين على أمتى ما أتى

(١) فى ج : حبال ، والتصويب من د ، واللسان وغيره . (٢) الهجرى : بهاء وجيم مفتوحتين ، نسبة إلى هجر . وهو إبراهيم بن مسلم العبدى . (عن تهذيب التهذيب) . (٣) الزيادة فى ب . (٤) و د : فإن كتاب الله . (٥) الزيادة فى د . (٦) فى د : سبب لٱستخراج . (٧) فى د : متواصلون .

على بنى إسرائيل حَذْوَ النعل بالنعل حتى لو كان منهم من يأتى أمه علانية لكان من أمتى من يصنع ذلك وإن بنى إسرائيل تفرقت آثنتين وسبعين مِلّة وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين مِلة كلهم فى النار إلا مِلة واحدة" قالوا : من هى يا رسول الله؟ قال : "ما أنا عليه وأصحابى". أخرجه من حديث عبد الله بن زياد الأفريقى، عن عبد الله بن يزيد عن آبن عمر، وقال : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه . قال أبو عمر : وعبد الله الأفريقى ثِقة وثقه قومه وأثنوا عليه، وضعّفه آخرون . وأخرجه أبو داود فى سننه من حديث معاوية بن أبى سفيان عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قال ألا إنّ مَن قبلكم مِن أهل الكتاب آفترقوا على آثنتين وسبعين مِلّة وإن هــذه المِلة ستفترق على ثلاث وسبعين ثنتان وسبعون فى النــار وواحدة فى الجنة وهى الجماعة وإنه سيخرج من أمتى أقوامٌ تجارى بهم تلك الأهْواء كما يتجارى الكَلَبُ[1] بصاحبه لا يَبْقَى منه عِرقٌ ولا مِفصَــلٌ إلا دخله " . وفى سنن آبن ماجه عن أنس آبن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة مات والله عنه راض " . قال أنس : وهو دِين الله الذى جاءت به الرســل وبلّغوه عن ربهم قبل هَرْج الأحاديث وآختلاف الأهْوَاء، وتصديق ذلك فى كتاب الله فى آخر ما نزل، يقول الله : « فَإِنْ تَابُوا » قال : خلعوا الأوثان وعبادتها «وأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ»[2]، وقال فى آية أخرى : « فإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ »[2] . أخرجه عن نصر بن على الجَهْضَمِىّ عن أبى أحمــد عن أبى جعفر الرازىّ عن الربيع بن أنس عن أنس . قال أبو الفرج الجَوْزىّ : فإن قيل هــذه الفِرَق معروفة؛ فالجواب أنا نعرف الآفتراق وأصول الفِرق وأن كل طائفة من الفِرق آنقسمت إلى فِرَق، وإن لم نُحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها، فقد ظهر لنا من أصول الفِرق الحَرُورِيّة والقَدَرِيّة والجَهْمِية والمُرجِئة والرافِضَة والجَبْرِية . وقال بعض أهل العلم : أصل الفرق الضّالة هذه الفرق السّتّ، وقد آنقسمت كل فرقة منها آثنتى عشرة فرقة، فصارت آثنتين وسبعين فرقة.

(١) الكلب (بالتحريك) : داء يعرض للإنسان من عض الكلب الكلب فيصيبه شبه الجنون، فلا يعض أحدا إلا كَلِب، وتعرض له أعراض رديئة، ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا. (٢) راجع جـ٨ ص ٧٤، وص ٨٠

انقسمت الحَرُورِيّة اثنتى عشرة فرقة؛ فأولهم الأَزْرَقِيَّةُ — قالوا : لا نعلم أحدا مؤمنا ؛ وكفّروا أهل القِبْلة إلّا مَن دان بقولهم . والأباضية — قالوا : من أخذ بقولنا فهو مؤمن ، ومن أعرض عنه فهو منافق(١) . والثعلبيّة — قالوا : إن الله عز وجل لم يقض ولم يُقَدِّر . والخازِميّة — قالوا : لا ندرى ما الإيمان ، والخلق كلهم معذورون . والخَلَفِية — زعموا أن من ترك الجهاد من ذكر أو أنثى كفر . والكوزية(٢) — قالوا: ليس لأحد أن يَمَسّ أحدا لأنه لا يعرف الطاهر من النّجس ولا أن يؤاكله حتى يتوب و يغتسل . والكَنْزيّة — قالوا: لا يسع أحدا أن يُعطى مالَه أحدا ؛ لأنه ربما لم يكن مستحقا بل يكنزه فى الأرض حتى يظهر أهل الحق . والشّمراخية — قالوا : لا بأس بمسّ النساء الأجانب لأنهن(٣) رياحين . والأخْنَسية — قالوا : لا يلحق الميت بعد موته خير ولا شر . والحكَمّية — قالوا : مَن حاكم إلى مخلوق فهو كافر . والمعتزلة(٤) — قالوا : اشتبه علينا أمر علىّ ومعاوية فنحن نتبرّأ من الفريقين . والميمونية — قالوا : لا إمام إلا برضا أهل محبتنا .

وانقسمت القَدَرية اثنتى عشرة فرقة : الأحمرية — وهى التى زعمت أن فى شرط العدل من الله أن يملّك عباده أمورَهم، ويحول بينهم و بين معاصيهم . والثّنَويّة — وهى التى زعمت أن الخير من الله والشر من الشيطان . والمعتزلة(٥) — وهم الذين قالوا بخلق القرآن وجحدوا [صفات](٦) الرّبوبيّة . والكَيْسانية — وهم الذين قالوا: لا ندرى هذه الأفعال من الله أو من العباد ، ولا نعلم أيثاب الناس بعدُ أو يعاقبون . والشيطانية — قالوا : إن الله تعالى لم يخلق الشيطان . والشّريكية — قالوا : إن السيئات كلها مقدّرة إلا الكفر . والوَهْميّة — قالوا : ليس لأفعال الخلق وكلامهم ذات ، ولا للحسنة والسيئة ذات . والزِّبْرِية(٧) — قالوا: كل كتاب نزل من عند الله فالعمل به حق ، ناسخا كان أو منسوخا . والمسعدية(٨) — زعموا

(١) لم نعثر فى المظان لذكر بعض من الفرق الآتية .
(٢) الأباضية يقولون : من دان لله بما بلغ إليه من الإسلام وعمل به ، فهو ناج ما لم يهدم ركنا من الدين أو يرتطم فى التخطية ، وليسوا حرورية . (٣) فى جـ و ا : « الكروية » براء وواو وفى ز : الكدرية .
(٤) فى الأصول : لأنهم . (٥) كذا فى الأصول : كلها وليس فى غير القدرية معتزلة .
(٦) الزيادة فى : ز . (٧) فى ب و د و و : الزبوندية . (٨) فى د و ب و و : المتبرية .

أن من عصى ثم تاب لم تقبل توبته والناكِثية — زعموا أن من نكث بيعة رسول الله صلى ٱلله عليه وسلم فلا إثم عليه . والقاسِطية — تبعوا إبراهيم بن النظام فى قوله : من زعم أن الله شىء فهو كافر (١) . وٱنقسمت الجَهميّة ٱثنتى عشرة فرقة : المعطّلة — زعموا أن كل ما يقع عليه وهم الإنسان فهو مخلوق ، وأن من ٱدّعى أن الله يُرى فهو كافر . والمريسية قالوا : أكثر صفات الله تعالى مخلوقة . والمُلتزِقة — جعلوا البارى سبحانه فى كل مكان . والوَارِديّة — قالوا لا يدخل النار من عرف ربه ، ومن دخلها لم يخرج منها أبدا . والزَنَادِقة (٢) — قالوا : ليس لأحد أن يثبت لنفسه ربا ؛ لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس ، وما لا يُدرك لا يثبت . والحَرْقِيّة — زعموا أن الكافر تحرقه النار مرّة واحدة ثم يبقى محترقا أبدا لا يجد حرّ النار . والمخلُوقية — زعموا أن القرآن مخلوق . والفانية — زعموا أن الجنة والنار يفنيان ، ومنهم من قال لم يُخلقا . والعبدِية (٣) — جحدوا الرسل وقالوا إنما هم حكماء . والواقفية — قالوا : لا نقول إن القرآن مخلوق ولا غير مخلوق . والقَبْرية — ينكرون عذاب القبر والشفاعة . واللفْظية — قالوا : لفظنا بالقرآن مخلوق .

وانقسمت المرجئة ٱثنتى عشرة فرقة : التَارِكيّة — قالوا ليس لله عز وجل على خلقه فريضة سوى الإيمان به ، فمن آمن به فليفعل ما شاء . والسّائبِيّة — قالوا : إن الله تعالى سيب خلقه ليفعلوا ما شاءوا . والراجِيَة — قالوا : لا يُسمّى الطائع طائعا ولا العاصى عاصيا ، لأنّا لا ندرى ما لَه عند الله تعالى . والسّالِبيّة (٤) — قالوا : الطاعة ليست من الإيمان . والبهيشية (٥) — قالوا : الإيمان عِلْمٌ ومن لا يعلم الحق من الباطل والحلال من الحرام فهو كافر . والعَمَلِيّة — قالوا : الإيمان عَمَلٌ . والمَنْقُوصِيّة — قالوا : الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمُسْتَثْنِية — قالوا : الٱستثناء من الإيمان . والمشبِّهة — قالوا : بَصَرٌ كبصر ويَدٌ كيد (٦) . والحشوية — قالوا (٧) : حكم الأحاديث كلها واحد ؛ فعندهم أن تارك النفل كتارك الفرض . والظاهِرية — الذين نفوا القياس . والبِدْعية — أوّل من ابتدع هذه الأحداث فى هذه الأمة .

(١) فى ا : ليس بكافر . (٢) فى ب ، و ، د : « الزيارقة » . (٣) فى ب ، د ، و : « العبرية » .
(٤) فى د : الشاكية . (٥) فى ب ، و ، ز : « البيهسية » وفى د : « البيسمية » .
(٦) كذا فى الأصول ، وفيه سقط واضح لعله : قالوا لله بصر . (٧) فى ب : جعلوا .

وانقسمت الرافضة اثنتى عشرة فرقة : العلوية — قالوا : إن الرسالة كانت إلى علىّ وإن جبريل أخطأ . والأمرية — قالوا : إن عليًّا شريك محمد فى أمره . والشّيعة — قالوا : إن عليًّا رضى الله عنه وصىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ووليّه من بعده، وإن الأمة كفرت بمبايعة غيره . والإسحاقية — قالوا : إن النبوّة متصلة إلى يوم القيامة، وكلّ من يعلم علم أهل البيت فهو نبىّ . والناوُوسيّة — قالوا : علىّ أفضل الأمة، فمن فضّل غيره عليه فقد كفر . والإمامية — قالوا : لا يمكن أن تكون الدنيا بغير إمام من ولد الحسين ، وإن الإمام يعلّمه جبريل عليه السلام ، فإذا مات بدّل غيره مكانه . والزيدية — قالوا : ولد الحسين كلهم أئمة فى الصلوات ، فتى وُجد منهم أحد لم تجز الصلاةُ خلف غيرهم، برّهم وفاجرهم . والعباسية — زعموا أن العباس كان أولى بالخلافة من غيره . والتناسخية — قالوا : الأرواح تتناسخ ؛ فمن كان مُحسنًا خرجت روحه فدخلت فى خلق يسعد بعيشه . والرّجعية — زعموا أن عليًّا وأصحابه يرجعون إلى الدنيا، وينتقمون من أعدائهم . واللّاعِنة[(١)] — يلعنون عثمان وطلحة والزبير ومعاوية وأبا موسى وعائشةَ وغيرَهم . والمتربّصة — تشبهوا بزىّ النُّساك ونصبوا فى كل عصر رجلا ينسُبون إليه الأمر، يزعمون أنه مَهدِىُّ هذه الأمة، فإذا مات نصبوا آخر .

ثم انقسمت الجَبْرية اثنتى عشرة فرقة : فمنهم المضطرية[(٢)] — قالوا : لا فعل للآدمىّ، بل الله يفعل الكل . والأفعالية — قالوا: لنا أفعال ولكن لا استطاعة لنا فيها، وإنما نحن كالبهائم نقاد بالحبل . والمفروغية — قالوا : كل الأشياء قد خُلقت، والآن لا يُخلق شىء . والنجارية — زعمت أن الله تعالى يعذّب الناس على فعله لا على فعلهم . والمنّانِيّة — قالوا: عليك بما يخطر بقلبك ، فافعل ما توسّمت منه الخير . والكَسْبية — قالوا : لايكتسب العبد ثوابا ولاعقابا . والسّابقية — قالوا : من شاء فليعمل ومن شاء [ف]لا يعمل[(٣)]، فإن السعيد لا تضرّه ذنوبه والشّقى لا ينفعه برّه . والحِبِّية — قالوا : من شرب كأس محبة الله تعالى سقطت عنه عبادة الأركان . والخوفية — قالوا : من أحبّ الله تعالى لم يسعه أن يخافه ؛ لأن الحبيب لايخاف حبيبه . والفكرية[(٤)] — قالوا : من ازداد علما أسقط عنه بقدر ذلك من العبادة .

(١) فى د : اللاعنية . (٢) كذا فى ب ، وفى الأصول الأخرى المضطربة . (٣) كذا فى د ، وفى غيرها من الأصول : من شاء فليفعل ومن شاء لم يفعل . (٤) فى ب ، ه ، د ، و ، وفى ز ، حـ ، أ : الفركية ، وفى جـ : النكرية . وفى د : أسقط . وفى سائر الأصول سقط .

والحشبية[1] — قالوا : الدنيا بين العباد سواء ، لا تفاضُل بينهم فيما ورّثهم أبوهم آدم . والمنيه[2] — قالوا : منا الفعل ولنا الاستطاعة . وسيأتى بيان الفرقة التى زادت فى هذه الأمة فى آخر سورة «الأنعام»[3] إن شاء الله تعالى . وقال ابن عباس لسماك الحنفى : يا حنفى ، الجماعةَ الجماعةَ ! ! فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها ؛ أما سمعت الله عز وجل يقول : «وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرضى لكم ثلاثا و يكره لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا[4] و يكره لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال و إضاعة المال » . فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه والرجوع إليهما عند الاختلاف ، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادا وعملا ؛ وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذى يتم به مصالح الدنيا والدين ، والسلامة من الاختلاف ، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذى حصل لأهل الكتابين . هذا معنى الآية على التمام ، وفيها دليل على صحة الإجماع حسبما هو مذكور فى موضعه من أصول الفقه والله أعلم.

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ . أمر تعالى بتذكر نعمه وأعظمها الإسلام واتباع نبيه محمد عليه السلام ؛ فإن به زالت العداوة والفرقة وكانت المحبة والألفة . والمراد الأوس والخزرج ؛ والآية تعم . ومعنى « فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » أى صرتم بنعمة الإسلام إخوانا فى الدين . وكل ما فى القرآن « أصبحتم » معناه صرتم ؛ كقوله تعالى : « إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا[5] » أى صار غائرا . والإخوان جمع أخ ، وسُمّى أخا لأنه يتوخى مذهبَ أخيه ، أى يقصده . وشفا كلّ شيء حرفُه ، وكذلك شفيره ومنه قوله تعالى: « على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ[6] » . قال الراجز :

نحن حفرنا للحجيج سَجْلَهْ[7] * نابتة فوق شِفاها بَقْـلَهْ

(١) فى ج و ز : «الحشية» بالحاء المهملة ، وفى ب الخشبية . وفى ا : « الحيشية » بالياء المثناة من تحت والشين . وفى د : الحسبية . (٢) فى ب و هـ و د و ز : «المعية» بالعين. (٣) راجع : ج٧ ص١٤١
(٤) سقط من النسخ . « وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم » . (٥) راجع جـ ١٨ ص ٢٢٢
(٦) راجع جـ ٨ ص ٢٦٤ (٧) السجلة : الدلو الضخمة المملوءة ماء . والمراد هنا البئر .

وأشفى على الشيء أشرف عليه ؛ ومنه أشفى المريض على الموت . وما بقى منه إلا شَفًا أى قليل . قال ابن السكيت : يقال للرجل عند موته وللقمر عند امّحاقه وللشمس عند غروبها : ما بقى منه إلا شفًا أى قليل . قال العجاج :

ومَرْبَإٍ عالٍ لمن تشرّفا * أشرفتُه بلا شفًى أو بشَفَى

قوله « بلا شفى » أى غابت الشمس . «أو بشفى» وقد بقيت منها بقيّة . وهو من ذوات الياء، وفيه لغة أنه من الواو . وقال النحاس : الأصل فى شفا شَفَو، ولهذا يكتب بالألف ولا يمال . وقال الأخفش : لمّا لم تجُز فيه الإمالة عُرِف أنه من الواو ؛ ولأن الإمالة بين الياء، وتثنيته شفوان . قال المَهْدِوىّ : وهذا تمثيل يراد به خروجُهم من الكفر إلى الإيمان.

قوله تعالى : وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾

قد مضى القولُ فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى هذه السورة (١) . و «مِن» فى قوله « مِنكم » للتبعيض ، ومعناه أن الآمِرِين يجب أن يكونوا علماء وليس كل الناس علماء . وقيل : لبيان الجنس ، والمعنى لتكونوا كلكم كذلك .

قلت : القول الأول أصح؛ فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على الكفاية، وقد عيّنهم الله تعالى بقوله : «الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ (٢)» الآية . وليس كل الناس مُكِّنُوا . وقرأ ابن الزبير : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَسْتَعِينُونَ اللهَ على ما أصابهم» . قال أبو بكر الأنبارى : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير، وكلام من كلامه غَلِط فيه بعض الناقلين (٣) فألحقه بألفاظ القرآن؛ يدلّ على صحة ما أصِفُ الحديثُ الذى حدّثنيه أبى حدّثنا [حسن (٤)] بن عرفة حدّثنا وكيع عن أبى عاصم عن أبى عون (٤) عن صبيح قال : سمعت عثمان بن عفّان يقرأ « ويأمرون بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عن المنكرِ ويستعينون الله على ما أصابهم » فما يشكّ عاقل فى أن عثمان لا يعتقد (٥)

(١) راجع ص ٤٦	(٢) راجع جـ ١٢ ص ٧٢	(٣) فى هـ : الناقلين .
(٤) فى ب ، د ، هـ وفيها : أبى عوف .	(٥) فى ب ، د ، هـ : لا يعتد .

هــذه الزيادة من القرآن؛ إذ لم يكتبها فى مصحفه الذى هو إمام المســلمين ، و إنمــا ذكرها واعظا بها ومؤكِّدا ما تقدمها من كلام رب العالمين جل وعلا .

قوله تعــالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٠٥)

يعنى اليهود والنصارى فى قول جمهور المفسرين . وقال بعضهم : هم المبتدعة من هــذه الأمة . وقال أبوأمامة : هم الحَرُورِيّة؛ وتلا الآية . وقال جابر بن عبد الله : ﴿الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ اليهود والنصارى . « جاءهم » مذكر على الجمع ، وجاءتهم على الجماعة .

قوله تعــالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (١٠٦) ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٠٧)

فيه ثلاث مسائل :

الأولى ــ قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ يعنى يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم تكون وجوهُ المؤمنين مبيضّة ووجُوه الكافرين مسْوَدّة . ويقال : إن ذلك عنــد قراءة الكتاب، إذا قرأ المؤمن كتابه فرأى فى كتابه حسناته آستبشر وآبيَضّ وجهُه، و إذا قرأ الكافر والمنافق كتابه فرأى فيه سيئاته آسودّ وجهه . ويقال : إن ذلك عند الميزان إذا رجحت حسناته آبيضّ وجهه، و إذا رجحت سيئاته آسودّ وجهه . و يقال : ذلك عند قوله تعالى : «وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ»(١) . ويقال : إذا كان يوم القيامة يُؤمر كل فريق بأن يجتمع إلى معبوده، فإذا آنتهوا إليه حزِنوا وآسودّت وجوههم، فيبقى المؤمنون وأهل الكتاب والمنافقون؛ فيقول الله تعالى للؤمنين : « من ربكم » ؟ فيقولون : ربنا الله عز وجل . فيقول لهم : « أتعرفونه إذا رأيتموه » . فيقولون : سبحانه ! إذا آعترف عرفناه . فيرونه(٢) كما شاء الله .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٤٦ (٢) هذه عبارة آبن الأثير ، أى إذا وصف نفسه بصفة تحققه بها عرفناه فى ب : إذا عرّفناه عرفناه، وفى هـ : إذا عرفناه عرفنا . وفى د : إذا رأيناه عرفناه .

فيخر المؤمنون سُجَّدا لله تعالى ، فتصير وجوههم مثل الثلج بياضا ، ويبقى المنافقون وأهل الكتاب لا يقدرون على السجود فيحزنوا وتسودّ وجوههم؛ وذلك قوله تعالى : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » . ويجوز « تِبْيَضّ وتِسْوَدّ » بكسر التائين؛ لأنك تقول : ٱبيضت، فتكسر التاء كما تكسر الألف ، وهي لغة تميم وبها قرأ يحيى بن وثاب . وقرأ الزهريّ « يوم تبياض وتسوادّ » ويجوز كسر التاء أيضا ، ويجوز « يوم يبيض وجوه » بالياء على تذكير الجمع، ويجوز « أجوه » مثل « أقتت » . وٱبيِضَاض الوجوه إشراقها بالنّعيم . وٱسْوِدادها هو ما يرهقها من العذاب الأليم .

الثانيــه — وٱختلفوا في التعيين؛ فقال ٱبن عباس : تبيضّ وجُوه أهلِ السنّة وتسودّ وجوه أهل البِدعة .

قلت : وقول ٱبن عباس هذا رواه مالك بن سليمان الهرويّ أخو غسّان عن مالك بن أنس عن نافع عن ٱبن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قول الله تعالى « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» قال: "يعني تبيض وجوه أهل السنة وتسودّ وجوه أهل البدعة" ذكره أبو بكر[(1)] أحمد بن على بن ثابت الخطيب . وقال فيــه : منكر من حديث مالك . قال عطاء : تبيض وجوه المهاجرين والأنصار، وتسودّ وجوه بني قريظة والنضير . وقال أبيّ بن كعب : الذين ٱسودّت وجوههم هم الكفارُ، وقيل لهم : أكفرتم بعد إيمانكم لإقراركم حين أُخْرِجتم من ظهر آدم كالذّرّ . هذا ٱختيار الطبري . الحسن : الآية في المنافقين . قتادة هي في المرتدّين . عِكرمة[(2)] : هم قوم من أهل الكتاب كانوا مصدِّقين بأنبيائهم مصدقين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بُعث عليه السلام كفروا به ؛ فذلك قوله : « أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ » . وهو ٱختيار الزجاج . مالك بن أنس : هي في أهل الأهواء . أبو أمامة الباهليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : هي في الحرورية . وفي خبر آخر أنه عليه السلام قال : «هي في القدرية» . روى الترمذيّ عن أبي غالب قال : رأى أبو أمامة رءوسا منصوبة على باب دمشق[(3)]، فقال

(1) كذا في د ب ه وفي ز : أبو بكر محمد . (2) في ه و د : هؤلاء قوم .

(3) في صحيح الترمذي : « على درج مسجد دمشق » ، في د و ه : على برج دمشق .

أبو أُمَامة : كلابُ النـار شرُّ قتلى تحت أَدِيم السماء ، خيرُ قتلى من قتلوه — ثم قرأ — « يَوْمَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ » إلى آخر الآية . قلت لأبى أمامة : أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لو لم أسمعه من رسول الله صلى الله عليـه وسلم إلا مرة أو مرتين أو ثلاثا — حتى عدّ سبعا — ماحدثتكوه . قال : هذا حديث حسن . وفى صحيح البخارى عن سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى فرطكم[1] على الحوض من مرّ علىّ شرب ومن شرِب لم يظمأ أبدا لَيرِدنّ علىّ أقوام أعرِفهم و يعرِفونى ثم يحال بينى و بينهم". قال أبو حازم[2] : فسمعنى النُّعمان بن أبى عياش فقال : أهكذا سمعتَ من سهل بن سعد؟ فقلت نعم . فقال : أشهد على أبى سعيدٍ الخدرِىّ لسمعته وهو يزيد فيها : " فأقول إنهم منّى فيقال إنك لا تدرى ما أحدثوا بعدك فأقول سحقا سحقا لمن غيّر بعدى" . وعن أبى هريرة أنه كان يحدّث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " يرِد على الحوضَ يوم القيامة رهْطٌ من أصحابى فيُجْلَون عن الحَوْض فأقول يا ربِّ أصحابى فيقول إنك لا علم لك بما أحدثوا بعـدك إنهـم ٱرتدّوا على أدبارهم القهقرى " . والأحاديث فى هـذا المعنى كثيرة . فمن بدّل أو غيّر أو ٱبتدَعَ فى دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذَنْ به الله فهو من المطْرُودين عن الحوض المبْتَعِدين منـه المسودّى الوُجُوه ، وأشدّهم طردا و إبعادا من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم ؛ كالخوارج على ٱختلاف فِرَقها ، والروافِض على تَبايُن ضلالها ، والمعتزلة على أصناف أهوائها ؛ فهؤلاء كلهم مبـدِّلون ومبتدِعون ، وكذلك الظلمة المسرفون فى الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله و إذلالهم ، والمعلنون بالكبائر المستخِفُّون بالمعاصى ، و جماعة أهل الزَّيْغ والأهْواء والبِـدَع ؛ كلٌّ يُخاف عليهم أن يكونوا عُنُوا بالآية ، والخبر كما بيّنا ، ولا يُخلَّد فى النـار إلا كافر جاحِدٌ ليس فى قلبـه مثقالُ حبّةِ خرْدلٍ من إيمان . وقد قال ٱبن القاسم : وقد يكون من غير أهل الأهْواء من هو شرٌّ من أهل الأهواء . وكان يقول : تمـام الإخلاص تجنّب المعاصى .

(١) الفرط (بفتحتين) : الذى يتقدم الواردين ليصلح لهم الحياض .

(٢) أبو حازم هو سلمة بن دينار، أحد رجال سند هذا الحديث .

الثالثة ــ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ فى الكلام حذف ، أى فيقال لهم ﴿ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ يعنى يوم الميثاق حين قالوا بلى . ويقال : هذا لليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث فلما بعث كفروا به . وقال أبو العالية : هذا للمنافقين، يقال(١) : أكفرتم فى السر بعد(٢) إقراركم فى العلانية . وأجمع أهل العربية على أنه لا بدّ من الفاء فى جواب « أما » لأن المعنى فى قولك : « أما زيد فمنطلق، مهما يكن من شىء فزيد منطلق » . وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ هؤلاء أهل طاعة الله عز وجل والوفاء بعهده . ﴿ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى فى جنته ودار كرامته خالدون باقون . جعلنا الله منهم وجنّبنا طرق البِدَع والضّلالات ، ووفقنا لطريق الذين آمنوا وعملوا الصالحات . آمين .

قوله تعالى : تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ ﴾ ابتداء وخبر، يعنى القرآن . ﴿ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ ﴾ يعنى ننزل عليك جبريل فيقرؤها عليك . ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى بالصدق . وقال الزجاج : « تلك آيات الله » المذكورة حُجَجُ الله ودلائله . وقيل : « تلك » بمعنى هذه ولكنها لما انقضت صارت كأنها بَعُدَتْ فقيل « تلك » ويجوز أن تكون « آيات الله » بدلا من « تلك » ولا تكون نعتا ؛ لأن المبهم لا ينعت بالمضاف . ﴿ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يعنى أنه لا يعذبهم بغير ذنب . ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ قال المهدوى : وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين وأنه لا يريد ظلما للعالمين، وصله بذكر اتّساع قدرته وغناه عن الظلم لكون ما فى السموات وما فى الأرض [فى قبضته ، وقيل : هو ابتداء كلام، بيّن لعباده أن جميع ما فى السموات وما فى الأرض](٣) له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره .

---

(١) فى د و ب و ه : يقول . (٢) فى د و ه و ب : مع . (٣) الزيادة من نسخ : د .

قوله تعالى : كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — روى الترمذي عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جدّه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في قوله تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال: "أنتم تُتِمّون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها عند الله» . وقال : هـذا حديث حسن . وقال أبو هريرة : نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام . وقال ابن عباس : هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وشهدوا بَدْرا والحُدَيبِيَة . وقال عمر بن الخطاب : من فعل فعلهم كان مثلهم . وقيل : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، يعني الصالحين منهم وأهل الفضل . وهم الشهداء على الناس يوم القيامة؛ كما تقدّم في البقرة[1] . وقال مجاهد : «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» على الشرائط المذكورة في الآية . وقيـل : معناه [كُنتم][2] في اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم مُذ آمنتم خيرَ أمّة . وقيل: جاء ذلك لتقدّم البشارة بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمّته. فالمعنى كنتم عند من تقدّمكم من أهـل الكتب خيرَ أمة . وقال الأخفش : يريد أهل أمّـة ، أي خير أهل دين ؛ وأنشد :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبـةً وهل يأثَمَنْ ذو أُمَّـةٍ وهو طائعُ[3]

وقيل : هي كان التامّة ، والمعنى خُلِقتم ووُجِدتم خيرَ أمّة . « نخيرَ أمّة » حال . وقيل : كان زائدة ، والمعنى أنتم خير أمّة . وأنشد سيبويه :

* وجيرانٍ لنـا كانوا كِرامِ[4] *

---

(١) راجع جـ ٢ ص ١٥٤ (٢) الزيادة في د و ب . (٣) البيت للنابغة الذبياني . أمة بالضم والكسر : ذو أمة : ذو دين واستقامة ، والأمة : النعمة . (٤) هذا عجز بيت للفرزدق . وصدره :

* فكيف إذا رأيت ديار قوم *

ومثله قوله تعالى : « كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا »[1] . وقوله : « وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ »[2] . وقال فى موضع آخر : « وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ »[2] . وروى سفيان عن مَيْسَرة الأشجعى عن أبى حازم عن أبى هريرة « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» قال : تجرّون الناس بالسلاسل إلى الإسلام. قال النحاس: والتقدير على هذا كنتم للناس خير أمة. وعلى قول مجاهد : كنتم خيرَ أمة إذ كنتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر. وقيل : إنما صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة لأن المسلمين منهم أكثر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيهم أفشى . فقيل : هذا لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : "خير الناس قرنى" أى الذين بعثت فيهم .

الثانيـة — وإذا ثبت بنص التنزيل أن هذه الأمة خير الأمم؛ فقد روى الأئمة من حديث عِمران بن حصين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم". [الحديث][3] وهذا يدل على أن أول هذه الأمة أفضل ممن بعدهم، وإلى هذا ذهب معظم العلماء ، وأن من صحب النبى صلى الله عليه وسلم ورآه ولو مرة فى عمره أفضل ممن[3] يأتى بعده ، وأن فضيلة الصحبة لا يعدلها عمل .

وذهب أبو عمر بن عبد البر إلى أنه قد يكون فيمن يأتى بعد الصحابة أفضل ممن كان فى جملة الصحابة ، وأن قوله عليه السلام : "خير الناس قرنى" ليس على عمومه بدليل ما يجمع القرن من الفاضل والمفضول . وقد جمع قرنه جماعة من المنافقين المظهرين للإيمان وأهل الكبائر الذين أقام عليهم أو على بعضهم الحدود ، وقال لهم : ما تقولون فى السارق والشارب والزانى . وقال مُواجهةً لمن هو فى قرنه : "لا تسبوا أصحابى" . وقال لخالد ابن الوليد فى عمّار : "لا تسب من هو خير منك" وروى أبو أُمامة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "طوبى لمن رآنى وآمن بى وطوبى سبع مرات لمن لم يرنى وآمن بى". وفى مسند أبى داود الطيالسى عن محمد بن أبى حميد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر قال : كنت جالسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "أتدرون أى الخلق أفضل إيمانا" قلنا

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠١ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٤٩ ، وص ٢٩٤

(٣) الزيادة من هـ و د و ب . فى د و ب : من كل من يأتى .

الملائكة . قال : " وحق لهم بل غيرهم " قلنا الأنبياء . قال : " وحق لهم بل غيرهم " ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أفضل الخلق إيمانا قوم فى أصلاب الرجال يؤمنون بى ولم يرونى يجدون ورقا فيعملون بما فيها فهم أفضل الخلق إيمانا " . وروى صالح بن جبير عن أبى جُمُعَة قال : قلنا يا رسول الله ، هل أحد خير منا ؟ قال : " نعم قوم يجيئون من بعدكم فيجدون كتابا بين لوحين فيؤمنون بما فيه ويؤمنون بى ولم يرونى " . وقال أبو عمر : وأبو جمعة له صحبة واسمه حَبيب بن سِبَاع، وصالح بن جبير من ثِقَات التابعين . وروى أبو ثعلبة الخشنِي عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن أمامكم أياما الصّابر فيها على دينه كالقابض على الجمْر للعامل فيها أجر خمسين رجلا يعمل مثل عمله " قيل : يا رسول الله ، منهم ؟ قال : " بل منكم " . قال أبو عمر : وهذه اللفظة « بل منكم » قد سكت عنها بعض المحدّثين فلم يذكرها . وقال عمر بن الخطاب فى تأويل قوله : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ" قال : من فعل مثل فعلِكم كان مثلكم . ولا تعارض بين الأحاديث؛ لأن الأوّل على الخصوص ، والله الموفّق .

وقد قيل فى توجيه أحاديث هذا الباب : إن قرنه إنما فُضِّل لأنهم كانوا غُرَبَاء فى إيمانهم لكثرة الكفار وصبرِهم على أذاهم وتمسكهم بدينهم ، وإن أواخر هذه الأمّة إذا أقاموا الدِّين وتمسّكوا به وصبروا على طاعة ربهم فى حين ظهور الشر والفسق والهَرَج والمعاصى والكبائر كانوا عند ذلك أيضا غُرَباء، وزكت أعمالهم فى ذلك الوقت كما زكَتْ أعمال أوائلهم، و[مما][1] يشهد لهذا قوله عليه السلام: " بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء " . ويشهد له أيضا حديث أبى ثعلبة ، ويشهد له أيضا قوله صلى الله عليه وسلم : " أمّتى كالمطر لا يُدْرَى أوّلُه خيرٌ أم آخره " . ذكره أبو داود الطيالِسِىّ وأبو عيسى الترمذى، ورواه هشام بن عبيد الله الرازى عن مالكٍ عن الزهرِى عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "مثل أمتى مثل المطرِ لا يُدْرَى أوّله خيرٌ أم آخره " . ذكره الدارقطنى فى مسند حديث مالك . قال أبو عمر : هشام بن عبيد الله ثقةٌ لا يختلفون فى ذلك . وروى أن عمر ابن عبدالعزيز لما ولى الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله أن اكتب إلىّ بسيرة عمر بن الخطاب

---

(١) فى د و ب و ه .

لأعمل بها؛ فكتب إليه سالم : إن عملت بسيرة عمر؛ فأنت أفضل من عمر لأن زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر . قال : وكتب إلى فقهاء زمانه ، فكلّهم كتب إليه بمثل قول سالم . وقد عارض بعض الجلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم : "خير الناس قرني" بقوله صلى الله عليه وسلم : "خير الناس من طال عمره وحَسُن عملُه وشرُّ الناس من طال عمره وساء عمله" . قال أبو عمر : فهذه الأحاديث تقتضى مع تَوَاتُر طرقها وحسنها التسويةَ بين أوّلِ هذه الأمّة وآخرِها . والمعنى فى ذلك ما تقدّم ذكره من الإيمان والعمل الصالح فى الزمان الفاسد الذى يرفع فيه من أهل العلم والدين ، ويكثر فيه الفسق والهرَج ، ويُذَلّ المؤمنُ ويُعَزُّ الفاجر ويعود الدين غَرِيبا كما بدا غَرِيبا ويكون القائمُ فيه كالقابض على الجمر ، فيستوى حينئذ أوّل هذه الأمّة بآخرها فى فضل العمل إلا أهل بدْر والحُديبية ، ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصّواب[1] ، والله يؤتى فضله من يشاء .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ مدح لهذه الأمّة ما أقاموا ذلك واتصفوا به . فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذّمّ ، وكان ذلك سببا لهلاكهم . وقد تقدّم الكلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى أوّل السورة[2] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ أخبر أن إيمان أهل الكتاب بالنبىّ صلى الله عليه وسلم خيرٌ لهم ، وأخبر أن منهم مؤمنا وفاسقا ، وأن الفاسق أكثر .

قوله تعالى : لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾

قوله تعالى : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ يعنى كذبهم وتحريفهم وبُهْتهم؛ لا أنه تكون لهم الغَلَبة ؛ عن الحسن وقتادة . فالاستثناء متّصل ، والمعنى لن يضروكم إلا ضرا يسيرا ؛ فوقع الأذى موقع المصدر . فالآية وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، أن أهل الكتاب لا يغلبونهم وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام[3] إلا إيذاء بالبهت

(١) فى د و ب : الكتاب . (٢) راجع ص ٤٦ من هذا الجزء . (٣) الاصطلام : الاستئصال .

والتحريف ، وأما العاقبة فتكون للؤمنين . وقيل : هو منقطع ، والمعنى لن يضروكم ألبتّة، لكن يؤذونكم بما يُسمّعونكم . قال مقاتل : إنّ رءوس اليهود : كعب وعدىّ والنعمان وأبو رافع وأبو ياسر وكنانة وآبن صوريا عمدوا إلى مؤمنيهم : عبد الله بن سلام وأصحابه فآذوهم لإسلامهم؛ فأنزل الله تعالى : « لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى » يعنى باللسان، وتمّ الكلام . ثم قال : ﴿ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ يعنى منهزمين ، وتم الكلام . ﴿ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴾ مستأنف ؛ فلذلك ثبتت فيه النون . وفى هذه الآية معجزة للنبىّ عليه السلام؛ لأن من قاتله من اليهود ولاه دبره .

قوله تعالى : ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ ﴾ يعنى اليهود . ﴿ أَيْنَمَا ثُقِفُوا ﴾ أى وُجدوا ولُقُوا ، وتمّ الكلام . وقد مضى فى البقرة معنى ضربِ الذلّة عليهم[(١)] . ﴿ إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ ﴾ آستثناء منقطع ليس من الأوّل . أى لكنهم يعتصمون بحبل من الله . ﴿ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ يعنى الذّمّة التى لهم . والناس : محمد والمؤمنون يؤدّون إليهم الخراج فيؤمّنونهم . وفى الكلام

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٠

آختصار، والمعنى : إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، لحذف ؛ قاله الفراء . ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ﴾ أى رجعوا (١) وقيل آحتملوا . وأصله فى اللغة أنه لزمهم ، وقد مضى فى البقرة . ثم أخبر لم فعل ذلك بهم؛ فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٢) وقد مضى فى البقرة مستوفى . ثم أخبر فقال : ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ وتم الكلام . والمعنى: ليس أهل الكتاب وأمة محمد صلى الله عليه وسلم سواء ؛ عن آبن مسعود . وقيل : المعنى ليس المؤمنون والكافرون من أهل الكتاب سواء . وذكر أبو خَيْثَمة زُهَيْر بن حَرْب حدّثنا هاشم بن القاسم حدّثنا شيبان عن عاصم عن زر عن آبن مسعود قال : أخّر رسول الله صلى الله عليه وسلم [ليلة] (٣) صلاة العشاء ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: "إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله تعالى فى هذه الساعة غيركم" قال : وأنزلت هذه الآية « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ — إلى قوله : وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ » وروى آبن وهب مثله . وقال آبن عباس : قول الله عز وجل «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ » من آمن مع النبيّ صلى الله عليه وسلم . وقال آبن إسحاق عن آبن عباس لما أسلم عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سَعْيَة (٤)، وأَسِيد (٥) بن سعية، وأسيد بن عبيد، ومن أسلم من يهود؛ فآمنوا وصدّقوا ورغبوا فى الإسلام ورسخوا (٦) فيه، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد ولا تبعه إلا شرارنا، ولو كانوا من خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ؛ فأنزل الله عز وجل فى ذلك من قولهم : « لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . إلى قوله : وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ » . وقال الأخفش : التقدير من أهل الكتاب ذو أمة ، أى ذو طريقة حسنة . وأنشد :

* وهل يَأْثَمَنْ ذُو إِمَّةٍ وهْوَ طَائِعُ *

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٠ وص ٤٣٠ (٢) راجع جـ ١ ص ٤٣١ (٣) الزيادة فى د .
(٤) سعية : بالسين والعين المهملتين وياء باثنتين . (٥) فى الأستيعاب فى ترجمة أسيد هذا : «رواه يونس ابن بكير عن آبن إسحاق (أسِيد) بفتح الهمزة وكسر السين ، وكذلك قال الواقدى . وفى رواية إبراهيم آبن سعد عن آبن إسحاق (أُسيد) بالضم . والفتح عندهم أصح » . (٦) فى د و ب : نجوا فيه .

وقيـل : فى الكلام حذف ؛ والتقدير من أهـل الكتاب أمّة قائمة وأخرى غير قائمة، فترك الأخرى ٱكتفاء بالأولى ؛ كقول أبى ذؤيب :

عصانِى إليها القلبُ إنّى لأمرِهِ[(١)] * مُطيعٌ فما أدرِى أرُشْدٌ طِلابُها

أراد : أرُشْد أم غَيٌّ، فحذف . قال الفرّاء : «أمّة» رفع بـ«سواء»، والتقدير: ليس يستوى أمّة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمّة كافرة. قال النحاس : هذا قول خطأ من جهات : إحداها أنه يرفع « أمّة » بـ«سواء» فلا يعود على ٱسم ليس بشىء، ويرفع بما ليس جاريا على الفعل ويضمر ما لا يحتاج إليه؛ لأنه قد تقدّم ذكر الكافر فليس لإضمار هـذا وجه . وقال أبو عبيدة : هذا مثل قولهم : أكلونى البراغيثُ ، وذهبوا أصحابُك . قال النحاس : وهـذا غلط؛لأنه قد تقدّم ذكرهم،وأكلونى البراغيث لم يتقدّم لهم ذكر . و﴿ آنَاءَ اللَّيْلِ ﴾ ساعاته. واحدها إِنًى وأَنًى وإِنْىٌ، وهو منصوب على الظرف . و﴿ يَسْجُدُونَ ﴾ يصلون ؛ عن الفراء والزجاج ؛ لأن التـلاوة لا تكون فى الركوع والسّجود . نظيره قوله : « وَلَهُ يَسْجُدُونَ[(٢)] » أى يصلون. وفى الفرقان: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ[(٣)]» وفى النجم «فَٱسْجُدُوا لِلهِ وَٱعْبُدُوا[(٤)]». وقيل : يراد به السجود المعـروف خاصة . وسبب النزول يردّه ، وأن المراد صـلاة العتمة كما ذكرنا عن ٱبن مسعود؛فعبدة الأوثان ناموا حيث جنّ عليهم الليل، والموحّدون قيام بين يدى الله تعالى فى صلاة العشاء يتلون آيات الله؛ألا ترى لمـا ذكر قيامهم قال«وَهُمْ يَسْجُدُونَ» أى مع القيام أيضا . الثورى : هى الصـلاة بين العشاءين . وقيل : هى فى قيام الليـل . وعن رجل من بنى شيبة كان يدرس الكتب قال: إنّا نجد كلاما من كلام الرب عز وجل : أيحسب راعى إبل أو راعى غنم إذا جنه الليل ٱنخذل[(٥)] كمن هو قائم وساجد آناء الليل.﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ يعنى يقرون بالله ويصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ قيل: هو عموم . وقيل: يراد به الأمر بٱتباع النبىّ صلى الله عليه وسلم.﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾والنهى عن المنكر النهى عن مخالفتـه . ﴿ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ التى يعملونهـا مبادرين غير متثاقلين

---

(١) فى الأصول : * عصيت إليها القلب إنى لأمرها *
والتصويب عن ديوان أبى ذؤيب . يقول : عصانى القلب وذهب إليها فأنا أتبع ما يأمرنى به .

(٢) راجع جـ٧ص٣٥٦ (٣) راجع جـ١٣ص٦٤ (٤) راجع جـ١٧ص١٢١ (٥) ٱنخذل :ٱنفرد .

لمعرفتهم بقدر ثوابهم . وقيل : يبادرون[1] بالعمل قبل الفوت . ﴿ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أى مع الصالحين ، وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فى الجنة . ﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴾ قرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة والكسائى وحفص وخلف بالياء فيهما؛ إخبارا عن الأمة القائمة ، وهى قراءة ابن عباس واختيار أبى عبيد . وقرأ الباقون بالتاء فيهما على الخطاب؛ لقوله تعالى : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » . وهى اختيار أبى حاتم، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعا الياء والتاء . ومعنى الآية : وما تفعلوا من خير فلن تُجحدوا ثوابه بل يُشكَر لكم وتُجازون عليه .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ اسم إن، والخبر ﴿ لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ . قال مقاتل : لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم وهو قوله « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا » . وقال الكلبي : جعل هذا ابتداء فقال : إن الذين كفروا لن تغنى عنهم كثرة أموالهم ولا كثرة أولادهم من عذاب الله شيئا . وخص الأولاد لأنهم أقرب أنسابهم إليهم . ﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ابتداء وخبر، وكذا و﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ . وقد تقدم جميع هذا .

قوله تعالى : مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ ﴾ «ما» تصلح أن تكون مصدرية، وتصلح أن تكون بمعنى الذى والعائد محذوف، أى مثل ما ينفقونه . ومعنى « كَمَثَلِ رِيحٍ » كمثل مهب[2] ريح. قال ابن عباس : والصِّرّ البرد الشديد. قيل: أصله من الصرير

(١) فى ب : مبادرين .	(٢) فى ب و د و ه : مهلك ريح .

الذى هو الصوت ، فهــو صوت الريح الشديدة . الزجاج : هو صوت لهب النار التى كانت فى تلك الريح . وقد تقدّم هذا المعنى فى البقرة(١) . وفى الحديث : إنه نهى عن الجراد الذى قتله الصِّر(٢) . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع أصابه ريح باردة أو نار فأحرقته وأهلكته، فلم ينتفع أصحابه بشىء بعد ما كانوا يرجون فائدته(٣) ونفعه. قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ بذلك ﴿ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بالكفر والمعصية ومنع حق الله تعالى . وقيل : ظلموا أنفسهـم بأن زرعوا فى غير وقت الزراعة أو فى غير موضعها فأدّبهم الله تعالى ؛ لوضعهم الشىء فى غير موضعه ؛ حكاه المَهْدَوِىّ .

قوله تعـالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — أكّد الله تعالى الزَّجْر عن الرُّكون إلى الكفار . وهو متصل بما سبق من قوله : « إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ » . والبِطَانَةُ مصدر، يُسَمّى به الواحد والجمع . وبِطَانَةُ الرجل خاصّتُه الذين يستبطنون أمره ، وأصله من البَطْن الذى هو خلاف الظَّهْر . وبَطَن فلان بفلان يبْطُن بُطونا وبِطَانَةً إذا كان خاصّا به . قال الشاعر :

أولئـــك خُلْصائى(٤) نَعَمْ وبِطَانَتِي * وهم عَيْبَتِي من دون كلّ قريبِ

الثانيـــة — نهى الله عز وجل المؤمنين بهـذه الآية أن يتّخذوا من الكفار واليهود وأهل الأهْوَاء دُخَلاءَ ووُلَجَاء، يفاوضونهم فى الآراء ، ويسندون إليهم أمورهم . ويقال : كل من كان على خلاف مذْهبك ودينك فلا ينبغى لك أن تحادثه ؛ قال الشاعر :

عن المَرْءِ لا تَسْأَلْ وسَلْ عن قَرِينِهِ * فكُلُّ(٥) قَرِينٍ بالمُقارن يَقْتَـدِى

(١) راجع جـ ٣ ص ٣١٩ (٢) الصر فى هذا الحديث : البرد . (٣) فى ب وهـ و د : عائدته .
(٤) فى هـ : خلصانى، عيبتى : خاصتى وموضع سرى . (٥) فى د : فكم من قرين، وفى هـ : فإن القرين .

وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " المرء على دِين خليله فلينظر أحدكم من يخالل " . وروى عن ابن مسعود أنه قال : آعتبروا النـاس بإخوانهم . ثم بيّن تعالى المعنى الذى لأجله نهى عن المواصلة فقال : ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ يقول فسادا . يعنى لا يتركون الجهد فى فسادكم ، يعنى أنهم وإن لم يقاتلوكم فى الظاهر فإنهم لا يتركون الجهد فى المكر والخديعة ، على ما يأتى بيانه . وروى عن أبى أُمَامَة[(١)] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قول الله تعالى : «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا» قال : " هم الخوارج " . ورُوى أن أبا موسى الأشعرى آستكتب ذِمّيا فكتب إليه عمر يعنّفه وتلا عليه هذه الآية . وقدِم أبو موسى الأشعرى على عمر رضى الله عنهما بحساب فرفعه إلى عمر فأعجبه ، وجاء عمر كتابٌ فقال لأبى موسى : أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس ؟ فقال : إنه لا يدخل المسجد . فقال : لِمَ ! أجُنُبٌ هو ؟ قال : إنه نصرانى ؛ فآنتهره وقال : لا تُدْنِهم وقد أقصاهم الله ، ولا تُكرمهم وقد أهانهم الله ، ولا تأْمَنهم وقد خوّنهم الله . وعن عمر رضى الله عنه قال : لا تستعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرِّشـا[(٢)] ، وآستعينوا على أموركم وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى . وقيل لعمر رضى الله عنه : إن ههنا رجلا من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقـلم أفلا يكتب عنك ؟ فقال : لا آخذ[(٣)] بِطانة من دون المؤمنين . فلا يجـوز آستكتاب أهل الذِّمة ، ولا غير ذلك من تصرفاتهم فى البيع والشراء والآستنابة إليهم .

قلت : وقد آنقلبت الأحوال فى هذه الأزمان بآتخاذ أهل الكتاب كتبةً وأُمناء وتَسوَّدُوا بذلك عند الجَهَلة الأغبياء من الوُلاة والأمراء . روى البخارىّ عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال : " ما بعث الله مِن نبيّ ولا آستخلف مِن خليفةٍ إلا كانت له بِطانتانِ بِطانة تأمره بالمعروف وتحُضّه عليـه و بطانة تأمره بالشر وتحضّه عليـه فالمعصوم من عَصَمَ اللهُ تعالى[(٤)] " . وروى أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تستضيئوا بِنار المشركين ولا تنقشوا فى خواتيمكم غرِيبا " . فسّره الحسن بن أبى الحسن فقال : أراد عليه

(١) فى ب و د و هـ : روى أبو أمامة . (٢) فى أ : الربا . (٣) فى ب و د و هـ : إذا آتخذ الخ .
(٤) الحديث كما فى النسخة الأميرية ، وسائر الأصول : بالخير ، بدل المعروف ، وفى جـ : تحثه عليه .

السلام لا تستشيروا المشركين فى شىء من أموركم، ولا تنقشوا فى خواتيكم محمدا . قال الحسن : وتصديق ذلك فى كتاب الله عز وجل : « يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ » الآية .

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مِنْ دُونِكُمْ ﴾ [1] أى من سواكم . قال الفرّاء : « وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ » [2] أى سِوى ذلك . وقيل : « مِن دونكم » يعنى فى السير وحسن المذهب . ومعنى « لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا » لا يقصِّرون فيما فيه الفسادُ عليكم . وهو فى موضع الصفة لـ« بِطَانَةً من دُونِكُم » . يقال : لا آلُو جهدا أى لا أقصِّر . وأَلَوْتُ أُلُوًّا قصرت ؛ قال امرؤ القيس :

وما المرءُ ما دامتْ حُشاشَةُ نفسِه * بمُدْرِكِ أطرافِ الخُطُوبِ ولا آلِ

والخَبَال : الخَبْل . والخَبَــل : الفساد، وقد يكون ذلك فى الأفعال والأبدان والعقــول . وفى الحديث : "من أُصيب بدَمٍ أو خَبْل" أى جُرْح يُفسد العضو . والخَبْل : فساد الأعضاء، ورجلٌ خَبِلٌ ومُخْتَبَلٌ، وخَبَله الحبُّ أى أفسده . قال أوْسٌ :

أبنِى لُبَيْنَى لستُم بيَــدٍ * إلّا يدًا مَخْبولَةَ العَضُدِ [3]

أى فاسدة العضد . وأنشد الفرّاء :

نَظَــرَ ٱبنُ ســعدٍ نظرةً وبَتَّ بها [4] * كانت لِصُحْبِــكَ والمِطِىِّ خَبالَا

أى فساد . وآنتصب « خَبَالًا » بالمفعول الثانى؛ لأن الأَلْوَ يتعدّى إلى مفعولين، وإن شئت على المصدر، أى يخبلونكم خبالا : وإن شئت بنزع الخافض، أى بالخبال؛ كما قالوا : أوجعته ضربا : « وما » فى قوله : ﴿ وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ مصدرية، أى وَدّوا عنتكم . أى ما يشق عليكم . والعنت المشقّة، وقد مضى فى « البقرة » [5] معناه .

الرابعـــة — قوله تعـالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ يعنى ظهرت العـداوة والتكذيب لكم من أفواههم . والبغضاء : البغض، وهو ضدّ الحُبّ . والبغضاء مصدر مؤنث . وخصّ تعالى الأفواه بالذِّكر دون الألسنة إشارةً إلى تَشدُّقهم وثَرْثَرَتهم فى أقوالهم هذه، فهم

---

(١) فى ب و د و هـ : يعنى . (٢) راجع جـ ١١ ص ٣٢٢ . (٣) الذى فى ديوانه :
* إلا يدا ليست لها عضد * (٤) الوب : التهيؤ للحملة فى الحرب . (٥) راجع جـ ٣ ص ٦٦

فوق المتستر الذى تبدو البغضاء فى عينيه . ومن هذا المعنى نهيه عليه السلام أن يشتحى(١) الرجل فاه فى عرض أخيه . معناه أن يفتح ؛ يقال : شحى الحمار فاه بالنهيق ، وشحى الفم نفسه . وشحى اللجام فم الفرس شحيًا ، وجاءت الخيل شواحى : فاتحات أفواهها . ولا يفهم من هذا الحديث دليل خطاب على الجواز فيأخذ أحدٌ فى عرض أخيه همسًا ؛ فإن ذلك يحرم بآتفاق من العلماء . وفى التنزيل « وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا »(٢) الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : " إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام " . فذكر الشحو إنما هو إشارة إلى التشدّق والآنبساط ، فآعلم .

الخامسة — وفى هذه الآية دليل على أن شهادة العدوّ على عدوه لا تجوز ، و بذلك قال أهل المدينة وأهل الحجاز ؛ ورُوى عن أبى حنيفة جواز ذلك . وحكى آبن بطّال عن آبن شعبان أنه قال : أجمع العلماء على أنه لا تجوز شهادة العدوّ على عدوه فى شىء وإن كان عدلا ، والعداوة تزيل العدالة فكيف بعداوة كافر .

السادسة — قوله تعالى : ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ إخبار و إعلام بأنهم يُبطنون من البغضاء أكثر مما يُظهرون بأفواههم . وقرأ عبد الله بن مسعود : « قد بدأ البغضاءُ » بتذكير الفعل ؛ لما كانت البغضاء بمعنى البغض .

قوله تعالى : هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾

قوله تعالى : ﴿هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ يعنى المنافقين ؛ دليله قوله تعالى : « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا » ؛ قاله أبو العالية ومقاتل . والمحبة هنا بمعنى المصافاة ، أى أنتم أيها المسلمون تُصافونهم ولا يُصافونكم لِنفاقهم . وقيل : المعنى تريدون لهم الإسلام وهم يريدون لكم الكفر . وقيل : المراد اليهود ؛ قاله الأكثر . والكتاب آسم جنس ؛ قال آبن عباس : يعنى

(١) فى هود : يشحى . وفى اللسان : شحا يشحو فاه فتحه ، وشحا بشحاه .	(٢) راجع جـ ١٦ ص ٣٣٤

بالكتب . واليهود يؤمنون بالبعض؛ كما قال تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ »(١) . ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾ أى بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿وَإِذَا خَلَوْا﴾ فيما بينهم ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ﴾ يعنى أطراف الأصابع ﴿مِنَ الْغَيْظِ﴾ والحنق عليكم؛ فيقول بعضهم لبعض : ألا ترون إلى هؤلاء ظهروا وكثروا . والعَضّ عبارة عن شدّة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه؛ ومنه قول أبى طالب :

* يَعُضُّونَ غَيْظًا خَلْفَنَا بالأنامِلِ *

وقال آخر :

إذا رَأَوْنِى — أطال الله غيظَهُـم * عَضُّوا من الغَيْظِ أطرافَ الأباهِيم

يقال : عَضّ يَعُضّ عَضًّا وعَضِيضًا . والعُضّ (بضم العين) : عَلَف دَوَابّ أهل الأمصار مثـل الكُسْب والنَّوَى المَرْضُوخ؛ يقال منـه : أَعَضّ القوم، إذا أكلت إبلهـم العض . وبعير عُضَاضِىٌّ، أى سمين كأنه منسوب إليـه . والعِضّ (بالكسر) : الداهى من الرجال والبليغ المَكْر(٢) . وعَضّ الأنامل من فعـل المُغْضَب الذى فاته ما لا يقـدر عليه، أو نزل به ما لا يقدر على تغييره . وهـذا العَضّ هو بالأسـنان كعَضّ اليد(٣) على فائت قريب الفوات . وكقرع السِّن النـادمة، إلى غير ذلك من عدّ الحصى والخَطّ فى الأرض للهموم . ويكتب هذا العض بالضاد الساقطة، وعَظّ الزمان بالظاء المشالة؛ كما قال :

وعَظُّ زمانٍ يابن مَرْوان لم يَدَعْ * من المـال إلا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ(٤)

وواحد الأنامل أنملة (بضم الميم) ويقال بفتحها، والضمّ أشهر . وكان أبو الجَوْزاء إذا تلا هذه الآية قال : هم الأباضية(٥) . قال ابن عطية : وهذه الصفة قد تترتب فى كثير من أهل البدع(٦) إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن قيل : كيف لم يموتوا والله تعالى إذا قال لشىء : كن فيكون . قيل عنه جوابان : أحدهما — قال فيه الطبرى وكثير

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٩ (٢) فى ب وهـ وجـ : المنكر . (٣) فى ب ود وهـ : كمعض اليد على اليد .

(٤) البيت للفرزدق . وفى النقائض : « وعض زمان » بالضاد وهذه الكلمة فى هذا المعنى تقال بالضاد وبالظاء، كما فى القاموس . والمسحت : المستأصل . والمجلف : الذى بقيت منه بقية . ويروى : المجرف . (٥) الأباضية بريئون من ذلك، وتفسير كلام الله ينزه عن مثل هذا التقوّل . (٦) فى ب وهـ ود : فى أهل البدع من الناس .

من المفسرين : هو دعاء عليهم . أى قل يا محمد أدام الله غيظكم إلى أن تموتوا . فعلى هذا يتجه أن يدعو عليهم بهذا مُوَاجهةً وغيرَ مواجهة بخلاف اللّعْنة .

الثانى — أن المعنى أخبرهم أنهم لا يدركون ما يؤملون ، فإن الموت دون ذلك . فعلى هذا المعنى زال معنى الدعاء وبقى معنى التقريع والإغاظة[1] . ويجرى هذا المعنى مع قول مسافر ابن أبى عمرو :

ويمنّى[2] فى أُرومتنا　*　ونَفْقأُ عينَ من حسدا

وينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى : « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ[3] » .

قوله تعالى : إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)

قوله تعالى : « إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ » قرأ السُّلَمى بالياء والباقون بالتاء . واللفظ عام فى كل ما يحسُن ويسوء . وما ذكره المفسرون من الخِصْب والجَدْب واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة بينهم إلى غير ذلك من الأقوال أمثلة وليس باختلاف . والمعنى فى الآية : أن من كانت هذه صفته من شدّة العداوة والحِقد والفرح بنزول الشدائد على المؤمنين[4] ، لم يكن أهلا لأن يتخذ بطانة ، لا سيما فى هذا الأمر الجسيم من الجهاد الذى هو مِلاك الدنيا والآخرة ؛ ولقد أحسن القائل فى قوله :

كلّ العداوة قد تُرجَى إفاقتُها　*　إلا عداوة مَن عاداك مِنْ حسدِ

﴿ وإنْ تَصْبِرُوا ﴾ أى على أذاهم وعلى الطاعة وموالاة المؤمنين . ﴿ وتَتَّقُوا لَا يَضُرْكُمْ[5] كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾ يقال : ضاره يضُوره ويَضِيره ضَيْرا وضَوْرا ؛ فشرط تعالى نفى ضررهم بالصبر والتقوى ، فكان ذلك تسليةً للمؤمنين وتقويةً لنفوسهم .

---

(١) فى د : يجوز .　(٢) فى هـ : ونمى ، وفى ابن عطية ونبنى ، وفى الأغانى : وزمزم من أرومتنا .
(٣) راجع جـ ١٢ ص ٢١　(٤) فى ح و ب و هـ : بالمؤمنين .　(٥) قراءة نافع .

قلت[١] — قرأ الحَرَمِيّان وأبو عمـرو « لَا يَضِرْكُمْ » من ضار يضير كما ذكرنا؛ ومنه قوله « لَا ضَيْرَ » ، وحذفت الياء لالتقاء الساكنين؛ لأنك لمـا حذفت الضمة من الراء بقيت الراء ساكنة والياء ساكنة فحذفت الياء ، وكانت أولى بالحذف ؛ لأن قبلها ما يدل عليها . وحكى الكسائيّ أنه سمـع « ضَارَه يَضُورُه » وأجاز « لا يَضُرْكُمْ » وزعم أن فى قراءة أُبَيّ بن كعب « لا يَضْرُرْكُمْ[٢] » . [وقرأ الكوفيون : « لا يضركم » بضم الراء وتشديدها من ضَرّ يَضُرّ[٣]] . ويجوز أن يكون مرفوعا على تقدير إضمار الفاء؛ والمعنى : فلا يضركم ، ومنه قول الشاعر[٤] :

* مَن يَفعلِ الحسناتِ اللهُ يَشْكُرُها *

هذا قول الكسائى والفراء ، أو يكون مرفوعا على نية التقديم ؛ وأنشد سيبويه :

* إنك إن يُصرَعْ أخوك تُصْرَعُ[٥] *

أى لا يضرّكم أن تصبروا وتتقوا . ويجوز أن يكون مجزوما، وضمت الراء لالتقاء الساكنين على إتباع الضم . وكذلك قراءة من فتح الراء على أن الفعل مجزوم ، وفتح « يَضُرَّكم » لالتقاء الساكنين لخفّة الفتح ؛ رواه أبو زيد عن المفضّل عن عاصم ، حكاه المَهْدَويّ . وحكى النحاس : وزعم المفضل الضبيّ عن عاصم « لا يضُرِّكم » بكسر الراء لالتقاء الساكنين .

قوله تعـالى : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ العامل فى « إذْ » فعل مضمر تقديره : واذكر إذ غدوت ، يعنى خرجت بالصباح . ﴿ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ من منزلك من عند عائشة . ﴿ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ هذه غزوة أُحُد وفيها نزلت هذه الآية كلها . وقال مجـاهد والحسن ومقاتل والكلبي : هى غزوة الخنـدَق . وعن الحسن أيضا : يومَ بَدْرٍ . والجمهور على أنها غزوة أُحُد ؛ يدل عليه قوله تعالى : « إذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا » وهذا إنمـا كان يوم أُحد، وكان المشركون قصدوا المدينة فى ثلاثة آلاف رجل ليأخذوا بثأرهم

(١) كذا فى د ، وفى ب و ا : قراآت قرأ ، وفى ز و جـ : قرأ . (٢) فى د و هـ : يضور والتصحيح من البحر قال : بفك الإدغام وهى لغة أهل الحجاز . (٣) الزيادة من ب و د و هـ .

(٤) هو حسان بن ثابت رضى الله عنه . وتمامه : * والشر بالشر عند الله سيان *

(٥) هذا عجز بيت لجرير بن عبدالله . وصدره : * يا أقرع بن حابس يا أقرع *

فى يوم بدر، فنزلوا عند أُحُد على شَفِير الوادى بقناةٍ مقابل المدينة ، يوم الأربعاء الثانى عشر من شوّال سنة ثلاث من الهجرة، على رأس أحَد وثلاثين شهرا من الهجرة، فأقاموا هنالك يوم الخميس والنبيّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة ؛ فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منامه أن فى سيفه ثُلْمَة ، وأن بقرا له تُذبح ، وأنه أدخل يده فى دِرعٍ حصينة ؛ فتأوّلها أن نفرا من أصحابه يُقتلون ، وأن رجلا من أهل بيته يصاب ، وأن الدّرع الحصينة المدينة . أخرجه مسلم . فكان كل ذلك على ما هو معروف مشهور من تلك الغزاة . وأصل التبوّء اتخاذ المنزل ، بوّأته منزلا إذا أسكنته إياه ؛ ومنه قوله عليه السلام : " من كذب علىّ متعمدا فليتبوّأ مقعده من النار " أى ليتخذ فيها منزلا . فمعنى « تبوّئ المؤمنين » تتخذ لهم مَصاف . وذكر البيهقى من حديث أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " رأيت فيما يرى النائم كأنى مردِف كبشا وكأن ضَبّة سيفى انكسرت فأوّلت أنى أقتل كبش القوم وأوّلت كسر ضَبّةِ سيفى قتل رجل من عِترتى " فقُتل حمزة وقَتل رسول الله صلى الله عليه وسلم طلحةَ ، وكان صاحب اللّواء . وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب : وكان حامل لواء المهاجرين رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا عاصم إن شاء الله لما معى ؛ فقال له طلحة بن عثمان أخو سعيد ابن عثمان العبدرىّ : هل لك يا عاصم فى المبارزة ؟ قال نعم ؛ فبدره ذلك الرجل فضرب بالسيف على رأس طلحة حتى وقع السيف فى لحيته فقتله ؛ فكان قتل صاحب اللّواء(١) تصديقا لرؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم " كأنى مردف كبشا " .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (١٢٢)

العامل فى «إذ — تبوئ» أو «سميع عليم» . والطائفتان : بنو سلِمة من الخزرج ، و بنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحى العسكر يوم أُحُد . ومعنى ﴿ أَنْ تَفْشَلَا ﴾ أن تجبُنا . وفى البخارىّ عن جابر قال : فينا نزلت ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلِمة ، وما نحب أنها لم تنزل ؛ لقول الله عز وجل : «وَاللهُ وَلِيُّهُمَا» . وقيل :

(١) فى ب و هـ و حـ و ز : صاحب لواء المشركين . ما أثبتناه من د .

هم بنو الحارث وبنـو الخزرج وبنو النبيت ، والنَّبِيت هو عمرو بن مالك من بنى الأوس . والفشل عبارة عن الجبن؛ وكذلك هو فى اللغـة . والهَمّ من الطائفتين كان بعد الخروج لما رجع عبد الله بن أُبَىّ بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا؛ فذلك قوله تعالى : «وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا» يعنى حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهمّ . وقيل : أرادوا التقاعد عن الخروج، وكان ذلك صغيرة منهم . وقيل : كان ذلك حديث نفس منهم خطر ببالهم فأطلع الله نبيه عليه السلام عليـه فآزدادوا بصيرة؛ ولم يكن ذلك الخَوَر(١) مكتسبا لهم فعصمهم الله ، وذمّ بعضهم بعضا، ونهضوا مع النبي صلى الله عليه وسلم فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أطَلّ على المشركين، وكان خروجه من المدينة فى ألف ، فرجع عنه عبد الله بن أُبَىّ بن سَلُول بثلاثمائة رجل مغاضبا(٢)؛ إذ خولف رأيه حين أشار بالقعود والقتال فى المدينة إن نهض إليهم العـدوّ، وكان رأيه وافَقَ رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبى ذلك أكثر الأنصار ، وسيأتى . ونهض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين فآستشهد منهم من أكرمه الله بالشهادة . قال مالك رحمه الله : قتل من المهاجرين يوم أُحُد أربعةٌ، ومن الأنصار سبعون رضى الله عنهم . والمقاعد : جمع مقعد وهو مكان القعود، [وهذا](٣) بمنزلة مَوَاقف، ولكن لفظ القعود دال على الثبوت؛ ولا سيما أن الرماة كانوا قعودا . هذا معنى حديث غزاة أحد على الآختصار، وسيأتى من تفصيلها ما فيه شِفاء . وكان مع المشركين يومئذ مائة فرس عليها خالد بن الوليد، ولم يكن مع المسلمين يومئذ فرس . وفيها جُرِح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وجهه وكُسِرت رَبَاعِيَته اليمنى السفلى بحجر وهُشِمت البَيْضَةُ(٤) من على رأسه صلى الله عليه وسلم ، وجزاه عن أمته ودِينه بأفضل ما جزى به نبيًّا من أنبيائه على صبره . وكان الذى تولّى ذلك من النبي صلى الله عليـه وسلم عمرو بن قَمِيئَة الليثى ، وعُتْبـة بن أبى وقّاص . وقد قيل : إن عبد الله بن شِهاب جدّ الفقيه محمـد بن مسلم بن شهاب هو الذى شجّ رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى جبهته . قال الواقِدى : والثابت(٥) عندنا أن الذى رمى فى وجه(٦) النبي صلى الله عليـه وسلم آبن قَمِيئة ، والذى

(١) كذا فى د وز وب . (٢) كذا فى د وب وه وجـ . (٣) من د وب وه .

(٤) البيضة : الخوذة ، وهى زرد ينسج على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة ، وفى ب ود وه : هشمت البيضة رأسه . (٥) فى ب ود وه : الثبت . (٦) فى د وه وب : وجنتى النبي .

أدمى (١) شفته وأصاب رباعيته عُتبةُ بن أبى وَقّاص . قال الواقِدِىّ بإسناده عن نافع بن جبير قال : سمعت رجلا من المهاجرين يقول : شهدت أُحُدا فنظرت إلى النبل تأتى من كل ناحية ورسول الله صلى الله عليه وسلم وسطها كل [ذلك (١)] يصرف عنه . ولقد رأيت عبد الله آبن شِهاب الزُّهرِىّ يقول يومئذ : دُلُّونى على محمد دلونى على محمد، فلا نجوت إن نجا . [وإنّ] (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه ما معه أحد ثم جاوزه، فعاتبه فى ذلك صفوان فقال : والله ما رأيته، أحلف بالله إنه مِنّا ممنوعٌ! خرجنا أربعةً فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله [فلم نخلص (٢) إلى ذلك] . وأكبّت الحجارة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سقط فى حفرة، كان أبو عامر الراهب قد حفرها مكيدة للسلمين، فخرّ عليه السلام على جنبه وآحتضنه طلحة حتى قام، ومَصّ مالك بن سِنان والد أبى سعيد الخدرِىّ من جُرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الدّم، وتشبّثت (٣) حلقتان من دِرع المِغفَر فى وجهه صلى الله عليه وسلم فآنتزعهما أبو عبيدة بن الجرّاح وعَضّ عليهما بثَنِيّتيه فسقطتا، فكان أهْتَم يزينه هَتَمُه رضى الله عنه . وفى هذه الغزاة قُتل حمزةُ رضى الله عنه، قتله وحشِى، وكان وَحْشِىّ مملوكا لجبير بن مُطْعِم . وقد كان جبير قال له : إن قتلت محمدا جعلنا لك أعِنّة الخيل، وإن أنت قتلت علىّ بن أبى طالب جعلنا لك مائة ناقة كلُّها سُود الحَدَق ، وإن أنت قتلت حمزة فأنت حُرٌّ. فقال وحشِىّ : أما محمد فعليه حافظٌ من الله لا يخلُص إليه أحدٌ . وأما علىّ ما برز إليه أحد إلّا قتله . وأما حمزة فرجل شجاع ، وعسى أن أصادفه فأقتله . وكانت هِند كلما تهيّأ وَحْشِىٌّ أو مرّت به قالت : إيهًا أبا دَسَمَة آشفِ وآستشفِ . فكَمَن له خلف صخرة، وكان حمزة حمل على القوم من المشركين؛ فلما رجع من حملته ومرّ بوحشِىّ زَرَقه بالمِزْراق فأصابه فسقط ميّتًا (٤) ، رحمه الله ورضى عنه . قال آبن إسحاق : فبقرت هِندٌ عن كبد حمزة فلا كتها ولم تستطع أن تسيغها فلفظتها ثم علت على صخرة مُشْرِفة فصرخت بأعلى صوتها فقالت :

نحنُ جَزَيناكم بيَوْم بَدْرِ * والحربُ بعد الحرب ذاتُ سُعْرِ
ما كان عن عُتْبَة لى من صَبْرِ * ولا أخى وعَمِّه وبَكْرِ

---

(١) فى ب و د و هـ : رمى .
(٢) زيادة عن مغازى الواقدى .
(٣) فى د : تشبت ، وفى هـ : نشبت .
(٤) كذا فى د ، وفى ب و هـ و حـ : فسقط منها .

شَفَيْتُ نفسي وقضيْتُ نَذْرِى * شفيتَ وَحْشِيُّ غليلَ صَدْرِى
فشكْرُ وحْشِى علىّ عُمْرِى * حتى تَرِمّ أعْظُمِى فى قَبْرِى

فأجابتها هِنْدُ بنت أُثَاثة بن عَبّاد بن عبد المطلب فقالت :

خَزِيتِ فى بَدْرٍ وبعد بدر * يا بنت وَقّاعٍ عظيمِ الكُفْرِ
صبّحكِ اللهُ غَداةَ الفجرِ * مِلْهاشِميّين الطِّوَال الزُّهْرِ
بكل قَطّاعٍ حُسَامٍ يَفْرِى * حمزةُ لَيْثِي وعلىُّ صَقْرِى
إذْ رَامَ شَيْبُ (١) وأبوكِ غَدْرِى * فَخَضَبَا (٢) منه ضَوَاحِى النّحْرِ
* ونَذْرِكِ السّوءَ فشرّ نَذْرِ *

وقال عبد الله بن رواحة يبكى حمزة رضى الله عنه :

بكت عينى وحق لها بُكاها * وما يغنى البكاء ولا العَويل
على أسَدِ الإله غَداة قالوا * أحَمْزَةُ ذاكم الرّجل القتيل
أصيب المسلمون به جميعا * هناك ، وقد أصيب به الرّسول
أبا يَعْلَى لك الأركان هُدّت * وأنت الماجد البَرّ الوَصُول
عليك سلام ربك فى جِنانٍ * مُخالِطها نعيم لا يزول
ألا يا هاشمَ الأخيارِ صبرا * فكل فعالكم حسن جميل
رسول الله مصطبر كريم * بأمر الله ينطق إذ يقول
ألا من مُبْلِغ عنى لُؤَيًّا * فبعد اليومِ دائلةٌ تدُول
وقبل اليوم ما عرفوا وذاقوا * وقائِعنا بها يُشْفَى الغَلِيل
نَسِيتُم ضربَنا بِقَلِيبِ (٣) بَدْرٍ * غداةَ أتاكم الموتُ العَجِيل
غَداةَ ثَوَى أبو جهل صريعًا * عليه الطّيْرُ حَائِمَةً تجُول
وعُتْبَةُ وآبنُه خَرّا جميعا * وشَيْبَةُ عَضّه السيفُ الصّقيل

(١) أرادت شيبة بن ربيعة أخا عتبة بن ربيعة أبا هند . وقد رخم هنا فى غير النداء لضرورة الشعر .

(٢) فى د : مخضبا .

(٣) القليب (بفتح أوّله وكسر ثانيه) : البئر العادية القديمة التى لا يعلم لها رب ولا حافر تكون فى البرارى ، يذكر ويؤنث .

ومَـتْرَكْنا أمَيَّــةَ مُجلعبًّا (١) * وفى حَيْزُومِه لِدَنٌ نبيـل (٢)
وهَامَ بني ربيعــة سائلوها * ففى أسـيافِنا منها فُلُول
ألا يا هِنْدُ لا تبـدى شَمَاتا * بحمزةَ إن عِزَّكم ذَليـل
ألا يا هِنْــدُ فابكى لا تَمَـلِّى * فأنتِ الوَالِهِ العَبْرَى الهَبُول (٣)

ورثته أيضا أختُه صفية، وذلك مذكور فى السيرة، رضى الله عنهم أجمعين .

قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه مسألة واحدة، وهى بيان التوكل. والتوكل فى اللغة إظهار العجز والاعتماد على الغير (٤) . وواكل فلان إذا ضيّع أمره متّكلا على غيره .

واختلف العلماء فى حقيقة التوكل؛ فسئل عنه سهل بن عبد الله فقال : قالت فرقة الرضا بالضمان، وقطع الطّمع من المخلوقين . وقال قوم : التوكّل ترك الأسباب والركون إلى مُسبِّب الأسباب؛ فإذا شغله السبب عن المسبِّب زال عنه اسم التوكل. قال سهلٌ : من قال إن التوكل يكون بترك السبب فقد طعن فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل يقول : «فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا (٥)» فالغنيمة اكتساب . وقال تعالى : «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (٦)» فهذا عمَلٌ . وقال النبى صلى الله عليه وسلم "إن الله يحب العبد المحترف" . وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقرضون على السرية (٧) . وقال غيره : وهذا قول عامّة الفقهاء، وأن التوكل على الله هو الثقة بالله والإيقان بأن قضاءه ماض، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم فى السعى فيما لا بدّ منه من الأسباب من مَطعم ومَشرب وتحرّز من عدوّ وإعدادِ الأسلحة واستعمالِ ما تقتضيه سنة الله تعالى المعتادة . وإلى هذا ذهب محققو الصوفية، لكنه لا يستحق اسم التوكل عندهم مع الطمأنينة إلى تلك الأسباب والالتفات إليها بالقلوب؛ فإنها لا تجلب نفعا ولا تدفع ضرا، بل السبب والمسبَّب فعل الله تعالى، والكل منه وبمشيئته؛ ومتى وقع من المتوكّل ركونٌ إلى تلك الأسباب فقد انسلخ عن ذلك الاسم . ثم المتوكلون على

(١) المجلعب : المصروع إما ميتا وإما صرعا شديدا . (٢) الحيزوم : وسط الصدر وما يضم عليه الحزام . واللدن : الرمح . (٣) الهبول من النساء : الثكول . (٤) فى ب و د : غيرك وفى هـ : غيره .
(٥) راجع جـ ٨ ص ١ ٥ (٦) راجع جـ ٧ ص ٣٧٧ (٧) السرية : طائفة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة؛ سموا بذلك لأنهم تكون من خلاصة العسكر وخيارهم، من الشيء السرى : النفيس .

حالين : الأوّل — حال المتمكّن فى التوكّل فلا يلتفت إلى شىء من تلك الأسباب بقلبه ، ولا يتعاطاه إلا بحكم الأمر . الثانى — حال غير المتمكّن وهو الذى يقع له الآلتفات إلى تلك الأسباب أحيانا غير أنه يدفعها عن نفسه بالطرق العلمية ، والبراهين القطعية ، والأذواق الحالية ؛ فلا يزال كذلك إلى أن يُرقّيه الله بجوده إلى مقام المتوكلين المتمكنين ، و يلحقه بدرجات العارفين .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ﴾ كانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان ، يوم جمعة لثمانية عشر شهرا من الهجرة ، وبدر ماءٌ هنالك و به سمى الموضع . وقال الشعبىّ : كان ذلك الماء لرجل من جُهَينة يسمى بدرا ، و به سمى الموضع . والأوّل أكثر . وقال الواقدى وغيره : بدر آسم لموضع غير منقول . وسيأتى فى قصة بدرٍ فى « الأنفال »(١) إن شاء الله تعالى . و ﴿أَذِلَّةٌ﴾ معناها قليلون ؛ وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلا . وكان عدوّهم ما بين التسعمائة إلى الألف . و « أذِلة » جمع ذليل . وآسم الذل فى هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا فى أنفسهم إلّا أعِزّة، ولكن نسبتهم إلى عدوّهم و إلى جميع الكفار فى أقطار الأرض تقتضى عند التأمل ذِلّتهم وأنهم يُغلبون . والنصر العون؛ فنصرهم الله يوم بَدْرٍ، وقتل فيه صنادِيد المشركين، وعلى ذلك اليوم آبتُنِى(٢) الإسلام، وكان أوّل قتال قاتله النبي صلى الله عليه وسلم . وفى صحيح مسلم عن بُريدة قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع عشرة غزوة، قاتل فى ثمان منهنّ . وفيه عن آبن إسحاق قال : لقيت

(١) راجع ج ٧ ص ٣٧٠ فما بعد . (٢) فى ب، ود : آبتنى .

زيد بن أرقم فقلت له : كم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال تسع عشرة غزوة . فقلت : فكم غزوتَ أنت معه ؟ فقال : سبع عشرة غزوة . قال فقلت : فما أوّل غزوة غزاها؟ قال : ذات العُسَير أو العشير . وهذا كله مخالف لما عليه أهل التواريخ والسير. قال محمد بن سعد فى كتاب الطبقات له : إن غزواتِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم سبع وعشرون غزوة، وسراياه ست وخمسون، وفى رواية ست وأربعون[(١)]، والتى قاتل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بَدْرٌ وأُحُد والمُرَيْسِيع والخَنْدَق وخَيْبَر وقُرَيْظَة والفتْحُ وحُنَيْن والطائف. قال آبن سعد : هـذا الذى آجتمع لنا عليه . وفى بعض الروايات أنه قاتل فى بنى النضير وفى وادى القرى مُنصرفه من خَيْبَر وفى الغَابَة[(٢)] . وإذا تقرر هـذا فنقول : زيد وبُرَيدة إنما أخبر كل واحد منهما بما فى علمه أو شاهده . وقول زيد : « إن أوّل غزاة غزاها ذات العسيرة » مخالف أيضا لما قال أهل التواريخ والسير . قال محمد بن سعد : كان قبل غزوة العشيرة ثلاث غزوات، يعنى غزاها بنفسه. وقال آبن عبد البر فى كتاب الدرر فى المغازى والسير. أوّل غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة وَدّان[(٣)] غزاها بنفسه فى صَفَر؛ وذلك أنه وصل إلى المدينة لآثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل، أقام بها بقيةَ ربيع الأوّل، وباقى العام كله إلى صفر من سنة آثنتين من الهجرة : ثم خرج فى صفر المذكور وآستعمل على المدينة سعد بن عبادة حتى بلغ وَدّان فوادع[(٤)] بنى ضَمْرة ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حَرْبًا ، وهى المسماة بغزوة الأَبْوَاء . ثم أقام بالمدينة إلى [شهر] ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خرج فيها وآستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون حتى بلغ بَوَاط[(٥)] من ناحية رَضْوَى[(٦)]، ثم رجع إلى المدينة

---

(١) الذى فى كتاب الطبقات لآبن سعد : « وكانت سراياه التى بعث بها سبعا وأربعين سرية » .

(٢) الغابة : موضع قرب المدينة من ناحية الشام . (٣) ودان (بفتح الواو وشد المهملة) : قرية جامعة من أمهات القرى من عمل الفرع . وقيل : واد فى الطريق يقطعه المصعدون من حجاج المدينة . (عن شرح المواهب) .

(٤) الموادعة : المصالحة . (٥) بواط (بفتح الموحدة وقد تضم وتخفيف الواو وآخره طاء مهملة) : جبل من جبال جهينة بقرب ينبع على أربعة برد من المدينة . (٦) رضوى (بفتح الراء وسكون المعجمة مقصور) : جبل بالمدينة ، وهو على مسيرة يوم من ينبع وعلى سبع مراحل من المدينة .

ولم يلق حربا، ثم أقام بها بقية ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى، ثم خرج غازيا وآستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد، وأخذ على طريق مِلْكٍ(١) إلى العُسَيْرة .

قلت : ذكر آبن إسحاق عن عمار بن ياسر قال : كنت أنا وعليّ بن أبى طالب رفيقين فى غزوة العشيرة من بطن يَنْبُع فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام بها شهرا فصالح بها بنى مُدْلِج وحلفاءَهم من بنى ضَمْرة فوادعهم؛ فقال لى على بن أبى طالب : هل لك أبا اليقظان أن تأتى هؤلاء ؟ نفر من بنى مُدْلِج يعملون فى عين لهم ننظر كيف يعملون . فأتيناهم فنظرنا إليهم ساعة ثم غشِينا النوم فعمدنا إلى صور(٢) من النخل فى دَقْعَاء من الأرض فنِمْنا فيه؛ فوالله ما أهبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدمه؛ فجلسنا وقد تتربنا من تلك الدقعاء فيومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى: "ما بالك يا أبا تراب"؛ فأخبرناه بما كان من أمرنا فقال: "ألا أخبركم بأشقى الناس رجلين" قلنا : بلى يارسول الله؛ فقال : "أُحَيْمِر ثمود الذى عقر الناقة والذى يضربك يا عليّ على هذه — ووضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على رأسه — حتى يَبُلّ منها هذه" ووضع يده على لحيته . فقال أبو عمر : فأقام بها بقية جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مُدْلِج ثم رجع ولم يلق حربًا . ثم كانت بعد ذلك غزوة بدرٍ الأولى بأيام قلائل ، هذا الذى لا يشك فيه أهل التواريخ والسير، فزيد بن أرقم إنما أخبر عما عنده . والله أعلم . ويقال : ذات العسير بالسين والشين، ويزاد عليها هاء فيقال: العشيرة. ثم غزوة بدر الكبرى وهى أعظم المشاهد فضلا لمن شهدها، وفيها أمدّ الله بملائكته نبيه والمؤمنين فى قول جماعة العلماء، وعليه يدل ظاهر الآية ، لا فى يوم أُحُد . ومن قال : إن ذلك كان يوم أُحد جعل قوله تعالى : « وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ » إلى قوله : « تَشْكُرُونَ » آعتراضا بين الكلامين . هذا قول عامر الشعبيّ ، وخالفه الناس . وتظاهرت الروايات بأنّ الملائكة حضرت يوم بَدر وقاتلت؛ ومن ذلك قول أبى أُسيدٍ مالكِ بنِ ربيعة وكان شهيد

(١) ملك (بالكسر ثم السكون والكاف) : واد بمكة .

(٢) الصور : جماعة النخل الصغار؛ لا واحد له من لفظه . الدقعاء : التراب .

بدر : لو كنتُ معكم الآن ببَدْر ومعي بصرى لأريتكم الشِّعْب(١) الذى خرجتْ منه الملائكةُ ، لا أشك ولا أمترى . رواه عقيل عن الزُّهرى عن أبى حازم سلمة بن دينار . قال آبن أبى حاتم : لا يُعرف للزّهرى عن أبى حازم غيرُ هذا الحديث الواحد ، وأبو أُسَيد يقال إنه آخر من مات من أهل بدر ، ذكره أبو عمر فى الآستيعاب وغيره . وفى صحيح مسلم من حديث عمر آبن الخطاب قال : لما كان يومُ بَدْر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألفٌ ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فآستقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مدّ يدَيْه فجعل يهْتِف بربّه : "اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم آتِ ما وعدتنى اللهم إن تَهْلك هذه العِصابةُ من أهل الإسلام لا تُعبَدُ فى الأرض" فما زال يهْتِف بربه مادّا يديْه مُستقبلَ القبلةِ حتى سقط رداؤُه عن مَنكِبَيْه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءَه فألقاه على منكِبيْه ، ثم آلتزمه من ورائه وقال : يا نبىّ الله ، كفاك مناشَدتُك ربَّك ، فإنه سيُنْجِزُ لك ما وعَدك ؛ فأنزل الله عز وجل : «إذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(٢)» فأمدّه الله تعالى بالملائكة . قال أبو زُمَيْل(٣) : فحدّثنى آبن عباس قال : بينما رجلٌ من المسلمين يومئذ يَشْتَدّ فى أثر رجل من المشركين أمامَه إذْ سمع ضربةً بالسَّوط فوقَه وصوتَ الفارس يقول : أَقْدِمْ حيزوم(٤) ؛ فنظر إلى المشرك أمامه خرّ مستلقيا ، فنظر إليه فإذا هو قدْ خُطِم أنفُه وشُقّ وجهُه [كضربة السوط(٥)] فآخضَرّ ذلك أجمعُ . فجاء الأنصارى فحدّث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "صدقتَ ذلك من مَدد السماء الثالثة" فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين . وذكر الحديث . وسيأتى تمامُه فى آخر « الأنفال(٦) » إن شاء الله تعالى . فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور ، والحمد لله . وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : "مَن القائلُ يوم بدر من الملائكة أقدم حيزوم" ؟ فقال جبريل : "يامحمد ما كل أهل السماء أعرف" . وعن علىّ رضى الله عنه أنه خطب الناس فقال : بينا أنا أمتح(٧) من قَليب بَدْر جاءت ريحٌ شديدة لم أر مثلها قطّ ، ثم ذهبت ، ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التى كانت

(١) الشعب (بالكسر) : الطريق فى الجبل . (٢) راجع جـ ٧ ص ٣٧٠ (٣) أبو زميل (بالتصغير) هو سماك بن الوليد . (تهذيب التهذيب) . (٤) حيزوم : اسم فرس من خيل الملائكة . (٥) زيادة عن صحيح مسلم ، وآخضر : أسود . (٦) جـ ٨ ص ٤٨ (٧) متح : جذب الدلو من البئر مستقيا ، والمائح : المستقى .

قبلها . قال : وأظنه ذكر : ثم جاءت ريح شديدة، فكانت الرِّيح الأولى جبريل نزل فى ألف من الملائكة مع رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت الريح الثانية مِيكَائِيل نزل فى ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبو بكر عن يمينه ، وكانت الريح الثالثة إِسْرَافِيل نزل فى ألف من الملائكة عن مَيْسَرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى الميسرة . وعن سَهل بن حُنَيف رضى الله عنه قال : لقد رأيتُنا يومَ بدْر وأنّ أحدَنا يُشير بسيفه إلى رأس المشرك فيقع رأسُه عن جسده قبل أن يَصل إليه . وعن الرَّبيع بن أنس قال : كان الناس يوم بَدْر يعرفون قتلى الملائكة ممّن قتلوهم بضربٍ فوقَ الأعْناق وعلى البنَان مثل سِمَة النـار قد أُحرِق به؛ ذكر جميعه البَيْهَقِيّ رحمه الله . وقال بعضهم : إن الملائكة كانوا يقاتلون وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة؛ لأن كلَّ موضع أصابتْ ضربتهم آشتعلت النار فى ذلك الموضع، حتى إن أبا جهل قال لآبن مسعود : أنت قتلتَني؟ ! إنمـا قتلنى الذى لم يصل سِنَانى إلى سُنْبُك فرسه(١) و إن آجتهدتَ . و إنمـا كانت الفائدة فى كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين؛ ولأنّ الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة؛ فكل عسكر صَبَر وآحتسب تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم . وقال آبن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكةُ إلا يوم بَدْر، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنمـا يكونون عددا أو مددا . وقال بعضهم : إنمـا كانت الفائدة فى كثرة الملائكة أنهم كانوا يَدْعُون ويسبّحون ، ويكثّرون(٢) الذين يقاتلون يومئذ؛ فعلى هذا لم تقاتل الملائكةُ يوم بدر(٣) و إنما حضروا للدعاء بالتثبيت ، والأول أكثر . قال قتادة : كان هذا يوم بدر، أمدّهم الله بألف ثم صـاروا ثلاثةَ آلاف ، ثم صاروا خمســة آلاف؛ فذلك قوله تعـالى : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ(٤) » وقوله : « أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ » وقوله : « بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ » فصبَرا المؤمنون يوم بَدْر وآتقوا الله فأمدّهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وَعَدَهم؛ فهذا كله يوم بدر . وقال الحسن : فهؤلاء الخمسة آلاف رِدْءٌ(٥) للمؤمنين إلى يوم القيامة . قال الشعبيّ : بلغ النبيّ

(١) فى د : قدميه . وسنبك الدابة طرف حافرها . (٢) فى د وهـ وب : والثواب للذين يقاتلون ...
(٣) فى هـ ود : إلا يوم بدر . (٤) راجع جـ ٧ ص ٣٧٠ . (٥) الردء : العون والناصر .

صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كُرْز بن جابر المحاربى يريد أن يمدّ المشركين فشق ذلك على النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ – إلى قوله : مُسَوِّمِينَ ﴾ فبلغ كُرْزا الهزيمةُ فلم يُمدّهم ورجع ، فلم يمدهم(١) الله أيضا بالخمسة آلاف ، وكانوا قد مدّوا بالألف . وقيل : إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته ، واتقوا محارمه أن يمدهم أيضا فى حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا محارمه إلا فى يوم الأحزاب ، فأمدّهم حين حاصروا قُرَيْظة . وقيل : إنما كان هذا يوم أُحُد ، وعدهم الله المدد إن صبروا ، فما صبروا فلم يُمدّهم بملَك واحد ، ولو أُمِدّوا لما هُزِموا ؛ قاله عكرمة والضحاك . فإن قيل : فقد ثبت عن سعد بن أبى وقّاص أنه قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن يساره يومَ بَدْر(٢) رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه أشدّ القتال ، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ . قيل له : لعل هذا مختص بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، خصّه بملكين يقاتلان عنه ، ولا يكون هذا إمدادا للصحابة . والله أعلم .

الثانيــة – نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليَعلَق القلب بالله ولْيَثِق به ، فهو الناصر بسبب وبغير سبب ؛ « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(٣) » . لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلقُ ما أمرهم به من الأسباب التى قد خلت من قبل ، « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا(٤) » ، ولا يَقْدَح ذلك فى التوكُّل . وهو ردّ على من قال : إن الأسباب إنما سُنّت فى حق الضعفاء لا للأقوياء ؛ فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء ؛ وهذا واضحٌ . و « مدّ » فى الشر و « أمدّ » فى الخير . وقد تقدّم فى البقرة(٥) . وقرأ أبو حَيْوة « مُنْزِلِينَ » بكسر الزاى مخففا ، يعنى منزلين النصرَ . وقرأ ابن عامر مشدّدة الزاى مفتوحة على التكثير . ثم قال : ﴿ بَلَى ﴾ وتمّ الكلام . ﴿ إِنْ تَصْبِرُوا ﴾ شرط ، أى على لقاء العدوّ . ﴿ وَتَتَّقُوا ﴾ عطف عليه ، أى معصيتَه . والجواب ﴿ يُمْدِدْكُمْ ﴾ . ومعنى « مِنْ فَوْرِهِمْ » من وجههم . هذا عن عكرمة وقتادة والحسن

(١) فى ج و ا : فأمدهم . والمثبت هو ما فى باقى الأصول وهو التحقيق قال الألوسى : ولم يمدوا بها بناء على تعليق الإمداد بها بمجموع الأمور الثلاثة الخ .
(٢) فى ب و ه : يوم أحد .
(٣) راجع ج ١٥ ص ٦٠
(٤) راجع ج ١٤ ص ٢٤٧
(٥) راجع ج ١ ص ٢٠٩

والربيع والسدى وآبن زيد . وقيل : مِن غَضَبِهم؛ عن مجاهد والضحاك . كانوا قد غضبوا يوم أُحُد ليوم بَدْر مما لَقُوا . وأصل الفَوْر القصد إلى الشيء والأخذ فيه بِجِدّ؛ وهو من قولهم : فارتِ القِدْر تَفُور فَوْرًا وفَوَرَانا إذا غَلَت . والفَوْر الغَلَيَان . وفارَ غضبه إذا جاش . وفعـله من فَوْرِه أى قبل أن يسْكُن . والفوّارة ما يَفُور من القِـدر . وفى التنزيل « وفَارَ التَّنُّورُ »(١) . قال الشاعر :

* تَفُورُ علينـا قِـدْرُهُمْ فنُدِيمُهـا *

الثالثـــة — قوله تعالى : ﴿ مُسَوَّمِينَ ﴾ بفتح الواو آسم مفعول ، وهى قراءة آبن عامر وحمزة والكِسائى ونافع . أى معلَّمين بعلامات . و « مُسَوِّمين » بكسر الواو آسم فاعل ، وهى قراءة أبى عمرو وآبن كثير وعاصم ؛ فيحتمل من المعنى ماتقدّم ، أى قد أعلموا أنفسهم بِعلامة ، وأعلموا خَيْلَهم . ورجّح الطبرِىّ وغيره هذه القراءة . وقال كثير من المفسرين : مُسَوَّمِينَ أى مُرسِلِين خيلهم فى الغارة . وذكر المهدِوىّ هذا المعنى فى « مُسَوَّمِينَ » بفتح الواو ، أى أرسلهم الله تعالى على الكفار . وقاله آبن فُورَك أيضا . وعلى القراءة الأولى آختلفوا فى سِيما الملائكة ؛ فرُوى عن على بن أبى طالب وآبن عباس وغيرهما أن الملائكة آعتمّت بعمائم بِيض قد أرسلوها بين أكتافهم ؛ ذكره البيهقِىّ عن آبن عباس ، وحكاه المهدِوىّ عن الزجاج . إلا جبريل فإنه كان بعمامة صَفْراء على مِثال الزبير بن العوام ، وقاله آبن إسحاق . وقال الربيع : كانت سِيماهم أنهم كانوا على خَيْل بُلْق .

قلت : ذكر البيهقِىّ عن سهيل بن عمرو رضى الله عنه قال : لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضا على خيلٍ بُلْقٍ بين السماء والأرض معلَّمين يقتلون ويأسرون . فقوله : « معلمين » دل على أن الخيل البُلْق ليست السيما . والله أعلم . وقال مجاهد : كانت خيلهم مَجْزُوزة الأذناب والأعْرَاف معلَّمة النوَاصِي والأذناب بالصّوف والعِهْن(٢) . وروى عن آبن عباس : تسوَّمَت الملائكة يوم بدر بالصّوف الأبيض فى نَوَاصى الخيل وأذنابها . وقال عَبّـاد بن عبد الله بن الزبير وهِشام بن عُروة والكلبى : نزلت الملائكة فى سِيما الزُّبير عليهم عمائم صُفْر مُرْخَاة على أكتافهم . وقال ذلك عبد الله وعروة آبنا الزبير . وقال عبد الله : كانت مُلاءة صفراء آعتمّ بها الزبير رضى الله عنه .

قلت : ودلت الآية —

---

(١) راجع جـ ٩ ص ٣٣ (٢) العهن : الصوف المصبوغ ألوانا .

وهى الرابعــة — على اتخاذ [الشارة و] (١) العــلامة للقبائل والكتائب يجعلها السلطان لهم؛ لتتميز كل قبيلة وكتيبة من غيرها عند الحرب، وعلى فضل الخيل البُلْق لنزول الملائكة عليها .

قلت : — ولعلها نزلت عليها موافَقة لفرس المِقْداد ، فإنه كان أبلَق ولم يكن لهم فرس غيره، فنزلت الملائكة على الخيــل البُلْق إكراما للمقداد ؛ كما نزل جبريل مُعتجِرا (٢) بعمامة صفراء على مِثال الزبير . والله أعلم . ودلت الآية أيضا —

وهى الخامسة — على لِباس الصّوف وقد لَبِسه الأنبياء والصالحون . ورَوى أبو داود وآبن ماجه واللفظ له عن أبى بُرْدة عن أبيه قال قال لى أبى : لو شهدتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليــه وسلم إذا أصابتنا السماء لحسِبت أن رِيحنا ريح الضّأن . ولبِس صلى الله عليه وســلم جُبّة رُومِيّة من صوف ضَيِّقة الكُمّين ؛ رواه الأئمة . ولبِسها يُونُس عليــه السلام ؛ رواه مسلم . وسيأتى لهذا المعنى مزيد بيان فى « النحل » (٣) إن شاء الله تعالى .

السادســة — قلت : وأما ما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت مَجْزوزة الأذناب والأعْراف فبعيدٌ؛ فإن فى مصنف أبى داود عن عُتْبة بن عبـد السُّلمى أنه سمع رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : "لا تقُصّوا نواصى الخيل ولا معارفها ولا أذنابها فإن أذنابهــا مَذَابُّهــا ومعارفها دفاؤها ونواصيها معقود فيها الخير" . فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة . والله أعلم .

ودلّت الآية على حُسْن الأبيض والأصفر من الألوان لنزول الملائكة بذلك ، وقد قال آبن عباس : من لبس نَعلا أصْفَر قضيت حاجته . وقال عليه السلام : "آلبَسوا من ثيابكم البياض فإنه من خير ثيابكم وكفّنوا فيه موتاكم وأما العمائم فتيجَان العرب ولباسها" . ورَوى رُكَانة — وكان صارع النبيّ صلى الله عليه وسلم فصرعه النبيّ صلى الله عليه وسلم — قال رُكَانة : وسمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "فرق ما بيننا و بين المشركين العمائم على القلانس" أخرجه أبو داود . قال البخارى (٤) : إسناده مجهول لا يعرف سماع بعضه من بعض .

---

(١) من د وفى هـ : الإشارة، والشارة : الهيئة .   (٢) الاعتجار بالعمامة : هو أن يلفها على رأسه و يرد طرفها على وجه ولا يعمل منها شيئا تحت ذقنه ؛ وفى ب : معتما .   (٣) جـ ١٠ ص ١٥٤

(٤) كذا فى د و هـ و ب . وفى ا و حـ : النحاس .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ ﴾ الهاء للمَدَد ، وهو الملائكة أو الوعد أو الإمداد ، ويدل عليه «يُمْدِدْكُمْ» أو للتسويم أو للإنزال أو العَدَد على المعنى ؛ لأن خمسة آلاف عددٌ . ﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ ﴾ اللام لام كى ، أى ولتطمئن قلوبكم به جعله ؛ كقوله : «وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا»(١) أى وحفظا لها جعل ذلك . ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ يعنى نصر المؤمنين ، ولا يدخل فى ذلك نصر الكافرين ؛ لأن ماوقع لهم من غلبة إنما هو إملاءٌ محفوفٌ بخذلانٍ وسوءِ عاقبة وخسرانٍ . ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى بالقتل . ونظم الآية : ولقد نصركم الله ببدر ليقطع . وقيل : المعنى وما النصر إلا من عند الله ليقطع . ويجوز أن يكون متعلقا بـ«يُمْدِدْكُمْ» ، أى يمددكم ليقطع . والمعنى : من قُتِل من المشركين يوم بَدْر ؛ عن الحسن وغيره . السدى : يعنى به من قُتِل من المشركين يوم أُحُد وكانوا ثمانية عشر رجلا . ومعنى ﴿ يَكْبِتَهُمْ ﴾ يحزنهم ؛ والمكبوت المحزون . ورُوى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء إلى أبى طلحة فرأى ابنه مَكْبُوتا فقال : " ما شأنه " ؟ . فقيل : مات بعيره . وأصله فيما ذكر بعض أهل اللغة « يكبدهم » أى يصيبهم بالحزن والغيظ فى أكبادهم ، فأبدلت الدال تاء ، كما قلبت فى سَبَتَ رأسه وسبده أى حلقه . كبت الله العدوّ كَبْتا إذا صرفه(٢) وأذلّه ، وكبَدَه أصابه فى كَبِدَه ؛ يقال : قد أحرق الحزن كبده ، وأحرقت العداوة كبِدَه . وتقول العرب للعدوّ : أسْوَد الكَبِد ؛ قال الأعشى :

فما أُجْشِمْتِ(٣) من إتيانِ قومٍ * هُمُ الأعداءُ والأكبادُ سُودُ

كأن الأكباد لما احترقت بشدّة العداوة اسودت . وقرأ أبو مِجْلَز « أو يكبِدهم » بالدال . والخائبُ : المنقطعُ الأمَل . خاب يخيب إذا لم ينل ما طلب . والخيّاب : القَدْح لا يُورِى .

---

(١) راجع جـ ١٥ ص ٣٤٥ (٢) فى ب : أى صرفه . (٣) أجشمت : كلفت على مشقة .

قوله تعالى : لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — ثبت فى صحيح مسلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كُسِرت رَباعِيَته يوم أُحُد ، وشُجّ فى رأسه ، فجعل يسْلِتُ الدمَ عنه و يقول : "كيف يُفلح قوم شجّوا رأس نبِيهم وكسروا رباعِيته وهو يدعوهم إلى الله تعالى". فأنزل الله تعالى (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ). الضحاك : هَمّ النبىّ صلى الله عليه وسلم أن يدعوَ على المشركين فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » . وقيل : آستأذن فى أن يدعو فى آستئصالهم ، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيُسلِم وقد آمن كثير منهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعِكرمة بن أبى جهل وغيرهم . وروى الترمذى عن آبن عمر قال : وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر فأنزل الله عز وجل « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » فهداهم الله للإسلام . وقال : هذا حديث حسن غريب صحيح . وقوله تعالى : (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) قيل : هو معطوف على « لِيَقْطَعَ طَرَفًا » . والمعنى : ليقتل طائفة منهم، أو يخزنهم بالهزيمة أو يتوب عليهم أو يعذبهم . وقد تكون « أو » هاهنا بمعنى « حتى » و « إلا أن » . قال آمرؤ القيس :

* ... أو نَموتَ فنُعْذَرَا *

قال علماؤنا : قوله عليه السلام : "كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم" آستبعاد لِتوفيق مَن فَعل ذلك به . وقوله تعالى : «لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ» تقريب لما آستبعده وإطماع فى إسلامهم، ولما أُطمع فى ذلك قال صلى الله عليه وسلم : "اللهم آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون" كما فى صحيح مسلم عن آبن مسعود قال : كأنى أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : "رب آغفر لقومى فإنهم

لا يعلمون". قال علماؤنا: فالحاكى فى حديث آبن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو المحكى عنه؛ بدليل ماقد جاء صريحا مبيّنا أنه عليه الصلاة والسلام لما كُسرت رَباعيته وشُجّ وجهه يوم أُحُد شقّ ذلك على أصحابه شقّا شديدا وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: "إنى لم أبعث لعّانا ولكنى بعثت داعيا ورحمة، اللّهم آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون". فكأنه عليه السلام أوحى إليه بذلك قبل وقوع قضية أُحُد، ولم يعيّن له ذلك النبىّ؛ فلما وقع له ذلك تعيّن أنه المعنىُّ بذلك بدليل ماذكرنا. ويُبيّنه أيضا ما قاله عمر له فى بعض كلامه: بأبى أنت وأمى يارسول الله! لقد دعا نوح على قومه فقال: « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »(١) الآية. ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا؛ فقد وُطِئ ظهرك وأُدمِى وجهك وكُسِرت رَبَاعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا، فقلت: "رب آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون". وقوله: "آشتد غضب الله على قوم كسروا رَباعية نبيهم" يعنى بذلك المباشرَ لذلك، وقد ذكرنا آسمه على آختلاف فى ذلك، وإنما قلنا إنه خصوص فى المباشر؛ لأنه قد أسلم جماعة ممن شهد أُحُدا وحسن إسلامهم.

الثانيـــة — زعم بعض الكوفيين أن هذه الآية ناسخة للقُنُوت الذى كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يفعله بعد الركوع فى الركعة الأخيرة من الصبح، وآحتج بحديث آبن عمر أنه سمع النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول فى صلاة الفجر بعد رفع رأسه من الركوع فقال: "اللّهم ربنا ولك الحمد فى الآخرة — ثم قال — اللّهم آلعن فلانا وفلانا" فأنزل الله عز وجل « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ » الآية. أخرجه البخارىّ، وأخرجه مسلم أيضا من حديث أبى هريرة أتمّ منه. وليس هذا موضع نسخ وإنما نبّه الله تعالى نبيه على أن الأمر ليس إليه، وأنه لا يعلم من الغيب شيئا إلا ما أعلمه، وأن الأمر كله لله يتوب على من يشاء ويعجل العقوبة لمن يشاء. والتقدير: ليس لك من الأمر شىء ولله مافى السموات ومافى الأرض دونك ودونهم يغفر لمن يشاء ويتوب على من يشاء. فلا نسخ، والله أعلم. وبيّن بقوله: « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ » أن الأمور(٢) بقضاء الله وقدره ردًّا على القدرية وغيرهم.

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣١٢ (٢) فى نسخة: هـ و ب و د، وفى غيرها: الأمر.

الثالثة — وآختلف العلماء فى القُنُوت فى صلاة الفجر وغيرها؛ فمنع الكوفيون منه فى الفجر وغيرها . وهو مذهب الليث ويحيى بن يحيى الليثى الأندلسى صاحب مالك، وأنكره الشعبى. وفى الموطأ عن آبن عمر: أنه كان لا يَقْنُت فى شيء من الصلاة. وروى النسائى أنبأنا قتيبة عن خلف عن أبى مالك الأشجعى عن أبيه قال: صليت خلف النبى صلى الله عليه وسلم فلم يقْنُت، وصليت خلف أبى بكر فلم يقْنُت، وصليت خلف عمر فلم يقْنُت، وصليت خلف عثمان فلم يقْنُت وصليت خلف على فلم يقْنُت؛ ثم قال : يا بُنَى إنها بدعة. وقيل: يقنت فى الفجر دائما وفى سائر الصلوات إذا نزل بالمسلمين نازلةٌ؛ قاله الشافعى والطبرى . وقيل : هو مُسْتَحَب فى صلاة الفجر، وروى عن الشافعى . وقال الحسن وسُحْنون : إنه سنة . وهو مقتضى رواية على بن زياد عن مالك بإعادة تاركه للصلاة عمدا . وحكى الطبرى الإجماع على أن تركه غير مفسد للصلاة. وعن الحسن : فى تركه سجود السّهْو؛ وهو أحد قولى الشافعى. وذكر الدارقطني عن سعيد آبن عبد العزيز فيمن نسِى القنوت فى صلاة الصبح قال : يسجد سجدتى السّهْو. وآختار مالك قبل الركوع ؛ وهو قول إسحاق . ورُوى أيضا عن مالك بعد الركوع ، ورُوى عن الخلفاء الأربعة؛ وهو قول الشافعى وأحمد وإسحاق أيضا . ورُوى عن جماعة من الصحابة التخيير فى ذلك . ورَوى الدارقطنى بإسناد صحيح عن أنس أنه قال : ما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقنت فى صلاة الغداة حتى فارق الدنيا . وذكر أبو داود فى المراسيل عن خالد بن أبى عِمران قال : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على مُضَر إذْ جاءه جبريل فأوْمأ إليه أن آسكت فسكت؛ فقال: " يا محمد إن الله لم يبعثك سَبّابا ولا لعّانا وإنما بعثك رحمة ولم يبعثك عذابا، لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ " قال : ثم علّمه هذا القُنُوت فقال : " اللّهم إنا نستعينُك ونستغفرُك ونؤمنُ بك ونَخْنَع(1) لك ونَخْلَع ونترُكُ من يكْفُركَ اللّهم إياك نَعْبُد ولك نصلّى ونَسْجُدُ وإليك نَسْعَى ونَحْفِد(2) ونرجُو رحمتَك ونخافُ عذابَك الجِدّ إن عذابك بالكافرين مُلْحِق(3) " .

(١) الخنوع : الخضوع والذل . (٢) الحفد (بفتح فسكون) : الإسراع فى العمل والخدمة .
(٣) الرواية بكسر الحاء ، أى من نزل به عذابك ألحقه بالكفار . وقيل : هو بمعنى لاحق، لغة فى لحق . ويروى بفتح الحاء على المفعول ، أى إن عذابك يلحق بالكفار ويصابون به . (عن آبن الأثير) .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا ٱلرِّبَوٰٓا أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ هذا النهى عن أكل الربا آعتراض بين أثناء قصة أُحد . قال آبن عطية : ولا أحفظ فى ذلك شيئا مرويا .

قلت : قال مجاهد : كانوا يبيعون البيع إلى أجل، فإذا حلّ الأجل زادوا فى الثمن على أن يؤخّروا، فأنزل الله عز وجل «يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً» . [قلت](١) وإنما خص الربا من بين سائر المعاصى، لأنه الذى أذن الله فيه بالحرب فى قوله : «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ»(٢) والحرب يؤذن بالقتل، فكأنه يقول : إن لم تتقوا الربا هُزِمتم وقُتلتم . فأمرهم بترك الربا، لأنه كان معمولا به عندهم . والله أعلم . و﴿ أَضْعَافًا ﴾ نصب على الحال و﴿ مُضَاعَفَةً ﴾ نعته . وقرئ « مُضَعَّفَةً » ومعناه : الربا الذى كانت العرب تُضْعِف فيه الدَّيْن، فكان الطالب يقول : أتقضى أم تُرْبى؟ كما تقدّم فى « البقرة » . و﴿ مُضَاعَفَةً ﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاما بعد عام كما كانوا يصنعون، فدلت هذه العبارة المؤكدة على شُنعة فعلهم وقُبحه، ولذلك ذكرت حالة التضعيف خاصة .

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أى فى أموال الربا فلا تأكلوها . ثم خوّفهم فقال : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ قال كثير من المفسرين : وهذا الوعيد لمن آستحل الربا، ومن آستحل الربا فإنه يكفُر [ويكفَّر](٣) . وقيل : معناه آتقوا العمل الذى ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار، لأن من الذنوب مايستوجب به صاحبه نزع الإيمان ويخاف عليه، من ذلك عقوق الوالدين . وقد جاء فى ذلك أثر : أن رجلا كان عاقا لوالديه يقال له عَلْقَمَة، فقيل له عند الموت : قل لا إله إلا الله، فلم يقدر على ذلك حتى جاءته أمه فرضيت عنه . ومن ذلك قطيعة الرحم وأكل الربا والخيانة

(١) فى هـ . (٢) راجع جـ ٣ ص ٢٥٦ (٣) فى د وهـ وفى ب : ويضر .

فى الأمانة . وذكر أبو بكر الوراق عن أبى حنيفة أنه قال : أكثر ما ينزع الإيمان من العبد عند الموت . ثم قال أبو بكر : فنظرنا فى الذنوب التى تنزع الإيمان فلم نجد شيئا أسرع نزعا للإيمان من ظلم العباد . وفى هذه الآية دليل على أن النار مخلوقة ردا على الجهمية؛ لأن المعدوم لا يكون مُعدًا . ثم قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾[يعنى أطيعوا الله](١) فى الفرائض ﴿ والرَّسُولَ ﴾ فى السنن : وقيل : « أَطِيعُوا اللَّهَ » فى تحريم الربا « والرسول » فيما بلغكم من التحريم . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أى كى يرحمكم الله . وقد تقدم(٢) .

قوله تعالى : وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾

فيه مسألتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وسَارِعُوا ﴾ قرأ نافع وابن عامر « سَارِعُوا » بغير واو؛ وكذلك هى فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام . وقرأ باقى السبعة « وَسَارِعُوا » بالواو . وقال أبو على : كلا الأمرين شائع(٣) مستقيم ، فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجملة على الجملة ، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانية ملتبسة بالأولى مستغنية بذلك عن العطف بالواو . والمسارعة المبادرة ، وهى مفاعلة . وفى الآية حذف، أى سارعوا إلى ما يوجب المغفرة وهى الطاعة . قال أنس ابن مالك ومكحول فى تفسير ﴿ سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ : معناه إلى تكبيرة الإحرام . وقال على بن أبى طالب : إلى أداء الفرائض . عثمان بن عفان : إلى الإخلاص . الكلبى : إلى التوبة من الربا . وقيل : إلى الثبات فى القتال . وقيل غير هذا . والآية عامة فى الجميع ، ومعناها معنى « فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ »(٤) وقد تقدم .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ تقديره كعرض فحذف المضاف ؛ كقوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ »(٥) أى إلا كخلق نفس واحدة وبعثها . قال الشاعر :

---

(١) فى هـ . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٢٧ (٣) فى هـ : سائغ . (٤) راجع جـ ٢ ص ١٦٥
(٥) راجع جـ ١٤ ص ٧٨

حَسِبْتَ بُغَـامَ رَاحِلَتِى عَنَـاقًا * وما هى وَيْبَ غَيرِك بالعَنَـاقِ (١)

يريد صوت عناق . نظيره فى سـورة الحديد « وجَنَّـةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ والأَرْضِ » (٢) .

وٱختلف العلماء فى تأويله ؛ فقال ٱبن عباس : تُقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض ؛ فذلك عرض الجنة ، ولا يعلم طولها إلا الله . وهذا قول الجمهور ، وذلك لاينكر ؛ فإن فى حديث أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم "ما السموات السبع والأرضون السبع فى الكرسى إلا كدراهم أُلقِيت فى فلاةٍ من الأرض وما الكرسى فى العرش إلا كحَلْقَة (٣) أُلقيت فى فلاة من الأرض" . فهذه مخلوقات أعظم بكثير جدّا من السموات والأرض ، وقدرة الله أعظم من ذلك كله . وقال الكلبى : الجِنَان أربعـة : جنة عدن وجنة المأوى وجنة الفِردوس وجنة النعيم ، وكل جنة منها كعرض السماء والأرض لو وصل بعضها ببعض . وقال إسماعيل السدى : لو كسرت السموات والأرض وصرن خردلا ، فبكل خردلة جنة عرضها كعرض السماء والأرض . وفى الصحيح : "إن أدنى أهل الجنة منزلة من يَتمنّى ويتمنّى حتى إذا ٱنقطعت به الأمانى قال الله تعالى : لك ذلك وعشرة أمثاله" رواه أبو سعيد الخدرى ، خرجه مسلم وغيره . وقال يعلى بن أبى مُرّة : لقِيتُ التَّنُوخِىّ رسول هِرَقْل إلى النبى صلى الله عليه وسلم بِحِمْص شيخا كبيرا قال : قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتاب هرقل ، فناول الصحيفة رجلا عن يساره ؛ قال : فقلت من صاحبكم الذى يقـرأ ؟ قالوا : معاوية ؛ فإذا كتاب صاحبى : إنك كتبت تدعونى إلى جنـة عرضها السموات والأرض فأين النار ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سبحان الله فأين الليل إذا جاء النهار" . وبمثل هـذه الحجة ٱستدل الفاروق على اليهود حين قالوا له : أرأيت قولكم « وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْضُ » فأين النار ؟ فقالوا له : لقد نزعت بمـا (٤) فى التوراة . ونبّه تعالى بالعرض على الطول لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض ، والطول إذا ذكر لا يدل على قدر

(١) بغام الناقة : صوت لا تفصح به . والعناق (بالفتح) : الأنثى من المعز . وويب ، بمعنى ويل . والبيت لذى الخرق الطهوى يخاطب ذئبا تبعه فى طريقه . (عن اللسان) . (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٥٤

(٣) فى هـ : من حديد . (٤) نزعت بما فى التوراة . جئت بما يشبهها .

العرض . قال الزهرى : إنما وصف عرضها، فأما طولها فلا يعلمه إلا الله؛ وهذا كقوله تعالى : « مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ »(١) فوصف البطانة بأحسن ما يعلم من الزينة، إذ معلوم أن الظواهر تكون أحسن وأتقن من البطائن . وتقول العرب : بلاد عريضة ، وفلاة عريضة، أى واسعة؛ قال الشاعر :

كأنّ بلادَ الله وهْىَ عَرِيضَةٌ * على الخائف المطلوب كِفّةُ حَابِلِ(٢)

وقال قوم : الكلام جارٍ على مَقْطَعَ العرب من الاستعارة؛ فلما كانت الجنة من الاتساع والانفساح فى غايةٍ قصوى حسنت العبارة عنها بعرض السموات والأرض؛ كما تقول للرجل : هذا بحرٌ(٣) ، ولشخص كبير من الحيوان : هذا جبل . ولم تقصد الآية تحديد العرض ، ولكن أراد بذلك أنها أوسع شىء رأيتموه. وعامّة العلماء على أن الجنة مخلوقة موجودة: لقوله ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وهو نص حديث الإسراء وغيره فى الصحيحين وغيرهما . وقالت المعتزلة : إنهما غير مخلوقتين فى وقتنا ،و إن الله تعالى إذا طوى السموات والأرض ابتدأ خلق الجنة والنار حيث شاء؛ لأنهما دار جزاء بالثواب والعقاب ، فخلقتا بعد التكليف فى وقت الجزاء ؛ لئلا تجتمع دار التكليف ودار الجزاء فى الدنيا، كما لم يجتمعا فى الآخرة . وقال ابن فورك : الجنة يزاد فيها يوم القيامة . قال ابن عطية: وفى هذا متعلَّق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال : إن الجنة لم تخلق بعد . قال ابن عطية : وقول ابن فورك « يزاد فيها » إشارة إلى موجود ، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر فى الزيادة .

قلت : صدق ابن عطية رضى الله عنه فيما قال: و إذا كانت السموات السبع والأرضون السبع بالنسبة إلى الكرسى كدراهم ألقيت فى فلاة من الأرض ، والكرسىّ بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة ؛ فالجنة الآن على ما هى عليه فى الآخرة عرضها كعرض السموات والأرض؛ إذ العرش سقفها ، حسب ما ورد فى صحيح مسلم . ومعلوم أن السقف يحتوى على ماتحته و يزيد. و إذا كانت المخلوقات كلها بالنسبة إليه كالحلقة فمن ذا الذى يقدّره و يعلم طوله وعرضه إلا الله خالقه الذى لا نهاية لقدرته(٤)، ولا غاية لسعة مملكته، سبحانه وتعالى .

(١) راجع ج ١٧ ص ١٧٩ (٢) الكفة (بالكسر) : ما يصاد به الظباء، يجعل كالطوق .
(٣) فى د و ه : ولكنه يراد . (٤) فى د و ب و ه : لمقدوراته .

قوله تعـالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ هذا من صفة المتقين الذين أعِدّت لهم الجنة، وظاهر الآية أنهـا مدح بفعل المندوب إليه . و ﴿السَّرَّاءِ﴾ اليسر ﴿والضَّرَّاءِ﴾ العسر ؛ قاله ابن عباس والكلبي ومقاتل . وقال عبيد بن عمير والضحاك : السرّاء والضرّاء الرخاء والشدّة . ويقال في حال الصحة والمرض . وقيل : في السرّاء في الحياة، وفي الضرّاء يعني يوصى بعد الموت . وقيـل : في السرّاء في العرس والولائم ، وفي الضرّاء في النوائب والمـآتم . وقيل : في السرّاء النفقة التي تسرّكم؛ مثل النفقة على الأولاد والقرابات، والضرّاء على الأعداء . ويقال : في السرّاء ما يضيف به الفتى[1] ويُهْدى إليه . والضرّاء ما ينفقه على أهل الضر ويتصدّق به عليهم .

قلت : — والآية تعم . ثم قال تعالى : ﴿والْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ وهي المسألة :

الثانيـــة — وكَظْم الغيظ ردّه في الجوف؛ يقال : كظم غيظه أي سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوّه، وكظمت السِّقاء أي ملأته وسددت عليه، والكِظامة ما يسدّ به مجرى المـاء؛ ومنه الكِظام للسير الذي يسدّ به فَمُ الزِّقّ والقِربة . وكظم البعير جِرّته[2] إذا ردّها في جوفه؛ وقد يقال لحبسه الجِرّة قبل أن يرسلها إلى فِيه : كظم؛ حكاه الزجاج . يقال : كظم البعير والناقة إذا لم يجترّا ؛ ومنه قول الراعي :

فأفَضْنَ بعـد كُظومِهن بجِـرّةٍ * من ذي الأبارِق[3] إذ رَعَيْن حَقِيلا

الحقيل : موضع . والحقيل نبت . وقد قيل : إنها تفعل ذلك عند الفزع والجهد فلا تجترّ؛ قال أعشى باهلة يصف رجلا نحّارا للإبل فهي تفزع منه :

قد تكظِم البُزْلُ[4] منه حين تُبْصِره * حتى تَقَطَّع في أجوافهـا الجِرَرُ

(١) في د، وز : الغني . (٢) الجرة (بالكسر) : ما يخرجه البعير من بطنه ليمضغه ثم يبلعه .

(٣) في ب وه و د : ذي الأباطح . (٤) البزل (بضم فسكون) : جمـع بازل، وهو البعير الذي كملت قوّته ودخل في التاسعة وفطر نابه .

ومنه : رجل كظيم ومكظوم إذا كان ممتلئا غما وحزنا . وفى التنزيل : « وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ »[١] . «ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ» . «إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ» . والغيظ أصل الغضب، وكثيرا ما يتلازمان لكن فُرْقانٌ ما بينهما ، أنّ الغيظ لا يظهر على الجوارح ، بخلاف الغضب فإنه يظهر فى الجوارح مع فعل مّا ولا بدّ؛ ولهذا جاء[٢] إسناد الغضب إلى الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله فى المغضوب عليهم . وقد فسر بعض الناس الغيظ بالغضب؛ وليس بجيد . والله أعلم .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ العفو عن الناس أَجَلُّ ضُرُوبِ فعل الخير؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو وحيث يتّجه حقه . وكل من ٱستحق عقوبة فتُرِكت له فقد عُفِي عنه . وٱختلف فى معنى «عَنِ النَّاسِ» ؛ فقال أبو العالية والكلبي والزجاج : «والعافين عن الناس » يريد عن المماليك. قال ٱبن عطية : وهذا حسن على جهة المثال؛ إذ هُم الخَدَمَة فهم يذنبون كثيرا والقدرة عليهم متيسرة، و إنفاذ العقوبة سهل؛ فلذلك مثل هذا المفسَّر به . ورُوى عن ميمون بن مهران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مَرَقَة حارّة ، وعنده أضياف فعثرت فصبت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية : يامولاى، ٱستعمل قول الله تعالى: «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ» . قال لها : قد فعلت . فقالت: ٱعمل بما بعده «وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ». فقال: قد عفوتُ عنك . فقالت الجارية : «وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» . قال ميمون : قد أحسنت إليكِ، فأنتِ حرّة لوجه الله تعالى. ورُوى عن الأحنف بن قيس مثله . وقال زيد ٱبن سلم : « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » عن ظلمهم و إساءتهم[٣] . وهذا عام، وهو ظاهر الآية . وقال مقاتل بن حيان فى هذه الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند ذلك : "إنّ هؤلاء من أمتى قليل إلا من عصمه الله وقد كانوا كثيرا فى الأمم التى مضت". فمدح الله تعالى الذين يغفرون عند الغضب وأثنى عليهم فقال : « وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ »[٤] ، وأثنى على الكاظمين الغيظ بقوله : « وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ » ، وأخبر أنه يحبهم بإحسانهم فى ذلك . و وردت فى كظم الغيظ والعفو عن الناس وملْك النفس عند الغضب أحاديثُ ؛ وذلك من

(١) راجع جـ ٩ ص ٢٤٧ وجـ ١٠ ص ١١٦ وجـ ١٨ ص ٢٥٢ (٢) فى د : جاز .
(٣) فى هـ : عمن ظلمهم وأساء إليهم . (٤) راجع جـ ١٦ ص ٣٥

أعظم العبادة وجهادِ النفس ؛ فقال صلى الله عليه وسلم : " ليس الشديد بالصُّرَعَةِ[(١)] ولكن الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب " . وقال عليه السلام " ما من جرعة يتجرّعها العبد خير له وأعظم أجرا من جرعةِ غيظٍ فى الله " . وروى أنس أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما أشدّ من كل شىء ؟ قال : " غضب الله " . قال فما ينجى من غضب الله ؟ قال : " لا تغضب " . قال العرجىّ :

وإذا غضبتَ فكن وَقُورا كاظِما ❊ للغيظ تَبْصُر ما تقول وتسمع

فكفى به شرفا تَصَبُّر ساعةٍ ❊ يرضى بها عنك الإله وتُرفع

وقال عروة بن الزبير فى العفو :

لن يبلغ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا ❊ حتى يُذَلُّوا وإن عَزّوا لِأقوامِ

ويُشْتَموا فترى الألوانَ مُشرِقَة ❊ لا عَفْو ذُلٍّ ولكن عَفْو إكرامِ

وروى أبو داود وأبو عيسى الترمذىّ عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنِىّ عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من كظم غيظا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيره فى أى الحورِ شاء" قال : هذا حديث حسن غريب . وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ من كان أجره على الله فليدخل الجنة فيقال من ذا الذى أجره على الله فيقوم العافون عن الناس يدخلون الجنة بغير حساب". ذكره الماوردى . وقال ابن المبارك : كنت عند المنصور جالسا فأمر بقتل رجل؛ فقلت : يا أمير المؤمنين ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ بين يدى الله عز وجل من كانت له يد عند الله فليتقدّم فلا يتقدّم إلا من عفا عن ذنب"؛ فأمر بإطلاقه .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أى يثيبهم على إحسانهم . قال سَرِىّ السَّقَطِى : الإحسان أن تحسِن وقت الإمكانِ ، فليس كل وقت يمكنك الإحسان؛ قال الشاعر :

---

(١) الصرعة (بضم الصاد وفتح الراء) : المبالغ فى الصراع الذى لا يغلب ؛ فنقله إلى الذى يغلب نفسه عند الغضب ويقهرها .

بادِرْ بخيرٍ إذا ما كنتَ مُقْتَدِرا * فليس فى كلِّ وقتٍ أنتَ مُقتدِرُ

وقال أبو العباس الجُمَّانِيّ فأحسن :

ليس فى كلِّ ساعةٍ وأوانِ * تَتَهَيَّأُ صنائعُ الإحسانِ

وإذا أمكنتْ فبادِرْ إليها * حذرًا من تعذُّرِ الإمكانِ

وقد مضى فى « البقرة »[(1)] القول فى المحسن والإحسان فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾

فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ذكر الله تعالى فى هذه الآية صِنْفا، هم[(2)] دون الصنف الأول فألحقهم به برحمته ومَنِّه؛ فهؤلاء هم التوابون . قال ابن عباس فى رواية عطاء : نزلت هذه الآية فى نَبْهَان التَّمَّار — وكنيته أبو مُقْبِل — أتته امرأة حَسْناء باع منها تمرا ، فضمّها إلى نفسه وقبّلها[(3)] فندم على ذلك ، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له ؛ فنزلت هذه الآية . وذكر أبو داود الطيالِسِيّ فى مسنده عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال : حدّثنى أبو بكر — وصَدَق أبو بكر — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما من عبد يذنب ذنبا ثم يتوضأ و يصلى ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر له — ثم تلا هذه الآية — وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ — الآية، والآية الأخرى — وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ[(4)]". وخرّجه الترمذىّ وقال : حديث حسن . وهذا عامٌّ . وقد تنزل الآية بسبب خاص ثم تتناول جميع مَن فعل ذلك أو أكثر منه . وقد قيل : إن سبب نزولها أن ثَقَفِيا خرج فى غزاة وخلّف صاحبا له أنصاريا على أهله ، فخانَه فيها بأن

(١) راجع جـ ١ ص ٤١٥
(٢) فى ابن عطية : بهم .
(٣) فى ب و د و هـ : ثم .
(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٨٠

اقتحم عليها فدفعت عن نفسها فقبّل يدها ، فندم على ذلك فخرج[1] يَسِيح فى الأرض نادما تائبا ؛ فجاء الثقفى فأخبرته زوجته بفعل صاحبه ، فخرج فى طلبه فأتى به إلى أبى بكر وعمر رَجاءَ أن يجد عندهما فرجا فوبّخاه ؛ فأتى النبى صلى الله عليـه وسلم فأخبره بفعله ؛ فنزلت هذه الآية . والعموم أولى للحديث . وروى عن ابن مسعود أن الصحابة قالوا : يا رسـول الله ، كانت بنو إسرائيل أكرَمَ على الله مِنّا ، حيث كان المذْنب منهم تُصْبِح عقوبتُه [مكتوبة][2] على باب داره ، وفى رواية : كفارةُ ذنْبِه مكتوبةٌ على عَتَبة داره : اجْدَعْ أنفَك ، اقْطَع أُذُنَك ، افعل كذا ؛ فأنزل الله تعـالى هذه الآية تَوْسعةً ورحمةً وعِوَضًا من ذلك الفعـل ببنى إسرائيل . ويُروى أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية . والفاحشة تطلق على كل معصية ، وقد كثر اختصاصها بالزنا حتى فسر جابر بن عبـد الله والسّدى هـذه الآية بالزنا . و « أَوْ » فى قوله « أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ » قيـل هى بمعنى الواو ؛ والمـراد ما دون الكبائر . ﴿ ذَكَرُوا اللهَ ﴾ معناه بالخوف من عقابه والحَيَاءِ منه . الضحاك : ذكروا العَرْضَ الأكبر على الله . وقيل تفكروا فى أنفسهم أن الله سائلهم عنـه ؛ قاله الكلبى ومقاتل . وعن مقاتل أيضا : ذكروا الله باللسان عنـد الذنوب . ﴿ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ أى طلبوا الغفران لأجل ذنوبهم . وكل دعاء فيه هذا المعنى أو لفظه فهو استغفار . وقد تقدّم فى صدر هذه السورة[3] سيد الاستغفار ، وأن وقته الأسحار . فالاستغفار عظيم وثوابه جسيم ، حتى لقـد روَى الترمذى عن النبى صـلى الله عليـه وسلم أنه قال : " من قال أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليـه غفر له وإن كان قد فرّ من الزحف" . ورَوى مَكْحُول عن أبى هريرة قال : ما رأيت أكثر استغفارا من رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مكحول : ما رأيت أكثر استغفارا من أبى هريرة . وكان مكحول كثير الاستغفار . قال علماؤنا : الاستغفار المطلوب هو الذى يَحُلّ عَقْدَ الإصرار ويثبت معناه فى الجَنَان ، لا التلفظ باللسان . فأما من قال بلسانه : أسـتغفر الله ، وقلبه مصِرّ على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار ، وصغيرته لاحقة بالكبائر . وروى عن الحسن البصرى أنه قال : استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

(١) فى ب ود وه : ثم . (٢) كذا فى ابن عطية ، وهى الرواية . (٣) راجع ص ٣٨

قلت : هذا يقوله في زمانه ، فكيف في زماننا هذا الذي يُرى فيه الإنسانُ مُكبًّا على الظلم ! حريصا عليه لا يُقلِع ، والسُّبحَة في يده زاعما أنه يستغفر الله من ذنبه وذلك ٱستهزاء منه وٱستخفاف . وفي التنزيل « وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا »(1) . وقد تقدّم .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ ﴾ أي ليس أحد يغفر المعصية ولا يزيل عقوبتها إلا الله . ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ أي ولم يثبتوا و يعزموا على مافعلوا . وقال مجاهد : أي ولم يمضوا . وقال معبـد بن صُبَيح : صليت خلف عثمان وعليٌّ إلى جانبي ، فأقبـل علينا فقال : صليتُ بغير وضوء ثم ذهب فتوضأ وصلّى . ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . الإصرار هو العزم بالقلب على الأمر وترك الإقلاع عنه . ومنه صَرّ الدنانيرِ أي الرّبط عليها ؛ قال الحطيئة يصف الخيل :

عوابس بالشُّعْثِ الكُماة إذا ٱبتغوا * عُلالَتَها بالمُحْصَـدَاتِ(2) أصَرَّتِ

أي ثبتت على عَدْوِها . وقال قتادة : الإصرار الثبوت على المعاصي ؛ قال الشاعر :

يُصِرّ بالليــل ما تُخْفِي شَوَاكِلُه(3) * يا ويحَ كلِّ مُصِرّ القلب خَتَّار(4)

قال سهل بن عبد الله : الجـاهل ميِّتٌ ، والناسي نائمٌ ، والعـاصي سَكْران ، والمصِرّ هالك ، والإصرار هو التسويف ، والتسويف أن يقول : أتوب غدا ؛ وهذا دعوى النفس ، كيف يتوب غدا وغدا لا يملكه ! . وقال غير سهل : الإصرار هو أن ينـوى ألّا يتوب فإذا نوى التوبة [النصوح](5) خرج عن الإصرار . وقول سهلٍ أحسن . ورُوى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لا توبة مع إصرار" .

الثالثــة — قال علماؤنا : الباعث على التّوبة وحلّ الإصرار إدامةُ الفكر في كتاب الله العزيز الغفّار ، وما ذكره الله سبحانه من تفاصيل الجنة ووعد به المطيعين ، وما وصفه من

---

(1) راجع جـ ١ ص ٤٤٦ وجـ ٣ ص ١٥٦ (2) العلالة (بالضم) : بقية جرى الفرس ، والمحصدات : السياط المفتولة . (3) الشواكل : الطرق المنشعبة عن الطريق الأعظم .
(4) الختر : شبيه بالغدر والخديعة . وقيل : هو أسوأ الغدر وأقبحه ، و « ختار » للبالغة .
(5) في ب و د .

عذاب النار وتهدّد به العاصين، ودام على ذلك حتى قوِى خوفه ورجاؤه فدعا الله رَغَبا و رَهَبا؛ والرَّغْبَــة والرَّهبة ثمرة الخــوف والرجاء، يخــاف من العِقاب و يرجو الثواب، والله الموفق للصواب. وقد قيــل: إن الباعث على ذلك تنبيه إلهِىٌّ ينبَّه به من أراد ســعادته؛ لِقبح الذنوب وضررها إذ هى سُموم مهلكة.

قلت: وهــذا خلاف فى اللفظ لا فى المعنى، فإن الإنسان لا يتفكر فى وعد الله ووعيده إلا بتَنْبيهه؛ فإذا نظر العبــد بتوفيق الله تعالى إلى نفسه فوجدها مشْحُونة بذنوب اكتسبها وسيئات اقترفها، وانبعث منه الندمُ على ما فرط، وترك مثلَ ما سبق مخــافةَ عقوبة الله تعالى صَدّق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصِرًّا على المعصية وملازِما لأسباب الهلكة. قال سهل بن عبــد الله: علامة التائب أن يشغله الذنب على الطعام والشراب؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا[(١)].

الرابعـــة — قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فيه أقوال. فقيل: أى يذكرون ذنوبهم فيتوبون منها. قال النحاس: وهذا قول حسن. وقيل: « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنى أعاقب على الإصرار. وقال عبد الله بن عُبيد بن عُمير: « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أنهم إن تابوا تاب الله عليهم. وقيل: « يَعْلَمُونَ » أنهم إن استغفروا غفر لهم. وقيل: « يَعْلَمُونَ » بما حرّمتُ عليهم؛ قاله ابن إسحاق. وقال ابن عباس والحسن ومقاتل والكلبي: « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أن الإصرار ضار، وأن تركه خير من التمادِى. وقال الحسن بن الفضل: « وَهُمْ يَعْلَمُونَ » أن لهم ربا يغفر الذنب.

قلت: وهــذا أخذه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما يَحكِى عن ربه عز وجل قال: "أذنبَ عبدٌ[(٢)] ذنبا فقال اللّهم اغفرلى ذنبى فقال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنبا فعلِم أن له ربًّا يغفِر الذنب ويأخذ بالذنب ثم عاد فأذنب فقال أىْ ربِّ اغفر لى ذنبى — فذكر مثله مرتين، وفى آخره: اعمــل ما شئتَ فقد غفرتُ لك" أخرجه مسلم.

(١) هم كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيعة. تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك؛ فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه" لا تكلمن أحدا من هؤلاء الثلاثة " إلى أن نزل فيهم قوله تعــالى: « وعلى الثلاثة الذين خلفوا ... » راجع جـ ٨ ص ٢٨١، وسيرة ابن هشام ص ٨٩٣ طبع أوربا.

(٢) فى هـ: عبدى. والثابت هو ما فى مسلم.

وفيه دليلٌ على صحة التوبة بعد نَقْضها بمُعاودة الذّنب ؛ لأن التوبة الأولى طاعةٌ وقد انقضت وصحَّت ، وهو محتاج بعد مواقعة الذنب الثانى إلى توبة أخرى مستأنفة ، والعود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه أضاف[1] إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنه أضاف[1] إليها ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه . وقوله فى آخر الحديث "اعمل ما شئت" أمرٌ معناه الإكرام فى أحد الأقوال ؛ فيكون من باب قوله : «ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ»[2] . وآخر الكلام خبرٌ[3] عن حال المخاطب بأنه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ إن شاء الله تعالى فيما يستقبل من شأنه . ودلّت الآية والحديثُ على عظيم فائدة الاعتراف بالذنب والاستغفار منه ، قال صلى الله عليه وسلم : " إن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه " أخرجاه فى الصحيحين . وقال :

يستوجبُ العفوَ الفتى إذا اعترفْ * بما جَنَى من الذنوب واقترفْ

وقال آخر :

أقْرِرْ بذنبك ثم اطلُبْ تجاوُزَه * إن الجُحُودَ جُحُودَ الذّنْب ذنبان

وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لو لم تُذْنِبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يُذنبون ويستغفرون فيغفر لهم". وهذه فائدة اسم الله تعالى الغفّار والتوّاب ، على ما بيناه فى الكتاب الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى .

الخامسة — الذنوب التى يُتاب منها إمّا كُفرٌ أو غيره، فتوبة الكافر إيمانُه مع ندمه على ما سلف من كفره ، وليس مجرّد الإيمان نفسَ توبة ، وغير الكفر إمّا حقٌّ لله تعالى ، وإمّا حقٌّ لغيره ، فحق الله تعالى يكفى فى التوبة منه التَّركُ ؛ غير أن منها مالم يكتف الشرع فيها بمجرّد الترك بل أضاف إلى ذلك فى بعضها قضاءً كالصلاة والصوم، ومنها ما أضاف إليها كفارة كالحِنث فى الأَيْمان والظِّهار وغير ذلك ، وأمّا حقوق الآدميّين فلا بدّ من إيصالها إلى مستحقيها ، فإن لم يوجَدوا تُصدّق عنهم ، ومن لم يجد السبيل لخروج ما عليه لإعسارٍ فعفو الله مأمولٌ ، وفضله مبذولٌ ؛ فكم ضَمِنَ من التبِعات وبدّل من السيئات بالحسنات . وستأتى زيادة بيان لهذا المعنى[4] .

(١) فى ب و د و هـ : أنضاف .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٢ ، وجـ ١٧ ص ٢١
(٣) فى أ و حـ : أخبر .
(٤) راجع جـ ١٣ ص ٧٧

السادسة — ليس على الإنسان إذا لم يذكر ذنبه ويعلمه أن يتوب منه بعينه، ولكن يلزمه إذا ذكر ذنبا تاب منه . وقد تأول كثير من الناس فيما ذكر شيخنا أبو محمد عبد المعطى الأسكندرانى رضى الله عنه أن الإمام المحاسبى رحمه الله يرى أن التوبة من أجناس المعاصى لا تصح ، وأن الندم على جملتها لا يكفى، بل لا بدّ أن يتوب من كل فعل بجارحته وكل عقد بقلبه على التعيين . ظنوا ذلك من قوله ، وليس هذا مراده ، ولا يقتضيه كلامه، بل حكم المكلَّف إذا عرف حكم أفعاله ، وعرف المعصية من غيرها، صحّت منه التوبة من جملة ما عرف؛ فإنه إن لم يعرف كون فعله الماضى معصية لا يمكنه أن يتوب منه لا على الجملة ولا على التفصيل؛ ومثاله رجل كان يتعاطى بابا من أبواب الربا ولا يعرف أنه ربا فإذا سمع كلام الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ »(1) عظم عليه هذا التهديد، وظن أنه سالم من الربا، فإذا علم حقيقة الربا الآن، ثم تفكر فيما مضى من أيامه وعلم أنه لابَس منه شيئا كثيرا فى أوقات متقدمة ، صح أن يندم عليه الآن جملة ، ولا يلزمه تعيينُ أوقاته ، وهكذا كل ما واقع من الذنوب والسيئات كالغيبة والنميمة وغيرِ ذلك من المحرمات التى لم يعرف كونها محرمة، فإذا فَقُه العبد وتفقّد ما مضى من كلامه تاب من ذلك جملةً ، ونَدِم على ما فرّط فيه من حق الله تعالى ، وإذا استحلّ مَن كان ظلمه فحالّله على الجملة وطابت نفسه بترك حقه جاز؛ لأنه من باب هبة المجهول، هذا مع شُحّ العبد وحرصه على طلب حقه ، فكيف بأكرم الأكرمين المتفضل بالطاعات وأسبابها والعفوِ عن المعاصى صغارها وكبارها . قال شيخنا رحمه الله تعالى : هذا مراد الإمام، والذى يدل عليه كلامه لمن تفقّده، وما ظنه به الظّانّ من أنه لا يصح الندم إلا على فعلٍ فعلٍ وحركةٍ حركةٍ وسكنةٍ سكنةٍ على التعيين هو من باب تكليف ما لا يُطاق، الذى لم يقع شرعا وإن جاز عقلا ، ويلزم عنه أن يعرف كم جرعة جرعها فى شرب الخمر ، وكم حركة تحركها فى الزنا ، وكم خطوة مَشاها إلى محرّم ، وهذا مالا يطيقه أحدٌ ، ولا تتأتّى منه توبة على التفصيل . وسيأتى لهذا الباب مزيدُ بيان من أحكام التوبة وشروطها فى « النساء »(2) وغيرها إن شاء الله تعالى .

---

(1) راجع جـ ٣ ص ٣٦٢ (2) راجع جـ ٥ ص ٩٠ ، وجـ ١١ ص ٢٣١ ، وجـ ١٣ ص ٢٣٨

السابعة — فى قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا ﴾ حُجَّةٌ واضحة ودلالة قاطعة لما قاله سيف السنة، ولسان الأمة القاضى أبو بكر بن الطيب : أن الإنسان يؤاخذ بما وطَّن عليه بضميره، (١) وعزم عليه بقلبه من المعصية .

قلت : وفى التنزيل « وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ » (٢) وقال : « فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ » (٣) . فعوقبوا قبل فعلهم بعزمهم وسيأتى بيانه وفى البخارى "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار" قالوا : يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال : "إنه كان حريصا على قتل صاحبه" . فعلق الوعيد على الحرص وهو العزم وألغى إظهار السلاح ، وأنصُّ من هذا ما خرّجه الترمذى من حديث أبى كبشة الأنمارى وصححه مرفوعا "إنما الدنيا لأربعة نفر رجل أعطاه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل ، ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فهو [صادق النية] (٤) يقول لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو [يخبط فى ماله بغير علم] (٤) لا يتقى فيه ربه ولا يصل به رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل، ورجل لم يؤته الله مالا ولا علما فهو يقول لو أن لى مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء" . وهذا الذى صار إليه القاضى هو الذى عليه عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين ، ولا يُلتفت إلى خلاف من زعم أن ما يَهُمّ الإنسانُ به وإن وَطَّن عليه (٥) لا يؤاخذ به . ولا حجة [له] (٦) فى قوله عليه السلام : "من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه فإن عملها كتبت سيئة واحدة" لأن معنى "فلم يعملها" فلم يعزم على عملها بدليل ما ذكرنا ، ومعنى "فإن عملها" أى أظهرها أو عزم عليها بدليل ما وصفنا . وبالله توفيقنا .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

رتب تعالى بفضله وكرمه غفران الذنوب لمن أخلص فى توبته ولم يصرّ على ذنبه . ويمكن أن يتصل هذا بقصة أُحُد ، أى من فرّ ثم تاب ولم يصرّ فله مغفرة الله .

---

(١) فى أ و حـ : وطن عليه ضميره ، وعلى ما أثبت يقدر المعمول .
(٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٤ (٣) راجع جـ ١٨ ص ٢٤١ (٤) زيادة عن سنن الترمذى .
(٥) المعمول محذوف فى كل الأصول ، وتقديره فى قول القاضى السابق (٦) فى هـ .

قوله تعـالى : قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾

هذا تسلية من الله تعالى للؤمنين ، والسُّنَن جمع سُنَّة وهى الطريق المستقيم . وفلان على السنة أى على طريق الأستِوَاء لا يميل إلى شيء من الاهواء ، قال الهذلىّ :

فلا تَجْزَعَن مِنْ سُنَّة أنت سِرْتَها * فأوّلُ راضٍ سُـنَّةً مَن يَسيرها

والسنة : الإمام المتّبع المؤتَمُّ به ، يقال : سنّ فلانٌ سنة حسنة وسيئةً إذا عمل عملا اقتُدِى به فيه من خيرٍ أو شر ، قال لبيد :

مِن مَعشرٍ سَنَّت لهم آباؤهم * ولكلِّ قـومٍ سـنّةٌ وإمامُها

والسنة الأمّة ، والسنن الأُمَمُ ؛ عن المفصل . وأنشد :

ما عايَنَ الناسُ من فَضْلٍ كفضلِهم * ولا رَأوا مِثلَهـم فى سالِفِ السُّننِ

وقال الزجاج : والمعنى أهل سنن ، لحذف المضاف . وقال أبو زيد : أمثال . عطاء : شرائع . مجاهد : المعنى « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » يعنى بالهلاك فيمن كذّب قبلكم كعادٍ وثمود . والعاقبة : آخر الأمر ، وهـذا فى يوم أُحُد . يقول فأنا أمهلهم وأُملِى لهم وأستَدْرِجُهم حتى يبلغ الكتاب أجله ، يعنى بنصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وهلاك أعدائهم الكافرين .

قوله تعـالى : هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾

يعنى القرآن ، عن الحسن وغيره . وقيل : هذا إشارة إلى قوله : « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ » . والموعظة الوعظ . وقد تقدّم .

قوله تعـالى : وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

عزّاهم وسلّاهم بما نالهم يوم أُحُد من القتل والجراح ، وحثّهم على قتال عدوّهم ونهاهم عن العجز والفشل فقال ﴿وَلَا تَهِنُوا﴾ أى لا تضعفوا ولا تجبُنوا يا أصحاب محمد عن جهاد أعدائكم لمـا

أصابكم . «وَلَا تَحْزَنُوا» على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة والمصيبة . «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» أى لكم تكون العاقبــة بالنصر والظفر «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» أى بصــدق وَعْدِى . وقيل : «إن» بمعنى «إذ» . قال ابن عباس : انهزم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد فبيناهم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل من المشركين ، يريد أن يعلُو عليهم الجبل ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «اللّهم لا يعلُنّ علينا اللّهم لا قوة لنا إلا بك اللّهم ليس يعبــدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر» . فأنزل الله هذه الآيات . وثاب(١) نفر من المسلمين رماة فصعِدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتى هزموهم ؛ فذلك قوله تعـالى : «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» يعنى الغالبين على الأعداء بعــد أحد . فلم يُخرِجوا بعــد ذلك عسكرا إلّا ظفِروا فى كل عسكر كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفى كل عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان فيه واحدٌ من الصحابة كان الظفر لهم ، وهذه البلدان كلها إنما افتتِحت على عهد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ثم بعد انقراضهم ما افتتِحت بلدة على الوجه كما كانوا يفتتحون فى ذلك الوقت . وفى هذه الآية بيان فضلِ هذه الأمة ؛ لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه ؛ لأنه قال لموسى : «إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى»(٢) وقال لهذه الأمة : «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» . وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى فهو سبحانه العلى ، وقال للؤمنين : «وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ» .

قوله تعـالى : إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ ﴾ القرح الجرح . والضم والفتح فيه لغتان عن الكسائى والأخفش ؛ مثل عَقْر وعُقْر(٣) . الفراء : هو بالفتح الجُرح ، و بالضم ألمه . والمعنى : إن يمسسكم يوم أُحدٍ قَرْح فقد مَسّ القوم يوم بَدْرٍ قَرْح مثـله . وقرأ محمد بن السَّمَيْقَع «قرح» بفتح

(١) فى ـ و ا : بات . (٢) راجع جـ ١١ ص ٢٢٣ (٣) فى الأصول : «قفر وقفر» وهو تحريف .

القاف والراء على المصـدر . ﴿ وتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ قيل : هذا في الحرب ، تكون مرة للؤمنين لينصر الله عز وجل دينه ، ومرة للكافرين إذا عصى المؤمنون ليبتليهم ويُمحِّصَ ذنوبهم ؛ فأما إذا لم يَعصوا فإنّ حزب الله هم الغالبون . وقيل : « نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » من فَرَح وغَم وصحّة وسُقم وغِنًى وفقرٍ . والدُّولَةُ الكَرّة ؛ قال الشاعر :

فيومٌ لنـا ويومٌ علينـا * ويومٌ نُسَـاءُ ويومٌ نُسَرّ

قوله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ معناه ، وإنما كانت هذه المداوَلةُ ليُرَى المؤمنُ من المنافق فيُميَّز بعضُهم من بعض ؛ كما قال : « وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا »(١) . وقيل : ليعلمَ صبر المؤمنين ، العلمَ الذى يقع عليه الجزاء كما علمه غَيْبا قبل أن كلّفهم . وقد تقدّم في « البقرة »(٢) هذا المعنى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعـالى : « وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ » أى يكرمكم بالشهادة ؛ أى لِيُقتلَ قومٌ فيكونوا شهداء على الناس بأعمالهم . وقيل : لهذا قيل شهيد : وقيل : سمى شهيدا لأنه مشهود له بالجنة وقيل : سمى شهيدا لأن أرواحهم احتضرت(٣) دار السلام ، لأنهم أحياء عند ربهم ، وأرواح غيرهم لا تصل إلى الجنة ؛ فالشهيد بمعنى الشاهد أى الحاضر للجنة ، وهذا هو الصحيح على ما يأتى والشهادة فضلها عظيم ، ويكفيك فى فضلها قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ »(٤) الآية . وقوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِـدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ » إلى قـوله : « ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ »(٥) . وفى صحيح البُستى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما يجد الشهيد من القتل إلا كما يجد أحدُكم من القَرْحة " . وروى النسائى عن راشد بن سعد عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلا قال : يا رسول الله ، ما بال المؤمنين يُفتنون فى قبورهم إلا الشهيد؟ قال : "كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة" . وفى البخارى : «من قُتل من المسلمين

(١) راجع ص ٢٦٥ من هذا الجزء . (٢) راجع جـ ٢ ص ١٥٦ (٣) فى ب ، د ، هـ : أحضرت .
(٤) راجع جـ ٨ ص ٢٦٦ (٥) راجع جـ ١٨ ص ٨٦

يوم أُحد » منهم حمزةُ واليمَان والنضر[1] بن أنس ومصعب بن عُمير، حدّثني عمرو بن عليّ أن معاذ ابن هشام قال حدّثني أبي عن قتادة قال : ما نعلم حيًّا من أحياء العرب أكثر شهيدا أعزّ يوم القيامة من الأنصار . قال قتادة : وحدّثنا أنس بن مالك أنه قُتل منهم يوم أُحُد سبعون ، و يوم بِئْر مَعُونَة سبعون، و يوم اليَمَامَة سبعون . قال : وكان بئر معونة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، و يوم اليَمَامَة على عهد أبي بكر يوم مُسَيْلِمة الكذّاب . وقال أنس : أُتِيَ النبي صلى الله عليه وسلم بعليّ بن أبي طالب و به نيف وستون جراحة من طعنة وضربة ورمْيَة، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسحها وهي تَلْتَئِم بإذن الله تعالى كأن لم تكن .

الثانيــة — فى قوله تعالى : « وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ » دليل على أن الإرادة غير الأمر كما يقوله أهل السنة ؛ فإن الله تعالى نهى الكفار عن قتل المؤمنين : حمزةَ وأصحابه وأراد قتلهم ، ونهى آدم عن أكل الشجرة وأراده فواقعه آدم ، وعكسه أنه أمر إبليس بالسجود ولم يرده فامتنع منه ؛ وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق : «وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ»[2] . و إن كان قد أمر جميعهم بالجهاد، ولكنه خلق الكَسَل والأسباب القاطعة عن المسير فقعدوا .

الثالثــة — رُوِى[3] عن على بن أبي طالب رضى الله عنه قال : جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فقال له : " خَيِّرْ أصحابك فى الأسارى إن شاءوا القتل و إن شاءوا الفِداء على أن يقتل منهم عام المقبِل مثلهم فقالوا الفداء و يقتل منا " أخرجه الترمذي وقال : حديث حسن . فأنجز الله وعده بشهادة أوليائه بعد أن خيَّرهم فاختاروا القتل . ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ أى المشركين، أى وإن أنال[4] الكفارَ من المؤمنين فهو لا يحبّهم، و إن أحلّ ألمًا بالمؤمنين فإنه يحب المؤمنين .

قوله تعالى : وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾

---

(١) الذى فى شرح القسطلانى على صحيح البخارى : « وأنس بن النضر » وهو عم أنس بن مالك كما ذكره أبو نعيم وابن عبد البر وغيرهما . ولأبى ذر « النضر بن أنس » وهو خطأ، والصواب الأوّل » .

(٢) راجع جـ ٨ ص ١٥٦ . (٣) فى ب و د و هـ : روى على . (٤) فى هـ و د : أدال .

فيه ثلاثة أقوال: يُمحِّص يختبر. الثاني — يطهِّر؛ أي من ذنوبهم فهو على حذف مضاف. المعنى: وليمحص الله ذنوب الذين آمنوا؛ قاله الفرّاء. الثالث — يمحِّص يخلِّص؛ فهذا أغربُها. قال الخليل: يقال مَحَصَ الحبلُ يَمْحَصُ مَحْصًا إذا انقطع وَبَرُه؛ ومنه "اللّهم محِّص عنا ذنوبنا" أي خلصنا من عقوبتها. وقال أبو إسحاق الزجاج: قرأت على محمد بن يزيد عن الخليل: التمحيص التخليص. يقال: مَحَصَه [يمحصه][1] مَحْصا إذا خلصه؛ فالمعنى عليه ليبتلى المؤمنين ليُثيبهم ويخلِّصهم من ذنوبهم. ﴿ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ أي يستأصلهم بالهلاك.

قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾

«أم» بمعنى بل. وقيل: الميم زائدة؛ والمعنى أحسبتم يامن انهزم يوم أحد أن تدخلوا الجنة كما دخل الذين قُتلوا وصبروا على ألَمِ الجراح والقتل من غير أن تَسْلُكوا طريقهم وتصبروا صبرهم لا؛ حتى ﴿ يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾ أي عِلْمَ شهادة حتى يقع عليه الجزاء. والمعنى: ولم تجاهدوا فيعلم ذلك منكم؛ فلما بمعنى لم. وفرق سيبويه بين «لم» و «لما»، فزعم أن «لم يفعلْ» نفى فَعَل، وأن «لمّا يفعلْ» نفى قد فَعَل. ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ منصوب بإضمار أن؛ عن الخليل. وقرأ الحسن ويحيى بن يَعْمَر «يَعْلِمِ الصَّابرينَ» بالجزم على النسق. وقرئ بالرفع على القطع؛ أي وهو يعلم. وروى هذه القراءة عبد الوارث عن أبي عمرو. وقال الزجاج: الواو هنا بمعنى حتى، أي ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم حتى يعلم صبرهم كما تقدّم آنفا.

قوله تعالى: وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ ﴾ أي الشهادة من قبل أن تلقوه. وقرأ الأعمش «مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلاقُوهُ» أي من قبل القتل. وقيل: من قبل أن تلقوا أسباب الموت؛ وذلك أن كثيرا ممن لم يحضروا بدرا كانوا يتمنَّون يوما يكون فيه قتال،

(١) في ب وده.

فلمـا كان يوم أُحُد انهزموا ، وكان منهم من تجـلّد حتى قُتل ، ومنهـم أنس بن النضر عم أنس بن مالك ، فإنه قال لمـا انكشف المسلمون : اللّهـم إنى أبرأ إليـك ممـا جاء به هؤلاء ، و باشر القتال وقال : إيهًا إنها ريح الجنة ! إنى لأجدها ، ومضى حتى استشهد . قال أنس : فمـا عرفناه إلا ببنـانه ووجدنا فيه بِضعا وثمـانين جراحة . وفيـه وفى أمثـاله نزل « رِجَالٌ صَـدَقُوا مَا عَاهَـدُوا اللهَ عَلَيْـهِ » (١) . فالآية عِتـاب فى حق من انهزم ، لاسِيّما وكان منهـم حَمْلٌ للنبيّ صلى الله عليـه وسلم على الخروج من المدينة ، وسيأتى . وتَمنِّى الموت يرجع من المسلمين إلى تَمنِّى الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد ، لا إلى قتل الكفار لهم ؛ لأنه معصيةٌ وكفرٌ ولا يجوز إرادة المعصية ، وعلى هـذا يحمل سـؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة ، فيسألون الصبر على الجهاد و إن أدّى إلى القتل .

قوله تعـالى : ﴿ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ قال الأخفش : هو تكرير بمعنى التأكيد لقوله : « فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ » مثل « وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » (٢) . وقيل : معناه وأنتم بُصَراء ليس فى أعينكم عِلَلٌ ؛ [كما] (٣) تقول : قد رأيت كذا وكذا وليس فى عينيك عِلّة ، أى فقد رأيته رؤية حقيقة ؛ وهذا راجع إلى معنى التوكيد . وقال بعضهم : « وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ » إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وفى الآية إضمار ، أى فقد رأيتموه وأنتم تنظرون فلِمَ انهزمتم ؟ .

قوله تعـالى : وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — روى أنها نزلت بسبب انهزام المسلمين يوم أُحُد حين صاح الشيطان : قد قتل محمد . قال عطية العوفِى : فقال بعض النـاس : قـد أصيب محمد فاعطوهم بأيديكم فإنمـا هم إخوانكم . وقال بعضهم : إن كان محمد قـد أصيب ألا تَمْضُون على ما مضى عليه نبيكم حتى

(١) راجع جـ ١٤ ص ١٥٨ (٢) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ (٣) فى ب و د و هـ .

تلحقوا به ؛ فأنزل الله تعالى فى ذلك ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى قوله : «فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا» . وما نافية، وما بعدها ابتداء وخبر، و بطل عمل «ما» . وقرأ ابن عباس « قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ » بغير ألِف ولام . فأعلم الله تعالى فى هذه الآية أن الرسل ليست بباقية فى قومها أبدا ، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فُقِد الرسول بموتٍ أو قتلٍ . وأكرم نبيه صلى الله عليه وسلم [وصفّيه][1] بآسمين مشتقّين من اسمه : محمّد وأحْمَد ، تقول العرب : رجل مَحْمُودٌ ومُحَمَّد إذا كثُرت خصاله المحمودة ، قال الشاعر :

* إلى الماجِد القَرْمِ الجَوَاد المحمّدِ[2] *

وقد مضى هذا فى الفاتحة[3] . وقال عباس بن مِرداس :

يا خاتمَ النُّبَآءِ إنّك مُرْسَلٌ * بالخيرِ كلُّ هُدَى السَّبِيلِ هُداكا

إن الإله بَنَى[4] عليك مَحَبّةً * فى خَلْقِه ومُحَمّدًا سَمّاكا

فهذه الآية من تَتِمّة العِتاب مع المنهزمين ، أى لم يكن لهم الآنهزام وإن قتل محمدٌ ، والنبوّة لا تَدْرَأ الموت ، والأديان لا تزول بموت الأنبياء . والله أعلم .

الثانيــــة ــ هذه الآية أدلّ دليل على شجاعة الصديق وجراءته ، فإن الشجاعة والجرأة حدّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبيّ صلى الله عليه وسلم كما تقدّم بيانه فى « البقرة[5] » فظهرت عنده شجاعته وعلمه . قال النـاس : لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، منهم عمر، وخرس عثمان، واستخفى علىّ، واضطرب الأمر فكشفه الصديق بهذه الآية حين قدومه من مسكنه بالسُّنْح[6]، الحديث ؛ كذا فى البخارى . وفى سنن ابن ماجه عن عائشة قالت : « لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر عند آمرأته ابنة خارجة بالعوَالى ، بجعلوا يقولون : لم يمت النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما هو بعض ما كان يأخذه عند

---

(١) فى ب و هـ . (٢) هذا عجز بيت للأعشى ، وصدره : * إليك أبيت اللعن كان كلالها *
والذى فى الديوان : الماجد الفرع . كذا فى ب و د و هـ . وفرع كل شىء : أعلاه . (٣) راجع جـ ١ ص ١٣٢
(٤) فى د ، واللسان : ثنى ولم يعرف هذا فى اللغة . والأصول بنى . (٥) راجع جـ ٢ ص ١٧٦
(٦) السنح (بضم أوّله وسكون النون وقد تضم) : موضع بعوالى المدينة ، وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج ، بينها و بين منزل النبيّ صلى الله عليه وسلم ميل .

الوحى. فجاء أبو بكر فكشف عن وجهه وقبّل بين عينيه وقال: أنت أكرم على الله من أن يميتك! مرتين، قد والله مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر فى ناحية المسجد يقول: والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يموت حتى يقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وأرجلهم. فقام أبو بكر فصعد المنبر فقال: من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لم يمت، ومن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ». قال عمر: «فلكأنّى لم أقرأها إلا يومئذ». ورجع عن مقالته التى قالها فيما ذكر الوائلى أبو نصر عبيد الله فى كتابه الإبانة: عن أنس بن مالك أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم واستوى على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تشهد قبل أبى بكر فقال: أمّا بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة وإنها لم تكن كما قلتُ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ولا فى عهد عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرَنا — يريد أن يقول حتى يكون آخرنا موتا — فاختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا لما هدى له رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الوائلى أبو نصر: المقالة التى قالها ثم رجع عنها هى «أن النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يمت ولن يموت حتى يقطع أيدى رجال وأرجلهم» وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشى الفتنة وظهور المنافقين، فلما شاهد قوة يقين الصدّيق الأكبر أبى بكر، وتفوّهه بقول الله عز وجل: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»(١) وقوله: «إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ»(٢) وما قاله ذلك اليوم — تنبّه وتثبّت وقال: كأنى لم أسمع بالآية إلا من أبى بكر. وخرج الناس يتلونها فى سكك المدينة، كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم. ومات صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا اختلاف، فى وقت دخوله المدينة فى هجرته حين اشتدّ الضحاء، ودفن يوم الثلاثاء، وقيل ليلة الأربعاء. وقالت صفية بنت عبد المطلب ترثى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(١) راجع ص ٢٩٧ من هذا الجزء، و جـ ١١ ص ٢٨٧　　(٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٥٤

ألا يا رسـول الله كنت رجاءنا * وكنت بنا برًّا ولم تك جافيا
وكنت رحيما هاديا ومعلّما * ليبْك عليك اليومَ من كان باكيا
لعمرك ما أبكي النبيَّ لفقده * ولكن لما أخشى من الهَرْج آتيا
كأنّ على قلبي لذِكرِ محمدٍ * وما خِفت من بعد النبي المكاويا
أفاطم صلى الله رب محمدٍ * على جَدَثٍ أمسى بيثرب ثاويا
فِدًى لرسول الله أُمّي وخالتي * وعمي وآبائي ونفسي وماليا
صدَقْتَ وبلغتَ الرسالة صادقا * ومتّ صَليبَ العودِ أبلَجَ صافيا
فلو أن رب الناس أبقى نبينا * سعِدنا، ولكن أمره كان ماضيا
عليك من الله السلام تحيةً * وأُدخِلت جناتٍ من العَدْن راضيا
أرى حسنا أيتمتَه وتركتَه (١) * يُبكّي ويدعو جده اليوم ناعيا

فإن قيل وهي :

الثالثة — فلِمَ أُخِّر دفن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال لأهل بيت أخّروا دفن ميتهم : "عجلوا دفن جيفتكم ولا تؤخروها". فالجواب من ثلاثة أوجه : الأول — ما ذكرناه من عدم آتفاقهم على موته . الثاني — لأنهم لا يعلمون حيث يدفنونه . قال قوم في البَقيع، وقال آخرون في المسجد، وقال قوم : يحبس حتى يحمل إلى أبيه إبراهيم . حتى قال العالم الأكبر (٢) : سمعته يقول : "ما دفن نبيّ إلا حيث يموت" ذكره ابن ماجه والموطأ وغيرهما . الثالث — أنهم آشتغلوا بالخلاف الذي وقع بين المهاجرين والأنصار في البيعة، فنظروا فيها حتى استتب الأمر وانتظم الشمل واستوثقت (٣) الحال، واستقرت الخلافة في نصابها فبايعوا أبا بكر، ثم بايعوه من الغد بيعة أخرى عن ملأٍ منهم ورِضا؛ فكشف الله به الكُرْبة من أهل الردّة، وقام به الدِّين، والحمد لله رب العالمين . ثم رجعوا بعد ذلك إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنظروا في دفنه وغسّلوه وكفّنوه . والله أعلم .

(١) في جـ وب ود : ناثيا . (٢) يريد به أبا بكر رضي الله عنه . (٣) في هـ : آستوسقت .

الرابعة — واخْتُلِف هل صُلّى عليه أم لا ، فنهم من قال : لم يصلَّ عليه أحدٌ ، وإنما وقف كل واحد يدعو، لأنه كان أشرف من أن يُصَلَّى عليه . وقال ابن العربيّ : وهذا كلام ضعيف؛ لأن السنة تقام بالصلاة عليه فى الجنازة، كما تقام بالصلاة عليه فى الدعاء، فيقول : اللّهم صل على محمد إلى يوم القيامة ، وذلك منفعة لنا . وقيل : لم يصلَّ عليه؛لأنه لم يكن هناك إمام . وهذا ضعيف ؛ لأن الذى كان يقيم بهم الصلاة الفريضة هو الذى كان يَؤُمّ بهم فى الصلاة . وقيل : صلّى عليه الناس أفذاذا؛ لأنه كان آخر العهد به، فأرادوا أن يأخذ كل أحدٍ بركته مخصوصا دون أن يكون فيها تابعا لغيره . والله أعلم بصحة ذلك .

قلت : قد خرّج ابن ماجه بإسناد حسن بل صحيح من حديث ابن عباس وفيه : فلما فرغوا من جَهازه يوم الثلاثاء وُضع على سريره فى بيته ، ثم دخل الناسُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا (١) يُصلّون عليه ، حتى إذا فرغوا أدخلوا النساء ، حتى إذا فرغن أدخلوا الصبيان، ولم يَؤُمّ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ . خرّجه عن نصر ابن على الجَهْضَمِيّ أنبأنا وهب بن جرير حدّثنا أبى عن محمد بن إسحاق قال حدّثنى حسين ابن عبد الله عن عكرمة عن ابن عباس، الحديثَ بطوله .

الخامسة — فى تغيير الحال بعدموت النبيّ صلى الله عليه وسلم، عن أنس قال: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كلّ شيء، فلما كان اليوم الذى مات فيه أظلم منها كلّ شيء، وما نَفَضْنا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم الأيدى حتى أنكرنا قلوبنا . أخرجه ابن ماجه، وقال : حدّثنا محمد بن بشّار أخبرنا عبد الرحمن بن مهدىّ حدّثنا سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال : كنا نتّقِى الكلام والانبساط إلى نسائنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافةَ أن ينزل فينا القرآن ، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلّمنا . وأسند عن أم سلَمة بنت أبى أمية زوج النبيّ صلى الله عليه وسلم [أنها قالت] (٢) كان الناس فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام المُصَلِّى [يصلى] (٢) لم يَعْدُ بصرُ

(١) أرسالا : أفواجا وفرقا متقطعة بعضهم يتلو بعضا ؛ واحدهم رسل ، بفتح الراء والسين .
(٢) زيادة عن ابن ماجه .

أحدهم موضع قدميه، فلما تُوفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أبو بكر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يَعْدُ بصر أحدهم موضع جبينه، فتوفى أبو بكر وكان عمر، فكان الناس إذا قام أحدهم يصلى لم يعْدُ بصر أحدهم موضع القبلة، فكان عثمان بن عفان فكانت الفتنة فتلفت الناس فى الصلاة يميناً وشمالا .

قوله تعالى : ﴿أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ﴾ «أفإين مات» شرط، «أو قتل» عطف عليه، والجواب «ٱنقَلَبْتُمْ» . ودخل حرف الآستفهام على حرف الجزاء لأن الشرط قد انعقد به وصار جملة واحدة وخبرا واحدا . والمعنى : أفتنقلبون على أعقابكم إن مات أو قُتِل؟ وكذلك كل استفهام دخل على حرف الجـزاء ؛ فإنه فى غير موضعه ، وموضعه أن يكون قبل جواب الشرط . وقوله «ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَابِكُمْ» تمثيل، ومعناه ارتددتم كفارا بعد إيمانكم، قاله قتادة وغيره . ويقال لمن عاد إلى ما كان عليه: انقلب على عقبيْه. ومنه «نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ» (١) . وقيل : المراد بالآنقلاب هنـا الآنهزام ، فهو حقيقة لا مجـاز . وقيل : المعنى فعلتم فعل المرتدين وإن لم تكن رِدّةٌ .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ بل يضر نفسه ويعرّضها للعقاب بسبب المخالفة، والله تعالى لاتنفعه الطاعة ولا تضره (٢) المعصية لغناه . ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ ، أى الذين صبروا وجاهدوا واستشهدوا . وجاء « وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِين » بعد قوله : « فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا » فهو اتصال وعد بوعيد .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا ﴾ هـذا حَضٌّ على الجهاد، وإعلامٌ أن الموت لابدّ منه وأن كلّ إنسانٍ مقتولٍ أو غير مقتولٍ ميّتٌ إذا بلغ أجلَه المكتوب له ؛ لأن معنى « مُؤَجَّلًا » إلى أجل . ومعنى « بِإِذن الله » بقضاء الله وقدره . وَ «كِتَابًا» نصب على المصدر ، أى كتب الله كتابا مُؤَجلا . وأجلُ الموت هو الوقت الذى

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٦ (٢) فى هـ و د : ولا يتضرر بالمعصية .

فى معلومه سبحانه ، أن روح الحىّ تفارق جسده ، ومتى قُتل العبد علمنا أن ذلك أجله . ولا يصحّ أن يقال : لو لم يقتل لعاش . والدليل على قوله : « كتابا مؤجلا » « إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » (١) « إِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ » « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ » . والمعتزلىّ يقول : يتقدم الأجل ويتأخر ، وأن من قتل فإنما يهلك قبل أجله ، وكذلك كلّ ما ذبح من الحيوان كان هلاكه قبل أجله ؛ لأنه يجب على القاتل الضّمان والدية . وقد بيّن الله تعالى فى هذه الآية أنه لا تهلك نفس قبل أجلها . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى «الأعراف» (٢) إن شاء الله تعالى . وفيه دليل على كتب العلم وتدوينه . وسيأتى بيانه فى « طه » عند قوله . « قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ » (٣) إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ يعنى الغنيمة . نزلت فى الذين تركوا المركز طلبا للغنيمة . وقيل : هى عامّة فى كل من أراد الدنيا دون الآخرة ؛ والمعنى نؤته منها ما قُسم له . وفى التنزيل : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ » (٤) . ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾ أى نؤته جزاء عمله ، على ما وصف الله تعالى من تضعيف الحسنات لمن يشاء . وقيل : المراد منها (٥) عبد الله بن جُبَير ومن لزم المركز معه حتى قتلوا . ﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ أى نؤتيهم الثواب الأبدىّ جزاءً لهم على ترك الانهزام ، فهو تأكيد لما تقدّم من إيتاء مزيد الآخرة . وقيل : « وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ » من الرزق فى الدنيا لئلا يُتوهّم أن الشاكر يُحرم ما قُسم له مما يناله الكافر .

قوله تعالى : وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢ و جـ ١٣ ص ٣٢٧ و جـ ٩ ص ٣٢٧ (٢) راجع جـ ٧ ص ٢٠٢
(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠٥ فما بعد . (٤) راجع جـ ١٠ ص ٢٣٥ (٥) فى د و جـ : بهذا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾[١] قال الزهري : صاح الشيطان يوم أُحُد : قتِل محمد؛ فانهزم جماعة من المسلمين . قال كعب بن مالك : فكنت أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأيتُ عينيه من تحت المِغفر تزهران ، فناديت بأعلى صوتي : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأومأ إليّ أن اسكت ، فأنزل الله عز وجل : « وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا » الآية . و « كأين » بمعنى كَمْ . قال الخليل وسيبويه : هي أيّ دخلت عليها كاف التشبيه و بنيت معها فصار في الكلام معنى كم وصوّرت في المصحف نونا؛ لأنها كلمة نقلت عن أصلها فغُيِّر لفظها لتغير معناها ، ثم كثر استعمالها فتلعّبت[٢] بها العرب و تصرفت فيها بالقلب والحذف ، فحصل فيها لغات أربعٌ قُرِئ بها . وقرأ ابن كثير « وكَائِنْ » مثل وكَاعِنْ ، على وزن فاعل ، وأصله كَيْءٍ فقلبت الياء ألفا ، كما قلبت في يَيْأَس[٣] فقيل ياءَس؛ قال الشاعر :

وكَائِنْ بالأَبَاطِحِ من صَديقٍ * يَرَانِي لَوْ أُصِبْتُ هو المُصَابَا

وقال آخر :

وكَائِنْ رَدَدْنا عنكم مِن مُدَجَّجٍ * يَجِيءُ أمامَ الرَّكْب يَرْدِي[٤] مُقَنَّعَا

وقال آخر :

وكَائِنْ في المَعَاشِرِ[٥] من أُنَاس * أخُوهم فَوْقَهم وهُمُ كِرَامُ

وقرأ ابن محيصن « وكَئِنْ » مهموزا مقصورا مثل وكَعِن ، وهو من كَائِنْ حذفت ألفه . وعنه أيضا «وكَأْيِنْ» مثل وكَعْيِنْ وهو مقلوب كَيْءٍ المخفف . وقرأ الباقون « كَأَيِّنْ» بالتشديد مثل كَعَيِّن وهو الأصل، قال الشاعر :

كَأَيِّنْ من أُناسٍ لم يزالوا * أخوهم فوقَهم وهُمُ كرامُ

---

(١) قراءة نافع . (٢) في أ و ح : فلعبت . (٣) القلب في ذلك على لغة من يقلب حرف العلة الساكن المفتوح ماقبله ألفا ، وهي لغة بلحارث بن كعب وخثعم وزبيد وقبائل من اليمن ، كما ذكره الواحدي في وسيطه في تفسير قوله تعالى : « إن هذان لساحران » . (٤) يردى : يمشى الرديان (بالتحريك) وهو ضرب من المشي فيه تبختر . والمقنع : الذي تقنع بالسلاح ؛ كالبيضة والمغفر . (٥) في البحر : المعاسر .

وقال آخر :

كَأَيِّنْ أبَدْنا من عدوٍ بِعزِّنا * وكائِنْ أجَرْنا من ضَعِيفٍ وخائفِ

فجمع بين لغتين : كأَيِّنْ وكَائِنْ ، ولغة خامسة كَيْئِنْ مثل كَيْعِنْ ، وكأنه مخفف من كَيِّئْ مقلوب كَأيِّنْ . ولم يذكر الجوهري غير لغتين : كائِنْ مثل كاعِنْ، وكأَيِّنْ مثل كَعَيِّنْ؛ تقول . كأَيِّنْ رجلا لقيتُ؛ بنصب ما بعد كأَيِّنْ على التمييز . وتقول أيضا : كأَيِّنْ مِن رجل لقيت؛ وإدخال مِن بعد كأَيِّنْ أكثرُ من النصب بها وأجودُ . و بكأَيِّنْ تبيع هذا الثوب؟ أي بكم تبيع؛ قال ذو الرمة :

وكائِنْ ذَعَرْنا من مَهَاةٍ ورَامِحٍ * بِلَادُ العِدَا[1] لَيْسَتْ له بِبِلادِ

قال النحاس : ووقف أبو عمرو « وكَأَيْ » بغير نون؛ لأنه تنوين . وروى ذلك سَوْرَةُ ابن المبارك عن الكسائي . ووقف الباقون بالنون اتباعا لخط المصحف . ومعنى الآية تشجيع المؤمنين ، والأمر بالاقتداء بمن تقدم من خِيار أتباع الأنبياء؛ أي كثير من الأنبياء قُتِل معه رِبِّيون كثير، أو كثير من الأنبياء قتِلوا فما ارتدّ أممهم؛ قولان : الأوّل للحسن وسعيد بن جبير . قال الحسن : ما قُتِل نبي في حرب قط . وقال ابن جبير : ما سمعنا أن نبيا قتل في القتال . والثاني عن قتادة وعكرمة . والوقف — على هذا القول — على « قُتِل » جائز، وهي قراءة نافع وابن جبير وأبي عمرو و يعقوب . وهي قراءة ابن عباس واختارها أبو حاتم . وفيه وجهان : أحدهما أن يكون « قُتِل » واقعا على النبيّ وحده، وحينئذ يكون تمام الكلام عند قوله « قُتِل » ويكون في الكلام إضمار، أي ومعه ر بيون كثير؛ كما يقال : قُتِل الأمير معه جيش عظيم، أي ومعه جيش . وخرجْتُ معي تجارة؛ أي ومعي . الوجه الثاني أن يكون القتل نال النبيّ ومن معه من الرِّبِّيين، ويكون وجه الكلام قتِل بعض من كان معه؛ تقول العرب : قتلنا بني تميم و بني سليم ، وإنما قتلوا بعضهم . و يكون قوله « فَمَا وَهَنُوا » راجعا الى من بقي منهم . قلت : وهذا القول أشبه بنزول الآية وأنسب ، فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يقتل، وقُتِل معه جماعة من أصحابه . وقرأ الكوفيون وابن عامر « قَاتَلَ » وهي قراءة

(١) كذا في الأصول المهاة : البقرة الوحشية . والرامح : الثور الوحشي؛ لأن قرنه بمنزلة الرمح فهو رامح : والمعنى لا يقيم مع الإنس في مكان . الذي في ديوانه : « بلاد الورى ليست له ببلاد » .

ابن مسعود ، واختارها أبو عبيد وقال . إن الله إذا حمد من قاتل كان من قُتِل داخلا فيه ، و إذا حمد من قُتِـل لم يدخل فيه غيرهم ؛ فقاتل أعمّ وأمدح . و « الرِّبيون » بكسر الراء قراءة الجمهور . وقراءة علىّ رضى الله عنه بضمها . وابن عباس بفتحها ؛ ثلاث لغات . والرِّبِّيون الجماعات الكثيرة ؛ عن مجاهد وقتادة والضحّاك وعِكرمة ، واحدهم رُبِّىّ بضم لراء وكسرها ؛ منسوب إلى الرِّبة بكسر الراء أيضا وضمها ، وهى الجماعة . وقال عبد الله بن مسعود : الرِّبِّيُّون الألوف الكثيرة . وقال ابن زيد : الربِّيُّون الأتباع . والأول أعرف فى اللغة ؛ ومنه يقال للخرقة التى تجمع فيهـا القِدَاح : رِبَّةٌ ورُبّة . والرِّبَاب قبائل تجمّعت . وقال أَبَان بن ثعلب : الرِّبِّى عشرة آلاف . وقال الحسن : هم العلمـاء الصُّبُر . ابن عباس ومجاهد وقتادة والربيع والسّدى : الجَمْعُ الكثير ؛ قال حسّان :

وإذا مَعْشَرٌ تجافَوْا عن الحـ * ـقِّ حَمَلْنَـا عليهـمُ رُبِّيَّـا

وقال الزجاج : هاهنا قراءتان « رُبِّيُّـون » بضم الراء « ورِبِّيُّـون » بكسر الراء؛ أما الرُّبيون (بالضم) : الجمـاعات الكثيرة . و يقال : عشرة آلاف . قلت : وقد روى عن ابن عباس « رَبِّيون» بفتح الراء منسوب إلى الرب . قال الخليل : الرِّبِّى الواحد من العبّاد الذين صبروا مع الأنبياء . وهم الربانيون نسبوا إلى التألّه والعبادة ومعرفة الرُبوبية لله تعالى . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَمَا وَهَنُوا لِمَـا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ « وَهَنُوا » أى ضَعُفوا ، وقد تقدم والوهن : انكسار الجِدّ[1] بالخوف . وقرأ الحسن وأبو السّمّال « وَهِنُوا » بكسر الهـاء وضمها ، لغتان عن أبى زيد . وَهَن الشىء يَهِن وَهْنا . وأَوْهَنْته أنا ووَهَّنته ضعّفته . والوَاهِنة : أسفل الأضلاع وقِصارُها[1] . والوَهَن من الإبل : الكثيف . والوَهْن : ساعة تمضى من الليل ، وكذلك المَوْهِن . وأَوْهَنـا صِرْنا[2] فى تلك الساعة ؛ أى ما وَهَنوا لقتل نبيهم ، أو لقتل مَن قُتِل منهم ، أى ما وهن باقيهم ؛ لحذف المضاف . ﴿ وَمَا ضَعُفُوا ﴾ أى عن عدوّهم . ﴿ وَمَا ٱسْتَكَانُوا ﴾ أى لِمـا أصابهم فى الجهاد . والاستكانة : الذّلّة والخضوع ؛ وأصلها « ٱسْتَكَنُوا » على افتعلوا ؛ فأُشبِعت فتحةُ الكاف فتولّدت منها ألِفٌ . ومن جعلها من الكَوْن فهى استفعلوا ؛ والأوّل

(١) الواهنة : القصيرى وهى أسفل الأضلاع . (٢) كذا فى د والسان ، وفى ه و ا و ح : ضربنا .

أشبه بمعنى الآية . وقُرِئَ « فَمَا وَهْنُوا وَمَا ضَعْفُوا » بإسكان الهاء والعين . وحكى الكِسائى « ضَعَفُوا » بفتح العين . ثم أخبر تعالى عنهم بعد أن قُتل منهم أو قتل نبيّهم بأنهم صبروا ولم يفِرّوا ووطّنوا أنفسهم على الموت ، واستغفَروا ليكون موتهم على التوبة من الذنوب إن رُزِقوا الشهادة ، ودعوا فى الثبات حتى لا ينهزموا ، و بالنصر على أعدائهم . وخَصّوا الأقدام بالثبات دون غيرها من الجوارح لأن الاعتماد عليها . يقول : فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟ فأجاب دعاءهم وأعطاهم النصر والظفر والغنيمة فى الدنيا والمغفرة فى الآخرة إذا صاروا إليها . وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدينه، الثابتين عند لقاء عدوّه بوعده الحق ، وقوله الصدق . ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ يعنى الصابرين على الجهاد . وقرأ بعضهم « وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ » بالرفع؛ جعل القول آسما لكان؛ فيكون معناه وما كان قولُهم إلّا قولَهم : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ومن قرأ بالنصب جعل القول خبر كان . واسمها « إِلَّا أَنْ قَالُوا » . « رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا » يعنى الصغائر ﴿ وَإِسْرَافَنَا ﴾ يعنى الكبائر . والإسراف : الإفراط فى الشيء ومجاوزة الحدّ . وفى صحيح مسلم عن أبى موسى الأشعرىّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذا الدعاء " اللهم آغفر لى خطيئتى وجهلى و إسرافى فى أمرى وما أنت أعلم به منى " وذكر الحديث . فعلى الإنسان أن يستعمل ما فى كتاب الله وصحيح السنة من الدعاء ويَدَع ماسواه، ولا يقول أختار كذا؛ فإن الله تعالى قد اختار لنبيّه وأوليائه وعلّمهم كيف يدعون .

قوله تعالى : فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَآتَاهُمُ اللهُ ﴾ أى أعطاهم ﴿ ثَوَابَ الدُّنْيَا ﴾ ، يعنى النصر والظفر على عدوّهم . ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ﴾ يعنى الجنة . وقرأ الجَحْدَرى « فَأَثَابَهُمُ اللهُ » من الثواب . ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ تقدّم .

قوله تعالى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

لما أمر الله تعالى بالاقتداء بمن تقدّم من أنصار الأنبياء حذّر طاعة الكافرين ؛ يعنى مشركى العرب : أبا سفيان وأصحابه . وقيل : اليهود والنصارى . وقال علىّ رضى الله عنه : يعنى المنافقين فى قولهم للؤمنين عند الهزيمة : ارجعوا إلى دين آبائكم . ﴿ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ أى إلى الكفر . ﴿ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾ أى فترجعوا مغبونين . ثم قال : ﴿ بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ ﴾ أى متولّى نصركم وحفظكم إن أطعتموه . وقُرئ « بَلِ اللهَ » بالنصب ، على تقدير بل وأطيعوا الله مولاكم .

قوله تعالى : سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

نظيره « وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ »(١) . وقرأ ابن عامر والكسائى « الرُّعُب » بضم العين ؛ وهما لغتان . والرُّعْب : الخوف ؛ يقال : رَعَبْتُه رُعْبا ورُعُبا ، فهو مَرْعوب . ويجوز أن يكون الرعْب مصدرا ، والرُّعُب الاسم . وأصله من المَلْء ؛ يقال : سَيْل راعب يملأ الوادى . ورعبت الحوض ملأته . والمعنى : سَنَمْلأ قلوب المشركين(٢) خوفا وفزعا . وقرأ السَّختيانى « سَيُلْقِى » بالياء ، والباقون بنون العظمة . قال السُّدّى وغيره : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحُد متوجّهين إلى مكة انطلقوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا ! قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشّرِيد(٣) تركناهم ، ارجعوا فاستأصلوهم ؛ فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هَمُّوا به . والإلقاء يستعمل حقيقة فى الأجسام ؛ قال الله تعالى : « وأَلْقَى الأَلْوَاحَ »(٤) « فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وعِصِيَّهُمْ » « فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ » . قال الشاعر :

* فألقَتْ عصاها واستَقَرّ بها النَّوَى *

(١) راجع جـ ١٨ ص ٣ (٢) فى د و جـ و هـ : الكافرين . (٣) فى د : الشديد .
(٤) راجع جـ ٧ ص ٢٨٨ و ٢٥٦ و جـ ١٣ ص ٩٧

ثم قد يستعمل مجازا كما فى هـذه الآية، وقوله : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي »[1] . وألقى عليك مسألة .

قوله تعـالى : ﴿ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ﴾ تعليـل ؛ أى كان سبب إلقـاء الرعب فى قلوبهم إشراكهم؛ فـا للصدر . ويقال : أشرك به أى عَدَل به غيرَه ليجعله شريكا .

قوله تعـالى : ﴿ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ حجةً وبيانا ، وعُذْرا وبرهانا؛ ومن هـذا قيل للوالى سلطان ؛ لأنه حجة الله عز وجل فى الأرض . ويقال : إنه مأخوذ من السَّلِيط وهو ما يضاء به السِّراج ، وهو دُهْنُ السِّمْسِم ؛ قال آمرؤ القيس :

* أَمَالَ[2] السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ *

فالسلطان يُستضاء به فى إظهار الحق وقمع الباطل . وقيل السَّلِيط الحديد . والسَّلاطَة الحدّة . والسـلاطة من التسليط وهو القهر ؛ والسلطان من ذلك ، فالنون زائدة . فأصـل السلطان القوّة، فإنه يُقهر بها كما يُقهر بالسلطان . والسَلِيطَة المرأة الصَّخَّابَة . والسلِيط الرجل الفصيح اللسان . ومعنى هذا أنه لم تثبت عبادة الأوثان فى شىء من المِلَل ، ولم يَدلّ عقلٌ على جواز ذلك . ثم أخبر تعـالى عن مصيرهم ومرجعهم فقال : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ﴾ ثم ذمّه فقال : ﴿ وَبِئْسَ مَثْـوَى الظَّالِمِينَ ﴾ والمثوى : المكان الذى يقام فيه؛ يقال : ثَوَى يَثْـوِى ثَواءً . والمأوى : كل مكان يرجع إليه شىءٌ ليلا أو نهاراً .

قوله تعـالى : وَلَقَـدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُـم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَـا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُـمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

قال محمـد بن كعب القرظى : لمـا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أُحُد وقد أصيبوا قال بعضهم لبعض : من أين أصابنا هـذا وقد وعدنا الله النصر ! فنزلت هذه الآية . وذلك أنهم قتلوا صاحبَ لِوَاء المشركين وسبعةَ نفر منهم بعدَه على اللواء ، وكان

(١) راجع جـ ١١ ص ١٩٦ (٢) فى الأصول : أمان : والذى أثبتناه هو ما فى الديوان وكتب اللغة .

الظفر ابتداءً للسلمين غير أنهم اشتغلوا بالغنيمة، وترك بعضُ الرّماة أيضا مركزَهم طلباً للغنيمة فكان ذلك سبب الهزيمة . روى البخارى عن البَرَاء بن عازب قال : لما كان يوم أُحُد ولقينا المشركين أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم أناسا من الرُّماة وأمَّر عليهم عبد الله ابن جبير وقال لهم : " لا تبرحوا من مكانكم [إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا](١) و إن رأيتموهم قد ظهروا علينا فلا تُعينونا عليهم " قال: فلمّا التقى القوم وهزمهم المسلمون حتى نظرنا إلى النساء يَشْتَدِدْنَ(٢) فى الجبل ، وقد رفعن عن سُوقهن قد بدت خلاخِلُهن فجعلوا يقولون : الغنيمةَ الغنيمةَ . فقال لهم عبد الله : أمهلوا ! أما عَهِد إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ألّا تبرحوا، فانطلقوا فلما أتوهم صرف الله وجوههم وقُتِل من المسلمين سبعون رجلا . ثم إنّ أبا سفيان بن حرب أشرف علينا وهو فى نَشَزٍ فقال : أفى القوم محمدٌ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تُجيبوه " حتى قالها ثلاثا. ثم قال: أفى القوم ابن أبى قحافة؟ ثلاثا، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تُجيبوه " ثم قال: أفى القوم عمر [بن الخطاب](٣)؟ ثلاثا، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تُجيبوه " ثم التفت إلى أصحابه فقال : أمّا هؤلاء فقد قتِلوا . فلم يملك عمر رضى الله عنه نفسه دون أن قال : كذبتَ يا عدوّ الله ! قد أبقى الله لك من يُخزِيك به . فقال : أُعْلُ هُبَلُ(٤)؛ مرتين . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أجيبوه " فقالوا : ما نقول يا رسول الله؟ قال "قولوا اللهُ أعلَى وأجلّ" . قال أبو سفيان : لنا العُزَّى(٥) ولا عُزَّى لكم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أجيبوه" . قالوا : ما نقول يا رسول الله؟ قال : قولوا "الله مولانا ولا مَوْلَى لكم " . قال أبوسفيان : يومٌ بيَوْم بَدْرٍ، والحرب سِجَال، أمَا إنكم ستجدون فى القوم مُثْلة لم آمر بها ولم تسؤنى . وفى البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص قال : رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أُحُد رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أشدّ القتال . وفى رواية عن سعد : عليهما ثياب بيض ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ . يعنى جبريل وميكائيل . وفى رواية أخرى : يقاتلان عن رسول الله

(١) زيادة عن صحيح البخارى . والذى فيه : « لا تبرحوا إن رأيتمونا » . (٢) أى يسرعن المشى .
(٣) فى ج، هـ، و، د . (٤) أى أظهر دينك، أوزد علوا، أو ليرتفع أمرك و يعز دينك فقد غلبت .
(٥) العزى : اسم صنم لقريش .

صلى الله عليه وسلم أشد القتال ما رأيتهما قبل ذلك اليوم ولا بعده . وعن مجاهد قال : لم تقاتل الملائكة معهم يومئذ، ولاقبله ولابعده إلا يوم بدر . قال البيهقى : إنما أراد مجاهد أنهم لم يقاتلوا يوم أُحُد عن القوم حين عصوا الرسول ولم يصبروا على ما أمرهم به . وعن عروة بن الزبير قال : وكان الله عز وجل وعدهم على الصبر والتقوى أن يُمِدَّهم بخمسة آلاف من الملائكة مسوِّمين : وكان قد فعل؛ فلما عَصَوْا أمر الرسول وتركوا مَصَافّهم وترك الرماةُ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ألّا يبرحوا من منازلهم ، وأرادوا الدنيا ، رُفع عنهم مددُ الملائكة ، وأنزل الله تعالى «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ» فصدق الله وعده وأراهم الفتح، فلما عَصَوْا أعقبهم البلاء . وعن عمير بن إسحاق قال : لما كان يوم أُحُد انكشفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسعدٌ يَرمى بين يديه، وفَتًى يُنَبِّل له ، كلما ذهبت نَبْلَةٌ[(١)] أتاه بها . قال : ارْمِ أبا إسحاق . فلما فرغوا نظروا مَن الشابّ؟ فلم يروه ولم يعرفوه . وقال محمد بن كعب : ولما قُتِل صاحب لواءِ المشركين وسقط لواؤهم، رفعته عَمْرَة بنت علقمة الحارثية؛ وفى ذلك يقول حَسّان :

فلولا لِواءُ الحارثية أصبحوا　＊　يباعُون فى الأسواق بَيْعَ الجلائب

و(تَحُسُّونَهُمْ) معناه تقتلونهم وتستأصلونهم؛ قال الشاعر :

حَسَسْناهم بالسّيف حَسًّا فأصبحتْ　＊　بقيّتُهم قد شُرِّدُوا وتَبَدَّدُوا

وقال جرير :

تَحُسُّهُمُ السُّيُوفُ كما تَسامَى　＊　حَرِيقُ النّارِ فى الأَجَمِ الحَصِيدِ

قال أبو عبيد : الحَسُّ الاستئصال بالقتل؛ يقال : جراد محسوس إذا قتله البردُ . والبرد مَحَسَّةٌ للنبت . أى مُحْرِقَةٌ له ذاهبة به . وسَنَةٌ حَسُوس أى جدبة تأكل كل شىء؛ قال رؤبة :

إذا شَكَوْنا سَنَةً حَسُوسَا　＊　تأكل بعدَ الأخضرِ[(٢)] اليَبِيسَا

وأصله من الحِسّ الذى هو الإدراك بالحاسة . فمعنى حَسّه أذهب حِسّه بالقتل . (بِإِذْنِهِ) بعلمه، أو بقضائه وأمره . (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ) أى جَبُنتم وضَعُفتم . يقال : فَشِل يفشَل فهو

(١) فى د : نقله محمد بن كعب .　　(٢) فى اللسان : الخضرة .

فَشِل وفَشَل . وجواب « حتى » محذوف ، أى حتى إذا فشلتم امْتُحنتم . ومثل هــذا جائز كقوله : « فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ »(١) فافعــل . وقال الفرّاء: جواب «حتّى» ، «وَتَنَازَعْتُمْ» والواو مقحمة زائدة؛ كقوله « فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ »(٢) أى ناديناه . وقال امرؤ القيس :

* فلمّا أجَزْنا ساحةَ الحيِّ وانْتَحَى *

أى انتحى . وعنــد هؤلاء يجوز إقحام الواو من « وَعَصَيْتُمْ » . أى حتى إذا فشلتم وتنازعتم عصيتم . وعلى هذا فيــه تقديم وتأخير، أى حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشلتم . وقال أبو علي : يجوز أن يكون الجواب « صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » ، و«ثم» زائدة، والتقدير حتى إذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم صرفكم عنهم . وقد أنشد بعض النحويين فى زيادتها قول الشاعر :

أرانِى إذا ما بِتُّ بِتّ على هوًى * فثمّ إذا أصبحتُ أصبحتُ عاديا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة؛ كما فى قوله تعالى : « حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ »(٣) . وقيل : « حــتى » بمعنى « إلى » وحينئــذ لا جواب له ؛ أى صــدقكم الله وعده إلى أن فشــلتم ، أى كان ذلك الوعد بشرط الثبات . ومعنى ﴿ تَنَازَعْتُمْ ﴾ اختلفتم ؛ يعنى الرماة حين قال بعضهم لبعض : نلحق الغنائم . وقال بعضهم : بل نثبت فى مكاننا الذى أمرنا النبي صلى الله عليــه وسلم بالثبوت فيــه . ﴿ وَعَصَيْتُمْ ﴾ أى خالفتم أمر الرسول فى الثبوت . ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ ﴾ يعنى من الغلبة التى كانت للسلمين يوم أُحد أوّل أمرهم؛ وذلك حين صُرِع صاحب لواء المشركين على ما تقــدّم ، وذلك أنه لمــا صُرع انتشر النبي صلى الله عليــه وسلم وأصحابه وصاروا كتائب متفرّقة فحاسُوا(٤) العدوّ ضربا حتى أجْهَضُوهم(٥) عن أثقالهم . وحملت خيل المشركين على المسلمين ثلاث مرات كل ذلك تُنْضَح بالنَّبْل فترجع مغلوبةً(٦) ، وحمل المسلمون فنهكوهم قتلا . فلما أبصر الرماةُ الخمسون أن الله عز وجل قد فتح لإخوانهــم قالوا : والله ما نجلس

(١) راجع ج ٦ ص ٤١٧ (٢) راجع ج ١٥ ص ٩٩ (٣) راجع ج ٨ ص ٢٨١

(٤) الحوس : شدّة الاختلاط ومداركة الضرب . أى بالغوا النكاية فيهم؛ فى هـ و د : جاسوا .

(٥) أى نحوهم عنها وأزالوهم . (٦) فى د : مفلولة .

ههنا لشيء ، قد أهلك الله العدوّ وإخواننا فى عسكر المشركين . وقال طوائف منهم : عَلامَ نقفُ وقد هزم الله العدوّ؟ فتركوا منازلهم التى عهد إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ألّا يتركوها ، وتنازعوا وفشلوا وعصوا الرسول فأوْجَفَت (١) الخيل فيهم قتلا . وألفاظ الآية تقتضى التوبيخ لهم ، ووجه التوبيخ لهم أنهم رأوا مبادئ النصر، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر فى الثبات لا فى الأنهزام . ثم بيّن سبب التنازع فقال: ﴿مِنكُمْ مَن يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ يعنى الغنيمة . قال ابن مسعود : ما شعرنا أن أحدا من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا وعرضها حتى كان يوم أحُد . ﴿وَمِنكُمْ مَن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين ثبتوا فى مركزهم ، ولم يخالفوا أمر نبيهم صلى الله عليه وسلم مع أميرهم عبدِ الله بن جبير؛ فحمل خالد بن الوليد وعِكرمة بن أبى جهل عليه ، وكانا يومئذ كافرين فقتلوه مع من بقى ، رحمهم الله . والعِتاب مع مَن انهزم لا مع مَن ثبت ، فإن من ثبت فاز بالثواب ، وهذا كما أنه إذا حل بقوم عقوبة عامة فأهل الصلاح والصبيان يهلكون؛ ولكن لا يكون ما حل بهم عقوبة ، بل هو سبب المثوبة . والله أعلم .

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أى بعد أن استوليتم عليهم ردّكم عنهم بالانهزام . ودلّ هذا على أن المعصية مخلوقة لله تعالى . وقالت المعتزلة : المعنى ثم انصرفتم؛ فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرّعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاءً لهم . قال القشيرى : وهذا لا يغنيهم ، لأن إخراج الرّعب من قلوب الكافرين حتى يستخفّوا بالمسلمين قبيحٌ ولا يجوز عندهم ، أن يقع من الله قبيحٌ ، فلا يبقى لقوله : « ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » معنًى . وقيل : معنى « صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ » أى لم يكلفكم طلبهم .

قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى لم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة . والخطاب قيل هو للجميع . وقيل : هو للرماة الذين خالفوا ما أُمروا به ، واختاره النحاس . وقال أكثر المفسرين : ونظير هذه الآية قوله : « ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ (٢) » . ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو والمغفرة . وعن ابن عباس قال : ما نُصر النبيّ صلى الله

---

(١) الإيجاف : سرعة السير .	(٢) راجع جـ ١ ص ٣٩٧

عليه وسلم فى موطن كما نُصر يوم أُحد، قال: وأنكرنا ذلك، فقال ابن عباس: بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله عز وجل، إن الله عز وجل يقول فى يوم أُحد: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ — يقول ابن عباس: والحَسّ القتــل «حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْــدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» وإنمــا عنى بهذا الرماة. وذلك أن النبيّ صلى الله عليه وســلم أقامهم فى موضــع ثم قال: "احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا وإن رأيتمونا قد غنِمنا فلا تشركونا". فلمــا غنِم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباحوا عسكر المشركين انكفأت الرماةُ جميعا فدخلوا فى العسكر ينتهبون، وقد التقت صفوف أصحابِ النبيّ صلى الله عليه وسلم، فهم هكذا — وشبّك أصابع يديه — والتبسوا. فلما أخَل الرماةُ تلك الخَلّة[(١)] التى كانوا فيها دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضرب بعضهم بعضا والتبسوا، وقتل من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه أوّلُ النهار حتى قتل من أصحاب لواءِ المشركين ســبعة أو تسعة، وجال المسلمون نحو الجبل، ولم يبلغوا حيث يقول الناس: الغار[(٢)]، إنما كانوا تحت المِهراس[(٣)] وصاح الشيطان: قتل محمد. فلم يُشَكّ فيه أنه حق، فمــا زلنا كذلك ما نشك أنه قتِل حتى طلع علينا رســولِ الله صلى الله عليه وســلم بين السّعدين[(٤)]، نعرفــه بتكفّئه[(٥)] إذا مشى. قال: ففرحنا حتى كأنّا لم يصبنا ما أصابنا. قال: فرقى نحونا وهو يقول: "اشــتدّ غضب الله على قوم دمّوا وجهَ نَبِيِّهم[(٦)]". وقال كعب بن مالك: أنا كنت أوّل من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين؛ عرفته بعينيه من تحت المِغْفَر تزهران فناديت بأعلى صوتى: يا معشر المسلمين! ابشروا، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقبل. فأشار إلىّ أن اسكت.

---

(١) أخل بالمكان وبمركزه: غاب عنه وتركه. والخلة: الطريق. (٢) كذا فى الأصــول. والذى فى الدر المنثور، والمستدرك للحاكم: «... ألغاب» بالباء بدل الراء. (٣) المهراس: ماء بجبل أحد.

(٤) السعدان: سعد بن معاذ وســعد بن عبادة. (٥) التكفؤ: التمايل إلى قــدام كما تتكفأ السفينة فى جريها. (٦) فى د و هـ وجه: وجه رسوله.

قوله تعالى : إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

« إذ » متعلق بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ » . وقراءة العامة « تُصْعِدُونَ » بضم التاء وكسر العين . وقرأ أبو رجاء العطاردِيّ وأبو عبد الرحمن السلمى والحسن وقتادة بفتح التاء والعين ، يعنى تصعدون الجبل . وقرأ ابن مُحَيْصن وشِبْل « إذ يصعدون ولا يلوون » بالياء فيهما . وقرأ الحسن «تَلُون» بواو واحدة . وروى أبو بكر بن عيّاش عن عاصم «ولا تلوون» بضم التاء؛ وهى لغة شاذة ذكرها النحاس . وقال أبو حاتم : أصعدت إذا مضيت حيال وجهك ، وصعِدت إذا ٱرتقيت فى جبل أو غيره . فالإصعاد : السير فى مستوٍ من الأرض و بطون الأودية والشِّعاب . والصعود : الٱرتفاع على الجبال والسطوح والسّلالِيم والدَّرَج . فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل بعد إصعادهم فى الوادى ؛ فيصح المعنى على قراءة « تُصْعِدون » و « تَصْعَدون » . قال قتادة والربيع : أصعدوا يوم أحد فى الوادى . وقراءة أُبَىّ « إذ تُصعِدون فى الوادى » . قال ابن عباس : صعِدوا فى أُحُد فرارا . فكلتا القراءتين صواب؛ كان يومئذ من المنهزمين مُصْعِد وصاعد . والله أعلم . قال القُتَبِىّ والمبرد : أصعد إذا أبعدَ فى الذهاب وأمعن فيه؛ فكأن الإصعاد إبعاد فى الأرض كإبعاد الارتفاع ؛ قال الشاعر[(١)] :

ألا أيهذا السائلى أيْنَ أَصْعدتْ[(٢)] * فإنّ لها من بطن يثْرِبَ موعدا

وقال الفرّاء : الإصعاد الابتداء فى السفر، والانحدار الرجوع منه ؛ يقال : أصعدنا من بغداد إلى مكة و إلى خراسان وأشباه ذلك إذا خرجنا إليها وأخذنا فى السفر، وانحدرنا إذا رجعنا . وأنشد أبو عبيدة :

قد كنتِ تبكين على الإصعاد * فاليوم سُرِّحْتِ وصاح الحادِى

(١) هو أعشى قيس . (٢) الذى فى ديوان الأعشى وسيرة ابن هشام ص ٢٥٥ طبع أوربا : « أين يممت » . والبيت من قصيدة يمدح بها النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ومطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا * وعادك ما عاد السليم المنهدا

وقال المفضل : صَعِد وأصْعَد وصَعَّد بمعنى واحد . ومعنى « تَلْوُونَ » تعرّجون وتقيمون، أى لا يلتفت بعضكم إلى بعض هَرَبا؛ فإن المُعرِّج على الشيء يلوى إليه عُنقه أو عنان دابته .
﴿ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ يريد محمدا صلى الله عليه وسلم؛ قاله الكلبي . ﴿ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ أى فى آخركم؛ يقال : جاء فلان فى آخر الناس وأُخْرَة الناس وأُخْرَى الناس وأخريَات الناس . وفى البخارى « أُخْرَاكُمْ » تأنيث آخركم : حدّثنا عمرو بن خالد حدّثنا زهير حدّثنا أبو إسحاق قال سمعت البراء بن عازب قال : جعل النبيّ صلى الله عليه وسلم على الرَّجّالة يوم أُحُد عبد الله ابن جبير وأقبلوا منهزمين فذاك إذ يدعوهم الرسول فى أخراهم . ولم يبق مع النبيّ صلى الله عليه وسلم غير اثنى عشر رجلا . قال ابن عباس وغيره : كان دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أى عباد الله ارجعوا" . وكان دعاءه تغييرا للنكر ، ومحال أن يرى عليه السلام المنكر وهو الانهزام ثم لا ينهى عنه .

قلت : هذا على أن يكون الانهزام معصية وليس كذلك ، على ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ ﴾ الغم فى اللغة : التغطية . غممت الشيء غطيته . ويوم غَمٌّ وليلة غَمَّةٌ إذا كانا مظلمين . ومنه غمّ الهلال إذا لم ير، وغمّنِي الأمر يغُمُّني . قال مجاهد وقتادة وغيرهما : الغَمّ الأوّل القتل والجراح ، والغم الثانى الإرجاف بقتل النبيّ صلى الله عليه عليه وسلم ؛ إذ صاح به الشيطان . وقيل : الغم الأوّل ما فاتهم من الظفر والغنيمة ، والثانى ما أصابهم من القتل والهزيمة . وقيل : الغَمّ الأوّل الهزيمة،والثانى إشراف أبى سفيان وخالد عليهم فى الجبل ؛ فلما نظر إليهم المسلمون غمهم ذلك ، وظنوا أنهم يميلون عليهم فيقتلونهم فأنساهم هذا ما نالهم ؛ فعند ذلك قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "اللّهم لا يَعْلُنّ علينا" كما تقدّم . والباء فى « بِغَمّ » على هذا بمعنى على . وقيل : هى على بابها ، والمعنى أنهم غموا النبيّ صلى الله عليه وسلم بمخالفتهم إياه، فأثابهم بذلك غمهم بمن أصيب منهم . وقال الحسن : « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا» يوم أحد «بِغَمّ» يوم بدر للشركين . وسمى الغم ثوابا كما سمى جزاء الذنب ذنبا . وقيل : وقفهم الله على ذنبهم فشغلوا بذلك عما أصابهم .

قوله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ اللام متعلقة بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ » وقيل : هي متعلقة بقوله : « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ » أى كان هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من الهزيمة . والأول أحسن . و « ما » فى قوله « مَا أَصَابَكُمْ » فى موضع خفض . وقيل : « لا » صلة . أى لكى تحزنوا على ما فاتكم وما أصابكم عقوبةً لكم على مخالفتكم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو مثل قوله : « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ »(١) أى أن تسجد . وقوله « لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ »(٢) أى ليعلم ، وهذا قول المفضّل . وقيل : أراد بقوله « فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ » أى توالت عليكم الغموم ، لكيلا تشتغلوا بعد هذا بالغنائم . « وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ » فيه معنى التحذير والوعيد .

قوله تعالى : ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا ﴾ الأمَنَة والأمْن سواءٌ . وقيل : الأمنة إنما تكون مع أسباب الخوف ، والأمن مع عدمه . وهى منصوبة بـ « أَنْزَلَ » ، و « نعاسا » بدلٌ منها . وقيل : نصب على المفعول له ؛ كأنه قال : أنزل عليكم للأمنة نعاسا(٣) . وقرأ ابن مُحَيْصِن « أَمْنَةً » بسكون الميم . تفضل الله تعالى على المؤمنين بعد هذه الغموم فى يوم

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٩ (٢) راجع جـ ١٧ ص ٢٦٦
(٣) فى ز و هـ و د : أنزل عليهم للأمنة نعاسا ، وفى جـ : أنزل عليكم الأمنة .

أُحُد بالنعاس حتى نام أكثرهم ؛ و إنما ينعس من يأمن والخائف لا ينام . روى البخاري عن أنس أن أبا طلحة قال : غشينا النعاس ونحن فى مَصافّنا يوم أحد، قال : فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه، ويسقط وآخذه . ﴿ يَغْشَى ﴾ قرئ بالياء والتاء. الياء للنعاس، والتاء للأمنة . والطائفة تطلق على الواحد والجماعة . ﴿ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعنى المنافقين: مُعَتِّب بن قُشير وأصحابه ، وكانوا خرجوا طمعا فى الغنيمة وخوف المؤمنين فلم يغشهم النعاس وجعلوا يتأسفون على الحضور ، و يقولون الأقاويل . ومعنى « قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ » حملتهم على الهمّ ، والهمّ ما هممت به؛ يقال : أهمّنى الشىء أى كان من همى . وأمرٌ مُهِمٌّ: شديد . وأهمّنى الأمر أقلقنى ، وهمّنى أذابنى (١) . والواو فى قوله « وطائفةٌ » واو الحال بمعنى إذْ ، أى إذ طائفةٌ يَظُنُّونَ أن أمر محمد صلى الله عليه وسلم باطل ، وأنه لا يُنصر . ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ أى ظنّ أهلِ الجاهلية ، فحذف . ﴿ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ لفظه استفهام ومعناه الجحد ، أى ما لنا شىء من الأمر ، أى من أمر الخروج ، و إنما خرجنا كرها ؛ يدلّ عليه قوله تعالى إخبارا عنهم : « لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا » . قال الزبير : أُرسل علينا النوم ذلك اليوم، و إنى لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير والنعاسُ يغشانى يقول: لو كان لنا من الأمر شىء ما قُتلنا هاهنا . وقيل : المعنى يقول ليس لنا من الظَّفَر الذى وَعَدَنا به محمد شىءٌ . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ قرأ أبو عمرو و يعقوب « كُلُّه » بالرفع على الابتداء ، وخبره « لِلَّهِ » ، والجملة خبر « إن » . وهو كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ (٢) » . والباقون بالنصب؛ كما تقول : إن الأمر أجمع لله . فهو توكيد ، وهو بمعنى أجمع فى الإحاطة والعموم ، وأجمع لا يكون إلا توكيدا . وقيل : نعت للأمر . وقال الأخفش : بدل ؛ أى النصر بيد الله ينصر من يشاء ويخذل من يشاء . وقال جُوَيبر عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله « يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ » يعنى التكذيب بالقَدَر . وذلك أنهم تكلموا فيه ، فقال الله تعالى : « قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ » يعنى القَدَر خيره وشره من الله . ﴿ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ أى من الشرك

(١) أى حزنه الأمر حتى أذابه . (٢) راجع جـ ١٥ ص ٢٧٣

والكفر والتكذيب . ﴿ مَا لَا يُبْـدُونَ لَكَ ﴾ يظهرون لك . ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَـا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا ﴾ أى ما قُتِل عشائرنا . فقيل : إن المنافقين قالوا لو كان لنا عقل ما خرجنا إلى قتال أهل مكة ، ولمّـا قتل رؤساؤنا . فردّ الله عليهم فقال : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ﴾ أى لخـرج . ﴿ الَّذِينَ كُتِبَ ﴾ أى فـرض . ﴿ عَلَيْهِمُ الْقَتْـلُ ﴾ يعنى فى اللوح المحفوظ . ﴿ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ أى مصارعهم . وقيل : « كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ » أى فرض عليهم القتال ، فعبّر عنه بالقتل؛ لأنه قد يؤول إليه . وقرأ أبو حَيْوَة « لَبُرِّزَ » بضم الباء وشدّ الراء ؛ بمعنى يُجعل يَخرج . وقيـل : لو تخلفتم أيها المنافقون لبرزتم إلى موطن آخر غيره تُصرعون فيه حتى يَبتلى الله ما فى الصدور ويُظهره للؤمنين . والواو فى قوله ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ ﴾ مقحمة كقوله : ﴿ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١) أى ليكون ، وحذف الفعـل الذى مع لام كى . والتقـدير ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فرض الله عليكم القتال والحرب ولم ينصركم يوم أُحُد ليختبر صـبركم ويُمحّص عنكم سيئاتكم إن تبتم وأخلصتم . وقيـل : معنى « لِيبتلِي » ليعاملكم معاملة المختبر . وقيـل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غَيْباً . وقيل : هو على حذف مضاف ، والتقدير ليبتلى أوليـاء الله تعالى . وقد تقدّم معنى التمحيص . ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى ما فيهـا من خير وشر . وقيل : ذات الصدور هى الصدور ؛ لأن ذات الشيء نفسه .

قوله تعـالى : إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَـدْ عَفَـا اللَّهُ عَنْهُـمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾ هذه الجملة هى خبر «إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا» . والمراد من تولّى عن المشركين يوم أُحُد؛ عن عمر رضى الله عنـه وغيره . السُّدّى : يعنى من هرب إلى المدينة فى وقت الهزيمة دون من صَعِد الجبل . وقيل : هى فى قوم بأعيانهم تخلّفوا عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى وقت هزيمتهم ثلاثة أيام ثم انصرفوا . ومعنى «اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ» استـدعى زللهم بأن ذكّرهم خطايا سلفت منهم ، فكرهوا الثبوت لئـلا يُقتلوا .

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣

وهو معنى « ببعض ما كسبوا » . وقيل : « ٱسْتَزَلَّهُمُ » حملهم على الزلل ، وهو استفعل من الزلّة وهى الخَطيئة . وقيل : زَلّ وأزَلّ بمعنًى واحد . ثم قيل : كرهوا القتال قبل اخلاص التوبة ، فإنما تولّوا لهذا ، وهذا على القول الأوّل . وعلى الثانى بمعصيتهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فى تركهم المركز ومَيْلهم إلى الغنيمة . وقال الحسن : « مَا كَسَبوا » قَبُولهم من إبليس ما وسوس إليهم . وقال الكلبيّ : زيّن لهم الشيطان أعمالهم . وقيل : لم يكن الانهزام معصية؛ لأنهم أرادوا التحصّن بالمدينة، فيقطع العدوّ طمعه فيهم لمّا سمعوا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قُتِل. ويجوز أن يقال : لم يسمعوا دعاء النبيّ صلى الله عليه وسلم لِلهَوْل الذى كانوا فيه. ويجوز أن يقال : زاد عدد العدوّ على الضِّعف؛ لأنهم كانوا سبعمائة والعدوّ ثلاثة آلاف. وعند هذا يجوز الانهزام ولكن الانهزام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم خطأٌ لا يجوز ، ولعلّهم توهّموا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم انحاز إلى الجبل أيضا . وأحسنها الأوّل . وعلى الجملة فإن حُمِل الأمر على ذنب مُحَقّق فقد عفا الله عنه ، وإن حُمِل على انهزام مُسَوّغ فالآية فيمن أَبْعَد فى الهزيمة وزاد على القدر المسوّغ . وذكر أبو الليث السَّمَرْقَندِيّ نصر بن محمد بن إبراهيم قال : حدّثنا الخليل بن أحمد قال حدّثنا السراج قال حدّثنا قتيبة قال حدّثنا أبو بكر بن غَيْلان عن جرير : أن عثمان كان بينه وبين عبد الرحمن بن عوف كلام ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أَتَسُبُّنى وقد شهدتُ بَدْرًا ولم تَشهَد، وقد بايعتُ تحت الشجرة ولم تبايع ، وقد كنتَ تُوَلّى مع من تَوَلّى يوم الجَمْع، يعنى يوم أُحُد . فردّ عليه عثمان فقال: أما قولك : أنا شهدتُ بدرا ولم تشهد، فإنى لم أَغِب عن شيء شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت مريضةً وكنت معها أُمَرِّضها، فضرب لى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهما فى سهام المسلمين ، وأما بيعة الشّجرة فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثنى رَبِيئَةً على المشركين بمكة — الرَّبيئَةُ هو الناظر — فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمينه على شماله فقال: " هذه لعثمان " فيمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وشماله خير لى من يمينى وشمالى . وأما يوم الجَمْع فقال الله تعالى : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » فكنتُ فيمن عفا الله عنهم . فحجّ[1] عثمانُ عبدَ الرحمن .

(١) فى ب و هـ و د : فخاصم، وفى جـ : فحاج .

قلت : وهذا المعنى صحيحٌ أيضا عن ابن عمر، كما فى صحيح البخارى قال : حدّثنا عَبْدان أخبرَنا أبو حمزة عن عثمان بن مَوْهَب قال : جاء رجلٌ حجّ البيتَ فرأى قوما جلوسا فقال : مَن هؤلاء القعود؟ قالوا : هؤلاء قريش . قال : مَنِ الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال : إنى سائلك عن شيء أتحدّثنى ؟ قال : أنْشُدكَ بحُرْمة هذا البيت ، أتعلم أن عثمانَ بنَ عفّان فرّ يوم أُحُد ؟ قال : نعم . قال : فتعلَمُه تغيب عن بَدْرٍ فلم يشهدها ؟ قال : نعم . قال : فتعلم أنه تخلّف عن بيعة الرِّضوان فلم يشهدها ؟ قال نعم . قال : فكبّر . قال ابن عمر : تعالَ لِأخبرك ولأبيّن لك عما سألتنى عنه ؛ أمّا فِراره يوم أُحُد فأشهَدُ أن الله عفا عنه . وأما تغيُّبه عن بَدْرٍ فإنه كان تحته بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت مريضةً ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن لكَ أجرَ رجل ممن شَهِد بَدرًا وسَهْمَه " . وأما تغيُّبُه عن بيعة الرِّضوان فإنه لو كان أحَدٌ أعز ببطن مكةَ من عثمانَ بن عفان لبعثه مكانه ، فبعث عثمانَ وكانت بيعةُ الرضوان بعد ما ذهب عثمانُ إلى مكة ، فقال(١) النبيّ صلى الله عليه وسلم بيده اليمنى : " هذه يد عثمان " فضرب بها على يده(٢) فقال : " هذه لعثمان " . آذهب بهذا(٣) الآن معك .

قلت : ونظير هذه الآية توبةُ الله على آدمَ عليه السلام . وقوله عليه السلام : " فحجّ آدمُ موسى " أى غلبه بالحُجّة؛ وذلك أن موسى عليه السلام أراد توبيخ آدمَ ولومَه فى إخراج نفسه وذرّيّته من الجنة بسبب أكله من الشجرة؛ فقال له آدم: " أفتلومُنِى على أمرٍ قدّره الله تعالى علىّ قبل أن أخلَقَ بأربعين سنة تاب علىّ منه ومن تاب عليه فلا ذنب له ومن لاذنب له لايتوجّه عليه لومٌ " . وكذلك من عفا الله عنه . وإنما كان هذا لإخباره تعالى بذلك، وخبرُه صِدْقٌ . وغيرهما من المذنبين التائبين يرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم على وَجَل وخوف ألّا تُقبل توبتهم، وإن قُبلت فالخوف أغلبُ عليهم إذ لا عِلْمَ لهم بذلك . فآعلم .

---

(١) قال : أشار، والعرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان؛ فتقول : قال بيده أى أخذ، وقال برجله أى مشى، وقال بثوبه أى رفعه، وكل ذلك على الاتساع والمجاز (عن نهاية ابن الأثير) .

(٢) أى اليسرى .

(٣) فى رواية "بها" أى بالأجوبة التى أجبتك بها حتى يزول عنك ما كنت تعتقده من عيب عثمان . (عن القسطلانى) فى ب و هـ و د : بهذه .

قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعنى المنافقين . ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ يعنى فى النفاق أو فى النسب فى السرايا التى بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بئر مَعُونَة . ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ فنُهِى المسلمون أن يقولوا مثل قولهم . وقوله : ﴿إِذَا ضَرَبُوا﴾ هو لِما مضى ؛ أى إذْ ضربوا ؛ لأن فى الكلام معنى الشرط من حيث كان « الذين » مُبْهَما غير موقّت ، فوقع « إذا » موقِعَ « إذْ » كما يقع الماضى فى الجزاء موضع المستقبل . ومعنى ﴿ضَرَبُوا فِى الْأَرْضِ﴾ سافروا فيها وساروا لتجارة أو غيرها فماتوا . ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ غُزاة فقُتِلوا . والغُزَّى جمعٌ منقوص لايتغيّر لفظُها فى رفع وخفض، واحدهم غازٍ، كراكع ورُكَّع، وصائم وصُوَّم . ونائم ونُوَّم ، وشاهِد وشُهَّد، وغائِب وغُيَّب . ويجوز فى الجمع غُزاة مثل قُضاة، وغُزّاء بالمد مثل ضُرّاب وصوّام . ويقال : غَزِىّ جمع الغَزاة[(١)] . قال الشاعر[(٢)] :

* قل للقوافِل والغَزِىّ إذا غَزَوْا *

ورُوى عن الزُّهرى أنه قرأه « غُزًى » بالتخفيف . والمُغْزِيَةُ المرأة التى غَزَا زوجُها . وأَتَانٌ مُغزِيةٌ متأخِرةُ النّتاج ثم تُنْتَجُ . وأغزَت النّاقةُ إذا عَسُر لِقاحُها . والغَزْوُ قصدُ الشىء . والمَغْزَى المَقصِدُ . ويقال فى النَّسَب إلى الغزو : غَزَوِىٌّ .

---

(١) فى اللسان مادة « غزا » أنه جمع غاز مثل حاج وحجيج وقاطن وقطين وناد وندى وناج ونجى .

(٢) هو زياد الأعجم . وقيل : هو الصلتان العبدى ، وتمامه كما فى اللسان :

* والباكرين وللمجدّ الرّائح *

قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى ظنّهم وقولهم . واللّام متعلقة بقوله « قالوا » أى ليجعل ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قُتلوا . « حَسْرَةً » أى ندامة « فى قُلُوبِهِمْ » . والحسرة الاهتمام على فائت لم يُقْدَر بلوغُه؛ قال الشاعر :

فوَاحسرتِى لم أقضِ منها لُبانَتِى * ولم أتمتّعْ بالجِوارِ وبالقُربِ

وقيل : هى متعلقة بمحذوف . والمعنى : لا تكونوا مثلَهم « ليجعل الله ذلك » القولَ « حسرةً فى قلوبهم » لأنهم ظهر نفاقهم . وقيل : المعنى لا تصدّقوهم ولا تلتفتوا إليهم؛ فكان ذلك حسرة فى قلوبهم . وقيل : « لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ » يوم القيامة لِمَا هم فيه من الخِزى والندامة، ولِمَا فيه المسلمون من النعيم والكرامة .

قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ أى يقدر على أن يُحيى من يخرج إلى القتال، ويميت من أقام فى أهله . ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ قرئ بالياء والتاء . ثم أخبر تعالى أن القتل فى سبيل الله والموت فيه خيرٌ من جميع الدنيا .

قوله تعالى : وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

جواب الجزاء محذوف، استغنى عنه بجواب القسم فى قوله : ﴿ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ ﴾ وكان الاستغناء بجواب القَسم أولى؛ لأنّ له صَدْر الكلام، ومعناه ليغفرنّ لكم . وأهل الحجاز يقولون : مِتُّم، بكسر الميم مثل نِمتم، من مات يمات مثل خِفت يخاف . وسُفْلَى مُضَر يقولون : مُتم، بضم الميم مثل صمتم، من مات يموت . كقولك كان يكون، وقال يقول . هذا قول الكوفيين وهو حسن . وقوله : ﴿ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وَعْظٌ . وعظهم الله بهذا القول، أى لا تفِرّوا من القتال ومما أمركم به، بل فِرّوا من عقابه وأليم عذابه، فإن مَرَدّكم إليه لا يملك لكم أحد ضرّا ولا نفعا غيره . والله سبحانه وتعالى أعلم .

قوله تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)

« ما » صلةٌ فيها معنى التأكيد ، أى فبرحمة؛ كقوله : « عَمَّا قليلٍ »(١) « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ »(٢) « جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ »(٣) . وليست بزائدة على الإطلاق ، و إنما أطلق عليها سيبويه معنى الزيادة من حيث زال عملها . ابن كَيْسان : « ما » نكرة فى موضع جر بالباء (ورَحْمَةٍ) بدلٌ منها . ومعنى الآية : أنه عليه السلام لما رَفَق بمن تولى يوم أُحُد ولم يُعَنِّفْهُم بيّن الرَّبُّ تعالى أنه إنما فَعَل ذلك بتوفيق الله تعالى إيّاه . وقيل : « ما » استفهامٌ . والمعنى : فَبِأَيّ رَحْمَةٍ مِنَ الله لِنْتَ لَهُم؛ فهو تعجيب . وفيه بُعْدٌ؛ لأنه لو كان كذلك لكان « فبم » بغير ألف . (لِنْتَ) من لاَنَ يَلِينُ لِينًا وَلَيَانًا بالفتح . والفَظُّ الغَلِيظُ الجَافِي . فَظِظْتَ تَفَظُّ فَظَاظَةً وفَظَاظًا فأنت فَظٌّ . والأنثى فَظَّةٌ والجمع أفْظَاظ . وفى صفة النبيّ عليه السلام ليس بفَظٍّ ولا غَلِيظٍ ولا صَخّابٍ فى الأسواق؛ وأنشد المُفَضَّل فى المذكّر :

وليس بفَظٍّ فى الأَدَانِيّ والأُولى * يَؤُمُّونَ جَدْوَاهُ ولكنّه سَهْلُ
وفَظٌّ على أعدائه يَحْذَرُونَهُ * فَسَطْوَتُهُ حَتْفٌ ونائلُه جَزْلُ

وقال آخرُ فى المُؤَنّث :

أَموتُ مِن الضُّرّ فى منزلى * وغيرى يموتُ من الكِظَّهْ(٤)
ودُنْيَا تَجودُ على الجاهليـ * ـن وهْى على ذى النُّهَى فَظَّهْ

وغِلَظُ القلب عِبارةٌ عن تَجَهُّم الوجه، وقِلّةِ الانفعالِ فى الرَّغائِبِ ، وقِلّةِ الإشفاقِ والرّحمة ، ومن ذلك قولُ الشّاعر :

يُبْكَى عَلَيْنَا ولا نَبْكِى على أحدٍ؟ * لَنَحْنُ أغْلَظُ أكْبادًا من الإبِلِ

(١) راجع جـ ١٢ ص ١٢٤ (٢) راجع جـ ٦ ص ١١٤ (٣) راجع ١٥ ص ١٥١
(٤) الكظة : البطنة .

ومعنى ﴿ لَانْفَضُّوا ﴾ لتفرقوا، فضضتهم فانفضوا، أى فرقتهم فتفرقوا ؛ ومن ذلك قول أبى النّجم يصف إبلا :

مستعجلات القيض(١) غيرِ جُرْد(٢) * ينفضّ عنهن الحَصَى بالصَّمْد(٣)

وأصل الفض الكسر؛ ومنه قولهم : لا يَفْضُضِ الله فاكَ . والمعنى : يا محمدُ لولا رفقُك لَمَنَعَهم الاحتِشَامُ والهيبةُ من القُربِ منك بعد ما كان من تولّيهم .

قوله تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ فيه ثمان مسائل :

الأولى — قال العلماء : أمَر الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم بهذه الأوامر التى هى بتدريج بليغ ؛ وذلك أنه أمره بأن يَعفُوَ عنهم ما له فى خاصّته عليهم من تَبِعةٍ ؛ فلما صاروا فى هذه الدرجة أمره أن يستغفر فيما لله عليهم من تَبِعَة أيضا ، فإذا صاروا فى هذه الدّرجة صاروا أهْلًا للاستشارة فى الأمور . قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول العرب : شُرْتُ الدابة وشوّرتُها إذا علمت خبرها بجرى أو غيره . ويقال للموضع الذى تركُضُ فيه : مِشْوَار . وقد يكون من قولهم : شُرت العسلَ واشترتُه فهو مَشُور ومُشْتار إذا أخذته من موضعه، قال عَدِىّ بنُ زَيد :

فى سَمَاع يأذَنُ الشّيخُ له * وحَديثٍ مثلِ مَاذِىٍّ مُشَار(٤)

الثانيــة — قال ابنُ عَطية : والشُّورَى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ؛ من لا يَسْتشيرُ أَهلَ العِلم والدِّين فعزلُهُ واجبٌ . هذا ما لَا خلاف فيه . وقد مَدَح الله المؤمنين بقوله : « وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ(٥) » . قال أعرابىٌّ : ما غُبِنْتُ قَطُّ حتى يُغْبَنَ قومى ؛ قيل :

---

(١) كذا فى الأصول بالقاف والياء المثناة ، ولعله مصحف عن « القبض » بالقاف والباء الموحدة وهو السوق السريع ، وإنما سمى السوق السريع قبضا لأن السائق للإبل يقبضها أى يجمعها إذا أراد سوقها ، فإذا انتشرت تعذر عليه سوقها ، أو القبص بمهملة : العدو الشديد . (٢) كذا فى الأصول بالمعجمة ، ولعله « حرد » بالحاء المهملة ، والحرد فى البعير أن تنقطع عصبة ذراعه فتسترخى يده فلا يزال يخفق بها أبدا . (٣) الصمد : المكان الغليظ المرتفع من الأرض لا يبلغ أن يكون جبلا . (٤) يأذن : يستمع . والماذى : العسل الأبيض . والمشار : المجتنى . (٥) راجع جـ ١٦ ص ٣٦

وكيف ذلك ؟ قال لا أفعل شيئا حتى أشاوِرَهُم . وقال ابنُ خُوَيْزِمَنْدَاد : واجب على الوُلاةِ مشاورةُ العلماء فيما لا يَعْلَمُون ، وفيما أشكَل عليهم من أمور الدِّين، ووُجُوه الجيش فيما يتعلّق بالحروب ، ووجوه النـاس فيما يَتعلّق بالمصالح ، ووُجُـوه الكُتّاب والوزراءِ والعمالِ فيما يتعلّق بمصالح البـلاد وعِمارتها . وكان يقال : ما ندم من استشار (١) . وكان يُقال : من أُعْجِبَ برأيه ضَـلّ .

التالثـــة — قوله تعـالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ يَدُلُّ على جواز الاجتهاد فى الأُمُورِ والأخذِ بالظُّنُونِ مع إمكان الوَحْى ؛ فإن الله أَذِن لرسوله صلى الله عليه وسـلم فى ذلك . واختَلَف أهل التأويلِ فى المعنى الذى أمَرَ الله نبيَّهُ عليه السلام أن يُشَاوِرَ فيه أصحابَه ؛ فقالت طائفة : ذلك فى مكائد الحُروب، وعند لِقاء العَدُوّ، وتطييبا لِنُفُوسهم ، ورَفْعًـا لِأَقدارِهم، وتألُّفًا على دينهم، وإنْ كان الله تعالى قد أغناه عن رأيهم بوَحْيِه . رُوِى هذا عن قتادة والربيع وابن إسحاق والشافِعيّ . قال الشافِعيّ : هو كقَـوله " والبِكرُ تُستَأْمَرُ " تطيبا لقلبها ؛ لا أنّه واجبٌ . وقال مُقَاتِلٌ وقَتَادةُ والربيـع : كانت سَاداتُ العرب إذا لم يُشَاوَرُوا فى الأمْر شَقّ عليهم : فأمر الله تعالى؛ نبيّه عليه السلام أن يُشاورَهم فى الأمر : فإن ذلك أعْطَفُ لهم عليه وأذهَبُ لأضغانهم ، وأطيبُ لنفوسهم . فإذا شاورَهم عَرَفُوا إكرامَه لهم . وقال آخرون : ذلك فيما لم يأته فيه وَحْىٌ. رُوِى ذلك عن الحسن البصرى والضحاك قالا : ما أمَرَ الله تعالى نبيه بالمُشَاوَرة لحاجةٍ منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يُعلّمهم ما فى المُشَاوَرةِ من الفضل، ولِتَقْتدىَ به أمتُه من بعدِه . وفى قراءة ابنِ عباسٍ : « وَشَاوِرْهُمْ فِي بعضِ الأمرِ » ولقد أحسن القائل :

شَاوِر صديقَكَ فى الخَفِىّ المُشْكِلِ * واقبَـلْ نصيحَةَ ناصحٍ مُتَفضِّـلِ
فالله قَـد أوْصَى بذاكَ نَبِيَّـهُ * فى قولِه : (شاوِرْهُم) و (توكّلِ)

الرابعـــة — جاء فى مصنّف أبى داود عن أبى هريرة قال قال رسـول الله صـلى الله عليه وسلم : " المُسْتَشَارُ مُؤْتَمَن » . قال العلماء : وصِفةُ المُستشارِ إن كان فى الأَحْكامِ أن

(١) هـذا حديث رواه الطبرى فى أوسطه والقضاعى عن أنس وحسنه السيوطى وفى كشف الخفا : فى سنده ضعيف جدا .

يكون عالِمًا دَيِّنًا، وقلّما يكونُ ذلك إلّا فى عاقل . قال الحسن : ما كَمُل دِينُ امرئٍ ما لم يكمل عقلُه . فاذا استُشِيرَ مَنْ هذه صِفتُهُ واجتهد فى الصَّلاحِ و بذَلَ جُهدَه فوقعت الإشارةُ خَطأً فلا غَرامةَ عليه؛ قاله الخطّابىُّ وغيرهُ .

الخامسة — وصفةُ المُستشارِ فى أمورِ الدنيا أن يكون عاقلا مُجرِّبًا وادًّا فى المُستَشير . قال :

* شاوِرْ صديقَك فى الخفِى المُشْكِلِ *

وقد تقدّم . وقال آخر :

و إنْ بَابُ أمرٍ عليك الْتَوَى * فَشَاوِر لبيبًا ولا تَعْصِهِ

فى أبيات [1] . والشُّورى بَرَكَةٌ . وقال عليه السلام : " ما نَدِمَ مَن اسْتَشَار ولا خَابَ مَنِ اسْتَخَار " . وروى سهلُ بنُ سعد السّاعِدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما شَقِىَ قَطُّ عبدٌ بمشورة وما سَعِد باستغناء رأى " . وقال بعضهم : شَاوِرْ من جَرّبَ الأمورَ؛ فإنه يُعطيك من رأيه ماوقع عليه غاليا وأنت تأخذه مجانا . وقد جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة — وهى أعظم النّوازِلِ — شورى . قال البخارىّ : وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستَشِيرون الأمناءَ من أهل العلم فى الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها . وقال سفيان الثورِىّ : ليكن أهل مشورتك أهل التقوى والأمانة، ومن يخشى الله تعالى . وقال الحسن : والله ما تشاوَرَ قوم بينهم إلا هداهم لِأفضل ما يحضر بهم [2] . ورُوِى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من قوم كانت لهم مشورةٌ فحضر معهم من اسمه أحمد أو محمد فأدخلوه فى مشورتهم إلا خِيرَ لهم " .

---

(١) وقبل هذا البيت :

إذا كنت فى حاجة مرسلا * فأرسل حكيما ولا توصه

وبعده :

ونص الحديث إلى أهله * فإن الوثيقة فى نصه

إذا المرء أضمر خوف الإلـ * ـه تبين ذلك فى شخصه

(٢) فى ب و جـ : ما بحضرتهم .

السادسة — والشّورى مبنيّة على ٱختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف، وينظر أقربها قولا إلى الكتاب والسنة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ماشاء منه عزَم عليه وأنفذه متوكّلا عليه، إذْ هذه غاية الاجتهاد المطلوب؛ وبهذا أمر الله تعالى نبيّه في هذه الآية.

السابعة — قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ قال قتادة: أمر الله تعالى نبيّه عليه السلام إذا عزم على أمر أن يَمضيَ فيه ويتوكّل على الله، لا على مشاورتهم. والعزم هو الأمر المُرَوَّى المنقح، وليس ركوب الرأى دون رَوِيّة عزما، إلا على مقْطع المُشيحين من فُتّاك العرب؛ كما قال[1]:

إذا همّ ألقَى بين عينَيْهِ عزمَهُ * ونكّب عن ذِكر العواقِب جانبَا
ولم يستشِر في رأيه غيرَ نفسِه * ولم يَرض إلا قائمَ السّيفِ صاحبَا

وقال النّقاش: العزم والحزم واحد، والحاء مُبْدلة من العين. قال ابن عطية: وهذا خطأ؛ فالحزم جودة النّظر في الأمر وتنقيحُه والحذرُ من الخطأ فيه. والعزمُ قصدُ الإمضاء؛ والله تعالى يقول: « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ ». فالمشاورة وما كان في معناها هو الحزم. والعرب تقول: قد أَحْزِم لو أعْزِم[2]. وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد: « فَإِذَا عَزَمْتُ » بضم التاء. نسب العزم إلى نفسه سبحانه إذ هو بهدايته وتوفيقه؛ كما قال: « وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى »[3]. ومعنى الكلام أى عزمتُ لك ووفّقتك وأرشدتك « فتوكل على اللهِ ». والباقون بفتح التاء. قال المُهَلّب: وامتثل هذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم من أمر ربّه فقال: "لا ينبغي لنبيّ يلبَس لأمته[4] أن يضعها حتى يحكم الله". أى ليس ينبغي له إذا عزم أن ينصرف؛ لأنه نقضٌ للتوكّل الذى شرطه الله عز وجل مع العزيمة. فلُبسه لأْمَتَهُ صلى الله عليه وسلم حين أشار عليه بالخروج يوم أُحُد مَن أكرمه الله بالشهادة فيه، وهم صلحاء المؤمنين ممن كان فاتته بَدْرٌ: يارسول الله ٱخرج بنا إلى عدوّنا؛ دالّ على العزيمة. وكان

(١) هو سعد بن ناشب المازني (عن الكامل للبرد وخزانة الأدب للبغدادى). (٢) يقول: أعرف وجه الحزم؛ فإن عزمت فأمضيت الرأى فأنا حازم، وإن تركت الصواب وأنا أراه وضيعت العزم لم ينفعنى حزمى. (عن الكامل للبرد). (٣) راجع جـ٧ ص ٣٨٤ (٤) اللأمة: الدرع، وقيل: السلاح. ولأمة الحرب: أداتها. وقد يترك الهمز تخفيفا.

صلى الله عليه وسلم أشار بالقعود، وكذلك عبد الله بن أبيّ أشار بذلك وقال: أقم يا رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس، فإنْ هم أقاموا أقاموا بشرّ مجلس، وإن جاءونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية وأفواه السّكك، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من الآطام[1]، فوالله ما حار بنا قطّ عدوٌّ في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدوّ إلا غلبنا. وأبى هذا الرأى من ذكرنا، وشجّعوا الناس ودعَوْا إلى الحرب. فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة، ودخل إثر صلاته بيتَه ولبس سلاحه، فندم أولئك القوم وقالوا: أكرهْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلما خرج عليهم في سلاحه قالوا: يا رسول الله، أقِم إن شئت فإنا لا نريد أن نُكرهَك، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغى لنبيّ إذا لبس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل".

الثامنة — قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ التوكّل: الاعتماد على الله مع إظهار العجز، والاسم التُّكلان. يقال منه: اتّكلت عليه في أمرى، وأصله: «أوْتَكَلْت» قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها، ثم أبدلت منها التاء وأدغمت في تاء الافتعال. ويقال: وكّلته بأمرى توكيلا، والاسم الوِكالة بكسر الواو وفتحها.

واختلف العلماء في التوكل؛ فقالت طائفة من المتصوّفة: لا يستحقه إلا من لم يخالط قلبَه خوفُ غير الله من سَبُعٍ أو غيره، وحتى يترك السعى في طلب الرزق لضمان الله تعالى. وقال عامة الفقهاء: ما تقدّم ذكره عند قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2]. وهو الصحيح كما بيناه. وقد خاف موسى وهارون بإخبار الله تعالى عنهما في قوله «لَا تَخَافَا»[3]. وقال: «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ»[3]. وأخبر عن إبراهيم بقوله: «فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ»[4]. فإذا كان الخليل وموسى الكليم قد خافا — وحسبك بهما — فغيرهما أولى. وسيأتى بيان هذا المعنى.

قوله تعالى: إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

(١) الآطام (جمع أطم بضمتين): الأبنية المرتفعة كالحصون. وقيل: حصون مبنية بالحجارة.
(٢) راجع ص ١٨٩ من هذا الجزء.　(٣) راجع جـ ١١ ص ٢٠١ و ٢٢١　(٤) راجع جـ ٩ ص ٦٢

قوله تعـالى : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ أى عليه توكلوا فإنه إن يُعنكم و يمنعكم من عدوّكم لن تُغلبوا . ﴿ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ ﴾ يترككم من معونتــه . ﴿ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ أى لا ينصركم أحد من بعــده ، أى من بعد خِذلانه إيّاكم ؛ لأنه قال : « وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ » والخِذلان ترك العون . والمخذول : المتروك لا يُعبأ به . وخَذَلت الوحشيّة أقامت على ولدها فى المرعى وتركت صواحباتها ؛ فهى خذول . قال طَرَفة :

خَذُولٌ تُراعِى رَبْرَبًا بخَميـلةٍ * تَناوَلُ أطرافَ البَريرِ وتَرْتَدِى (١)

وقال أيضا :

نظرتْ إليك بعـين جارية * خَذَلت صواحبها على طِفْلِ

وقيل : هذا من المقلوب؛لأنها هى المخذولة إذا تُركت . وتخاذلت رجلاه إذا ضَعُفتا . قال :

* وخَذُولِ الرِّجْل مِن غـيرِ كَسَحْ (٢) *

ورجل خُذَلة للذى لا يزال يُخْذَل . والله أعلم .

قوله تعـالى : وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ ج وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ ج ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى ـــ لمـا أخلّ الرُّماة يوم أُحُد بمراكزهم ـــ على ما تقدّم ـــ خوفًا من أن يستولى المسلمون على الغنيمة فلا يُصرف إليهم شىء ، بيّن الله سبحانه أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم لا يجور فى القسمة ؛ فمـا كان من حقّكم أن تتهموه . وقال الضحاك : بل السبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث طلائع فى بعض غزواته ثم غَنِم قبل مجيئهم ؛ فقسم للناس ولم يقسم للطلائع ؛ فأنزل الله عليه عِتابا : « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ » أى يقسم لبعض و يترك بعضا . ورُوى نحو هذا القول عن ابن عباس . وقال ابن عباس أيضا وعِكرمة وابن جُبير وغيرهم :

(١) الربرب : القطيع من بقر الوحش والظباء وغير ذلك . الخميــلة : الأرض السهلة اللينة ذات الشــجر . البرير : ثمر الأراك .

(٢) هذا عجز بيت للأعشى وصدره :

* كل وضاح كريم جدّه *

نزلت بسبب قطيفة حمراء فُقدت فى المغانم يوم بدر ؛ فقال بعض من كان مع النبيّ صلى الله عليه وسلم : لعلّ أن يكون النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذها ، فنزلت الآية أخرجه أبو داود والتِّرمذيّ وقال : هذا حديث حسن غريب . قال ابن عطية : قيل كانت هذه المقالة من مؤمنين لم يظنّوا أن فى ذلك حَرَجًا . وقيل : كانت من المنافقين . وقد رُوى أن المفقود كان سيفا . وهذه الأقوال تُخَرَّج على قراءة «يَغُل» بفتح الياء وضم الغين . وروى أبو صخر عن محمد بن كعب «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ» قال : تقول وما كان لنبيّ أن يكتم شيئا من كتاب الله . وقيل : اللام فيه منقولة ، أى وما كان نبيّ لِيَغُل ؛ كقوله : « مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ »(١) . أى ما كان الله ليتخذ ولدا . وقرئ « يُغَل » بضم الياء وفتح الغين . وقال ابن السِّكِّيت : [لم نسمع فى المَغْنَم إلا غَلَّ غُلولا ، وقرئ و](٢) ما كان لنبيّ أن يَغُلّ و يُغَلّ . قال : فمعنى « يَغُل » يَخُون ، ومعنى « يُغَـلّ » يُخَوَّن ، و يحتمل معنيين : أحدهما يُخـان أى يؤخذ من غنيمته ، والآخر يُخَوَّن أن يُنسب إلى الغُلول : ثم قيل : إن كل من غَلّ شيئا فى خفاء فقد غَلّ يَغُلّ غُلولا : قال ابن عرفة : سُمِّيت غُلولا لأن الأيدى مَغلولةٌ منها ، أى ممنوعة . وقال أبو عبيد : الغُـلُول من المَغْنم خاصّةً ، ولا نراه من الخيـانة ولا من الحِقد . وممـا يُبَيِّن ذلك أنه يقال من الخيانة : أَغَلّ يغِـل ، ومن الحِقد : غَلّ يَغِلّ بالكسر ، ومن الغُلول : غَلّ يَغُلّ بالضم . وغَلّ البعير أيضا [يَغَلّ غلة](٣) إذا لم يَقض رِيّه وأَغَلّ الرجل خان ، قال النَّمِر :

جزى الله عنّـا حَمْزَةَ(٤) ابنةَ نَوْفَلٍ * جزاءَ مُغِـــلٍّ بالأمانة كاذبِ

وفى الحديث : "لا إغلالَ ولا إسلال" أى لا خيانة ولا سرقة ، و يقال : لا رِشْوة . وقال شُرَيح : ليس على المُسْتعير غير المُغِـلّ ضَمانٌ . وقال صلى الله عليه وسـلم : "ثلاثٌ لا يُغَـلّ عليهنّ قلبُ مؤمن" من رواه بالفتح(٥) فهو من الضِّغن . وغَلّ [دخل](٣) يتعدّى ولا يتعدّى ؛ يقال :

---

(١) راجع جـ ١١ ص ١٠٥ (٢) زيادة عن الصحاح واللسان . (٣) زيادة عن كتب اللغة .
(٤) كذا فى الأصول واللسان ، وفى الصحاح للجوهرى «جمرة» بالجيم المعجمة والراء . (٥) أى بفتح الياء .

غَلّ فـلان المفاوز، أى دخلها وتوسّـطها . وغَلّ من المغنم غلولا ، أى خان . وغَلّ المـاءُ بين الأشجار إذا جرى فيها ؛ يَغُلّ بالضم فى جميع ذلك[1] . وقيل : الغُلُول فى اللغـة أن يأخذ من المَغْنَم شيئا يستـره عن أصحابه ؛ ومنه تَغَلْغل المـاء فى الشجر إذا تخلّلها . والغَلَل : المـاء الجـارى فى أصول الشجر؛لأنه مستتر بالأشجار؛ كما قال[2] :

لَعِب السُّـيُول به فأصبح ماؤه * غَلَلًا يُقَطّع فى أصـول الخِرْوَع

ومنه الغِلَالة للثوب الذى يُلبس تحت الثياب . والغالُّ : أرض مطمئنة ذات شجـر . ومنابت السَّلَم[3] والطَّلْح يقال لهـا : غالّ . والغالّ أيضا نَبْت ، والجمع غُلّان بالضم . وقال بعض الناس : إن معنى « يُغَلّ » يوجد غالّا ؛ كما تقول : أحمدت الرجل وجدته محمودا . فهذه القراءة على هذا التأويل ترجع إلى معنى « يَغُل » بفتح الياء وضم الغين . ومعنى « يُغَلّ » عند جمهور أهل العلم أى ليس لأحد أن يَغُـلّه ، أى يخونه فى الغنيمة . فالآية فى معنى نَهْى الناس عن الغلول فى الغنائم، والتَّوعُّد عليه . وكما لا يجوز أن يُخان النبيّ صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يُخان غيرُه، ولكن خصّه بالذكر لأن الخيانة معه أشدّ وقْعًا وأعظمُ وِزْرا؛ لأن المعاصى تعظم بحضرته لتعيُّن توقيره . والوُلاة إنمـا هم على أمر النبى صلى الله عليـه وسلم فلهم حظّهـم من التّوقير . وقيل : معنى « يغل » أى ما غَلّ نبيٌّ قطُّ ، وليس الغرض النَّهى .

الثانيـــة ــ قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَـا غَلَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ أى يأتى به حاملا له على ظهره ورقبته ، مُعذّبا بحمله وثِقَله ، ومَرعُوبا بصوته، ومُوبَّخا بإظهار خيانته على رءوس الأشهاد؛ على ما يأتى . وهـذه الفضيحة التى يُوقعها الله تعالى بالغالّ نظيرُ الفضيحة التى توقع بالغادر، فى أن يُنصب له لِواء عند آستِه بقدر غَدْرَته . وجعل الله تعـالى هذه المعاقبَات حَسْبَما يَعْهَدُه البَشَر ويفْهَمُونه؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

أَسُمَيّ ويْحَكِ هَلْ سَمِعتِ بِغَدْرَةٍ * رُفِـعَ اللواءُ لنـا بها فى المَجْمَع

---

(١) أى بضم الغين . (٢) البيت لجرير بدرة؛ كما فى اللسان . (٣) فى ب و د : الساج .

وكانت العرب ترفع للغادر لواء، وكذلك يُطاف بالجاني مع جنايته. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فذكر الغُلول فعظّمه وعظّم أمره ثم قال: "لا أُلفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رُغاء يقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحمة (١) فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثُغاء يقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نَفْسٌ لها صِياح فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رِقاع تَخفِق (٢) فيقول يا رسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت (٣) فيقول يارسول الله أغثني فأقول لا أملك لك شيئا قد أبلغتك" وروى أبو داود عن سَمُرة بن جُندب (٤) قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أصاب غنيمة أمر بلالًا فنادى في الناس فيجيئون بغنائمهم فيخمّسه ويقسمه، فجاء رجل يوما بعد النداء بزِمام من الشَّعَر فقال: يارسول الله هذا كان فيما أصبناه من الغنيمة. فقال: "أسمعت بلالا ينادى ثلاثا"؟ قال: نعم. قال: "فما منعك أن تجيء به"؟ فاعتذر إليه. فقال: "كلا (٥) أنت تجيء به يوم القيامة فلن أقبله منك". قال بعض العلماء: أراد يُوافى بوزر ذلك يوم القيامة، كما قال في آية أخرى: «وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٦)». وقيل: الخبر محمول على شهرة الأمر؛ أي يأتي يوم القيامة قد شَهّر الله أمره كما يُشهَر لو حَمل بعيرا له رُغاء أو فرسا له حَمْحَمةٌ.

قلت: وهذا عُدولٌ عن الحقيقة إلى المجاز والتشبيه، وإذا دار الكلامُ بين الحقيقة والمجاز فالحقيقة الأصل كما في كُتُب الأصول. وقد أخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالحقيقة،

(١) حمحمة الفرس: صوته دون الصهيل، والثغاء: صياح الغنم. (٢) الرقاع (بالكسر جمع رقعة بالضم) وهي التي تكتب. وأراد بها ما عليها من الحقوق المكتوبة. وخفوقها: حركتها. (٣) الصامت: الذهب والفضة، خلاف الناطق وهو الحيوان. (٤) في سنن أبي داود: «عن عبد الله بن عمرو»، وكذا في مسند الإمام أحمد بن حنبل. (٥) في سنن أبي داود «كن أنت تجيء به». (٦) راجع جـ ٦ ص ٤١٣

ولا عِطْرَ بعــد عَرُوس . ويُقال : إنّ مَن غَلّ شيئًا فى الدنيا يُمَثَّل له يومَ القيامة فى النار ، ثم يُقَالُ له : ٱنزِلْ إليه فَخُذْه ، فيهبِطُ إليه، فإذا ٱنْتَهى إليه حَمَلَه ، حتى إذا انتهى إلى الباب سَقَط عنه إلى أسـفل جَهَنّم ، فيرجِـعُ إليه فيأخُذُه ؛ لا يَزالُ هكذا إلى ماشَاءَ الله . ويقال « يأتِ بِما غَلّ » يعنى تَشْهدُ عليه يومَ القِيامَة تِلْك الخِيَانةُ والغُلولُ .

الثالثـــة — قال العلماء : والغُلولُ كبيرةٌ من الكبَائر؛ بدليل هذه الآية وماذَكَرْناهُ من حديث أبى هُرَيرَةَ : أنّه يَحْمِلُه عَلَى عُنقِه . وقد قال صلى الله عليه وسلم فى مِدْعَم[(١)] : "والذى نفسى بيده أن الشّمْلةَ التى أخذ يوم خَيْبَرَ من المغانم لم تُصبها المَقاسم لتشتعل عليــه نارا" قال : فلمـا سمع النــاس ذلك جاء رجل بِشراك أو شِراكين إلى رســول الله صلى الله عليه وســلم؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "شِراكٌ أو شِراكان من نار" . أخرجه الموطأ . فقوله عليه السلام : " والذى نفسى بيــده " وٱمتناعُه من الصــلاة على من غَلّ دليلٌ على تعظيم الغُلول وتعظيم الذنب فيه وأنه من الكبائر، وهو من حقوق الآدمّيين ولابدّ فيه من القصاص بالحسنات والسيئات، ثم صاحبه فى المشيئة . وقوله : "شِراكٌ أو شِراكان من نار" مثل قوله : "أدُّوا الخِياط[(٢)] والمِخْيَط". وهذا يدل على أن القليل والكثير لايحلّ أخذُه فى الغَزْوِ قبل المقَاسم، إلا ما أجمعوا عليه من أكل المطاعم فى أرض الغَزْو[(٣)] ومن الاحتطاب والاصطياد . وقد رُوى عن الزُّهْرِى أنه قال : لا يؤخذ الطعام فى أرض العدوّ إلا بإذن الإمام . وهذا لا أصل له ؛ لأن الآثار تخالفه ، على ما يأتى . قال الحسن : كان أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إذا ٱفتتحوا المدينةَ أو الحِصْن أكلوا من السّوِيق والدقيق والسّمن والعسل . وقال إبراهيم : كانوا يأكلون من أرض العــدوّ الطعامَ فى أرض الحرب ويعلِفون قبل أن يُخَمِّسُوا . وقال عطاء : فى الغزاة يكونون فى السّرِيّة فيصيبون أنْحاء[(٤)] السمن والعسل والطعام فيأكلون، وما بَقِى ردُّوه إلى إمامهم؛ وعلى هذا جماعة العلماء .

---

(١) مدعم : عبد أسود أهداه رفاعة بن زيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عام خيبر . (٢) الخياط هاهنا الخيط . والمخيط بالكسر : الإبرة . (٣) فى ه و د و جـ و ب : الطعام ، وكلها : أرض العدو ، إلا ب : أرض الغزو . (٤) أنحاء : جمع نحى بالكسر وهو زق السمن . وقيل مطلقا .

الرابعة : وفي هذا الحديث دليلٌ على أن الغالّ لا يُحرق متاعه؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُحرق متاع الرجل الذي أخذ الشَّمْلة (١)، ولا أحْرَق متاع صاحب الخَرَزات (٢) الذي ترك الصلاةَ عليه، ولو كان حرق متاعه واجبا لفعله صلى الله عليه وسلم، ولو فعله لنُقل ذلك في الحديث. وأما ما رُوى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " إذا وجدتم الرجل قد غَلّ فأحرقوا متاعه وآضربوه ". فرواه أبو داود والترمذيّ من حديث صالح بن محمد بن زائدة، وهو ضعيف لا يُحتجّ به. قال الترمذيّ: سألت محمدا — يعني البخاريّ — عن هذا الحديث فقال: إنما رَوى هذا صالح بن محمد وهو أبو واقد الليثي وهو منكَر الحديث. وروى أبو داود أيضا عنه قال: غزونا مع الوليد بن هِشام ومعنا سالم بن عبد الله بن عمر وعمر بن عبد العزيز، فغَلّ رجل متاعا فأمر الوليد بمتاعه فأحرق، وطِيف به ولم يُعطِه سهمه. قال أبو داود: وهذا أصح الحديثين. وروى من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر حَرّقوا متاع الغالّ وضربوه. قال أبو داود: وزاد فيه عليّ بن بحر عن الوليد — ولم أسْمَعْهُ منه —: ومَنَعُوه سهمه. قال أبو عمر: قال بعض رواة هذا الحديث: واضربوا عنقه وأحرِقوا متاعه. وهذا الحديث يدور على صالح ابن محمد وليس ممن يُحتجّ به. وقد ثبت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يَحِلّ دَمُ آمرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث" وهو ينْفِي القتل في الغلول. وروى ابن جُرَيج عن أبي الزبير عن جابر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " ليس على الخائن ولا على المُنْتَهِب ولا على المختلس قَطْعٌ ". وهذا يعارض حديثَ صالح بن محمد وهو أقوى من جهة الإسناد. والغالّ خائن في اللغة والشريعة وإذا انتفى عنه القطع فأحرى القتل. وقال الطّحاويّ: لو صحّ حديثُ صالح المذكور احتمل أن يكون حين كانت العقوبات في الأموال؛ كما قال في مانع

---

(١) في ه وجـ و ب: لم يحرق رحل الذي أخذ الشملة.

(٢) صاحب الخرزات: رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم يسمه أبو داود في سننه) توفي يوم خيبر، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: " صلوا على صاحبكم " فتغيرت وجوه الناس لذلك، فقال " إن صاحبكم غل في سبيل الله " ففتشنا متاعه فوجدنا خرزا من خرز يهود لا يساوي درهمين (عن سنن أبي داود).

الزكاة : " إنا آخذوها وشَطْرَ مالِه ، عَزْمَةً من عزَماتِ الله تعالى"(١) . وكما قال أبو هريرة فى ضالّة الإبل المكتُومة : فيها غرامتُها ومِثلُها معها . وكما رَوى عبد الله بن عمرو بن العاص فى الثمر المعلّق غَرامةُ مِثلَيْه وجَلداتُ نَكالٍ . وهذا كلّه منسوخ، والله أعلم .

الخامســـة — فإذا غلّ الرجل فى المَغْنَم ووُجِد أخِذ منــه ، وأُدِّب وعُوقب بالتعزير . وعنــد مالك والشافعىّ وأبى حنيفة وأصحابهم والليث : لا يُحرق متــاعه . وقال الشافعىّ والليث وداود : إن كان عالمــا بالنّهى عُوقب . وقال الأَوْزاعىّ : يحرق متاع الغــالّ كلّه إلا سلاحه وثيابه التى عليه وسَرْجه، ولا تُنزع منه دابته، ولا يُحرق الشىء الذى غُلّ . وهذا قول أحمد و إسحاق، وقاله الحسن؛ إلا أن يكون حيوانا أو مُصْحَفا . وقال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : ورُوى أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما ضربا الغالّ وأحرقا متاعه . قال ابن عبــد البر : وممن قال يُحرق رَحْل الغالّ ومتاعُه مَكْحُولٌ وسعيدُ بن عبد العزيز . وحجة من ذهب إلى هذا حديثُ صالح المذكُور . وهو عنــدنا حديث لا يجب به ٱنتهاك حُرْمة، ولا إنفاذ حُكْم؛ لمــا يعارضه من الآثار التى هى أقوى منه . وما ذهب إليه مالك ومن تابعه فى هذه المسألة أصحّ من جهة النظر وصحيح الأثر . والله أعلم .

السادســـة — لم يختلف مذهب مالكٍ فى العقوبة على البــدَن ، فأما فى المــال فقال فى الذّمّى يبيع الخمــرَ من المسلم : تُراق الخمر على المســلم ، ويُنزع الثمن من الذّمّى عقوبةً له ؛ لئلا يبيع الخمر من المسلمين . فعلى هذا يجوز أن يقال : تجوز العقوبة فى المــال . وقد أراق عمرُ رضى الله عنه لَبَنًا شِيب بماء .

السابعـــة — أجمع العلماء على أن للغالّ أنْ يردّ جميع ما غَلّ إلى صاحب المقاسِم قبل أن يفترق الناس إن وجد السبيلَ إلى ذلك، وأنه إذا فعل ذلك فهى تَوْبةٌ له ،وخروج عن ذنبه .

---

(١) فى نهاية ابن الأثير : « قال الحربى غلط الراوى فى لفظ الرواية، إنما هو وشطر ماله شطرين ، أى يجعل ماله شطرين ، ويتخير عليه المصدق فيأخذ الصدقة من خير النصفين عقوبة لمنعه الزكاة فأما ما لا تلزمه فلا » . وعزمة : حق من حقوقه وواجب من واجباته .

واختلفوا فيما يفعل به إذا افترق أهل العسكر ولم يصل إليه؛ فقال جماعة من أهل العلم : يدفع إلى الإمام خُمُسه و يتصدّق بالباقى . هذا مذهب الزُّهْرِىّ ومالكٍ والأَوْزاعىّ والليث والثورى؛ ورُوى عن عُبادة بن الصّامت ومعاوية والحسنِ البصرىّ . وهو يُشبه مذهبَ ابن مسعود وابن عباس؛ لأنهما كانا يَرَيان أن يُتصدّق بالمال الذى لا يُعرف صاحبُه؛ وهو مذهب أحمد ابن حنبل . وقال الشافعىّ : ليس له الصدقة بمال غيره . قال أبو عمر : فهذا عندى فيما يمكن وجود صاحبه والوصولُ إليه أو إلى ورثته ، وأما إن لم يكن شيء من ذلك فإن الشافعىّ لا يكره الصدقة حينئذ إن شاء الله . وقد أجمعوا فى اللُّقَطة على جواز الصدقة بها بعد التعريف لها وانقطاع صاحبها ، وجعلوه إذا جاء — مخيّرًا بين الأجر والضمان ، وكذلك المغصوب . و بالله التوفيق . وفى تحريم الغُلُول دليل على اشتراك الغانمين فى الغنيمة ، فلا يحل لأحد أن يستأثر بشيء منها دون الآخر ؛ فمن غَصَب شيئا منها أُدِّب اتفاقا ، على ما تقدّم .

الثامنــة — و إن وَطئ جارية أو سَرق نِصابا فآختلف العلماء فى إقامة الحد عليه؛ فرأى جماعةَ أنه لا قطع عليه .

التاسعة — ومن الغُلُول هدايا العمال ، وحُكْمه فى الفضيحة فى الآخرة حُكْم الغالّ . روى أبو داود فى سُننه ومُسْلمٌ فى صحيحه عن أبى حُميد الساعِدىّ أن النبى صلى الله عليه وسلم استعمل رجلا من الأزْد يقال له آبن اللُّتْبِيَّة (١) [قال آبن السرح آبن الأُتْبِيَّة (٢)] على الصدقة ، فجاء فقال : هذا لكم وهذا أهدى لى . فقام النبىّ صلى الله عليه وسلم على المِنْبر فحمِد الله وأثنى عليه وقال : " ما بالُ العامل نَبعثه فيجيء فيقول هذا لكم وهذا أُهدِىَ لِى ألَا جلس فى بيت أمّه أو أبيه فينظر أيُهدَى إليه أم لا ، لا يأتى أحد منكم بشيء من ذلك إلا جاء به يوم القيامة إن كان بعيرًا فله رُغاء و إن كانت بقرة فلها خُوار أو شاةً تَيْعر (٣) " — ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَتَى (٤) إبطيه ثم قال : — " اللّهم هل بَلّغتُ اللّهــم هل بلّغتُ " . وروى أبو داود عن بُريدة عن النبىّ

(١) ابن اللتبية (بضم فسكون) هو عبد الله بن اللتبية الصحابى ، واللتبية أمه . و يروى بفتح اللام والمثناة ،
(٢) هذه الزيادة فى صلب : جـ و هـ و د ، وابن السرح هو أحمد بن عمرو الأموى أبو الطاهر المصرى .
(٣) اليعار (بضم الياء) : صوت الغنم والمعزى . يعرت بفتح العين تيعر بالكسر والفتح يعارا بالضم .
(٤) العفرة (بضم فسكون) : بياض ليس بالناصع الشديد ، ولكن كلون عفر الأرض وهو وجهها .

صلى الله عليه وسلم قال: "من استعملناه على عمل فرزقناه رِزْقا فما أخذ بعد ذلك فهو غُلول". وروى أيضا عن أبي مسعود الأنصاري قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعيًا ثم قال: "انطلق أبا مسعود ولا أُلْفِيَنَّك يوم القيامة تأتي على ظهرك بعيرٌ من إبل الصّدقة له رُغاءٌ قد غَلَلْتَه". قال: إذا لا أنطلق. قال: "إذًا لا أكرهك". وقد قيّد هذه الأحاديث مارواه أبو داود أيضا عن المُسْتَوْرِد بن شداد قال: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: "من كان لنا عاملا فليَكْتَسِب(1) زوجةً فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادما فإن لم يكن له مسكن فليكتسب مسكنا". قال فقال أبو بكر: أُخبرت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "من اتّخذ غير ذلك فهو غالٌّ سارق". والله أعلم.

العاشرة — ومن الغُلول حبس الكُتُب عن أصحابها، ويدخل غيرها في معناها. قال الزُّهْرِيّ: إيّاك وغلولَ الكتب. فقيل له: وما غُلول الكتب؟ قال: حبسها عن أصحابها. وقد قيل في تأويل قوله تعالى: «وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ» أن يكتم شيئا من الوحْى رَغْبةً أو رَهْبةً أو مُداهنة. وذلك أنهم كانوا يكرهون ما في القرآن من عَيْب دينهم وسبّ آلهتهم، فسألوه أن يطوى ذلك؛ فأنزل الله هذه الآية؛ قاله محمد بن بشّار(2). وما بدأنا به قول الجمهور.

الحادية عشرة — قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ تقدّم القول فيه(3).

قوله تعالى: أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَ ٱللَّهِ﴾ يُريد بتَرْك الغُلول والصّبر على الجهاد. ﴿كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ ٱللَّهِ﴾ يُريد بكُفْرٍ أو غُلولٍ أو تولٍّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في الحرب. ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ أي مَثْواه النّار، أي إن لم يَتُب أو يعفو الله عنه. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي المرجع. وقرئ

(1) والحديث بالسند والمتن في ابن كثير. (2) في د و هـ و ب: يسار. هو أبو عبدالله المروزى الخرسانى، وابن بشار هو ابن عثمان بن داود بن كيسان العبدى البصرى. (3) راجع جـ ٣ ص ٣٧٥

رِضوانُ بكسر الراء وضمّها كالعُدوان [والعِدوان](١). ثم قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ﴾ أى ليس من اتّبع رِضوان الله كمَن باء بسَخَط منه. قيل: «هُمْ دَرَجَاتٌ» مُتفاوِتةٌ، أى هم مُختلفُوا المنازِل عندالله؛ فلِمن اتّبع رضوانه الكَرامةُ والثوابُ العظيمُ، ولِمن باءَ بِسَخَط منه المَهانةُ والعذابُ الأليمُ. ومعنى «هُمْ دَرَجَاتٌ» . أى ذَوُو دَرجاتٍ. أو على دَرجات، أو فى دَرجاتٍ، أو لهم دَرَجاتٌ. وأهل النار أيضا ذوو درجات؛ كما قال: "وجدته فى غَمَرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضَاح"(٢). فالمؤمن والكافر لا يستويان فى الدّرجة؛ ثم المؤمنون يختلفون أيضا، فبعضهم أرفع درجة من بعض، وكذلك الكفار. والدّرجةُ الرّتبةُ، ومنه الدَّرَج؛ لأنه يُطوَى رُتْبةً بعد رُتْبةٍ. والأشهر فى منازل جهنم دَرَكات؛ كما قال: « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ(٣) » فلمن لم يَغُلّ درجات فى الجنة، ولمن غَلّ دَرَكاتٌ فى النار. قال أبو عبيدة: جهنّمُ أَدْرَاكٌ، أى منازل؛ يقال لكل منزل منها: دَرَك ودَرْك. والدّرْكُ إلى أسفل، والدّرجُ إلى أعلى.

قوله تعالى: لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾

بيّن الله تعالى عظيمَ مِنّته عليهم ببعثه محمدا صلى الله عليه وسلم. والمعنى فى المِنّة فيه أقوال: منها أن يكون معنى ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أى بشرٌ مثلُهم. فلما أظهر البراهين وهو بشر مثلهم عُلِم أن ذلك من عند الله. وقيل: « مِن أنفُسِهم » منهم. فشَرفُوا به صلى الله عليه وسلم، فكانت تلك المِنّة. وقيل: «مِن أنفُسِهم» ليعرفوا حاله ولا تخفى عليهم طريقته. وإذا كان محله فيهم هذا كانوا أحقّ بأن يقاتلوا عنه ولا ينهزموا دونه. وقرئ فى الشّواذ(٤) «من أنفَسِهم» (بفتح الفاء) يعنى من أشرفهم؛ لأنه من بنى هاشم، وبنو هاشم أفضلُ من قريش، وقريشٌ أفضل من العرب، والعربُ أفضل من غيرهم. ثم قيل: لفظ المؤمنين عامّ ومعناه خاص

---

(١) فى هـ وجـ و د.   (٢) الضحضاح: مارق من الماء على وجه الأرض ولا يبلغ الكعبين، فاستعاره للنار.
(٣) راجع جـ ٥ ص ٤٢٤   (٤) هذه قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة وابن عباس رضى الله عنهما.

فى العرب؛ لأنه ليس حىّ من أحياء العرب إلا وقد ولَده صلى الله عليه وسلم، ولهم فيه نسب؛ إلا بنى تَغْلِب فإنهم كانوا نصارى فطهّره الله من دَنَس النّصرانية . وبيان هذا التأويل قولُه تعالى : « هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ »(١) . وذكر أبو محمد عبد الغنى قال : حدّثنا أبو أحمد البصرى(٢) حدّثنا أحمد بن علىّ بن سعيد القاضى أبو بكر المَرْوَزِى حدّثنا يحيى بن مَعين حدّثنا هشام بنُ يوسف عن عبد الله بن سُلَيمان النّوفَلِى عن الزُّهرى عن عُروةَ عن عائشة رضى الله عنها : « لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ » قالت : هذه للعرب خاصّةً . وقال آخرون : أرادَ به المؤمنين كلّهم . ومعنى « مِنْ أَنْفُسِهِمْ » أنّه واحدٌ منهم وبَشَرٌ مِثْلُهم، وإنما امتاز عنهم بالوحى ؛ وهو معنى قولِه « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ »(٣) وخصّ المؤمنين بالذّكر لأنهم المُنْتَفِعون به، فالمِنّةُ عليهم أعظَم . وقولُه تعالى : ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ﴾ « يتلو » فى موضع نَصْب نَعْتٌ لرسُول ، ومعناه يَقْرَأ . والتّلاوةُ القِراءةُ . ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ تقدّم فى «البقرة»(٤) . ومعنى ﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أى ولقد كانوا من قبل ، أى من قبل محمد ، وقيل : « إن » بمعنى ما ، واللام فى الخبر بمعنى إلّا، أى وما كانوا من قبلُ إلّا فى ضلال مبين . ومثله « وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ » أى وما كنتم من قبله إلا من الضالين . وهذا مذهب الكوفيين . وقد تقدّم فى « البقرة »(٥) معنى هذه الآية .

قوله تعالى : أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

الألف للاستفهام ، والواو للعطف . ﴿ مُصِيبَةٌ ﴾ أى غلبة . ﴿ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا ﴾ يوم بَدْر بأن قَتلتم منهم سبعين وأسرتم سبعين . والأسير فى حكم المقتول ؛ لأن الآسر يقتل أسيره إن أراد . أى فهزمتموهم يوم بَدْر ويوم أُحُد أيضا فى الابتداء، وقتلتم فيه قريبا من

(١) راجع جـ ١٨ ص ٩١ (٢) فى ب و هـ و د : المصرى . (٣) راجع جـ ٨ ص ٣٠١
(٤) راجع جـ ٢ ص ١٣٠ (٥) راجع جـ ٢ ص ٤٢٧

عشرين ، قتلتم منهم فى يومين ، ونالوا منكم فى يوم أُحد . ﴿ قُلْتُمْ أَنَّى هَـٰذَا ﴾ أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ، ونحن نقاتل فى سبيل الله ، ونحن مسلمون ، وفينا النبيّ والوحى ، وهم مشركون ! . ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعنى مخالفة الرُّماة . وما من قوم أطاعوا نبيّهم فى حرب إلّا نُصروا ؛ لأنهم إذا أطاعوا فهم حزب الله ، وحزب الله هم الغالبون . وقال قتادة والربيع بن أنس : يعنى سؤالهم النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يخرج بعد ما أراد الإقامة بالمدينة . وتأوّلها فى الرؤيا التى رآها درعا حصينة [1] . علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه : هو اختيارهم الفِداء يوم بَدْر على القتل . وقد قيل لهم : إن فاديتم الأسارى قُتل منكم على عِدّتهم . وروى البَيْهَقِى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الأسارى يوم بدر : " إن شئتم قتلتموهم و إن شئتم فاديتموهم واستمتعتم بالفداء واستُشهد منكم بعدّتهم " . فكان آخرَ السبعين ثابتُ بن قيس قُتل يوم اليمامة . فمعنى « مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ » على القولين الأوّلين بذنوبكم . وعلى القول الأخير باختياركم .

قوله تعالى : وَمَا أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَـٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

يعنى يوم أُحُد من القتل والجَرْح والهزيمة ﴿ فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أى بعلمه . وقيل : بقضائه وقَدَره . قال القَفّال : أى فبتَخْلِيته بينكم و بينهم ، لا أنه أراد ذلك . وهذا تأويل المعتزلة . ودخلت الفاء فى « فبإذن الله » لأن « ما » بمعنى الذى . أى والذى أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ؛ فأشبه الكلام معنى الشرط ، كما قال سيبويه : الذى قام فله درهم . ﴿ وَلِيَعْلَمَ

(١) كذا فى د و ب و جـ و حـ و هـ ، وفى ا : حصنا حصينا .

﴿الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ أى ليُميِّز . وقيل ليرى . وقيل : ليظهر إيمان المؤمنين بثبوتهم فى القتال، وليظهر كفر المنافقين بإظهارهم الشّماتة فيعلمون ذلك . والإشارة بقوله : ﴿نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ﴾ هى إلى عبد الله بن أُبَىّ وأصحابه الذين آنصرفوا معــه عن نُصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ثلاثمائة ، فمشى فى أثرهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام الأنصارى ، أبو جابر ابن عبد الله ، فقال لهم : آتّقوا الله ولا تتركوا نبيّكم ، وقاتلوا فى سبيل الله أو آدفعوا ، ونحو هذا من القول . فقال له ابن أبىّ : ما أرى أن يكون قِتال ، ولو علمنا أن يكون قِتال لكنّا معكم . فلما يئس منهم عبــد الله قال : آذهبوا أعداءَ الله فسيُغني اللهُ رسـولَه عنكم . ومضى مع النبيّ صلى الله عليه وسلم واستُشهد رحمه الله تعالى .

واختلف الناس فى معنى قوله : ﴿أَوِ ادْفَعُوا﴾ فقال السُّدّى وابن جريج وغيرهما : كَثِّروا سوادنا و إن لم تقاتلوا معنا، فيكون ذلك دَفْعًا وقَمْعًا للعــدوّ، فإن السواد إذا كثر حصل دفع العدوّ . وقال أنس بن مالك : رأيت يوم القادِسيّة عبد الله بن أمّ مَكْتُوم الأعمى وعليه دِرْع يجرّ أطرافها، و بيده رايةٌ ســوداء، فقيل له[(1)] : [أليس][(2)] قد أنزل الله عذرك ؟ قال : بلى ! ولكنى أكثِّر [سواد][(2)] المسلمين بنفسى . ورُوى عنه أنه قال : فكيف بسوادى فى سبيل الله ! وقال أبو عون الأنصارى : معنى «أو آدفعوا» رابطوا . وهذا قريب من الأوّل . ولا محالة أن المرابط مدافع، لأنه لولا مكان المرابطين فى الثّغور لجاءها العدوّ . وذهب قوم من المفسرين إلى أن قول عبــد الله بن عمرو « أو آدفعوا » إنمــا هو آســتدعاء إلى القتال [حميــة ، لأنه استدعاهم إلى القتال][(3)] فى سبيل الله ، وهى أن تكون كلمة الله هى العليا، فلما رأى أنهم ليسوا على ذلك عرض عليهم الوجه الذى يحْشِمهم و يبعث الأَنَفة . أى أو قاتلوا دِفاعًا عن الحَوْزة. ألا ترى أن قُزْمان[(4)] قال : والله ما قاتلت إلا عن أحساب قومى . وألا ترى أن بعض الأنصار

---

(١) فى ز : فقلت له . (٢) الزيادة من ابن عطية . (٣) الزيادة من ب و د و ه .

(٤) هو قزمان بن الحارث العبسى المنافق الذى قال فيــه رسول الله صلى الله عليــه وسلم : " إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر " .

قال يوم أحد لما رأى قريشا قد أرسلت الظَّهر(١) في زروع قَناة(٢) ، أتُرعَى زروع بنى قَيْلة(٣) ولما نضارِب ؟ والمعنى إن لم تقاتلوا في سبيل الله فقاتلوا دفعًا عن أنفسكم وحَرِيمكم .

قوله تعالى : ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أى بيّنوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن نفاقهم لمن كان يظنّ أنهم مسلمون، فصاروا أقربَ إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التحقيق . وقوله تعالى : ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أى أظهروا الإيمان، وأضمروا الكفر . وذِكْرُ الأفواه تأكيدٌ، مثل قوله : «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ»(٤) .

قوله تعالى : ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَٱدْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ معناه لأجل(٥) إخوانهم، وهم الشهداء المقتولون من الخزرج، وهم إخوة نسب ومجاورة، لا إخوة الدِّين . أى قالوا لهؤلاء الشهداء : لو قعدوا، أى بالمدينة ما قتلوا . وقيل : قال عبد الله بن أبيّ وأصحابه لإخوانهم ، أى لأشكالهم من المنافقين : لو أطاعونا، هؤلاء الذين قُتِلوا، لما قتلوا . وقوله ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ يريد في ألّا يخرجوا إلى قريش . وقوله : ﴿وَقَعَدُوا﴾ أى قالوا هذا القول وقعدوا بأنفسهم عن الجهاد، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿قُلْ فَادْرَءُوا﴾ أى قل لهم يا محمد : إن صدقتم فادفعوا الموت عن أنفسكم . والدَّرْء الدفعُ . بيّن بهذا أن الحَذَر لا ينفع من القَدَر، وأن المقتولَ يقتل بأجله ، وما عَلِم الله وأخبر به كائنٌ لا محالة . وقيل : مات يومَ قيل هذا، سبعون منافقا . وقال أبو الليث السَّمَرْقندى : سمعت بعض المفسّرين بسَمَرْقَنْد يقول : لما نزلت الآية « قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ » مات يومئذ سبعون نفسا من المنافقين .

---

(١) الظهر : الركاب التى تحمل الأثقال فى السفر، لحملها إياها على ظهورها . (٢) قناة : واد بالمدينة، وهى أحد أوديتها الثلاثة ، عليه حرث ومال . قال المدائنى : وقناة يأتى من الطائف ويصب فى الأرحضية وقرقرة الكدر، ثم يأتى بئر معونة، ثم يمر على طرف القدوم فى أصل قبور الشهداء بأحد . (عن معجم البلدان) .

(٣) قيلة : أم الأوس والخزرج، وهى قيلة بنت كاهل بن عذرة ، قضاعية . ويقال : بنت جفنة ، غسانية . (عن شرح القاموس) . (٤) راجع جـ ٦ ص ٤١٩ (٥) فى ب : لأهل .

قوله تعـالى : وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتاً بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

فيه ثمـان مسائل :

الأولى — لمـا بيّن الله تعالى أنّ ماجرى يوم أُحُد كان آمتحاناً يميّز المنافق من الصادق، بيّن أن من لم ينهزم فقُتل له الكرامةُ والحياةُ عنده . والآية فى شُهَداء أُحُد . وقيل : نزلت فى شهداء بئر مَعُونة . وقيــل : بل هى عامّة فى جميع الشهداء . وفى مصنف أبى داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لمّـا أصيب إخوانكم بأُحُد جعل الله أرواحهم فى جـوْف طَير خضر تَرِد أنهـار الجنة تأكُل من ثمارها وتأوِى إلى قناديلَ من ذهب معلّقةٍ فى ظِلّ العَرْش فلما وجدوا طِيب مأكَلِهم ومَشْرَبهم ومَقِيلهم قالوا مَن يُبلِّغ إخوانَنا عنّا أنّا أحياءٌ فى الجنــة نُرْزَق لئلا يَزْهَدوا فى الجهاد ولا يَنْكُلوا عند الحرب فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم" — قال — فأنزل الله " وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ... " إلى آخر الآيات . وروى بَقِيّ[(١)] بن مَخْلَد عن جابر قال : لقِيَنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "ياجابر مالى أراك مُنْكَسًا مُهْتَمًّا" ؟ قلت : يارسول الله، استُشْهِد أبى وترك عِيالًا وعليه دَيْنٌ ؛ فقال . "ألا أبشّرك بما لقِى اللهُ عز وجل به أباك" ؟ قلت : بلى يارسول الله . قال : "إن الله أحيَا أباك وكلّمه كِفاحًا[(٢)] وما كلّم أحد قطُّ إلا من وراء حجاب فقال له يا عبدى تمنَّ أُعْطِك قال يارب فرُدّنى إلى الدنيـا فأُقتل فيك ثانيةً فقال الربّ تبارك وتعـالى إنه قد سبق مِنى أنهم [إليها[(٣)]] لا يرجعون قال يارب فأبلغ مَن ورائى" فأنزل الله عز وجل «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ» الآية . أخرجه ابن ماجه فى سُــنَنه، والتِّرمذىّ فى جامعه وقال : هــذا حديث حسن غريب . وروى وكيع عن سالم بن الأفطس عن سعيد بن جبير «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ

---

(١) حافظ الأندلس ابن يزيد القرطبي . (٢) كفاحا (بكسر الكاف) أى مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول . (٣) زيادة عن سنن الترمذى وابن ماجه .

اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ » قال : لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومُصْعَب بن عُمَير ورأوا ما رُزقوا من الخير قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رَغْبَةً؛ فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا — إلى قوله : لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ » . وقال أبو الضُّحى : نزلت هذه الآية في أهل أُحد خاصّةً . والحديثُ الأوّل يقتضي صحةَ هذا القول (١) . وقال بعضهم : نزلت في شهداء بَدر وكانوا أربعة عشر رجلا، ثمانيةٌ من الأنصار ، وستة من المهاجرين . وقيل : نزلت في شهداء بئر مَعُونة ، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق (٢) وغيره . وقال آخرون : إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسّروا وقالوا : نحن في النعمة والسرور ، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور . فأنزل الله تعالى هذه الآية تَنْفِيسًا عنهم وإخبارًا عن حال قتلاهم .

قلت : وبالجملة وإن كان يحتمل أن يكون النّزول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياءٌ في الجنة يُرزقون، ولا مَحالةَ أنهم ماتوا وأن أجسادهم في التراب، وأرواحهم حيّة كأرواح سائر المؤمنين ، وفُضّلوا بالرزق في الجنّة من وقت القتل حتى كأن حياة الدنيا دائمة لهم .

وقد اختلف العلماء في هذا المعنى . فالذي عليه المعظم هو ما ذكرناه، وأن حياة الشهداء محققة . ثم منهم من يقول: تُردُّ إليهم الأرواح في قبورهم فينعّمون، كما يحيا الكفار في قبورهم فيُعذبون . وقال مجاهد : يرزقون من ثَمَر الجنة، أي يجدون ريحها وليسوا فيها . وصار قوم إلى أن هذا مجاز، والمعنى أنهم في حكم الله مستحقّون للتنعّم في الجنة . وهو كما يقال : ما مات فلان، أي ذكره حيّ ؛ كما قيل :

مَوْتُ التَّقِيّ حياةٌ لا فناءَ لها * قَدْ مات قومٌ وهُمْ في الناس أحياءُ

---

(١) كذا في أ و حـ . وفي د : يقتضي هذا القول ؛ وفي ب و جـ و هـ : يقضي بصحة الخ .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص ٦٤٨ طبع أوروبا .

فالمعنى أنهم يرزقون الثناءَ الجميــل . وقال آخرون : أرواحهم فى أجواف طَـيْرٍ خُضْر وأنهم يُرزقون فى الجنة و يأكلون و يتنعّمون . وهذا هو الصحيح من الأقوال؛ لأن ما صحّ به النقل فهو الواقع . وحديثُ ابن عباس نصٌّ يرفع الخلاف . وكذلك حديث ابن مسعود خرّجه مسلم . وقد أتينا على هذا المعنى مبيَّناً فى كتاب « التّذكِرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة » . والحمد لله .

وقد ذكرنا هناك كم الشهداء، وأنهم مختلفو الحال . وأما من تأوّل فى الشهداء أنهم أحياء بمعنى أنهم سيحْيَوْن فبعيدٌ يرده القرآن والسنة؛ فإن قوله تعالى : « بَلْ أَحْيَاءٌ » دليل على حياتهم، وأنّهم يرزقون ولا يُرزق إلا حَىّ . وقد قيــل : إنه يكتب لهم فى كل سَــنَة ثوابُ غزوة؛ و يُشركون فى ثواب كلّ جهاد كان بعدهم إلى يوم القيامة؛ لأنهم سَنّوا أمر الجهاد . نَظِيره قوله تعالى : « مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا »[1] . على ما يأتى بيانه هناك إن شاء الله تعــالى . وقيل : لأن أرواحَهــم تركَع وتسجُد تحت العرش إلى يوم القيامة، كأرواح الأحياء المؤمنين الذين باتُوا على وُضُوء . وقيل : لأن الشهيد لا يَبلى فى القبر ولا تأكُله الأرض . وقد ذكرنا هــذا المعنى فى « التّذكِرة » وأن الأرض لا تأكل الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذّنين المحتَسبين وحملة القرآن .

الثانيــــة — إذا كان الشّهيد حيًّا حُكمًا فلا يُصــلّى عليه ، كالحىّ حِسًّا . وقد اختلف العلماء فى غُسل الشهداء والصّــلاة عليهم ؛ فذهب مالك والشافعىّ وأبو حنيفة والثّورىّ إلى غُسل جميع الشّهداء والصلاة عليهم ؛ إلا قتيلَ المُعتَرَك فى قتال العدوّ خاصة؛ لحديث جابر قال قال النبىّ صلى الله عليه وسلم : "أدفنوهم بدمائهم" يعنى يوم أُحُد ولم يُغسّلهم، رواه البخارىّ . وروى أبو داود عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم بقتلى أُحُد أن يُنزَع عنهم الحديدُ والجلودُ وأن يُدفَنُوا بدمائهم وثيابهم . و بهذا قال أحمدُ و إسحاقُ والأوزاعىّ وداود بن علىّ وجماعةُ فُقَهاء الأمصار وأهل الحديث وابنُ عُلَيّة . وقال سعيد بن المُسَيّب والحَسَن : يُغسّلون . قال أحدهما : إنما لم تُغَسَّل شهداء أُحُد لكثرتهم والشُّغل عن ذلك . قال أبو عُمَر : ولم يقل بقول سعيد والحسن هــذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عبيد الله بن الحسن العَنْبَرى ، وليس

(١) راجع جـ ٦ ص ١٤٥

ما ذكروا من الشُّغل عن غُسل شهداء أحد علّة ؛ لأن كل واحد منهم كان له ولىٌّ يشتغل به ويقوم بأمره . والعلة فى ذلك — والله أعلم — ما جاء فى الحديث فى دمائهم "أنها تأتى يوم القيامة كريح المِسك" فبانَ أن العلّة ليست الشُّغل كما قال من قال فى ذلك، وليس لهذه المسألة مدخل فى القياس والنظر، وإنما هى مسألة اتّباع للأثر الذى نقله الكافّة فى قتلى أُحُد لم يُغسّلوا . وقد احتج بعض المتأخرين ممن ذهب مذهب الحسن بقوله عليه السلام فى شهداء أُحُد : "أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة" . قال : وهذا يدل على خصوصهم وأنه لا يَشْرَكهم فى ذلك غيرهم . قال أبو عمر : وهذا يشبه الشذوذ، والقول بترك غُسلهم أولى ؛ لثبوت ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فى قَتلى أحد وغيرهم . ورَوى أبو داود عن جابر قال : رُمِىَ رجل بسهم فى صدره أو فى حلقه فمات فأُدرِج فى ثيابه كما هو . قال : ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الثالثة — وأما الصلاةُ عليهم فاختلف العلماء فى ذلك أيضا ؛ فذهب مالك والليث والشافعىّ وأحمد وداود إلى أنه لا يُصلّى عليهم؛ لحديث جابر قال : كان النبىّ صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول : "أيُّهما أكثر أخذًا للقرآن" ؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدّمه فى اللَّحد وقال : "أنا شهيدٌ على هؤلاء يوم القيامة" وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يُغسّلوا ولم يُصلّ عليهم . وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام : يُصلّى عليهم . ورَوَوْا آثارًا كثيرة أكثرها مراسيل أن النبىّ صلى الله عليه وسلم صلّى على حمزة وعلى سائر شهداء أُحُد .

الرابعة — وأجمع العلماء على أن الشّهيد إذا حُمل حَيًّا ولم يَمت فى المُعتَرَك وعاش وأكل فإنه يُصلّى عليه ؛ كما قد صُنع بعمر رضى الله عنه .

واختلفوا فيمن قُتل مظلوما كقتيل الخوارج وقُطّاع الطريق وشبه ذلك ؛ فقال أبو حنيفة والثورى : كل من قتل مظلوما لم يُغسّل، ولكنه يُصلّى عليه وعلى كل شهيد؛ وهو قول سائر أهل العِراق . ورَوَوْا من طُرق كثيرةٍ صحاح عن زيد بن صُوحان ، وكان قتل يوم الجَمل : لا تَنزِعوا عنّى ثوبًا ولا تَغسِلوا عنى دَمًا (١) . وثبت عن عمار بن ياسر أنه قال مثل قول زيد

(١) كذا فى د و جـ و هـ و ب . وفى ا و حـ : روى .

ابن صُوحان . وقُتل عمار بن ياسر بصفّين ولم يغسّله علىّ . وللشافعى قولان : أحدهما — يُغسّل بجميع الموتى إلا من قتله أهـل الحرب ؛ وهذا قول مالك . قال مالك : لا يُغسّل من قتله الكفار ومات فى المُعترك . وكل مقتول غيرِ قتيلِ المُعترَك — قتيل الكفار — فإنه يُغسّل ويُصلّ عليه . وهذا قول أحمد بن حنبل رضى الله عنـه . والقول الآخر للشافعىّ — لا يُغسّل قتيل البُغاة . وقول مالك أصحّ ؛ فإنّ غُسل الموتى قد ثبت بالإجماع ونَقْلِ الكافّة . فواجبٌ غُسلُ كلّ ميت إلا من أخرجه إجماعٌ أو سُنّةٌ ثابتة . وبالله التوفيق .

الخامسة — العـدوّ إذا صبّح قوما فى منزلهم ولم يَعلموا به فقتَلَ منهم فهل يكون حكمه حكمَ قتيل المعترَك، أو حكم سائر الموتى ؛ وهذه المسألة نزلت عندنا بقُرطُبَة أعادها الله : أغارَ العدو — قَصَمه الله — صَبيحَةَ الثالث من رَمضانَ المُعظّم سنةَ سَبع وعشرين وسِتّمائة والناس فى أجْرانهم على غَفلة، فقتَل وأسَر، وكان من جُملة من قُتل والدى رحمه الله؛ فسألت شيخنا المقرئ الأستاذ أبا جعفر أحمد المعروف بأبى حجة[1] فقال ؛ غَسّله وصلّ عليه، فإن أباك لم يُقتَل فى المُعتَرك بين الصَّفين . ثم سألت شيخنا ربيعَ بن عبـد الرحمن بن أحمد بن ربيع بن أبىّ فقال : إن حكمه حكم القتلى فى المعـترك . ثم سألت قاضى الجماعة أبا الحسن علىّ بن قطرال وحوله جماعة من الفقهاء فقالوا : غسّـله وكفّنه وصلّ عليه؛ ففعلت . ثم بعـد ذلك وَقفتُ على المسـألة فى « التبصرة » لأبى الحسن اللخمىّ وغيرها ، ولو كان ذلك قبـل ذلك ما غسّلته، وكنت دفنته بدمه فى ثيابه .

السادســة — هذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل فى سبيل الله والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم : " القتل فى سبيل الله يكفّر كل شىء إلا الدّين كذلك قال لى جبريل عليه السلام آنفا " . قال علماؤنا ذِكر الدّين تنبيه على ما فى معناه من الحقوق المتعلقـة بالذمم ، كالغصب وأخذ المـال بالباطل وقتل العمـد وجراحه وغير ذلك من التّبِعات ، فإن كل هـذا أَولى ألّا يُغفرَ بالجهاد من الدّين فإنه أشد ، والقصاص فى هذا

(١) فى جـ : « بابن حجة » .

كله بالحسـنات والسيئات حسبما وردت به السنّة الثابتــة . روى عبـد الله بن أُنَيْس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " يحشر الله العباد — أو قال الناس، شكَّ همّام[(١)]، وأومأ بيــده إلى الشام — عُراة غُرْلا[(٢)] بُهْمًا . قلنــا : ما بُهْم[(٣)] ؟ قال : ليس معهــم شيء فيناديهم بصوت يسمعه مَن قَرُب ومَن بَعُد أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنــة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلِمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النــار وأحد من أهل الجنــة يطلبه بمظلِمة حتّى اللطْمة . قال قلنــا : كيف وإنما نأتي الله حفاة عراة غرلا . قال : بالحسنات والسيئات " . أخرجه الحارث بن أبي أُسامة[(٤)] . وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " أتدرون من المفلِس "؟ . قالوا : المفلِس فِينــا من لا دِرهم له ولا متاع . فقال : " إن المفْلِس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتَم هذا وقَذَف هذا وأكلَ مالَ هذا وسفكَ دمَ هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنِيت حسناته قبل أن يُقْضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النــار " . وقال صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده لو أن رجلا قُتل في سبيل الله ثم أُحْيِيَ ثم قتل ثم أحيي ثم قُتل وعليه دَيْن ما دخل الجنــة حتى يُقْضى عنــه " . وروى أبو هريرة قال قال رســول الله صــلى الله عليه وسلم : " نفس المؤمن معلّقة ما كان عليه دَيْن " . وقال أحمد بن زُهَير : ســئل يحيى بن مَعِين عن هــذا الحديث فقال : هو صحيح . فإن قيل : فهــذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل، ولا تكون أرواحهم في جَوف طيرٍ كما ذكرتم، ولا يكونون في قبورهم، فأيْنَ يكونون ؟ قلنا : قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أرواح الشهداء على نهر بباب الجنــة يقال له بَارِقٌ يخرج عليهم رزقهم من الجنــة بُكْرَةً وعَشِيًّا " فلعلهم هؤلاء . والله أعلم . ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية : وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنهم « يُرْزَقُونَ » . وقد أخرج الإمام أبو عبد الله محمــد بن يزيد بن ماجه القزويني في سننه عن

(١) هو همام بن يحيى، أحد رجال سند هذا الحديث . (٢) الغرل (بضم فسكون): جمع الأغرل، وهو الأقلف . (٣) في ط وهـ وب : ما بهما ؟ . (٤) في جـ : أمامة . والصحيح ما أثبت كما في التهذيب

ســليم بن عامر قال سمعت أبا أمامة يقول سمعت رســول الله صلى الله عليــه وسلم يقول : "شهيد البحر مثلُ شهيدَيْ[1] البَرِّ والمـائدُ[2] فى البحر كالمُتَشَحِّطِ[3] فى دَمِه فى البر وما بين المَوْجَتين كقاطع الدنيـا فى طاعة الله و إن الله عزّ وجلّ وكّل ملك الموت بقبض الأرواح إلا شهداء البحــر فإنه سبحانه يتولّى قَبضَ أرواحهم و يَغفِر لشهيد البرّ الذنوبَ كلَّها إلا الدَّين و يغفر لشهيد البحر الذنوب كلها والدين " .

السابعــة ــ الدَّين الذى يُحْبَس به صاحبه عن الجنــة ــ والله أعلم ــ هو الذى قد ترك له وفاء ولم يُوص به . أو قَدر على الأداء فلم يؤدّه، أو آدّانه فى سَرَف أو فى سفهٍ ومات ولم يوفّه . وأما من آدّان فى حق واجب لِفاقةٍ وعُسْر ومات ولم يترُك وفاء فإن الله لا يحبسه عن الجنة إن شاء الله؛ لأن على السلطان فرضًا أن يؤدّىَ عنه دينه، إما من جملة الصدقات، أو من سهم الغارمين، أو من الفَىْء الراجع على المسلمين . قال صلى الله عليه وسلم : "من ترك دَيْنًا أو ضَياعا[4] فعلى الله ورسوله ومن ترك مالا فلورثته" . وقد زدنا هذا الباب بيانا فى كتاب (التذكرة) والحمد لله .

الثامنـــة ــ قوله تعـالى : ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ فيه حذف مضاف تقديره عند كرامة ربّهم . و « عِند » هنا تقتضى غايةَ القُرْب، فهى كـ (لدى) ولذلك لم تصغر فيقال ! عُنيد؛ قاله سيبويه . فهــذه عِنْديّة الكرامة لا عنْدية المسافة والقُــرْب . و « يرزقون » هو الرزق المعروف فى العادات . ومن قال: هى حياة الذِّكْر قال : يرزقون الثناء الجميل . والأوّل الحقيقة . وقد قيل : إن الأرواح تُدرِك فى تلك الحال التى يسرحون فيها من روائح الجنة وطِيبها ونعيمها وسرورها ما يَليق بالأرواح؛ ممـا ترتزق وتنتعش به . وأما اللذات الجسمانية فإذا أعيدت تلك الأرواح إلى أجسادها آستوفت من النعيم جميعَ ما أعدّ الله لها. وهذا قول حسن، و إن كان فيه نوع من المجاز، فهو الموافق لمـا آخترناه . والموَفّق الإله . و ﴿ فَرِحِينَ ﴾ نصب فى موضع الحال

---

(١) قال فى شرح الجامع : بلفظ التثنية . (٢) المـائد : الذى تدور رأسه من ريح البحر، وآضطراب السفينة بالأمواج . (٣) تشحّط المقتول فى دمه تخبط فيه واضطرب وتمرّغ . (٤) الضياع : (بفتح أوّله) : العيال .

من المضمر فى « يُرْزَقُونَ » . ويجوز فى الكلام « فَرِحُون » على النعت لأَحْيَاء . وهو من الفرح بمعنى السرور . والفضْل فى هذه الآية هو النّعيمُ المذكور . وقرأ ابن السَّمَيْقَع «فَارِحِين» بالألف وهما لغتان كالفَرِه والفارِه، والحَذِر والحاذِر، والطَّمِع والطَّامِع، والبَخِل والباخِل . قال النحاس : ويجوز فى غير القرآن رَفعُه، يكون نعتا لأحياء .

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ المعنى لم يلحقوا بهم فى الفضل، وإن كان لهم فضل . وأصله من البَشَرة(١)؛ لأن الإنسان إذا فَرِح ظهرَ أثر السّرور فى وجهه . وقال السّدّى : يؤتى الشهيد بكتاب فيه ذكر مَن يَقْدَمُ عليه من إخوانه، فيستبشر كما يستبشر أهل الغائب بقُدومه فى الدنيا . وقال قَتادةُ وابن جُرَيْج والرّبيعُ وغيرُهم : استبشارهم بأنهم يقولون : إخواننا الذين تركنا خلفنا فى الدنيا يقاتلون فى سبيل الله مع نبيّهم، فيستشهدون فينالون من الكرامة مثلَ ما نحن فيه ؛ فيسرّون ويفرحون لهم بذلك . وقيل : إن الإشارة بالاستبشار للذين لم يَلحقوا بهم إلى جميع المؤمنين وإن لم يُقتَلوا، ولكنهم لما عاينوا ثواب الله وقع اليقين بأن دِين الإسلام هو الحق الذى يثيب الله عليه؛ فهم فَرِحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، مستبشرون للمؤمنين بأن لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون . ذهب إلى هذا المعنى الزجّاج وابن فُورَك .

قوله تعالى : يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

أى بجنة من الله . ويقال : بمغفرة من الله . ﴿ وَفَضْلٍ ﴾ هذا لزيادة البيان . والفضل داخل فى النعمة ، وفيه دليل على اتساعها، وأنها ليست كنِعَم الدنيا . وقيل : جاء الفضل بعد النعمة على وجه التأكيد ؛ روى التِّرمذىّ عن المِقْدام بن مَعْدِيكرِب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " للشّهيد عند الله ستٌّ خِصال — كذا فى الترمذىّ وابن ماجه «ستّ»،

(١) كذا فى ب وز وه وجـ . وفى ط : البشرة والبشارة .

وهي في العدد سبع — يغفر له في أوّل دُفعة[1] و[2] يرى مَقعده من الجنة و يُجار من عذاب القبر و يأمن من الفزع الأكبر و يوضع على رأسه تاجُ الوَقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها و يُزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العِين و يُشَفَّع في سبعين من أقاربه" قال: هذا حديث حسن صحيح غريب . وهــذا تفسير للنّعمة والفضل . والآثار في هــذا المعنى كثيرة . ورُوى عن مجاهد أنه قال : السيــوف مفاتيح الجنة . وروى عن رســول الله صلى الله عليــه وسلم أنه قال : "أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات لم يُكرم بها أحدا من الأنبياء ولا أنا أحدها أن جميع الأنبيــاء قبض أرواحَهم مَلَكُ الموت وهو الذي سيقبض رُوحي وأما الشهداء فالله هو الذي يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء ولا يُسلّط على أرواحهم مَلَكُ الموت ، والثاني أن جميع الأنبياء قد غُسِّلوا بعد الموت وأنا أُغَسَّل بعد الموت والشهداء لا يُغسَّلون ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا ، والثالث أن جميع الأنبيــاء قد كُفِّنوا وأنا أُكَفَّن والشهداء لا يُكَفَّنون بل يُدفنون في ثيابهــم ، والرابع أن الأنبياء لمــا ماتوا سُمّــوا أمواتا و إذا مِت يقال قــد مات والشهداء لا يُسَمَّون مَوْتَى ، والخامس أن الأنبياء تُعطَى لهم الشفاعةُ يوم القيامة وشــفاعتى أيضا يوم القيامة وأما الشهداء فإنهم يشفعون في كل يوم فيمن يشفعون" .

قوله تعــالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ ﴾ قرأه الكِسائي بكسر الألف ، والباقون بالنصب ؛ فمن قرأ بالنصب فمعناه يستبشرون بنعمة من الله و يستبشرون بأن الله لا يضيع أجر المؤمنين . ومن قرأ بالكسر فعلى الابتداء . ودليله قراءة ابن مسعود « وَٱللَّهُ لا يضِيع أجر المؤمِنين » .

قوله تعــالى : ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

---

(١) في حاشية السندي على سنن ابن ماجه : « قوله ست خصال المذكورات سبع إلا أن يجعل الإجارة والأمن من الفزع واحدة» . (٢) دفعة : قال الدميري : ضبطناه في جامع الترمذي بضم الدال، وكذلك قال أهل اللغة : الدفعة بالضم ما دفع من إناء أو سقاء فانصب بمرة ؛ وكذلك الدفعة من المطر وغيره مثل الدفقة بالقاف . وأما الدفعة بالفتح فهي المرة الواحدة فلا يصلح ههنا » .

﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ فى موضع رفع على الابتداء ، وخبره « مِنۢ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ » . ويجوز أن يكون فى موضع خفض، بدلٌ[1] من المؤمنين، أو من « ٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا» . ﴿ ٱسْتَجَابُوا ﴾ بمعنى أجابوا، والسين والتاء زائدتان . ومنه قوله :

* فلم يَسْتَجِبْه عنـد ذاك مُجِيبُ[2] *

وفى الصحيحين عن عروة بن الزبير قال قالت لى عائشة رضى الله عنها : كان أبوك من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح . لفظ مسلم . وعنه عن عائشة : يا ٱبن أختى كان أبواك — تعنى الزبير وأبا بكر — من الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْح . وقالت : لما ٱنصرف المشركون من أُحُد وأصاب النبيَّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ما أصابهم خاف أن يرجعوا فقال : "من يَنتدب لهؤلاء حتى يعلموا أن بنا قوة" قال . فانتَدَب أبو بكر والزّبير فى سبعين، فخرجوا فى آثار القوم، فسمعوا بهم وٱنصرفوا بنعمة من الله وفضل . وأشارت عائشة رضى الله عنها إلى ماجرى فى غَزوة حَمْراء الأسْد، وهى على نحو ثمانية أميال من المدينة؛ وذلك أنه لما كان فى يوم الأحد، وهو الثانى من يوم أُحُد، نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس بإتباع المشركين، وقال : " لا يخرج معنا إلا من شهدها بالأمس " فنهض معه مائتا رجل من المؤمنين . فى البخاريّ فقال : " من يذهب فى إثرهم " فانتدب منهم سبعون رجلا . قال : كان فيهم أبو بكر والزبير على ماتقدّم ، حتى بلغ حمراء الأسْد ، مُرْهِبًا للعدوّ؛ فرُبّما كان فيهم المُثْقَل بالجراح لا يستطيع المشى ولا يجد مركُوبًا ، فرُبّما يحمل على الأعناق؛ وكل ذلك ٱمتثالٌ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبة فى الجهاد . وقيل : إن الآية نزلت فى رجلين من بنى عبد الأشْهل كانا مُثْخَنين بالجراح ، يتوكّأ أحدهما على صاحبه ، وخرجا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ فلما وصلوا حمرآء الأسد، لقيهم نُعيم بن مسعود فأخبرهم أن أبا سفيان ٱبن حرب ومن معه من قريش قد جَمَعُوا جُموعهم، وأجمعوا رأيهم على أن يأتوا[3] إلى المدينة

(١) كذا فى الأصول . والذى فى النحاس والعبارة له : بدلا .
(٢) هذا عجز بيت لكعب بن سعد الغنوى يرثى أخاه أبا المغوار؛ وصدره :
* وداع دعا يامن يجيب إلى الندى *
(٣) فى جـ و هـ و ط : يرجعوا .

فيستأصلوا أهلها ؛ فقالوا ما أخبرنا الله عنهم : « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . و بينا قريش قد أجمعوا على ذلك إذ جاءهم معبد الخزاعى، وكانت خُزاعة حُلفاءَ النبيّ صلى الله عليه وسلم وعيبة(١) نُصْحه ، وكان قد رأى حال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وما هم عليه ؛ ولما رأى عزمَ قريش على الرجوع ليستأصلوا أهل المدينة احتمله خوفُ ذلك، وخالصُ نصحه للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه على أنْ خوّف قريشا بأن قال لهم : قد تركت محمدا وأصحابه بحمراء الأسد فى جيش عظيم، قد اجتمع له من كان تخلّف عنه، وهم قد تحرّقوا عليكم؛ فالنَّجاء النّجاء ! فإنى أنهاك عن ذلك ، فوالله لقد حملنى ما رأيتُ أن قلتُ فيه أبياتا من الشعر . قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كادت تُهَدُّ من الأصوات راحلتى * إذ سالت الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ (٢)
تَرْدِى بأُسْدٍ كرامٍ لا تَنابلةٍ * عند اللقاء ولا مِيلٍ مَعازيلِ (٣)
فَظِلْتُ عَدْوًا أظنّ الأرضَ مائلةً * لما سَمَوْا برئيس غير مخذول
فقلتُ وَيْلَ ابنِ حَرْبٍ من لقائكُمُ * إذا تَغَطْمَطَتِ البَطْحاء بالخيلِ (٤)
إنى نذير لأهل البَسْلِ ضاحيةً * لكلّ ذى إِرْبةٍ منهم ومعقول
من جيش أحمدَ لا وَخْشٌ قَنابِلُهُ * وليس يُوصَفُ ما أنذرتُ بالقِيلِ (٥)

قال : فثَنَى ذلك أبا سُفيان ومن معه ، وقذَف الله فى قلوبهم الرُّعْب ، ورجعوا إلى مكة خائفين مسرعين، ورجع النبيّ صلى الله عليه وسلم فى أصحابه إلى المدينة منصورا ؛ كما قال الله تعالى : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ » أى قتال ورُعْب . واستأذن

(١) عيبة الرجل : موضع سره . (٢) الجرد : خيل قصيرة شعر الجلد . أبابيل : فرقا .

(٣) ردت الخيل رديا ورديانا : رجمت الأرض بحوافرها فى سيرها وعدوها . والتنابلة : القصار ؛ واحدهم تنبال . والأميل : الذى يميل على السرج ولا يستوى عليه . وقيل : هو الكسل الذى لا يحسن الركوب والفروسية . والمعازيل : القوم ليس معهم سلاح ؛ واحدهم معزال . (٤) فى الروض الأنف : « تغطمطت البطحاء » لفظ مستعار عن الغطمطة ، وهو صوت غليان القدر . قوله (الخيل) وفى هـ وابن هشام ط أوربا : الجيل . والأول فيه سناد . ولعله : الخيل جمع أخيل فلا سناد .

(٥) الوخش : رذال الناس . والقنابل : الطائفة من الناس ومن الخيل ، وفى جـ و ز و السيرة ط مصر مع الروض : تنابلة . وفى ط وى وهـ : تنائلة : تنثل الرجل إذا تقذر بعد التنظف .

جابر بن عبد الله إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم في الخروج معه فأذن له . وأخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تَحصّل لهم بهذه القَفْلة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنها غَزْوة " . هذا تفسير الجمهور لهذه الآية . وشذّ مجاهد وعِكرمة رحمهما الله تعالى فقالا : إن هذه الآية من قوله : « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ — إلى قوله : — عَظِيمٌ » إنما نزلت في خروج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى بَدْرِ الصُّغرى . وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في أُحُد، إذ قال : مَوْعدنا بَدْرٌ من العام المقبِل . فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " قولوا نعم " فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم قبل بَدْرٍ، وكان بها سُوق عظيم، فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابَه دراهم؛ وقَرُب من بَدْرٍ فجاءه نُعيم بن مسعود الأشجعِيّ، فأخبره أن قريشا قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك، لكنهم قالوا : « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » فصَمَّموا[1] حتى أتوا بدرا فلم يجدوا أحدا، ووجدوا السُّوق فاشتروا بدراهمهم أُدْمًا وتجارة، وانقلبوا ولم يَلقَوا كيْدًا، ورَبِحوا في تجارتهم؛ فذلك قوله تعالى : « فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ » أي وفضل في تلك التجارات . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾

اختُلف في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ ﴾ فقال مجاهد ومُقاتِل وعِكرمة والكلبيّ : هو نُعيم بن مسعود الأشجعيّ . واللّفظ عامّ ومعناه خاص؛ كقوله : « أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ »[2] يعني محمدا صلى الله عليه وسلم . السُّدّي : هو أعرابيّ جُعِل له جُعْل على ذلك . وقال ابن إسحاق وجماعةٌ : يريد بالناس رَكْبَ عبدِ القيس، مَرُّوا بأبي سفيان فدسّهم إلى المسلمين ليثبّطوهم . وقيل : الناس هنا المنافقون . قال السُّدّي : لما تجهّز النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابُه للسير إلى بَدْرٍ الصغرى لميعاد أبي سفيان أتاهم المنافقون وقالوا : نحن أصحابكم الذين

(١) صمم في السير وغيره : مضى . (٢) راجع جـ ٥ ص ٢٥٠

نهيناكم عن الخروج إليهم وعصيتمونا ، وقد قاتلوكم فى دياركم وظفروا ؛ فإن أتيتموهم فى ديارهم فلا يرجع منكم أحد . فقالوا : « حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » . وقال أبو معشر : دخل ناس من هُذيل من أهل تِهامة المدينةَ ، فسألهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أبى سفيان فقالوا : « قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ » جموعا كثيرة « فَاخْشَوْهُمْ » أى فخافوهم واحذروهم ؛ فإنه لا طاقة لكم بهم . فالناس على هذه الأقوال على بابه من الجمع . والله أعلم .

قوله تعـالى : ﴿ فَزَادَهُمْ إِيمَـانًا ﴾ أى فزادهم قولُ الناس إيمـانا ، أى تصديقا ويقينا فى دينهم ، وإقامةً على نُصرتهم ، وقوةً وجراءة واستعدادا . فزيادة الإيمـان على هذا هى فى الأعمال . وقد اختلف العلماء فى زيادة الإيمـان ونقصانه على أقوال . والعقيدة فى هذا على أن نفس الإيمـان الذى هو تاجٌ واحدٌ ، وتصديق واحد بشىء مّا ، إنمـا هو معنًى فَرْدٌ ، لا يدخل معه زيادة إذا حصل ، ولا يبقى منه شىء إذا زال ؛ فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقصان فى متعلّقاته دون ذاته . فذهب جمع من العلمـاء إلى أنه يزيد وينقص من حيث الأعمال الصادرة عنه ، لا سيما أن كثيرا من العلماء يوقعون ٱسم الإيمـان على الطاعات ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " الإيمـان بضع وسبعون بابًا فأعلاها قول لا إله إلا اللهُ وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " أخرجه الترمذىّ ، وزاد مسلم " والحياء شُعْبَةٌ من الإيمـان " وفى حديث علىّ رضى الله عنه : إن الإيمـان ليبدو لُمَظَةً بيضاء فى القلب ، كلما ٱزداد الإيمـان ٱزدادت اللُّمَظَة . وقوله « لمظة » قال الأصمعىّ : اللُّمظة مثل النُّكْتة ونحوها من البياض ؛ ومنه قيل : فرس ألْمَظ ، إذا كان بجَحْفَلَته شىء من بياض . والمحدِّثون يقولون « لمظة » بالفتح . وأما كلام العرب فبالضم ؛ مثل شُبهة ودهمة وحُمرة . وفيه حُجّةٌ على من أنكر أن يكون الإيمـان يزيد وينقص . ألا تراه يقول : كلما ٱزداد الإيمـان ٱزدادت اللُّمْظة حتى يبيضّ القلبُ كلّه . وكذلك النفاق يبـدو لُمَظةً سوداءَ فى القلب كلما ٱزداد النفاق ٱسودّ القلب حتى يسودّ القلب كلّه . ومنهم من قال : إن الإيمـان عَرَض ، وهو لا يَثْبتُ زمانين ؛ فهو للنبىّ صلى الله عليه وسلم وللصُّلحاء متعاقب ، فيزيد باعتبار توالى أمثـاله على قلب المؤمن ، وباعتبار دوام حضوره .

وينقص بتوالى الغفلات على قلب المؤمن . أشار إلى هذا أبو المعالى . وهذا المعنى موجود فى حديث الشفاعة، حديثِ أبى سعيد الخُدْرِيّ أخرجه مسلم . وفيه : " فيقول المؤمنون يا ربّنا إخواننا كانوا يصومون ويُصلّون ويَحجّون فيُقال لهم أخرجوا من عرفتم فتُحَرَّم صُورهم على النار فيُخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نِصف ساقَيْه وإلى رُكبتيه ثم يقولون ربّنا ما بَقِيَ فيها أحدٌ ممن أمرتنا به فيقول ٱرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقالَ دِينار من خير فأخرجوه فيُخرِجون خلقًا كثيرا ثم يقولون ربّنا لم نَذَرْ فيها أحدًا ممن أمرتنا ثم يقول ٱرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقال نِصف دِينار من خير فأخرجوه فيُخرجون خلقًا كثيرا ثم يقولون ربّنا لم نَذَرْ فيها ممن أمرتنا أحدا ثم يقول ٱرجعوا فمن وجدتم فى قلبه مِثقال ذَرّةٍ من خير فأخرجوه " وذكر الحديث (١) . وقد قيل : إن المراد بالإيمان فى هذا الحديث أعمالُ القلوب ؛ كالنّية والإخلاص والخوف والنصيحة وشبه ذلك . وسمّاها إيمانا لكونها فى محل الإيمان أو عنى بالإيمان، على عادة العرب فى تسمية الشىء باسم الشىء إذا جاوره، أو كان منه بسبب . دليل هذا التأويل قولُ الشافعين بعد إخراج من كان فى قلبه مثقالُ ذرّة من خير : "لم نَذَرْ فيها خيرا" مع أنه تعالى يُخرج بعد ذلك جموعا كثيرة ممن يقول لا إله إلا الله، وهم مؤمنون قطعا؛ ولو لم يكونوا مؤمنين لما أخرجهم . ثم إن عُدِم الوجود الأوّل الذى يُرَكَّب (٢) عليه المِثْل لم تكن زيادةٌ ولا نقصان . وقُدّر ذلك فى الحركة . فإن الله سبحانه إذا خَلق عِلْما فَرْدًا وخلق معه مِثْلَه أو أمثالَه بمعلومات فقد زاد علمه؛ فإن أعدم الله الأمثال فقد نقص، أى زالت الزيادة . وكذلك إذا خلق حركة وخلق معها مثلها أو أمثالها . وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هو من طريق الأدلة ، فتزيد الأدلّة عند واحد فيقال فى ذلك : إنها زيادة فى الإيمان؛ وبهذا المعنى — على أحد الأقوال — فُضّل الأنبياء على الخلق ، فإنهم عَلِموه من وجوه كثيرة، أكثر من الوجوه التى علمه الخلق بها . وهذا القول خارج عن مقتضى الآية ؛ إذ لا يُتصوّر أن تكون الزيادة فيها من جهة الأدلة . وذهب قوم : إلى أن الزيادة فى الإيمان إنما هى بنزول الفرائض والأخبار فى مدّة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وفى المعرفة بها بعد الجهل غابرَ الدّهر .

---

(١) بقيته "فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرا" مسلم جـ١ ص ١١٦ (٢) فى ز: يتركب .

وهذا إنمـا هو زيادة إيمـان ؛ فالقول فيه إنّ الإيمـان يزيد قول مَجازِىّ ، ولا يُتصوّر فيه النقص على هذا الحدّ ، وإنمـا يتصوّر بالإضافة إلى من عُلِم . فاعلم .

قوله تعـالى : ﴿ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ أى كافينا الله . وحسب مأخوذ من الإحساب ، وهو الكفاية . قال الشاعر :

فتمـــلأُ بيتنا إقْطًـا[1] وسَمْنًـا ﴿ وحَسْبُكَ من غِنًى شِبَعٌ ورِىُّ

روى البخارىّ عن ابن عباس قال فى قوله تعالى : «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ — إلى قوله : — «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيم الخليل عليه السلام حين أُلْقِىَ فى النار . وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم . والله أعلم .

قوله تعـالى : فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَٰنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾

قال علماؤنا : لمـا فوّضوا أمورَهم إليه ، وآعتمدوا بقلوبهم عليـه ، أعطاهم من الجزاء أربعةَ معانٍ : النعمة ، والفضل ، وصرف السوء ، وآتباع الرضا . فرضّاهم عنه ، ورضِى عنهم .

قوله تعـالى : إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

قال ابن عبـاس وغيره : المعنى يخوّفكم أولياءه ؛ أى بأوليائه ، أو من أوليائه ؛ فحذف حرف الجر ووصل الفعل إلى الآسم فنصب . كما قال تعالى : «لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا»[2] أى لينذركم ببأس شـديد ؛ أى يخوّف المؤمن بالكافر . وقال الحسن والسُّـدّى : المعنى يخوّف أولياءه المنافقين ؛ ليقعدوا عن قتال المشركين . فأما أوليـاء الله فإنهم لا يخافونه إذا خوّفهـم . وقد

(١) الأقط : شىء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ و يترك حتى يمصل . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٤٦

قيل: إن المراد هذا الذى يخوّفكم بجمع الكفار شيطانٌ من شياطين الإنس؛ إمّا نُعيم بن مسعود أو غيره، على الخلاف فى ذلك كما تقدّم. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾ أى لا تخافوا الكافرين المذكورين فى قوله: «إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ». أو يرجع إلى الأولياء إن قلت: إن المعنى يخوّف بأوليائه أى يخوّفكم أولياءه.

قوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ﴾ أى خافون فى ترك أمرى إن كنتم مصدّقين بوعدى. والخوف فى كلام العرب الذُّعر. وخاوَفَنى فلان فخُفْتُه، أى كنتُ أشدّ خوفاً منه. والخَوْفاء[1] المفَازة لا ماء بها. ويقال: ناقةٌ خَوْفَاء وهى الجَرْباء. والخافة كالخريطة[2] من الأَدَم يُشْتَارُ فيها العَسَل. قال سَهلُ بنُ عبد الله: اجتمع بعض الصدّيقين إلى إبراهيم الخَليل فقالوا: ما الخوفُ؟ فقال: لا تأمن حتى تبلغ المأمن. قال سهل: وكان الربيع بن خيثم إذا مرّ بِكِير[3] يُغْشَى عليه؛ فقيل لعلىّ ابن أبى طالب ذلك؛ فقال: إذا أصابه ذلك فأعلمونى. فأصابه فأعلموه، فجاءه فأدخل يده فى قميصه فوجد حركته عالية فقال: أشهد أنّ هذا أخوف [أهل][4] زمانكم. فالخائف من الله تعالى هو أن يخَافَ أن يُعاقِبَه إمّا فى الدنيا وإمّا فى الآخرة؛ ولهذا قيل: ليس الخائف الذى يبكى ويمسح عينيه، بل الخائفُ الذى يترك ما يخَافُ أن يُعذَّب عليه. ففرض الله تعالى على العباد أن يخافوه فقال: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وقال: «وَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ». ومدح المؤمنين بالخوف فقال: «يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ». ولأرباب الإشارات فى الخوف عبارات مرجعها إلى ما ذكرنا. قال الأستاذ أبو علىّ الدّقاق: دخلت على أبى بكر بن فُورَك رحمه الله عائدا، فلما رآنى دَمعتْ عيناه، فقلت له: إنّ الله يعافيك ويَشفيك. فقال لى: أترى أنّى أخاف من الموت؟ إنما أخاف مما وراء الموت. وفى سُنن ابن ماجه عن أبى ذرٍّ قال

---

(١) يقال مفازة خوقاء (بالقاف لا بالفاء) أى واسعة الجوف أو لا ماء بها؛ كما يقال ناقة خوقاء (بالقاف كذلك) أى جرباء. (انظر اللسان مادة خوق) وليس فيه ولا فى كتاب آخر من كتب اللغة هذان المعنيان فى مادة «خوف» بالفاء.

(٢) كذا فى الأصول. وفى اللسان: والخافة: خريطة.　(٣) الكير: كير الحدّاد، وهو زق أو جلد غليظ ذو حافات؛ وهو المعروف الآن بالمنفاخ. وأما الكور فهو المبنى من الطين.　(٤) عن ج و د.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنى أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون أطّت[(١)] السماء وحُقّ لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلّا وملَكٌ واضعٌ جبهته ساجداً لله والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصُّعُدات[(٢)] تجأرون[(٣)] إلى الله والله لوددت أنى كنت شجرة تُعْضَد[(٤)]". خرّجه الترمذي وقال : حديث حسن غريب . ويروى من غير هذا الوجه أن أبا ذرّ قال : "لوددت أنّى كنت شجرة تُعْضَد" . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ هؤلاء قوم أسلموا ثم ارتدوا خوفا من المشركين ؛ فاغتمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عز وجل : « وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » . وقال الكلبيّ : يعنى به المنافقين ورؤساءَ اليهود ؛ كتموا صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الكتاب فنزلت . ويقال : إن أهل الكتاب لما لم يؤمنوا شقّ ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الناس ينظرون إليهم ويقولون إنهم أهل كتاب ؛ فلو كان قوله حقًّا لاتّبعوه ، فنزلت « وَلَا يُحْزِنْكَ » . قراءة نافع بضم الياء وكسر الزاى حيث وقع إلا فى — الأنبياء — « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ[(٥)] » فإنه بفتح الياء وبضم الزاى . وضده أبو جعفر . وقرأ ابن مُحَيْصِن كلّها بضم الياء و[كسر[(٦)]] الزاى . والباقون كلّها بفتح الياء وضمّ الزاى .

(١) الأطيط : صوت الأقتاب ، وأطيط الإبل : أصواتها وحنينها . أى إن كثرة ما فى السماء من الملائكة قد أثقلها حتى أطت . وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن ثم أطيط ، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله عز وجل (عن ابن الأثير) . (٢) الصعدات : الطرق ، وهى جمع صعد ؛ كطرق وطرقات . وقيل : جمع صعدة ؛ كظلمة وهى فناء باب الدار ، وممر الناس بين يديه . (٣) جأر القوم جؤارا : رفعوا أصواتهم بالدعاء متضرعين . (٤) تعضد : تقطع بالمعضد ؛ والمعضد والمعضاد مثل المنجل يقطع به الشجر .

(٥) راجع جـ ١١ ص ٣٤٦ (٦) الأصول كلها : بضم الياء والزاى . والصواب ما أثبتناه . راجع ص ٣٤٦ جـ ١١

وهما لغتان : حَزَنَنِى الأمرُ يَحْزُنُنِى، وأحْزَنَنِى أيضا وهى [لغة](١) قليلة؛ والأولى أفصح اللغتين؛ قاله النحاس . وقال الشاعر فى « أحزن » :

* مضى صَحْبِى وأحْزَنَنِى الدِّيارُ *

وقراءة العامة « يُسَارِعُونَ » . وقرأ طلحة « يُسْرِعون فى الكفر » . قال الضحّاك : هم كفار قريش . وقال غيره : هم المنافقون . وقيل : هو ما ذكرناه قبل . وقيل : هو عامّ فى جميع الكفار . ومُسارعتهم فى الكفر المظاهرةُ على محمد صلى الله عليه وسلم . قال القُشَيرى : والحُزْن على كُفرِ الكافر طاعة؛ ولكنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يُفرِط فى الحزن على كفر قومه، فنُهى عن ذلك؛ كما قال : «فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ»(٢) وقال : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا»(٣) .

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أى لا ينقصون من مُلْك الله وسلطانه شيئا؛ يعنى لا ينقص بكفرهم . وكما رُوى عن أبى ذَرّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فيما رَوى عن الله تبارك وتعالى أنه قال : " يا عبادِى إنى حرّمت الظُّلمَ على نفسى وجعلته بينكم مُحَرَّمًا فلا تَظالَموا . يا عبادِى كُلُّكم ضالٌّ إلا من هَدَيْتُه فاستهدونى أَهْدِكم . يا عبادى كُلُّكم جائعٌ إلا من أطعمته فاستطعمُونى أُطعِمْكم . يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كَسَوْتُه فاستكْسُونى أَكْسُكم . يا عبادِى إنكم تُخطِئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم . يا عبادى إنكم لن تَبلغوا ضَرِّى فتَضُرُّونى ولن تَبْلُغوا نفعى فتَنفَعُونى . يا عبادى لو أن أوّلَكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أَتْقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئا . يا عبادى لو أن أوّلَكُم وآخِرَكُم وإنْسَكُم وجِنَّكُم كانوا على أفجَر قلبِ رجُلٍ واحدٍ ما نَقَصَ ذلك من مُلْكى شيئا . يا عبادى لو أن أوّلَكُم وآخِرَكُم وإنْسَكُم وجِنَّكم قاموا فى صَعيدٍ واحدٍ فسألُونى فأعطيتُ كُلَّ إنسان مَسْألَتَه ما نَقَصَ ذلك مما عندى إلا كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البحر . يا عبادى إنما هى أعمالُكُم أُحْصِيها لكم ثم أُوَفِّيكُم إياها فمن وَجَد خيرًا فليَحْمَد الله ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومَنّ إلا نَفْسَه" . خرّجه مسلم فى صحيحه والترمذى وغيرهما، وهو حديث عظيم فيه طول

(١) عن ط . (٢) راجع جـ ١٤ ص ٣٢٤ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٥٣

يكتب كله . وقيل : معنى « لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا » أى لن يضُرُّوا أولياء الله حين تركوا نصرهم إذ كان الله عز وجل ناصرهم .

قوله تعـالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أى نصيبا . والحظّ النصيب والجَدّ . يقال : فلان أحظّ من فلان، وهو محظوظ . وجمع الحَظ أحاظ على غير قياس (١) . قال أبو زيد : يقال رجل حَظِيظ، أى جديدٌ إذا كان ذا حظّ من الرزق . وحَظِظْت فى الأمر أحَظّ . وربمـا جُمع الحظ أُحُظًّا . أى لا يجعـل لهم نصيبا فى الجنـة . وهو نَصّ فى أن الخير والشر بإرادة الله تعالى .

قوله تعـالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾

قوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ ﴾ تقدّم فى البقرة (٢) . ﴿ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ﴾ كرّر للتأكيد . وقيل : أى من سوء تدبيره استبدال الإيمـان بالكفر وبيعه به ؛ فلا يخاف جانبَه ولا تدبيره . وانتصب « شيئا » فى الموضعين لوقوعه موقع المصدر؛ كأنه قال : لن يضروا الله ضررا قليـلا ولا كثيرا . ويجوز انتصابه على تقدير حذف البـاء؛ كأنه قال : لن يضروا الله بشىء .

قوله تعـالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ﴾ الإملاء طول العمـر ورَغَد العيش . والمعنى : لا يحسبن هؤلاء الذين يُخَوِّفون المسـلمين ؛ فإن الله قادر

---

(١) قال الجوهرى : كأنه جمع أحظ . قال ابن برى : وقوله « أحاظ على غير قياس » وهم منه ؛ بل أحاظ جمع أَحْظ ؛ وأصله أحظظ فقلبت الظاء الثانية ياء فصارت أحظ ، ثم جمعت على أحاظ . (عن اللسان) .

(٢) راجع جـ ١ ص ٢١٠

على إهلاكهم، وإنمـا يُطوِّل أعمارهم ليعملوا بالمعاصي، لا لأنه خير لهم . ويقال : « أنمـا نملي لهم » بمـا أصابوا من الظَّفَـر يومَ أُحُد لم يكن ذلك خيرا لأنفسهم ؛ وإنمـا كان ذلك ليزدادوا عقوبة . ورُوى عن ابن مسعود أنه قال : ما من أحد برّ ولا فاجر إلا والموتُ خير له ؛ لأنه إن كان برًّا فقـد قال الله تعالى : « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ »(١) وإن كان فاجرا فقد قال الله : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴾ . وقرأ ابن عامرٍ وعاصم « لايَحْسبن » بالياء ونصب السين . وقرأ حمزة : بالتاء ونصب السـين . والباقون : بالياء وكسر السـين . فمن قرأ بالياء فالذين فاعلون . أى فلا يحسبن الكفار . و « أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ » تسدّ مسدّ المفعولين . و «ما» بمعنى الذى ، والعائد محذوف ، و « خير » خبر «أنّ» . ويجوز أن تقدّر «ما» والفعل مصدرا ؛ والتقدير ولا يحسبن الذين كفروا أن إملاءنا لهم خير لأنفسهم . ومن قرأ بالتاء فالفاعل هو المخاطب ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . و «الذين» نصب على المفعول الأوّل لتحسب . وأن وما بعدها بدل من الذين ، وهى تسدّ مسدّ المفعولين ، كما تسد لو لم تكن بدلا . ولا يصلح أن تكون «أنّ» وما بعدها مفعولا ثانيا لتحسب ؛ لأن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الأوّل فى المعنى ؛ لأن حسب وأخواتها داخلة على المبتدإ والخبر ؛ فيكون التقدير : ولا تحسبن أنما نملى لهم خير . هذا قول الزجاج . وقال أبو علىّ : لو صحّ هذا لقال «خيرا» النصب ؛ لأن «أنّ» تصير بدلا من «الذين كفروا» ؛ فكأنه قال : لا تحسبن إملاء الدين كفروا خيرا ؛ فقوله «خيرا» هو المفعول الثانى لحسب . فإذًا لا يجوز أن يقرأ «لا تحسبن» بالتاء إلا أن تكسر «إنّ» فى «أنمـا» وتنصب خيرا ، ولم يُرْوَ ذلك عن حمزة ، والقراءة عن حمزة بالتاء ؛ فلا تصح هذه القراءة إذًا . وقال الفرّاء والكسائىّ : قراءة حمزة جائزة على التكرير ؛ تقديره ولا تحسبن الذين كفروا ، ولا تحسبن أنمـا نملى لهم خير ؛ فسدّت «أن» مسدّ المفعولين لتحسب الثانى ، وهى وما عملت مفعول ثانٍ لتحسب الأوّل . قال القشيرىّ : وهـذا قريب ممـا ذكره الزجاج فى دعوى البدل ، والقراءة صحيحة . فإذًا غرض أبى علىّ تغليط الزجاج . قال النحاس : وزعم أبو حاتم أنّ قراءة حمزة بالتاء هنا ، وقوله : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » لحن لا يجوز . وتبعه على ذلك جماعة .

---

(١) راجع ص ٣٢٢ من هذا الجزء .

قلت : وهذا ليس بشيء؛ لما تقدم بيانه من الإعراب، ولصحة القراءة وثبوتها نقلا. وقرأ يحيى بن وثاب « إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ » بكسر إنّ فيهما جميعا . قال أبو جعفر : وقراءة يحيي حسنة . كما تقول : حسبت عمرا أبوه خالد . قال أبو حاتم : وسمعت الأخفش يذكر كسر « إن » يحتج به لأهل القدر؛ لأنه كان منهم . ويجعل على التقديم والتأخير «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا إنما نملى لهم خير لأنفسهم » . قال : ورأيت فى مصحف فى المسجد الجامع قد زادوا فيه حرفا فصار « إنما نملى لهم إيمانا » فنظر إليه يعقوب القارئ فتبين اللحن فحكه . والآية نصٌّ فى بطلان مذهب القدرية ؛ لأنه أخبر أنه يطيل أعمارهم ليزدادوا الكفر بعمل المعاصى، وتوالى أمثاله على القلب . كما تقدم بيانه فى ضده وهو الإيمان. وعن ابن عباس قال: مامن برّ ولا فاجر إلا والموت خير له ثم تلا «إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا» وتلا « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » أخرجه رزين .

قوله تعالى : مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

قال أبو العالية : سأل المؤمنون أن يعطوا علامة يفرقون بها بين المؤمن والمنافق؛ فأنزل الله عز وجل ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ الآية. واختلفوا مَن المخاطب بالآية على أقوال . فقال ابن عباس والضحاك ومقاتل والكلبي وأكثر المفسرين : الخطاب للكفار والمنافقين. أى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق وعداوة النبيّ صلى الله عليه وسلم . قال الكلبيّ : إن قريشا من أهل مكة قالوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم : الرجلُ منا تزعم أنه فى النار، وأنه إذا ترك دِيننا واتبع دينكَ قلتَ هو من أهل الجنة! فأخبرنا عن هذا من أين هو؟ وأخبرنا مَن يأتيك منا ؟ ومَن لم يأتك؟ . فأنزل الله عز وجل « مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ

المؤمنين على ما أنتم عليه» من الكفر والنفاق «حتى يميز الخبيث من الطيب». وقيل: هو خطاب للشركين. والمراد بالمؤمنين فى قوله: «ليذر المؤمنين» من فى الأصلاب والأرحام ممن يؤمن. أى ما كان الله ليذر أولادكم الذين حكم لهم بالإيمان على ما أنتم عليه من الشرك، حتى يفرق بينكم و بينهم؛ وعلى هذا ﴿وما كان الله ليطلعكم﴾ كلام مستأنف. وهو قول ابن عباس وأكثر المفسرين. وقيل: الخطاب للؤمنين. أى وما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من آختلاط المؤمن بالمنافق، حتى يميز بينكم بالمحنة والتكليف؛ فتعرفوا المنافق الخبيث، والمؤمن الطيب. وقد ميز يوم أحد بين الفريقين. وهذا قول أكثر أهل المعانى. ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ يا معشر المؤمنين. أى ما كان الله ليعين لكم المنافقين حتى تعرفوهم، ولكن يظهر ذلك لكم بالتكاليف والمحنة، وقد ظهر ذلك فى يوم أحد؛ فإن المنافقين تخلفوا وأظهروا الشماتة، فما كنتم تعرفون هذا الغيب قبل هذا، فالآن قد أطلع الله محمدا عليه السلام وصحبه على ذلك. وقيل: معنى «ليطلعكم» أى وما كان [الله][(1)] ليعلمكم ما يكون منهم. فقوله: «وما كان الله ليطلعكم [على الغيب][(1)]» على هذا متصل، وعلى القولين الأولين منقطع. وذلك أن الكفار لما قالوا: لم لم يوح إلينا؟ قال: «وما كان الله ليطلعكم على الغيب» أى على من يستحق النبوة، حتى يكون الوحى باختياركم. ﴿ولكن الله يجتبى﴾ أى يختار ﴿من رسله﴾ لإطلاع غيبه ﴿من يشاء﴾ يقال: طلعت على كذا واطلعت [عليه][(1)]، وأطلعت عليه غيرى؛ فهو لازم ومتعد. وقرئ «حتى يميز» بالتشديد من ميز، وكذا فى «الأنفال»[(2)] وهى قراءة حمزة. والباقون «يميز» بالتخفيف من ماز يميز. يقال: مزت الشىء بعضه من بعض أميزه ميزا، وميزته تمييزا. قال أبو معاذ: مزت الشىء أميزه ميزا إذا فرقت بين شيئين. فإن كانت أشياء قلت: ميزتها تمييزا. ومثله إذا جعلت الواحد شيئين قلت: فرقت بينهما، مخففا؛ ومنه فرق الشعر. فإن جعلته أشياء قلت: فرقته تفريقا.

قلت: ومنه آمتاز القوم، تميز بعضهم عن بعض. و يكاد يتميز: يتقطع؛ و بهذا فسر قوله تعالى: «تكاد تميز من الغيظ»[(3)] وفى الخبر "من ماز أذى عن الطريق فهو له صدقة".

(1) زيادة عن ه. (2) راجع جـ ٧ ص ٤٠٠ (3) راجع جـ ١٨ ص ٢١٨

قوله تعالى : ﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ يقال : إن الكفار لما سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم من يؤمن منهم، فأنزل الله « فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ »[(١)] يعنى لا تشتغلوا بما لا يَعنيكم، وآشتغلوا بما يَعنيكم وهو الإيمان . ﴿ فَآمِنُوا ﴾ أى صدقوا، أى عليكم التصديق لا التشوّف إلى آطلاع الغيب . ﴿ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ أى الجنة . ويذكر أن رجلا كان عند الحجّاج بن يوسف الثقفي مُنَجِّما ؛ فأخذ الحجاج حَصَياتٍ بيده قد عَرف عددها فقال للمُنَجِّم : كم فى يدى؟ فحسَب فأصاب المنجِّم . فأغفله الحجّاج وأخذ حَصَياتٍ لم يَعُدّهنّ فقال للمنجم : كم فى يدى ؟ فحسَب فأخطأ، ثم حسَب أيضا فأخطأ ؛ فقال : أيها الأمير، أظنك لا تعرف عدد ما فى يدك ؟ قال لا . قال : فما الفرق بينهما ؟ فقال : إن ذاك أحصيتَه فخرج عن حدّ الغيب ، فحسَبتُ فأصبتُ، وإنّ هذا لم تَعرف عددَها فصار غَيْبا ، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى . وسيأتى هذا البابُ فى « الأنعام »[(٢)] إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ﴾[(٣)] « الذين » فى موضع رفع ، والمفعول الأوّل محذوف . قال الخليل وسيبويه والفرّاء : المعنى البخل خيرا لهم ، أى لا يحسبَنّ الباخلون البخلَ خيرا لهم . وإنما حذف لدلالة يبخلون على البخل؛ وهو كقوله : من صدق كان خيرا له . أى كان الصدق خيرا له . ومن هذا قول الشاعر :

إذا نُهِيَ السَّفيه جَرَى إليــه ✻ وخالَفَ والسَّفيهُ إلى خِلافِ

فالمعنى : جَرَى إلى السَّفه ؛ فالسّفيه دلّ على السَّفه . وأما قراءة حمزة بالتاء فبعيدة جدًّا ؛ قاله النحاس . وجوازها أن يكون التقدير : لا تحسبن بخل الذين يبخلون هو خيرا لهم . قال

(١) فى ط و جـ و هـ : أيهم . (٢) راجع جـ ٧ ص ١ فما بعد . (٣) فى ط و جـ .

الزجاج : وهى مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ » . و « هو » فى قوله « هُوَ خَيْراً لَهُمْ » فاصلة عند البصريين ، وهى العماد عند الكوفيين . قال النحاس : ويجوز فى العربية « هو خير لهم » ابتداء وخبر .

الثانيـــة – قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ﴾ ابتداء وخبر، أى البخل شرّ لهم . والسين فى «سَيُطَوَّقُونَ» سين الوعيد، أى سوف يُطوّقون ؛ قاله المبرّد . وهذه الآية نزلت فى البخل بالمال والإنفاق فى سبيل الله ، وأداء الزكاة المفروضة . وهذه كقوله : « وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ » الآية . ذهب إلى هذا جماعةٌ من المتأولين ، منهم ابن مسعود وابن عباس وأبو وائل وأبو مالك والسدّى والشّعْبِيّ قالوا : ومعنى ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ ﴾ هو الذى ورد فى الحديث عن أبى هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "من آتاه الله مالا فلم يُؤَدّ زكاته مُثِّل له يوم القيامة شُجاعا(١) أقرعَ(٢) له زَبِيبتان(٣) يُطَوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بِلِهزمتيه(٤) ثم يقول أنا مالُك أنا كنزك – ثم تلا هذه الآية – « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ » الآية . أخرجه النسائى(٥) . وخرّجه ابن ماجه عن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ما مِن أحدٍ لا يُؤدّى زكاةَ مالِه إلا مُثِّل له يومَ القيامة شُجاع أقرعُ حتى يُطَوَّقَ به فى عنقه" ثم قرأ علينا النبيّ صلى الله عليه وسلم مِصداقه من كتاب الله تعالى « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » الآية . وجاء عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال"ما من ذى رَحِمٍ يأتى ذَا رَحِمه فيسأله من فضل ماعنده فيبخل به عليه إلا أُخرج له يوم القيامة شُجاعٌ من النار يتلمظ(٦) حتى يُطَوّقه" . وقال ابن عباس أيضا : إنما نزلت فى أهل الكتاب و بخلهم ببيان ما علموه من أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ذلك مُجاهد و جماعة من أهل العلم . ومعنى «سَيُطَوَّقُونَ» على هذا التأويل سيحملون عقاب ما بخلوا به ؛ فهو من الطاقة كما قال تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ

---

(١) الشجاع (بالضم) : الحية الذكر؛ أو الذى يقوم على ذنبه و يواثب الراجل والفارس .

(٢) الأقرع : هو الذى تمرط جلد رأسه ؛ لكثرة سمه وطول عمره . (٣) الزبيبتان : النكتتان السوداوان فوق عينيه ، وهو أوحش ما يكون من الحيات وأخبثه . وقيل : هما زبدتان فى شدقى الحية .

(٤) اللهزمتان : شدقاه . وقيل : هما عظمان ناتئان فى اللحيين تحت الأذنين . (٥) هذه رواية البخارى عن أبى هريرة ولفظه . أما ما خرجه النسائى فبلفظ آخر عن ابن مسعود . راجع صحيح البخارى وسنن النسائى فى باب الزكاة . (٦) تلمظت الحية : أخرجت لسانها كتلمظ الآكل .

يُطيقُونَهُ » وليس من التّطويق . وقال إبراهيم النَّخَعِيّ : معنى « سَيُطَوَّقون » سيُجعل لهم يوم القيامة طَوْقٌ من النار . وهذا يجرى مع التأويل الأول [أى][1] قول السدى . وقيل : يُلزَمون أعمالهم كما يلزم الطّوق العنق؛ يقال : طُوِّق فلان عملَه طَوْقَ الحمامة، أى أُلزِم عمله . وقد قال تعالى : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ »[2] . ومن هذا المعنى قولُ عبد الله ابن جَحْش لأبى سفيان :

أبلِـغْ أبا سـفيان عن * أمْرٍ عواقبُـه ندامـه
دارَ ابن عمِّـك بِعتَهـا[3] * تقضى بهـا عنك الغرامهْ
وحَليفكُـم بالله ر * بِّ النـاسِ مجتهِدُ القَسامـهْ
اذهب بها اذهب بهـا * طُوِّقتَهـا طوقَ الحمـامهْ

وهذا يجرى مع التأويل الثانى . والبُخل والبَخَل فى اللغة أن يَمنع الإنسانُ الحقَّ الواجبَ عليه . فأما من منَع ما لا يجب عليـه فليس ببخيل ؛ لأنه لا يُذَمّ بذلك . وأهـل الحجاز يقولون : يَبْخُلون وقد بَخُلوا . وسائر العرب يقولون : بَخِلوا يَبْخَلون ؛ حكاه النحاس . و بَخِـل يَبْخَل بُخْلًا وَ بَخَلًا ؛ عن ابن فارس .

الثالثـــة — فى ثمـرة البخل وفائدته . وهو ما رُوى أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال للأنصار : " من سَيدكم ؟ " قالوا الجَدّ بن قيس على بُخْلٍ فيه . فقال صلى الله عليه وسلم : " وأىُّ داء أدْوَى[4] من البخل " قالوا : وكيف ذاك يا رسول الله ؟ قال : " إن قوما نزلوا بساحل البحر فكرِهوا لبخلهم نزول الأضياف بهم فقالوا : ليبعد الرجال منّا عن النساء حتى يعتذر الرجال إلى الأضياف ببُعْد النساء، وتعتذر النساء ببُعْد الرجال؛ ففعلوا وطال ذلك بهم فاشتغل الرجال بالرجال والنساء بالنساء " ذكره المـاوردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » . والله أعلم .

(١) زيادة يقتضيها المقام . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٩ (٣) لما هاجر بنو جحش من مكة إلى المدينة تركوا دورهم هجرة مغلقة ، ليس فيها ساكن ؛ فباعها أبو سفيان من عمرو بن علقمة . فقال عبد الله لأبى سفيان هذه الأبيات بعد فتح مكة . (راجع سيرة ابن هشام ص ٣٣٩ طبع أوربا) . (٤) أى أى عيب أقبح منه .

الرابعة — واختلف فى البُخل والشُّحّ ، هل هما بمعنًى واحد أو بمعنيين . فقيل : البخل الامتناع من إخراج ما حصل عندك . والشُّح : الحِرصُ على تحصيل ما ليس عندك .

وقيل : إن الشُّح هو البخل مع حِرص . وهو الصحيح لما رواه مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "اتقو الظلم فإن الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة واتقو الشُّحّ فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم" . وهذا يردّ قول من قال : إن البخلَ منعُ الواجب ، والشحَّ منعُ المستحبّ . إذ لو كان الشح منع المستحب لما دخل تحت هذا الوعيد العظيم ، والذم الشديد الذى فيه هلاك الدنيا والآخرة(١) . ويؤيد هذا المعنى ما رواه النسائى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم "لا يجتمع غُبارٌ فى سبيل الله ودخان جنهم فى مِنخَرَىْ رجلٍ مسلمٍ أبدا ولا يجتمع شحٌّ وإيمانٌ فى قلب رجل مسلم أبدا" . وهذا يدل على أن الشّح أشدُّ فى الذم من البخل ؛ إلا أنه قد جاء ما يدل على مساواتهما وهو قوله — وقد سئل : أيكون المؤمن بخيلا؟ قال : "لا" وذكر الماوردى فى كتاب « أدب الدنيا والدين » أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : "من سيّدكم" قالوا : الجدّ بن قيس على بُخْل فيه ؛ الحديثَ . وقد تقدم .

قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أخبر تعالى ببقائه ودوام مُلكه . وأنه فى الأبد كهو فى الأزل غنيٌّ عن العالمين ، فيرث الأرض بعد فناء خلقه وزوال أملاكهم ؛ فتبقى الأملاك والأموال لا مُدَّعى فيها . فجرى هذا مجرى الوراثة فى عادة الخلق ، وليس هذا بميراث فى الحقيقة ؛ لأن الوارث(٢) فى الحقيقة هو الذى يرث شيئا لم يكن مَلَكه من قبل ، والله سبحانه وتعالى مالكُ السمواتِ والأرضِ وما بينهما ، وكانت السموات وما فيها ، والأرض وما فيهاله ، وأن الأموال كانت عارية عند أربابها ؛ فإذا ماتوا رُدَّت العارية إلى صاحبها الذى كانت له فى الأصل . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا(٣) » الآية . والمعنى فى الآيتين أن الله تعالى أمر عباده بأن يُنفقوا ولا يَبخَلوا قبل أن يموتوا ويتركوا ذلك ميراثا لله تعالى ، ولا ينفعهم إلا ما أنفقوا .

---

(١) فى جـ : هلاك الدنيا والأخرى والدين .	(٢) فى الأصول : الميراث . والصواب ما ذكر .
(٣) راجع جـ ١١ ص ١٠٥

قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ ذكر تعالى قبيحَ قولِ الكفار لاسيّما اليهود . وقال أهل التفسير : لما أنزل الله « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً »[(١)] قال قوم من اليهود — منهم حُيَيّ بن أخطب ؛ فى قول الحسن . وقال عكرمة وغيره : هو فنحاص بن عازوراء — إنّ الله فقيرٌ ونحنُ أغنياءُ يقترض منا . وإنما قالوا هذا تَمويهاً على ضعفائهم ، لا أنهم يعتقدون هذا؛ لأنهم أهل كتاب . ولكنهم كفروا بهذا القول؛ لأنهم أرادوا تشكيك الضعفاء منهم ومن المؤمنين، وتكذيبَ النبيّ صلى الله عليه وسلم. أى إنه فقير على قول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه اقترض منا . ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ سنجازيهم عليه . وقيل : سنكتبه فى صحائف أعمالهم ، أى نأمر الحَفَظة بإثبات قولهم حتى يقرءوه يوم القيامة فى كتبهم التى يُؤتونها ؛ حتى يكون أوكَدَ للحجة عليهم . وهذا كقوله : « وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ »[(٢)] . وقيل : مقصود الكتابة الحفظ ، أى سنحفظ ما قالوا لنجازيهم . «وما» فى قوله «ما قالوا» فى موضع نصب بـ«سنكتب» . وقرأ الأعمش وحمزة « سيُكتب » بالياء ؛ فيكون « ما » اسم ما لم يُسمَّ فاعله . واعتبر حمزة ذلك بقراءة ابن مسعود : « ويقال ذوقوا عذاب الحريق » .

قوله تعالى : ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ أى ونكتب قتلَهم الأنبياء ، أى رضاهم بالقتل . والمراد قتل أسلافهم الأنبياء؛ لكن لما رَضُوا بذلك صحت الإضافة إليهم . وحسّن رجل عند الشعبيّ قتل عثمان رضى الله عنه فقال له الشعبيّ : شَرِكتَ فى دمه . فجعل الرضا بالقتل قتلا ؛ رضى الله عنه .

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٢٣٧ (٢) راجع جـ ١٢ ص ٣٣٩

قلت : وهذه مسألة عُظمَى ، حيث يكون الرضا بالمعصية معصيةً . وقد روى أبو داود عن العُرْس بن عميرة الكِندى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا عمِلت الخطيئة فى الأرض كان من شهِدها فكرِهها — وقال مرة فأنكرها — كمن غاب عنها ومن غاب عنها فَرضيها كان كمن شهدها ". وهذا نص . قوله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ تقدم معناه فى البقرة (١) . ﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ أى يقال لهم فى جهنم ، أو عند الموت ، أو عند الحساب هذا . ثم هذا القول من الله تعالى ، أو من الملائكة ؛ قولان . وقراءة ابن مسعود « ويقال » . والحرِيق اسم للتلهبة من النار ، والنار تشمل الملتهبة وغير الملتهبة . قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ أى ذلك العذاب بما سلف من الذنوب . وخصّ الأيْدِى بالذكر ليدلّ على تولّى الفعل ومباشرته ؛ إذ قد يضاف الفعل إلى الإنسان بمعنى أنه أمر به ؛ كقوله : « يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ (٢) » وأصل « أَيْدِيكُمْ » أيديُكم لحذفت الضمة لثقلها . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (١٨٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ﴾ فى موضع خفض بدلا من « الَّذِينَ » فى قوله عز وجل « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا » أو نعت « للعبيد » أو خبر ابتداء ، أى هم الذين قالوا . وقال الكلبيّ وغيره . نزلت فى كعب بن الأشرف ، ومالك بن الصَّيْف ، ووهب بن يهوذا ، وفِنحاص بن عازورا وجماعةٍ أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فقالوا له : أتزعم أن الله أرسلك إلينا ، وأنه أنزل علينا كتابا عهد إلينا فيه ألّا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يَأتينا بِقُربان تأكله النار ، فإن جئتنا به صدّقناك . فأنزل الله هذه الآية . فقيل : كان هذا فى التوراة ، ولكن كان تمام الكلام : حتى يأتيكم المسيح ومحمد فإذا أتياكم فآمنوا بهما من غير قربان .

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣١ (٢) راجع جـ ١٣ ص ٢٤٧ .

وقيل : كان أمر القرابين ثابتا إلى أن نُسِخت على لسان عيسى بن مريم . وكان النبيّ منهم يَذْبح ويدعو فتنزِل نار بيضاء لها دوِيّ وحفِيف لا دخان لها ، فتأكل القُرْبان . فكان هذا القول دعوى من اليهود ؛ إذ كان ثَمّ آستثناء فأخفوه ، أو نسخٌ ، فكانوا فى تمسّكهم بذلك مُتعنّتين ، ومعجزاتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم دليل قاطع فى إبطال دعواهم ، وكذلك معجزات عيسى ؛ ومن وجب صدقه وجب تصديقه . ثم قال تعالى : إقامة للحجة عليهم : ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ ﴾ يا معشر اليهود ﴿ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ ﴾ من القربان ﴿ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ يعنى زكريا ويحيى وشَعْيا ، وسائر من قُتِلوا من الأنبياء عليهم السلام ولم تؤمنوا بهم . أراد بذلك أسلافهم . وهذه الآية هى التى تلاها عامر الشعبيّ رضى الله عنه ، فآحتجّ بها على الذى حسّن قتل عثمان رضى الله عنه كما بيّناه . وأن الله تعالى سمّى اليهود قَتَلة لرضاهم بفعل أسلافهم ، وإن كان بينهم نحوٌ من سبعمائة سنة . والقُرْبان ما يُتَقرب به إلى الله تعالى من نُسُك[1] وصدقة وعملٍ صالح ؛ وهو فُعلان من القُرْبة . ويكون آسما ومصدرا ؛ فمثال الآسم السّلطان والبُرْهان . والمصدر العُدْوان والخُسْران . وكان عيسى آبن عمر يقرأ « بِقُرُبانٍ » بضم الراء آتباعا لضمة القاف ؛ كما قيل فى جمع ظلمة : ظُلُمات ، وفى حجرة حُجُرات . ثم قال تعالى معزّيا لنبيه ومؤنسا له : ﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ أى بالدلالات . ﴿ وَالزُّبُرِ ﴾ أى الكتب المزبورة ، يعنى المكتوبة . والزُّبُر جمع زَبور وهو الكتاب . وأصله من زَبَرت أى كتبت . وكل زبور فهو كتاب ؛ قال آمرؤ القيس :

لِمَنْ طَلَلٌ أبصرتُه فشجانِي * كخط زبور فى عسيبِ[2] يمانى

وأنا أعرف تَزْبَرَتِى أى كتابتى . وقيل : الزَّبور من الزَّبْر بمعنى الزَّجْر . وزَبَرت الرجل آنتهرته . وزَبَرْت البئر : طويتها بالحجارة . وقرأ آبن عامر « بِالزُّبُر وبِالكِتاب المُنير » بزيادة باء فى الكلمتين[3] . وكذلك هو فى مصاحف أهل الشام . ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ أى الواضح المضىء ؛ من قولك : أَنَرت الشىء أُنيره ، أى أوضحته : يقال : نار الشىء وأناره ونوّره وآستناره بمعنًى ،

(١) فى ه وط : نسيكة . (٢) العسيب : سعف النخل الذى جرد عنه خوصه ، وهى الجريدة .
(٣) فى ط و ب : فى الحرفين .

وكل واحد منهما لازمٌ ومتعدٍّ . وجَمَع بين الزبر والكتاب — وهما بمعنًى — لاختلاف لفظهما ، وأصلها كما ذكرنا .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

فيه سبع[1] مسائل :

الأولى — لما أخبر جلّ وتعالى عن الباخلين وكُفرهم في قولهم : « إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ » وأمر المؤمنين بالصبر على أذاهم في قوله « لَتُبْلَوُنَّ » الآية — بيّن أن ذلك مما ينقضي ولا يدوم؛ فإن أمد الدنيا قريب، ويوم القيامة يوم الجزاء . ﴿ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ من الذّوق، وهذا مما لا مَحِيص عنه للإنسان ، ولا مَحِيد عنه لحيوان . وقد قال أميّة بن أبي الصلت :

من لم يمت عَبْطةً[2] يمُت هَرَمًا * لِلموت كأسٌ والمرءُ ذائِقُها

وقال آخر :

الموتُ بابٌ وكلُّ الناس داخلُه * فليتَ شِعْرِيَ بعد البابِ ما الدّار

الثانية — قراءة العامة «ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ» بالإضافة . وقرأ الأعمش ويحيى وابن أبي إسحاق « ذائقةٌ الموت » بالتنوين ونصب الموت . قالوا : لأنها لم تُذق بعدُ . وذلك أن اسم الفاعل على ضربين : أحدهما أن يكون بمعنى المُضيّ . والثاني بمعنى الاستقبال؛ فإن أردت الأوّل لم يكن فيه إلا الإضافة إلى ما بعده؛ كقولك : هذا ضارب زيدٍ أمس، وقاتل بكرٍ أمس ؛ لأنه يُجرى مجرى الاسم الجامد وهو العلم، نحو غلامُ زيدٍ ، وصاحبُ بكرٍ . قال الشاعر :

الحافِظو عَوْرةِ العشيرة لا يَأ * تيهِم مِن وَرائهم وَكَفُ[3]

---

(١) كذا في الأصول والتقسيم ثمانية إلا جـ فسبعة وعليها الاعتماد . (٢) مات عبطة : أي شابا صحيحا .

(٣) الوكف : العيب : والبيت لعمرو بن امرئ القيس ، ويقال لقيس بن الخطيم . (عن اللسان) .

وإن أردت الثاني جاز الجرّ، والنّصب والتّنوين فيما هذا سبيله هو الأصل؛ لأنه يجري مجرى الفعل المضارع. فإن كان الفعل غير متعدّ، لم يتعدّ نحو قائمٌ زيدٌ. وإن كان متعدّيا عدّيته ونصبت به، فتقول: زيدٌ ضاربٌ عمـرواً بمعنى يضرب عمـرواً. ويجوز حذف التنوين والإضافة تخفيفا، كما قال المرّار:

سَلِّ الهمومَ بكلِّ مُعطِي رأسِه ... ناجٍ مُخالِطِ صُهْبةٍ مُتعيِّسِ(١)

مُغتالِ أحْبُـلِه مُبينٍ عُنقُـه ... في مَنْكِبٍ زَبَنَ المَطِيَّ عَرَنْدَسِ(٢)

[فحذف التنوين تخفيفا، والأصل: معْطٍ رأسَه بالتنوين والنصب، ومثل هذا أيضا في التنزيل قوله تعالى: «هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ» وما كان مثله](٣).

الثالثــة — ثم اعلم أن للموت أسبابا وأمارات؛ فمن علامات موت المؤمن عَرَقُ الجبين. أخرجه النَّسائي من حديث بُرَيدة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «المؤمن يموت بعَرَق الجبين». وقد بيّناه في «التذكرة» فإذا احتُضِر لُقِّن الشهادة؛ لقوله عليه السلام: "لقِّنوا موتاكم لا إله إلا الله" لتكون آخر كلامه فيُختَم له بالشهادة؛ ولا يعاد عليه منها لئلا يضجَر. ويستحبّ قراءة «يس» ذلك الوقت؛ لقوله عليـه السلام: «اقرءوا يس على موتاكم» أخرجه أبو داود. وذكر الآجُرّي في كتاب النصـيحة من حديث أم الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: "ما من ميت يُقرأ عنده سورة يس إلا هُوِّن عليه الموت". فإذا قُضي وتَبِـع البصرُ الروح — كما أخبر صـلى الله عليـه وسلم في صحيح مسـلم — وارتفعت العبادات: وزال التكليف، توجّهت على الأحياء أحكام؛ منها تغميضُه، وإعلامُ إخوانه الصُّلحاء بموته؛ وكَرِهه قـوم وقالوا: هو من النعي. والأول أصحّ، وقـد بيّناه في غير هـذا الموضع. ومنها الأخذ في تجهيزه بالغسل والدّفن لئلا يُسرع إليه التغيُّر؛ قال صلى الله عليه وسلم لقوم أخّروا دفن ميتهم: "عجّلوا بدفن جيفتكم"؛ وقال: "أسرعوا بالجنازة" الحديثَ، وسيأتي.

(١) قوله معطي رأســه، أي ذلول. وناج: سريع. والصهبة: أن يضرب بياضه إلى الحمـرة. والمتعيس والأعيس: الأبيض، وهو أفضل ألوان الإبل. والمعنى: ســل همومك اللازمة لفراق من تهوى ونأيه عنك بكل بعير ترحله للسفر. (٢) وصف بعيرا بعظم الجوف؛ فإذا شد رحله عليه اغتال أحبله (جمع حبل) واستوفاها لعظم جوفه. والاغتيال: الذهاب بالشيء. والمبين: البين الطويل. وزبن: زاحم ودفع. والعرندس: الشديد. ويروى: متين عنقه. (من شرح الشواهد للشنتمري). (٣) الزيادة من جـ و ط و د و هـ.

الثالثة — فأما غسله فهو سُنّة لجميع المسلمين حاشا الشّهيدَ على ماتقدم . وقيل : غسله واجب . قاله القاضى عبد الوهاب . والأول : مذهب الكتّاب(١) ، وعلى هذين القولين العلماءُ . وسبب الخلاف قوله عليه السلام لأم عطية فى غسلها ابنته زينب ، على ما فى كتاب مسلم . وقيل : هى أم كلثوم ، على ما فى كتاب أبى داود : "اغْسِلنها ثلاثا أو خمسا أو أكثرَ من ذلك إن رأيتُنّ ذلك" الحديث . وهو الأصل عند العلماء فى غسل الموتى . فقيل : المراد بهذا الأمر بيانُ حكم الغسل فيكون واجبا . وقيل : المقصود منه تعليم كيفية الغسل فلا يكون فيه ما يدل على الوجوب . قالوا و يدلّ عليه قوله : "إن رأيتُنّ ذلك" وهذا يقتضى إخراج ظاهر الأمر عن الوجوب ؛ لأنه فوّضه إلى نظرهن . قيل لهم : هذا فيه بُعدٌ ؛ لأن ردّك "إن رأيتن" إلى الأمر ، ليس السابق إلى الفهم بل السابق رجوع هذا الشرط إلى أقرب مذكور ، وهو "أكثر من ذلك" أو إلى التخيير فى الأعداد . وعلى الجملة فلا خلاف فى أن غسل الميت مشروع معمول به فى الشريعة لا يُترك . وصفته كصفة غسل الجنابة على ما هو معروف . ولا يجاوز السبع غسلات فى غُسل الميت بإجماع ؛ على ماحكاه أبو عمر . فإن خرج منه شىء بعد السبع غِسل الموضع وحده ، وحكمه حكم الجُنب إذا أحدث بعد غسله . فإذا فرغ من غسله كفّنه فى ثيابه وهى :

الرابعة — والتكفين واجب عند عامة العلماء ، فإن كان له مال فمن رأس ماله عند عامّة العلماء ، إلا ما حكى عن طاوس أنه قال : من الثلث كان المال قليلا أو كثيرا . فإن كان الميت ممن تلزم غيره نفقته فى حياته من سيّد — إن كان عبدا — أو أب أو زوج أو ابن ؛ فعلى السيد باتفاق ، وعلى الزوج والأب والابن باختلاف . ثم على بيت المال أو على جماعة المسلمين على الكفاية . والذى يتعيّن منه بتعيين الفرض سَترُ العورة ؛ فإن كان فيه فضل غير أنه لا يعم جميع الجسد غطى رأسه ووجهه ؛ إكراما لوجهه وسترا لما يظهر من تغيّر محاسنه . والأصل فى هذا قصّة مُصعب بن عُمير ، فإنه ترك يوم أحد نَمِرة(٢) كان

(١) كذا فى كل الأصول .
(٢) النمرة (بفتح فكسر) : شملة فيها خطوط بيض وسود ، أو بردة من صوف تلبسها الأعراب .

إذا غُطِّىَ رأسه خرجت رجلاه ، وإذا غُطِّى رجلاه خرج رأسهُ ؛ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : "ضَعوها ممـا يلى رأسَه وآجعلوا على رجليه من الإذخر"(١) أخرج الحديث مسلم . والوتر مستحبّ عند كافة العلماء فى الكَفن، وكلهم مجمعون على أنه ليس فيه حَدّ . والمستحبّ منه البياض؛ قال صلى الله عليه وسلم :"البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفّنوا فيها موتاكم" أخرجه أبو داود . وكُفّن صلى الله عليه وسلم فى ثلاثة أثواب بيض سَحُولية من كُرْسُف(٢) . والكفن فى غير البياض جائز إلا أن يكون حريرا أو خَزًّا . فإن تشاحّ الورثة فى الكفن قُضى عليهم فى مثل لباسه فى جُمعته وأعياده؛ قال صلى الله عليه وسلم : "إذا كَفّن أحدُكم أخاه فَلْيُحسّن كفنه" أخرجه مسلم . إلا أن يوصى بأقلّ من ذلك . فإن أوصى بسَرَف قيـل : يبطل الزائد . وقيـل : يكون فى الثلث . والأول أصح ؛ لقوله تعـالى : (وَلَا تُسْرِفُوا)(٣) . وقال أبو بكر : إنه للمُهْلة(٤) . فإذا فرغ من غسله وتكفينه ووُضع على سريره وآحتمله الرجال على أعناقهم وهى :

الخامسـة — فالحكم الإسراع فى المشى؛ لقوله عليه السلام : "أسرعوا بالجنازة فإن تَكُ صالحةً فخيرٌ تُقدّمونها إليه وإن تكن غير ذلك فشرّ تضعونه عن رقابكم" . لا كما يفعله اليوم الجهّـال فى المشى رُويدا ، والوقوفِ بها المرّةَ بعد المرّة، وقراءةِ القرآن بالألحان إلى مالا يحل ولايجوز حسب مايفعله أهل الديار المصرية بموتاهم . روى النّسائى: أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال حدّثنـا خالد قال أنبـأنا عُيينة بن عبد الرحمن قال حدّثنى أبى قال : شَهدت جنازة عبد الرحمن بن سَمُرة وخرج زياد يمشى بين يدى السرير ، فجعـل رجال من أهل عبد الرحمن ومواليهم يستقبلون السرير ويمشون على أعقابهم ويقولون : رُويداً رويدا ، بارك الله فيكم ! فكانوا يَدِبّون دَبيبا ، حتى إذا كنا ببعض طريق المِرْبَد(٥) لحقنا أبو بكرة رضى الله عنه على بغلة فلما

---

(١) الإذخر (بكسر الهمزة) : حشيشة طيبة الرائحة ، يسقف بها البيوت فوق الخشب . (٢) قوله : سحولية ، يروى بفتح السين وضمها ؛ فالفتح منسوب إلى السحول ؛ وهو القصار لأنه يسلحها أى يغسلها ، أو إلى سحول وهى قرية باليمن . وأما الضم فهو جمع سحل ، وهو الثوب الأبيض النق : ولا يكون إلا من قطن . والكرسف كعصفر: القطن . (٣) راجع جـ ٧ ص ١١٠ (٤) المهلة (مثلثة الميم) : القيح والصديد الذى يذوب فيسيل من الجسد . (٥) المربد كمنبر : موضع قرب المدينة .

رأى الذين يصنعون حمل عليهم ببغلته وأهوى إليهم بالسوط فقال : خلوا ! فوالذى أكرم وجه أبى القاسم صلى الله عليه وسلم لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنها لنكاد نرمل بها رملا ، فانبسط القومُ . وروى أبو ماجدة عن ابن مسعود قال سألنا نبينا صلى الله عليه وسلم عن المشى مع الجنازة فقال : " دون الخبب إن يكن خيرا يعجل إليه وإن يكن غير ذلك فبعدًا لأهل النار " الحديث . قال أبو عمر : والذى عليه جماعة العلماء فى ذلك الإسراع فوق السجية قليلا ، والعجلة أحب إليهم من الإبطاء . ويكره الإسراع الذى يشق على ضعفة الناس ممن يتبعها . وقال إبراهيم النخعى : بطئوا بها قليلا ولا تدبوا دبيب اليهود والنصارى . وقد تأول قوم الإسراع فى حديث أبى هريرة تعجيل الدفن لا المشى، وليس بشىء لما ذكرنا . وبالله التوفيق .

السادسة — وأما الصلاة عليه فهى واجبة على الكفاية كالجهاد . هذا هو المشهور من مذاهب العلماء : مالك وغيره؛ لقوله صلى الله عليه وسلم فى النجاشى : " قوموا فصلوا عليه ". وقال أصبغ : إنها سنة . وروى عن مالك . وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان فى «براءة» (١) .

السابعة — وأما دفنه فى التراب ودسه وستره فذلك واجب ؛ لقوله تعالى : « فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ » (٢) . وهناك يذكر حكم بنيان القبر وما يستحب منه، وكيفية جعل الميت فيه . ويأتى فى «الكهف» حكم بناء المسجد (٣) عليه ، إن شاء الله تعالى .

فهذه جملة من أحكام الموتى وما يجب لهم على الأحياء . وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا " أخرجه مسلم . وفى سنن النسائى عنها أيضا قالت : ذكر عند النبى صلى الله عليه وسلم هالكٌ بسوء فقال : " لا تذكروا هلكاكم إلا بخير " .

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢١٨ (٢) راجع جـ ٦ ص ١٤١ (٣) راجع جـ ١٠ ص ٣٧٨

قوله تعـالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فأجْرُ المؤمن ثواب ، وأجر الكافر عقاب ، ولم يعتدّ بالنعمة والبليـة فى الدنيا أجرا وجزاء ؛ لأنها عرصةَ الفناء . ﴿ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّـارِ ﴾ أى أُبعد . ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ ظَفِر بمـا يرجو، ونجا ممـا يخاف.و روى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة عن عبـد الله بن عمرو عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " من سَرّه أن يُزحزَح عن النار وأن يدخل الجنـة فلتأته منيّته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله و يأتى إلى الناس الذى يُحب أن يُؤتى إليه".
عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرءوا إن شئتم « فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ » " .

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُـرُورِ ﴾ أى تَغرّ المؤمنَ وتَخـدعُه فيَظُن طول البقاء وهى فانية . والمتاع ما يُتمتع به و ينتفع؛ كالفأس والقِـدْر والقَصعة ثم يزول ولا يبقى ملكه؛ قاله أكثر المفسرين . قال الحسن : كخُضرة النبات ، ولعب البنات لا حاصل له . وقال قَتادة: هى متاع متروك توشـك أن تضمحل بأهلها ؛ فينبغى للإنسان أن يأخذ من هذا المتاع بطاعة الله سبحانه ما استطاع . ولقد أحسن من قال :

هى الدار دارُ الأذى والقَـذَى * ودارُ الفنـاء ودارُ الغِـيَرْ(١)
فلـو نلتَهـا بحـذافيرها * لمُتَّ ولم تَقْضِ منهـا الوَطَـرْ
أيَا مَن يؤمّل طـولَ الخـلود * وطـولُ الخلود عليـه ضَرَرْ
إذا أنت شِبْت و بان الشّباب * فلا خير فى العيش بعـد الكِبَرْ

والغَرور (بفتح الغين) الشـيطان ؛ يَغُر الناس بالتّمنية والمواعيـد الكاذبة . قال ابن عرفة : الغرور ما رأيتَ له ظاهرًا تحبّـه ، وفيه باطن مكروه أو مجهول . والشـيطان غَرور ؛ لأنه يحمل على محاب النفس ، ووراء ذلك ما يسوء . قال : ومن هـذا بيع الغَرر، وهـو ما كان له ظاهرُ بيع يَغُر و باطنٌ مجهول .

(١) فى جـ : العبر.

قوله تعالى : لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

هـذا الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وأمته والمعنى : لَتُختبرنّ ولتُمتحنن فى أموالكم بالمصائب والأرزاء بالإنفاق فى سبيل الله وسائر تكاليف الشرع . والابتلاء فى الأنفس بالموت والأمراض وفقد الأحباب . وبدأ بذكر الأموال لكثرة المصائب بها . ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾ إن قيل : لم ثبتت الواو فى « لتبلَوُن » وحذفت من « وَلَتَسْمَعُنَّ » ؛ فالجواب أن الواو فى « لتبلون » قبلها فتحة فحركت لالتقاء الساكنين ، وخُصّت بالضمة لأنها واو الجمع ، ولم يجز حذفها لأنها ليس قبلها ما يدل عليها ، وحذفت من «ولتسمعن» لأن قبلها ما يدل عليها . ولا يجوز همز الواو فى « لتبلوُن » لأن حركتها عارضة ؛ قاله النحاس وغيره . ويقال للواحد من المذكر : لَتُبْلَيَنَّ يارجل . وللإثنين : لتبليانّ يا رجلان . ولجماعة الرجال : لتبلوُنّ . ونزلت بسبب أن أبا بكر رضى الله عنه سمع يهوديا يقول : إن الله فقير ونحن أغنياء . ردًّا على القرآن واستخفافا به حين أنزل الله «مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» فلطمه ؛ فشكاه إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت . قيل : إن قائلها فِنحاص اليهودى ؛ عن عكرمة . الزُّهرِىّ : هو كعب ابن الأشرف نزلت بسببه ؛ وكان شاعرا ، وكان يهجو النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَه ، ويُؤلِّب عليه كفار قريش ، ويُشبِّب بنساء المسلمين حتى بعث [إليه] (١) رسولُ الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مَسْلمة وأصحابَه فقتله القِتْلة المشهورة فى السِّيَر (٢) وصحيح الخبر . وقيل غير هذا . وكان صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة كان بها اليهود والمشركون ، فكان هو وأصحابه يسمعون أذًى كثيرا . وفى الصحيحين أنه عليه السلام مرّ بآبن أُبَىّ وهو عليه السلام على حمار فدعاه إلى الله تعالى فقال ابن أُبَىّ : إن كان ماتقول حقًّا فلا تؤذنا به فى مجالسنا ! ارجع إلى رحلك ، فمن جاءك فأقصص عليه . وقبض على أنفه لئلا يصيبه غبار الحمار ، فقال

(١) فى ج و هـ و ز .   (٢) راجع سيرة ابن هشام ص ٥٤٨ طبع أوربا .

ابن رَوَاحة : نعم يا رسول الله ، فَاغْشَنَا فى مجالسنا فإنا نحبّ ذلك . واستبّ المشركون الذين كانوا حول ابن أُبَىّ والمسلمون، وما زال النبىّ صلى الله عليه وسلم يسكّنهم حتى سَكنوا . ثم دخل على سعد بن عُبادة يعوده وهو مريض، فقال: "ألم تسمع ما قال فلان" فقال سعد: أعف عنه واصفح، فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نَزل، وقد اصطلح أهل هذه البُحيرة(١) على أن يتوّجوه ويعصبوه بالعصابة؛ فلما ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاكَهُ شَرِقَ به، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزلت هذه الآية . قيل : هذا كان قبل نزول القتال ، ونَدَب الله عبادَه إلى الصبر والتقوى وأخبر أنه من عزم الأمور . وكذا فى البخارىّ فى سياق الحديث، أن ذلك كان قبل نزول القتال . والأظهر أنه ليس بمنسوخ؛ فإن الجدال بالأحسن والمداراة أبدا مندوب إليها ، وكان عليه السلام مع الأمر بالقتال يوادع اليهود ويُدَارِيهم، ويصفح عن المنافقين، وهذا بيِّن . ومعنى ﴿ عَزْمِ الأُمورِ ﴾ شدّها(٢) وصلابتها(٣) . وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

فيــه مسألتان :

الأولى ـــ قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُو الْكِتَابَ ﴾ هذا متّصل بذكر اليهود، فإنهم أُمِروا بالإيمان بمحمد عليه السلام وبيانِ أمره ، فكتموا نعتَه(٤) . فالآية توبيخ لهم، ثم مع ذلك هو خبر عام لهم ولغيرهم . قال الحسن وقتادة : هى فى كل من أوتى علم شىء من الكتاب . فمن علم شيئا فليعلّمه، وإيّاكم وكتمانَ العلم فإنه هلَكة . وقال محمد بن كعب : لايحلّ لعالم أن يسكت على علمه، ولا للجاهل أن يسكت على جهله ؛ قال الله تعالى «وَإِذْ أَخَذَ

(١) يريد المدينة .
(٢) فى ج و ه و ز و ى : سدّها وصلاحها ، من السداد .
(٣) راجع ج ٣ ص ١١٠
(٤) فى ج : أمره . وفى ز : بعثه .

الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب » الآية . وقال : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »(١) .
وقال أبو هريرة : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشيء ؛ ثم تلا هذه الآية « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب » . وقال الحسن بن عمارة : أتيت الزهري بعد ما ترك الحديث ، فألفيته على بابه فقلت : إن رأيت أن تحدثني . فقال : أما علمت أني تركت الحديث ؟ فقلت : إما أن تحدثني وإما أن أحدثك . قال حدثني . قلت : حدثني الحكم ابن عتيبة عن يحيى بن الجزار قال سمعت علي بن أبي طالب يقول : ما أخذ الله على الجاهلين أن يتعلموا حتى أخذ على العلماء أن يعلموا . قال : فحدثني أربعين حديثا .

الثانيــة ـــ الهاء في قوله : ﴿ لتبيننه للناس ﴾ ترجع إلى محمد صلى الله عليه وسلم وإن لم يجر له ذكر . وقيل : ترجع إلى الكتاب ؛ ويدخل فيه بيان أمر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه في الكتاب . وقال : ﴿ ولا تكتمونه ﴾ ولم يقل تكتمنه لأنه في معنى الحال ، أي لتبيننه غير كاتمين . وقرأ أبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر وأهل مكة « لتبيننه » بالتاء على حكاية الخطاب . والباقون بالياء لأنهم غيب(٢) . وقرأ ابن عباس(٣) « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ليبيننه » . فيجيء قوله ﴿ فنبذوه ﴾ عائدا على الناس الذين بين لهم الأنبياء . وفي قراءة ابن مسعود « ليبينونه » دون النون الثقيلة . والنبذ الطرح . وقد تقدم بيانه في « البقرة »(٤) . ﴿ وراء ظهورهم ﴾ مبالغة في الاطراح ؛ ومنه « واتخذتموه وراءكم ظهريا » وقد تقدم في « البقرة »(٤) بيانه أيضا . وتقدم معنى قوله : ﴿ واشتروا به ثمنا قليلا ﴾ في « البقرة »(٥) فلا معنى لإعادته . ﴿ فبئس ما يشترون ﴾(٦) تقدم أيضا . والحمد لله .

قوله تعالى : لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٠٨ وجـ ١١ ص ٢٧٢　(٢) كذا في جـ ود وهـ وز وب ؛ وفي أ وح : لأنه غيب .　(٣) الذي في الطبري أنها قراءة عبد الله ؛ وسيأتي .　(٤) راجع جـ ٢ ص ٤٠
(٥) راجع جـ ١ ص ٣٣٤　(٦) راجع جـ ٢ ص ٢٧

أى بما فعلوا من القعود فى التخلّف عن الغَزْو وجاءوا به من العذر . ثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخُدْرِى أن رجالا من المنافقين فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلّفوا عنه وفرحوا بمَقْعدهم خِلافَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم آعتذروا إليه وحَلفوا ، وأحبّوا أن يُحمدوا بما لم يفعلوا ؛ فنزلت ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ الآية . وفى الصحيحين أيضا أن مَرْوان(١) قال لبوّابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له : لئن كان كل آمرئ منّا فرح بما أوتِيَ وأحبّ أن يُحمد بما لم يفعل معذَّبًا لنعذّبن أجمعون . فقال ابن عباس : مالَكم ولهذه الآية ! إنما أنزلت هذه الآية فى أهل الكتاب . ثم تلا ابن عباس « وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ » و « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » . وقال ابن عباس : سألهم النبيّ صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ؛ فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستَحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتَوْا من كتمانهم إياه ، وما سألهم عنه . وقال محمد بن كعب القُرَظى : نزلت فى علماء بنى إسرائيل الذين كتموا الحق ، وأتوا ملوكهم من العلم ما يوافقهم فى باطلهم ، « وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا » أى بما أعطاهم الملوك من الدنيا ؛ فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . فأخبر أن لهم عذا با أليما بما أفسدوا من الدّين على عباد الله . وقال الضحاك : إن اليهود كانوا يقولون للملوك إنا نجد فى كتابنا أن الله يبعث نبيًّا فى آخر الزمان يَختم به النبوّة ؛ فلما بعثه الله سألهم الملوك أهو هذا الذى تجدونه فى كتابكم ؟ فقال اليهود طمعا فى أموال الملوك : هو غير هذا ، فأعطاهم الملوك الخزائن ؛ فقال الله تعالى : « لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا » الملوكَ من الكذب حتى يأخذوا عَرَض الدنيا . والحديث الأوّل خلاف مقتضى الحديث الثانى . ويحتمل أن يكون نزولها على السببين

(١) هو مروان بن الحكم بن العاصى ، وكان يومئذ أميرا على المدينة من قبل معاوية . (عن شرح القسطلانى) .

لاجتماعهما فى زمن واحد، فكانت جوابا للفريقين . والله أعلم . وقوله : واستحمدوا بذلك إليه ، أى طلبوا أن يحمدوا . وقول مَرْوان : لئن كان كلّ امرئ منا الخ دليلٌ على أن للعموم صِيَغًا مخصوصة ، وأن « الذين » منها . وهذا مقطوع به من تفهّم ذلك من القرآن والسُّنّة . وقوله تعالى : « وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا » إذا كانت الآية فى أهل الكتاب لا فى المنافقين المتخلّفين ؛ لأنهم كانوا يقولون : نحن على دين إبراهيم ولم يكونوا على دينه ، وكانوا يقولون : نحن أهل الصلاة والصوم والكتاب ؛ يريدون أن يُحمَدوا بذلك . و « الذين » فاعل يحسبنّ بالياء . وهى قراءة نافع وابن عامر وابن كثير وأبى عمرو ؛ أى لا يحسبنّ الفارحون فرحَهم مُنجيًا لهم من العذاب . وقيل : المفعول الأوّل محذوف، وهو أنفسهم . والثانى « بمفازة » . وقرأ الكوفيون « تحسبنّ » بالتاء على الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أى لا تحسبن يا محمد الفارحين بمفازة من العذاب . وقوله « فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ » بالتاء وفتح الباء، إعادةُ تأكيد، ومفعوله الأول الهاء والميم، والمفعول الثانى محذوف؛ أى كذلك، والفاء عاطفة أو زائدة على بدل الفعل الثانى من الأوّل . وقرأ الضحّاك وعيسى بن عمر بالتاء وضم الباء « فلا تَحْسَبُنُّهم » أراد محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وقرأ مجاهد وابن كثير وأبو عمرو ويحيى بن يعمر بالياء وضم الباء خبرا عن الفارحين ؛ أى فلا يَحسبُنّ أنفسهم ؛ « بِمَفَازَةٍ » المفعول الثانى . ويكون « فلا يحسبنهم » تأكيدا . وقيل : « الذين » فاعل « يحسبن » ومفعولاها محذوفان لدلالة « يحسبنهم » عليه ؛ كما قال الشاعر :

بأىّ كتاب أم بأية آية[1] * ترى حبّهم عارًا علىّ وتحسَبُ

آستغنى بذكر مفعول الواحد عن ذكر مفعول الثانى ، و « بمفازة » الثانى، وهو بدل من الفعل الأوّل فأغنى لإبداله منه عن ذكر مفعوليه ، والفاء زائدة . وقيل : قد تجىء هذه الأفعال ملغاة لا فى حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر :

وما خِلْت أبقى بيننا من مودّة * عِراضُ المَذَاكى المُسْنِفاتِ القلائصَا

(١) فى ط وز : سنة . وهى الرواية المشهورة .

المَذَاكِى : الخيل التى قد أتى عليها بعد قروحها سنةٌ أو سنتان ؛ الواحد مُذَكٍّ، مثل المُخْلِف من الإبل ؛ وفى المثــل جَرْى المُذَكيّات غِلاب (١) ، والمسنفات اسم مفعول ؛ يقال : سَنَفْت البعير أسنِفهُ سَـنْفًا إذا كففته بزمامه وأنت راكبه ، وأسنف البعيرَ لغة فى سنفه ، وأسنف البعيرَ بنفسه إذا رفع رأسه؛ يتعدّى ولا يتعدّى . وكانت العرب تركب الإبل وتجنُب الخيل؛ تقول : الحرب لا تُبقِى مودّة . وقال كعب بن أبى سُلْمَى (٢) :

أرجو وآمل أن تدْنو مَودّتُها * وما إخالُ لَدَيْنا منكِ تَنوِيلُ

وقرأ جمهور القرّاء السبعة وغيرهم «أتوا» بقصر الألف، أى بما جاءوا به من الكذب والكتمان . وقرأ مَرْوان بن الحَكَم والأعمش و إبراهيم النخَعِيّ « آتوا » بالمد، بمعنى أعْطَوا : وقرأ سعيد ابن جَبير « أُوتوا » على ما لم يسم فاعله ؛ أى أعطوا . والمفازة المنجاة ، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا ؛ أى ليسوا بفائزين . وسُمّى موضع المخاوف مفازة على جهة التفاؤل؛ قاله الأصمعى . وقيل : لأنها موضع تفويز ومَظِنّة هلاك؛ تقول العرب : فوّز الرجل إذا مات . قال ثعلب : حكيت لأبن الأعرابى قول الأصمعى فقال أخطأ ، قال لى أبو المكارم : إنما سُمِّيت مَفازة ؛ لأن من قطعها فاز . وقال الأصمعيّ : سُمّى اللّديغ سليمًا تفاؤلا . قال ابن الأعرابى : لأنه مُسْتَسْلِم لما أصابه . وقيــل : لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب ؛ لأن الفوز التباعدُ عن المكروه . والله أعلم .

قوله تعالى : وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

هــذا احتجاج على الذين قالوا إن الله فقيـر ونحن أغنياء، وتكذيب لهم . وقيل : المعنى لا تظُنّن الفرحين ينجون من العذاب ؛ فإن لله كلّ شيء، وهم فى قبضة القدير؛ فيكون معطوفا على الكلام الأوّل، أى إنهم لا ينجون من عذابه، يأخذهم متى شاء . ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أى مُمْكن ﴿ قَدِيرٌ ﴾ وقد مضى فى « البقرة » (٣) .

(١) الغلاب : المغالبة . أى أن المذكى يغالب مجاريه فيغلبه لقوّته . (٢) كذا فى الأصول . وهو اختصار من كعب بن زهير الخ . (٣) راجع جـ ١ ص ٢٢٤

قوله تعالى: إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَآيَٰتٍ
لِّأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ
وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ
فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ
مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ
فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾
رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ
ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ
وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ
ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ
خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ
إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

فيه خمس وعشرون مسألة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تقدّم معنى هـذه الآية في « البقرة »[1] في غير موضع . فختم تعالى هـذه السورة بالأمر بالنظر والاستدلال في آياته ؛ إذ لا تصدر إلا عن حيّ قيّوم قدير قدّوس سلام غنيّ عن العالمين؛ حتى يكون إيمانهم مستندا إلى اليقين لا إلى التقليد . ﴿لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الذين يستعملون عقولهم في تأمل الدلائل . ورُوِي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لما نزلت هـذه الآية على النبيّ صلى الله عليه وسلم قام يُصلّي ، فأتاه بِلالٌ يُؤْذِنُه بالصلاة، فرآه يبكي فقال : يارسول الله ، أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر! فقال : " يا بلالُ ، أفلا أكون عبدا شكورا ولقد أنزل الله عليّ الليلة آية « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَاب » — ثم قال : وَيْلٌ لمن قرأها ولم يتفكّر فيها ".

الثانيـة — قال العلماء : يستحبّ لمن انتبه من نومه أن يمسح على وجهه، ويستفتح قيامه بقراءة هـذه العشر الآيات اقتداءً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما وسيأتي؛ ثم يصلّي ما كُتب له ، فيجمع بين التفكّر والعمل، وهو أفضل العمل على ما يأتي بيانه في هذه الآية بعد هذا . ورُوِي عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة « آل عمران » كل ليلة، خرّجه أبو نصر الوائلي السِّجِسْتانيّ الحافظ في كتاب « الإبانة » من حديث سليمان بن موسى عن مظاهر بن أسلم المخزوميّ عن المَقْبُريّ عن أبي هريرة . وقد تقدّم أوّل السورة[2] عن عثمان قال : من قرأ آخر آل عمران في ليلة كُتب له قيام ليلة .

الثالثـة — قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ ذكر تعالى ثلاث هيئات لا يخلو ابن آدم منها في غالب أمره، فكأنها تحصر زمانه . ومن هـذا المعنى قولُ عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل

(١) راجع جـ ٢ ص ١٩١ . (٢) راجع ص ٢ من هذا الجزء .

أحيانه . أخرجه مسلم . فدخل فى ذلك كونه على الخلاء وغيرُ ذلك . وقد اختلف العلماء فى هذا ؛ فأجاز ذلك عبد الله بن عمرو وابن سيرين والنَّخعِيّ ، وكره ذلك ابن عباس وعطاء والشعبيّ . والأول أصح لعموم الآية والحديث . قال النَّخعيّ : لا بأس بذكر الله فى الخلاء فإنه يَصعد . المعنى : تَصعد به الملائكة مكتوبا فى صحفهم ؛ فحذف المضاف . دليله قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ »[1] . وقال : « وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ »[2] . ولأن الله عز وجل أمر عباده بالذكر على كل حال ولم يستثن فقال : « ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا »[3] وقال : « فَٱذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ »[4] وقال : « إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا »[5] فعمّ . فذاكر الله تعالى على كل حالاته مُثابٌ مأجور إن شاء الله تعالى . وذكر أبو نعيم قال : حدّثنا أبو بكر بن مالك حدّثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدّثنى أبى قال حدّثنا وكيع قال حدّثنا سفيان عن عطاء بن أبى مَرْوان عن أبيه عن كَعب الأحبار قال قال موسى عليه السلام : "يا ربّ أقريبٌ أنت فأُناجيك أم بعيد فأُناديك قال: ياموسى أنا جليسُ مَن ذكرنى قال : يارب فإنا نكون من الحال على حال نُجلّك ونُعظّمك أن نذْكُرك قال : وما هى؟ قال: الجنابة والغائط قال: ياموسى اذكرنى على كل حال". وكراهية من كَره ذلك إمّا لتنزيه ذِكر الله تعالى فى المواضع المرغوب عن ذكره فيها ككراهية قراءة القرآن فى الحمّام ، وإما إبقاء على الكِرام الكاتبين على أن يحلّهم موضع الأقذار والأنجاس لكتابة ما يلفظ به . والله أعلم . و﴿ قِيَامًا وَقُعُودًا ﴾ نُصب على الحال . ﴿ وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ فى موضع الحال ؛ أى ومضطجعين ومثله قوله تعالى : « دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا »[6] على العكس ؛ أى دعانا مضطجعا على جَنبه . وذهب جماعة من المفسرين منهم الحسن وغيره إلى أن قوله « يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ » إلى آخره ، إنما هو عبارة عن الصلاة ؛ أى لا يضيعونها ، ففى حال العذر يصلونها قعودا أو على جنوبهم . وهى مثل قوله تعالى : « فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَاةَ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ »[7] فى قول ابن مسعود على ما يأتى بيانه . وإذا كانت الآية فى الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلّى قائما ، فإن لم يستطع فقاعدا ، فإن لم يستطع فعلى جَنبه ، كما ثبت عن عِمران

(١) راجع جـ ١٧ ص ٨　(٢) راجع جـ ١٩ ص ٢٤٥　(٣) راجع جـ ١٤ ص ١٩٧　(٤) راجع جـ ٢ ص ١٧١　(٥) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٥　(٦) راجع جـ ٨ ص ٣١٧　(٧) راجع جـ ٥ ص ٣٧٣

ابن حُصين قال : كان بى البوَاسِير فسألت النبيّ صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فقال : " صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جُنْب " رواه الأئمة . وقد كان صلى الله عليه وسلم يصلى قاعدا قبل موته بعام فى النافلة ؛ على مافى صحيح مسلم . وروى النّسائىّ عن عائشة رضى الله عنها قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّى متربّعا . قال أبو عبد الرحمن[١] : لا أعلم أحدا روى هذا الحديث غير أبى داود الحَفَرِىّ[٢] وهو ثقة، ولا أحسَب هذا الحديث إلا خطأ . والله أعلم .

الرابعة — واختلف العلماء فى كيفية صلاة المريض والقاعد وهيئتها ؛ فذكر ابن عبد الحكم عن مالك أنه يتربّع فى قيامه، وقاله البُوَيْطِىّ عن الشافعىّ . فإذا أراد السجود تهيّأ للسجود على قدر ما يطيق ، قال : وكذلك المتنفل . ونحوه قول الثورى ، وكذلك قال الليث وأحمد و إسحاق وأبو يوسف ومحمد . وقال الشافعىّ فى رواية المُزَنِىّ : يجلس فى صلاته كلها بجلوس التشهد . وروى هذا عن مالك وأصحابه ؛ والأوّل المشهور[٣] وهو ظاهر المدوّنة . وقال أبو حنيفة وزفر : يجلس بجلوس التشهد، وكذلك يركع و يسجد .

الخامسة — قال[٤] : فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير؛ هذا مذهب المدوّنة وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم يصلى على ظهره ، فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن ثم على جنبه الأيسر . وفى كتاب ابن الموّاز عكسه، يصلى على جنبه الأيمن، و إلا فعلى الأيسر، و إلا فعلى الظهر . وقال سحنون : يصلى على الأيمن كما يجعل فى لحده، و إلا فعلى ظهره و إلا فعلى الأيسر . وقال مالك وأبو حنيفة : إذا صلى مضطجعا تكون رجلاه مما يلى القِبلة . والشافعىّ والثورىّ : يصلى على جنبه ووجهه إلى القِبلة .

السادسة — فإن قوِى لخفة المرض وهو فى الصلاة ؛ قال ابن القاسم : إنه يقوم فيما بقِىَ من صلاته و يبنِى على ما مضى ؛ وهو قول الشافعىّ وزفر والطبرىّ . وقال أبو حنيفة

(١) أبو عبد الرحمن : كنية النسائى .
(٢) الحفرى (بفتح المهملة والفاء) نسبة إلى موضع بالكوفة واسمه عمر بن سعد بن عبيد .
(٣) فى ى : المذهب . وذلك فى الهامش تصحيحا .
(٤) فى هـ .

وصاحباه يعقوب ومحمد فيمن صلى مضطجعا ركعة ثم صح : إنه يستقبل الصلاة من أولها ، ولو كان قاعدا يركع ويسجد ثم صح بنى في قول أبي حنيفة ولم يَبْنِ في قول محمد . وقال أبو حنيفة وأصحابه : إذا آفتتح الصلاة قائما ثم صار إلى حدّ الإيماء فليَبْن ؛ وروى عن أبي يوسف . وقال مالك في المريض الذي لا يستطيع الركوع ولا السجود وهو يستطيع القيام والجلوس : إنه يصلى قائما ويومئ إلى الركوع ، فإذا أراد السجود جلس وأومأ إلى السجود؛ وهو قول أبي يوسف وقياس قول الشافعي . وقال أبو حنيفة وأصحابه : يصلى قاعدا .

السابعة — وأما صلاة الراقد الصحيح فروى من حديث عِمران بن حصين زيادة ليست موجودة في غيره، وهي «صلاة الراقد مثل نصف صلاة القاعد» . قال أبو عمر: وجمهور أهل العلم لا يُجيزُون النافلةَ مضطجعا ؛ وهو حديث لم يروه إلا حسين المعلّم وهو حسين ابن ذَكْوان عن عبد الله بن بُرَيْدة عن عِمران بن حصين، وقد اختلف على حسين في إسناده ومتنه آختلافا يوجب التوقف عنه ، وإن صح فلا أدرى ما وجهه ؛ فإن كان أحد من أهل العلم قد أجاز النافلة مضطجعا لمن قدر على القعود أو على القيام فوجهه هذه الزيادة في هذا الخبر، وهي حجة لمن ذهب إلى ذلك . وإن أجمعوا على كراهة النافلة راقدا لمن قدر على القعود أو القيام ، فحديث حسين هذا إمّا غلط وإما منسوخ . وقيل : المراد بالآية الذين يستدلون بخلق السموات والأرض على أن المتغيِّر لابدّ له من مُغيِّر، وذلك المغير يجب أن يكون قادرا على الكمال ، وله أن يبعث الرسل ، فإن بعث رسولا ودل على صدقه بمعجزة واحدة لم يبق لأحد عذر؛ فهؤلاء هم الذين يذكرون الله على كل حال . والله أعلم .

الثامنة — قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قد بينا معنى « ويذكرون » وهو إما ذِكر باللسان وإمّا الصلاة فرضها ونفلها؛ فعطف تعالى عبادة أخرى على إحداهما بعبادة أخرى(١)، وهي التفكر في قدرة الله تعالى ومخلوقاته والعبر الذى بثّ(٢)؛ ليكون ذلك أزيد في بصائرهم :

وفى كلّ شَىْءٍ له آيةٌ * تَدُلُّ على أنّهُ واحدُ

(١) في ا وجـ وب وهـ وى وط : بعبادة أخرى وهى الفكر .
(٢) كذا في هـ وب ود وحـ وى . وفى ا وحـ : نبه؛ وفى ز : ثبت .

وقيل : « يتفكرون » عطف على الحال . وقيل : يكون منقطعا ؛ والأول أشبه . والفكرة : تردّد القلب فى الشيء؛ يقال : تفكّر، ورجل فِكّير كثير الفِكْر، ومرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم على قوم يتفكّرون فى الله فقال : " تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره " وإنما التفكر والاعتبار وانبساط الذهن فى المخلوقات كما قال : « ويتفكرون فِي خلقِ السمواتِ والأرضِ » . وحكى أن سفيان الثورىّ رضى الله عنه صلى خلف المقام ركعتين ، ثم رفع رأسه إلى السماء ، فلما رأى الكواكب غشى عليه ، وكان يبول الدم من طول حزنه وفكرته . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما رجل مستلقٍ على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء فقال أشهد أن لكِ ربا وخالقا اللهم اغفر لى فنظر الله إليه فغفر له " وقال صلى الله عليه وسلم : " لا عبادة كتفكر " . وروى عنه عليه السلام قال : " تفكر ساعةٍ خير من عبادة سنة " . وروى ابن القاسم عن مالك قال: قيل لأم الدرداء : ما كان أكثر شأن أبى الدرداء؟ قالت: كان أكثر شأنه التفكر . قيل له : أفترى التفكر عمل من الأعمال ؟ قال : نعم ، هو اليقين . وقيل لابن المسيّب فى الصلاة بين الظهر والعصر ، قال : ليست هذه عبادة ، إنما العبادة الورع عما حرم الله والتفكر فى أمر الله . وقال الحسن : تفكر ساعة خير من قيام ليلة؛ وقاله ابن عباس وأبو الدرداء. وقال الحسن : الفكرة مرآة المؤمن ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته . ومما يتفكر فيه مخاوف الآخرة من الحشر والنشر والجنة ونعيمها والنار وعذابها . ويروى أن أباسليمان الدارانيّ رضى الله عنه أخذ قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف ، فرآه لما أدخل أصبعه فى أذن القدح أقام لذلك متفكرا حتى طلع الفجر ؛ فقال له : ما هذا يا أبا سليمان ؟ قال : إنى لما طرحت أصبعى فى أذن القدح تفكرت فى قول الله تعالى «إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ»(1) تفكرت فى حالى وكيف أتلقى الغل إن طرح فى عنقى يوم القيامة ، فما زلت فى ذلك حتى أصبحت . قال ابن عطية : « وهذا نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها ، وليس علماء الأمة الذين هم الحجة على هذا المنهاج ، وقراءة علم كتاب الله تعالى ومعانى سنة رسول الله

(1) راجع جـ ١٥ ص ٣٣٢

صلى الله عليه وسلم لمن يفهم ويُرجى نفعه أفضل من هذا» . قال ابن العربي : اختلف الناس أى العملين أفضل : التفكر أم الصلاة ؛ فذهب الصوفية إلى أن التفكر أفضل ؛ فإنه يثمر المعرفة وهو أفضل المقامات الشرعية . وذهب الفقهاء إلى أن الصلاة أفضل ؛ لما ورد فى الحديث من الحث عليها والدعاء إليها والترغيب فيها . وفى الصحيحين عن ابن عباس أنه بات عند خالته مَيْمُونة ، وفيه : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح النوم عن وجهه ثم قرأ الآيات العشر الخواتم من سورة آل عمران ، وقام إلى شَنّ[(١)] معلَّق فتوضأ وضوءا خفيفا ثم صلى ثلاث عشر ركعة ؛ الحديث . فآنظروا رحمكم الله إلى جمعه بين التفكر فى المخلوقات ثم إقباله على صلاته بعده ؛ وهذه السنة هى التى يعتمد عليها . فأما طريقة الصوفية أن يكون الشيخ منهم يوما وليلة وشهرا مفكرا لا يفتر ؛ فطريقة بعيدة عن الصواب غير لائقة بالبشر ، ولا مستمرّة على السنن . قال ابن عطية : وحدّثنى أبى عن بعض علماء المشرق قال : كنت بائتا فى مسجد الأقدام[(٢)] بمصر فصليت العتمة فرأيت رجلا قد اضطجع فى كساء له مسجًّى بكسائه حتى أصبح ، وصلينا نحن تلك الليلة ؛ فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة وصلى مع الناس ، فآستعظمت جراءته فى الصلاة بغير وضوء ؛ فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه ، فلما دنوت منه سمعته ينشد شعرا :

مُسجّى الجسمِ غائبٌ حاضر　*　مُنْتَبِه القلبِ صامِتٌ ذاكِر
منقبض فى الغُيوب منبسط　*　كذاك من كان عارفا ذاكِر
يَبيتُ فى ليلِه أخا فِكَرٍ　*　فهو مَدَى الليلِ نائمٌ ساهر

قال : فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة ، فانصرفتُ عنه .

التاسعة — قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَاطِلًا ﴾ أى يقولون : ما خلقته عبثا وهزلا ، بل خلقته دليلا على قدرتك وحِكمتك . والباطل : الزائل الذاهب ؛ ومنه قول لَبِيد :

* ألا كلّ شَىْء ما خَلَا اللهَ باطِلٌ *

(١) الشن : القربة .　(٢) مسجد الأقدام : مسجد كان بجهة مصر العتيقة قريبا من سقاية ابن طولون . راجع المقريزى جـ ٢ ص ٤٤٥ طبع بولاق .

أى زائل . و « بَاطِلًا » نصب لأنه نعت مصدرٍ محذوف ؛ أى خلقا باطلا . وقيل : ٱنتصب على نزع الخافض ، أى ما خلقتها للباطل . وقيل : على المفعول الثانى ، و يكون خلق بمعنى جعل . ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أسند النحاس عن موسى بنِ طلحة قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى « سبحان الله » فقال : "تنزيه الله عن السوء" وقد تقدّم فى « البقرة »[1] معناه مستوفى . ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أجرنا من عذابها ، وقد تقدّم[2] .

العاشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أى أذللته وأهنته . وقال المفضل : أى أهلكته ؛ وأنشد :

أَخْزَى الإلهُ من الصَّلِيب عبيدَه * واللابِسِين قَلَانِس الرهبانِ

وقيل : فضحته وأبعدته ؛ يقال : أخزاه الله : أبعده ومَقَتَه . والاسم الخِزْىُ . قال ابن السكيت : خَزِىَ يَخْزَى خِزْيا إذا وقع فى بَلِيّة . وقد تمسك بهذه الآية أصحاب الوعيد وقالوا : من أدخل النار ينبغى ألا يكون مؤمنا ؛ لقوله تعالى : « فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ » ؛ فإن الله يقول : « يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ[3] » . وما قالوه مردود ؛ لقيام الأدلة على أن من ارتكب كبيرة لا يزول عنه اسم الإيمان ، كما تقدّم و يأتى . والمراد من قوله : « مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ » من تخلد فى النار ؛ قاله أنس بن مالك . وقال قتادة : تدخل مقلوب تخلد ، ولا نقول كما قال أهل حروراء . وقال سعيد بن المسيب : الآية خاصة فى قوم لا يخرجون من النار ؛ ولهذا قال : ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أى الكفار . وقال أهل المعانى : الخزى يحتمل أن يكون بمعنى الحَيَاء ؛ يقال : خَزِىَ يَخْزَى خِزَايَةً إذا ٱستحيا ، فهو خَزْيان . قال ذو الرمة :

خِزَايَةً أدركته عِنْدَ[4] جَوْلَتِه * من جانب الحَبْلِ مخلوطا بها الغضبُ

فخزْىُ المؤمنين يومئذ استحياؤهم فى دخول النار من سائر أهل الأديان إلى أن يخرجوا منها . والخزى للكافرين هو إهلاكهم فيها من غير موت ؛ والمؤمنون يموتون ، فافترقوا . كذا ثبت فى صحيح السنة من حديث أبى سعيد الخدرىّ ، أخرجه مسلم ، وقد تقدّم و يأتى .

(١) راجع جـ ١ ص ٢٧٦ (٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣٣ (٣) راجع جـ ١٨ ص ١٩٧
(٤) فى الديوان : بعد .

الحادية عشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ أى محمدا صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن مسعود وابن عباس وأكثر المفسرين . وقال قتادة ومحمد بن كعب القرظيّ : هو القرآن ، وليس كلهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم . دليل هذا القول ما أخبر الله تعالى عن مؤمني الجنّ إذ قالوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ »(١) . وأجاب الأوّلون فقالوا : من سمع القرآن فكأنما لقي النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا صحيح معنى . و«أَنْ»(٢) من ﴿أَنْ آمِنُوا﴾ في موضع نصب على حذف حرف الخفض، أى بأن آمنوا . وفي الكلام تقديم وتأخير، أى سمعنا مناديا للإيمان ينادى ؛ عن أبي عبيدة . وقيل : اللام بمعنى إلى، أى إلى الإيمان ؛ كقوله : « ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ »(٣) . وقوله : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا »(٤) وقوله : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا »(٥) أى إلى هذا، ومثله كثير . وقيل : هى لام أجل ، أى لأجل الإيمان .

الثانية عشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ تأكيد ومبالغة في الدعاء . ومعنى اللفظين واحد ؛ فإن الغفر والكفر : الستر . ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ أى أبرارا مع الأنبياء، أى في جملتهم . واحدهم بَرٌّ وبَارٌّ وأصله من الاتساع ؛ فكأن البرّ متسع في طاعة الله ومتّسعة له رحمة الله .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ أى على ألسنة رسلك؛ مثل « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ »(٦) . وقرأ الأعمش والزهريّ « رُسْلِكَ » بالتخفيف ، وهو ما ذكر من استغفار الأنبياء والملائكة للمؤمنين ؛ والملائكة يستغفرون لمن في الأرض . وما ذكر من دعاء نوح للمؤمنين ودعاء إبراهيم واستغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لأمته . ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ أى لا تعذبنا ولا تهلكنا ولا تفضحنا ، ولا تهنا ولا تبعدنا ولا تمقتنا يوم القيامة ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ . إن قيل : ما وجه قولهم « رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ » وقد علموا أنه لا يخلف الميعاد ؛ فالجواب من ثلاثة أوجه .

الأوّل — أن الله سبحانه وعد من آمن بالجنة ، فسألوا أن يكونوا ممن وُعد بذلك دون الخزي والعقاب .

---

(١) راجع جـ ١٩ ص ٦ . (٢) من هو جـ وط . (٣) راجع جـ ١٧ ص ٢٩٠
(٤) راجع جـ ٢٠ ص ١٤٩ (٥) راجع جـ ٧ ص ٢٠٨ (٦) راجع جـ ٩ ص ٢٤٥

الثـانى — أنهم دعوا بهذا الدعاء على جهة العبادة والخضوع؛ والدعاء مُخ العبادة . وهذا كقوله : « قُلْ رَبِّ ٱحْكُمْ بِٱلْحَقِّ »[1] وإن كان هو لا يقضى إلا بالحق .

الثـالث — سألوا أن يُعطوا ما وعِدوا به من النصر على عدوّهم معجَّلا؛ لأنها حكاية عن أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فسألوه ذلك إعزازا للدّين . والله أعلم . وروى أنس ابن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من وعده الله عز وجل على عمل ثوابا فهو مُنْجِزُه له رحمة ومَن وعده على عمل عقابا فهو فيه بالخيار" . والعرب تذمّ بالمخالفة فى الوعد وتمدح بذلك فى الوعيد؛ حتى قال قائلهم[2] :

ولا يرهَبُ ٱبْنُ العمّ ما عِشتُ صَوْلَتِى * ولا أختفى[3] من خَشْيَة المتَهَدِّدِ
وإنّى متى[4] أوعَدتُه أو وعدته * لَمُخْلِفُ إيعادى ومُنْجِزُ مَوْعِدِى

الرابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ ﴾ أى أجابهم . قال الحسن : ما زالوا يقولون ربنا ربنا حتى ٱستجاب لهم . وقال جعفر الصادق : من حَزَبه[5] أمرٌ فقال خمسَ مرات ربنا أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : ٱقرءوا إن شئتم « ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ — إلى قوله : إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ » .

الخامسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ أَنِّى ﴾ أى بأنى . وقرأ عيسى بن عمر « إنى » بكسر الهمزة، أى فقال: إنى . وروى الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه عن أمّ سلمة أنها قالت: يا رسول الله ، الا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ الآية . وأخرجه الترمذى . ودخلت « من » للتأكيد؛ لأنّ قبلها حرف نفى . وقال الكوفيون : هى للتفسير ولا يجوز حذفها ؛ لأنها دخلت لمعنى لا يصلح الكلام إلا به ، وإنما تحذف إذا كانت تأكيدا للجحد . ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ ابتداء وخبر ، أى دِينكم واحد . وقيل : بعضكم من بعض فى الثواب والأحكام والنصرة وشِبه ذلك . وقال الضحاك : رجالكم شكل نسائكم فى الطاعة، ونساؤكم شكل رجالكم فى الطاعة؛ نظيرها قوله

(١) على قراءة نافع راجع جـ ١١ ص ٣٥١ (٢) هو عامر بن الطفيل؛ كما فى اللسان .
(٣) فى هـ و ى : أختبى . (٤) كذا فى جميع الأصول ، والذى فى اللسان : و إنى إن ، وفى التاج : و إنى و إن . (٥) حزبه الأمر : إذا نزل به مهم أو أصابه غم .

عز وجل : « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ »(١) . ويقال : فلان مِنّى ، أى على مذهبي وخلقى .

السادسة عشرة — قوله تعالى : ﴿ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾ ابتداء وخبر ، أى هجروا أوطانهم وساروا إلى المدينة . ﴿ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ فى طاعة الله عز وجل . ﴿ وَقَاتَلُوا ﴾ أى وقاتلوا أعدائى . ﴿ وَقُتِلُوا ﴾ أى فى سبيلى . وقرأ ابن كثير وابن عامر : «وقاتلوا وقُتِّلوا» على التكثير . وقرأ الأعمش « وقتِلوا وقاتلوا » لأن الواو لا تدل على أن الثانى بعد الأول . وقيل : فى الكلام إضمار قد ، أى قتِلوا وقد قاتلوا ؛ ومنه قول الشاعر :

* تَصَابَى وأَمْسَى عَلاهُ الكِبَرْ *

أى وقد علاه الكبر . وقيل : أى وقد قاتل من بَقِىَ منهم ؛ تقول العرب : قتلنا بنى تميم ، وإنما قتل بعضهم . وقال امرؤ القيس :

* فإنْ تَقْتُلُونَا نُقَتِّلْكُمْ *

وقرأ عمر بن عبد العزيز : « وقَتَلُوا وقُتِلُوا » خفيفة بغير ألف . ﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ . أى لأسترنّها عليهم فى الآخرة ، فلا أوبّخهم بها ولا أُعاقبهم عليها . ﴿ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين ؛ لأن معنى « لأدخلنهم جناتٍ تجرِى مِن تحتها الأنهار » لأثيبنّهم ثوابا . الكسائى : انتصب على القطع . الفراء : على التفسير . ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ أى حسن الجزاء ، وهو ما يرجع على العامل من جراء(٢) عمله ؛ من ثاب يثوب .

السابعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ قيل : الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم والمراد الأمّة . وقيل : للجميع . وذلك أن المسلمين قالوا : هؤلاء الكفار لهم تجائر وأموال واضطراب فى البلاد ، وقد هلكنا نحن من الجوع ؛ فنزلت هذه الآية . أى لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم فى أسفارهم . ﴿ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ﴾ أى تقلبهم متاع قليل . وقرأ يعقوب « يَغُرَّنْكَ » ساكنة النون ؛ وأنشد :

لا يَغُرَّنْكَ عِشاءٌ ساكِنٌ * قد يُوَافِى بالمَنِيَّاتِ السَّحَرْ

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٢٠٢ . (٢) فى ز و هـ و د و جـ : جزاء .

ونظير هذه الآية قوله تعالى: «فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ»(١) . والمتاع: ما يعجّل الانتفاع به؛ وسمّاه قليلا لأنه فانٍ ، وكل فانٍ وإن كان كثيرا فهو قليل . وفى صحيح الترمذى عن المستورد الفهرى قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بماذا يرجع" . قيل : "يرجع" بالياء والتاء. ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أى بئس ما مهّدوا لأنفسهم بكفرهم ، وما مهد الله لهم من النار .

الثامنة عشرة — فى هذه الآية وأمثالها كقوله : «إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ»(٢) الآية . «وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ»(٣) . «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ»(٤) . «سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ»(٣) دليل على أن الكفار غير منعَم عليهم فى الدنيا؛ لأن حقيقة النعمة الخلوصُ من شوائب الضرر العاجلة والآجلة ، ونعم الكفار مشوبة بالآلام والعقوبات ، فصار كمن قدّم بين يدى غيره حلاوة من عسل فيها السمّ ، فهو وإن استلذّ آكله لا يقال: أُنعِم عليه؛ لأن فيه هلاك روحه . ذهب إلى هذا جماعة من العلماء ، وهو قول الشيخ أبى الحسن الأشعرى . وذهب جماعة منهم سيف السنة ولسان الأمة القاضى أبو بكر : إلى أن الله أنعم عليهم فى الدنيا . قالوا : وأصل النِّعمة من النعمة بفتح النون ، وهى لين العيش ؛ ومنه قوله تعالى : «وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ»(٥) . يقال : دقيق ناعم ، إذا بولغ فى طحنه وأُجيد سحقه . وهذا هو الصحيح ، والدليل عليه أن الله تعالى أوجب على الكفار أن يشكروه وعلى جميع المكلفين فقال : «فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ»(٣) . «وَاشْكُرُوا لِلَّهِ»(٦) والشكر لا يكون إلا على نعمة . وقال : «وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ»(٧) وهذا خطاب لقارون . وقال : «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً»(٨) الآية . فنبّه سبحانه أنه قد أنعم عليهم نعمة دُنياوية فجحدوها . وقال : «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا»(٨) وقال : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»(٩) . وهذا عامّ

(١) راجع جـ ١٥ ص ٢٨٩ .
(٢) راجع ص ٢٨٦ من هذا الجزء .
(٣) راجع جـ ٧ ص ٣٢٩ وص ٢٣٧ .
(٤) راجع جـ ١٢ ص ١٣٠ .
(٥) راجع جـ ١٦ ص ١٣٨ .
(٦) راجع جـ ٢ ص ٢١٥ .
(٧) راجع جـ ١٣ ص ٣١٤ .
(٨) راجع جـ ١٠ ص ١٩٣ . وص ١٦١ .
(٩) راجع جـ ١٤ ص ٣٢١ .

فى الكفار وغيرهم . فأما إذا قدّم لغيره طعاما فيه سمّ فقد رفق به فى الحال؛ إذْ لم يجرعه السمّ بحتا، بل دَسّه فى الحلاوة، فلا يستبعد أن يقال: قد أنعم عليه، وإذا ثبت هذا فالنِّعَم ضربان: نِعَمُ نفعٍ ونِعَمُ دفعٍ؛ فنِعم النفع ما وصل إليهم من فنون اللذات، ونِعم الدفع ماصرف عنهم من أنواع الآفات . فعلى هذا قد أنعم على الكفار نِعم الدفع قولا واحدا؛ وهو ما زُوِيَ عنهم من الآلام والأسقام، ولا خلاف بينهم فى أنه لم يُنعم عليهم نِعمة دِينيه . والحمد لله .

التاسعة عشرة — قوله تعالى : ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ إستدراك بعد كلام تقدّم فيه معنى النفى ؛ لأن معنى ما تقدّم ليس لهم فى تقلّبهم فى البلاد كبير[(1)] الانتفاع، لكن المتقون لهم الانتفاع الكبير[(1)] والخُلْد الدائم . فموضع «لكن» رفع بالابتداء . وقرأ يزيد بن القعقاع «لكنّ» بتشديد النون .

الموفية عشرين — قوله تعالى : ﴿ نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ نُزُلًا مثل ثوابا عند البصريين ، وعند الكسائى يكون مصدرا . الفراء : هو مفسر . وقرأ الحسن والنخعى «نُزْلًا» بتخفيف الزاى استثقالا لضمتين، وثقّله الباقون . والنُّزُلُ : مايُهيأ للنّزيل، والنزيل الضيف . قال الشاعر :

نَزِيلُ القَوْمِ أعظمُهم حقوقا　*　وحَقُّ اللهِ فى حقِّ النزيلِ

والجمع الأنزال . وحظ نَزِيل : مجتمِعٌ . والنزل[(2)] : أيضا الرَّيْع؛ يقال؛ طعام كثير النزْل والنزَل .

الحادية والعشرون — قلت : ولعل النزل — والله أعلم — ما جاء فى صحيح مسلم من[(3)] حديث ثَوْبَان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قصة الحَبْر الذى سأل النبيّ صلى الله عليه وسلم : أين يكون الناس يوم تبدّل الأرضُ غير الأرض والسمواتُ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هم فى الظلمة دون الجسر " قال : فمن أوّل الناس إجازة ؟ قال : " فقراء المهاجرين " قال اليهودى : فما تُحفَتُهم حين يدخلون الجنة ؟ قال " زيادة كبِد النون " قال : فما غذاؤهم على إثرها ؟ فقال : " ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها " قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : " من عينٍ فيها تسمى سلسبيلا " وذكر الحديث . قال أهل

(١) فى جـ و ا : كثير .　(٢) النزل . بضم فسكون و بالتحريك .
(٣) من جـ و هـ و ى و د . وفى ب و ا : من حديث .

اللغة : والتحفة مايتحف به الإنسان من الفواكه . والطُّرَف محاسنه وملاطفه، وهذا مطابق لما ذكرناه فى النزل ، والله أعلم . وزيادة الكَبِد : قطعة منه كالأصبع . قال الهروى : « نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللهِ » أى ثوابا . وقيل رزقا . ﴿ وَمَا عِنْدَ ٱللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ ﴾ أى مما يتقلب به الكفار فى الدنيا . والله أعلم .

الثانية والعشرون — قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ الآية . قال جابر بن عبد الله وأنس وابن عباس وقتادة والحسن : نزلت فى النجاشى، وذلك أنه لما مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه : "قوموا فصلوا على أخيكم النجاشى" ؛ فقال بعضهم لبعض : يأمرنا أن نصلى على عِلْج من عُلُوج الحبشة ؛ فأنزل الله تعالى « وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ » . قال الضحاك : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ ﴾ القرآن . ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ التوراة والإنجيل . وفى التنزيل : « أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ »[(١)] . وفى صحيح مسلم : "ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين — فذكر — رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم أدرك النبى صلى الله عليه وسلم فآمن به واتبعه وصدقه فله أجران" وذكر الحديث . وقد تقدم فى « البقرة »[(٢)] الصلاة عليه وما للعلماء فى الصلاة على الميت الغائب ، فلا معنى للإعادة . وقال مجاهد وابن جُرَيج وابن زيد: نزلت فى مؤمنى أهل الكتاب، وهذا عام والنجاشى واحد منهم . واسمه أَصْحَمَة، وهو بالعربية عطية . و ﴿خَاشِعِينَ﴾ أذلّة، ونصب على الحال من المضمر الذى فى «يؤمن» . وقيل : من الضمير فى « إِلَيْهِمْ » أو فى « إليكم » . وما فى الآية بيِّنٌ، وقد تقدّم .

الثالثة والعشرون — قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ﴾ الآية . ختم تعالى السورة بما تضمنته هذه الآية العاشرة من الوصاة التى جمعت الظهور فى الدنيا على الأعداء والفوز بنعيم الآخرة ؛ فحضّ على الصبر على الطاعات وعن الشهوات ، والصبر الحبس، وقد تقدم فى « البقرة »[(٣)] بيانه . وأمر بالمصابرة فقيل : معناه مصابرة الأعداء ؛ قاله زيد بن أسلم .

(١) راجع جـ ١٣ ص ٢٩٧ (٢) راجع جـ ٢ ص ٨١ (٣) راجع جـ ٢ ص ١٧٤

وقال الحسن : على الصلوات الخمس . وقيل : إدامة مخالفة النفس عن شهواتها فهى تدعو وهو ينزع . وقال عطاء والقرظى : صابروا الوعد الذى وعدتم . أى لا تيأسوا وانتظروا الفرج ؛ قال صلى الله عليه وسلم : "انتظار الفرج بالصبر عبادة" . واختار هذا القول أبو عمر رحمه الله . والأول قول الجمهور ؛ ومنه قول عنترة :

فلم أر حيًّا صابروا مثل صبرنا * ولا كافحوا مثلَ الذين نُكافِحُ

فقوله « صابروا مثل صبرنا » أى صابروا العدوّ فى الحرب ولم يبدُ منهم جُبْن ولا خَوَر . والمكافحة : المواجهة والمقابلة فى الحرب ؛ ولذلك اختلفوا فى معنى قوله ﴿ وَرَابِطُوا ﴾ فقال جمهور الأمة : رابطوا أعداءكم بالخيل ، أى ارتبطوها كما يرتبطها أعداؤكم ؛ ومنه قوله تعالى : « وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ »[1] . وفى الموطأ عن مالك عن زيد بن أسلم قال : كتب أبو عبيدة ابن الجراح إلى عمر بن الخطاب يذكر له جموعا من الروم وما يتخوّف منهم ؛ فكتب إليه عمر : أما بعد ، فإنه مهما ينزل بعبد مؤمن من مُنْزَلِ شدّة يجعل الله له بعدها فرجا ، وإنه لن يغلب عسر يُسرين ، وإن الله تعالى يقول فى كتابه « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : هذه الآية فى انتظار الصلاة بعد الصلاة ، ولم يكن فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم غَزْوٌ يرابط فيه ؛ رواه الحاكم أبو عبد الله فى صحيحه . واحتج أبو سلمة بقوله عليه السلام : " ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط " ثلاثا ؛ رواه مالك . قال ابن عطية : والقول الصحيح هو أن الرباط [هو][2] الملازمة فى سبيل الله . أصلها من ربط الخيل ، ثم سُمِّى كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام[3] مرابطا ، فارسا كان أو راجلا . واللفظ مأخوذ من الربط . وقول النبى صلى الله عليه وسلم "فذلكم الرباط" إنما هو تشبيه بالرباط فى سبيل الله . والرباط اللغوى هو الأول ؛ وهذا[4] كقوله : " ليس الشديد بالصُّرَعة[5] " وقوله " ليس المسكين بهذا الطواف " إلى غير ذلك .

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٦ (٢) من ب وجـ وهـ وط . (٣) فى ب : المسلمين .
(٤) فى ب : هكذا . (٥) الصرعة بضم ففتح المبالغ فى الصراع الذى لا يغلب .

قلت : قـوله « والرباط اللغوى هو الأول » ليس بمسلّم ، فإن الخليل بن أحمـد أحد أئمة اللغـة وثقاتها قد قال : الرِّبَاط ملازمة الثغور ، ومواظبة الصـلاة أيضا ، فقد حصل أن آنتظار الصلاة رِباط لغوىّ حقيقة ؛ كما قال صلى الله عليه وسلم . وأكثر من هذا ما قاله الشـيبانى أنه يقال : ماءٌ مترابِطٌ أى دائم لا يَنْزَحُ[(١)] ، حكاه آبن فارس ، وهو يقتضى تعـدية الرباط لغة إلى غير ما ذكرناه . فإن المرابطة عند العرب : العقد على الشيء حتى لا ينحل، فيعود إلى ما كان صبَرَ عنه، فيحبس القلب على النية الحسنة والجسم على فعل الطاعة . ومن أعظمها وأهمها آرتباط الخيل فى سبيل الله كما نص عليه فى التنزيل فى قوله : « وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » على ما يأتى . وآرتباط النفس على الصلوات كما قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم؛ رواه أبو هريرة وجابر وعلىّ، ولا عِطْرَ بعد عَرُوسٍ .

الرابعة والعشرون — المرابط فى سبيل الله عند الفقهاء هو الذى يَشْخَص إلى ثَغْر من الثُّغور ليرابط فيه مدّةً ما؛ قاله محمد بن المَوّاز [ورواه][(٢)]. وأما سُكّان الثغور دائما بأهليهم الذين يعمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حُماة فليسوا بمرابطين. قاله آبن عطية. وقال آبن خُوَيْزِمَنْدَاد: وللرِّباط حالتـان : حالة يكون الثَّغر مأمونا مَنيعا يجوز سكناه بالأهل والولد . وإن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال ، ولا ينقل إليه الأهلَ والولدَ لئـلا يظهر العدوّ فيَسبِي ويسترِقّ . والله أعلم .

الخامسة والعشرون — جاء فى فضل الرِّباط أحاديث كثيرة ، منها ما رواه البخارىّ عن سهل بن سَعد السّاعِدىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ”رِباطُ يومٍ فى سبيل الله خيرٌ عند الله من الدنيا وما فيها “ . وفى صحيح مُسلم عن سَلمان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ” رِباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيام شهر وقيامه وإن مات جرَى عليه عملُه الذى كان يعمله وأُجْرِى عليه رزقه وأمِن الفُتّان[(٣)]“. وروى أبو داود فى سُننه عن فَضَالة

---

(١) فى الأصول : لا يبرح . والتصويب من اللسان . (٢) كذا فى ز و ب و جـ و د و هـ و ى و ط وابن عطية وفى أ و حـ ورداود . (٣) الفُتّان : الشيطان . ويروى بفتح الفاء وضمها . فمن رواه بالفتح فهو واحد ، لأنه يفتن الناس عن الدين . ومن رواه بالضم فهو جمع فاتن ؛ أى يعاون أحدهما الآخر على الذين يضلون الناس عن الحق ويفتنونهم .

ابن عبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "كلّ ميّت يُختم على عمله إلا المرابط فإنه يَنْمو له عمله إلى يوم القيامة ويؤمن من فتّان القبر" . وفى هذين الحديثين دليل على أن الرباط أفضل الأعمال التى يبقى ثوابها بعد الموت؛ كما جاء فى حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إذا مات الإنسان (١) انقطع عنه عملُه إلا من ثلاثة إلا من صدقةٍ جاريةٍ أو علمٍ يُنتفع به أو ولدٍ صالح يدعو له" وهو حديث صحيح انفرد بإخراجه مسلم؛ فإن الصدقة الجارية والعلم المنتفع به والولد الصالح الذى يدعو لأبويه ينقطع ذلك بنفاد الصدقات وذهابِ العلم وموتِ الولد . والرباط يُضاعف أجرُه إلى يوم القيامة؛ لأنه لامعنى للنّماء إلا المضاعفة، وهى غير موقوفة على سبب فتنقطع بانقطاعه، بل هى فضلٌ دائم من الله تعالى إلى يوم القيامة . وهذا لأن أعمال البِرّ كلّها لا يُتمكن منها إلا بالسلامة من العدوّ والتحرُّز منه بحراسة بَيْضَة الدِّين وإقامة شعائر الإسلام . وهذا العمل الذى يجرى عليه ثوابه هو ما كان يعمله من الأعمال الصالحة ؛ خرّجه ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من مات مرابطا فى سبيل الله أَجْرى عليه أجرَ عملِه الصالح الذى كان يعمل وأَجْرَى عليه رزقه وأَمِنَ من الفُتّان وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع" . وفى هذا الحديث قيدٌ ثان وهو الموت حالة الرّباط . والله أعلم .

ورُوى عن عثمان بن عفّان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "من رابط ليلةً فى سبيل الله كانت له كألف ليلة صيامِها وقيامها" . ورُوى عن أُبَىّ بن كعب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لَرباط يوم فى سبيل الله من وراء عَورة المسلمين مُحتسبًا من غير شهر رمضان أعظمُ أجرا من عبادة مائة سنة صيامها وقيامها ورباطُ يومٍ فى سبيل الله من وراء عورة المسلمين مُحتسباً من شهر رمضان أفضلُ عند الله وأعظم أجرا —

(١) هذه رواية مسلم كما فى كتاب الوصية . وكذا فى ز و ط و ى و ج و هـ . وفى رواية : "ابن آدم" والحديث رواه الترمذى وأبو داود والنسائى بلفظ : "إلا من ثلاث صدقة" الحديث، والبخارى فى الأدب المفرد .

أراه قال : — من عبادة ألف سنة صيامها وقيامها فإن ردّه الله إلى أهـله سالمـا لم تكتب عليه سيئة ألف ســنة وتكتب له الحسنات ويُجْـرَى له أجرُ الرباط إلى يوم القيـامة (١) " .
ودلّ هذا الحديث على أن رِباط يوم فى شهر رمضان يحصل له من الثواب الدائم وإن لم يمت مرابطا . والله أعلم . وعن أنس بن مالك قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " حَرْس ليلة فى سبيل الله أفضلُ من صيام رجل وقيامه فى أهله ألف سنة السَّنة ثلاثمـائة يوم [وستون (٢) يوما] واليوم كألف سنة " .

قلت : وجاء فى آنتظار الصلاة بعد الصلاة أنه رِباط ؛ فقـد يحصل لمُنْتظِر الصلوات ذلك الفضل إن شاء الله تعـالى . وقد روى أبو نعيم الحافظ قال حدّثنا سليمان بن أحمد قال حدّثنـا على بن عبد العزيز قال حدّثنـا حَجّاج بن المِنْهال ح (٣) وحدّثنـا أبو بكر بن مالك قال : حدّثنـا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال حدّثنى أبى قال حدّثنى الحسن بن موسى قال حدّثنـا حماد بن سلمة عن ثابت البُنَانِىّ عن أبى أيوب الأزدى عن نَوْف البِكَالِىّ عن عبد الله بن عمرو أن النبىّ صـلى الله عليه وسـلم صلى ذات ليـلة المغرب فصـلينا معه فعقب من عقب ورجع من رجع ، فجاء رسـول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يثوب (٤) الناس لصلاة العشاء ، فجـاء وقد حضره الناس رافعا أصبعه وقد عقد تِسعا وعشرين يُشير بالسبّابة إلى السماء فحَسَر ثوبه عن ركبتيه وهو يقـول : " أبشروا مَعشرَ المسلمين هذا ربّـكم قد فتح بابا من أبواب السماء يُباهِى بكم الملائكةَ يقول يا ملائكتى آنظروا إلى عبـادى هؤلاء قضَوْا فريضـةً وهم ينتظرون أخرى " . ورواه حَمّاد بن سلمة عن علىّ بن زيد عن مُطَرِّف بن عبد الله : أن نَوْفا

(١) رواية ابن ماجه . (٢) فى جـ .

(٣) جرت عادة المحدّثين أنه إذا كان للحديث إسـنادان أو أكثر ، كتبوا عنـد الانتقال من إسناد إلى إسناد « ح » وهى حاء مهملة مفردة . والمختار أنهـا مأخوذة من التحوّل لتحوّله من إسناد إلى إسناد ، وأنه يقول القارئ إذا انتهى إليها : « ح » ويستمر فى قراءة مابعدها . وقيل : إنهـا من حال بين الشيئين إذا حجز ؛ لكونها حالت بين الإسنادين ، وأنه لا يلفظ عند الانتهاء إليها بشىء ، وليست من الرواية . وقيـل : إنها رمز إلى قـوله : الحديث . وأن أهل المغرب كلهم يقولون إذا وصلوا إليها : الحديث . ثم هذه الحاء توجد فى كتب المتأخرين كثيرا وهى كثيرة فى صحيح مسلم قليلة فى صحيح البخارى . (راجع مقدّمة النووىّ على صحيح مسلم) . (٤) فى جـ : يتوجه .

وعبد الله بن عمرو اجتمعا فحلت توفى عن التوراة وحلت عبد الله بن عمرو بهذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم . ﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ﴾ أى لم تؤمروا بالجهاد من غير تقوى . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لتكونوا على رجاء من الفلاح . وقيل : لعل بمعنى لكى . والفلاح البقاء، وقد مضى هذا كله فى « البقرة » مستوفى[1]، والحمد لله .

تجز تفسير سورة آل عمران من (جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى الفرقان) بحمد الله وعونه .

مصححه

أبو إسحاق إبراهيم اطفيش

(١) راجع جـ ١ ص ١٦١، ١٨٢، ٢٢٧



تم الجزء الرابع من تفسير القرطبي

يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس، وأوله : « سورة النساء »

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم إيداع دار الكتب ٥١٥٢ / ١٩٨٧

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ١٤٨٣ - ٩